

استراتيجية الفتوحات الإسلامية

(١)

الطريق إلى المدائن

أحمد عادل كمال

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٢٨٢٢

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

٨٣٣٨٢٤٤ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٠ : ☎

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

الكتاب : الطريق إلى الهدائن
استراتيجية الفتوحات الإسلامية

الكاتب : أحمد عادل كمال

طبعة القاهرة ٢٠٠٤

عدة طبعات سابقة ببيروت

الغلاف : صالح وحيد

الجمع والصف الإلكتروني والإخراج :
وحدة الكمبيوتر بمركز الحضارة العربية
ش.ش. العلمين- عمارات الأوقاف ميدان الكيت- كات- القاهرة
تليفاكس : 3448368 (00202)

alhdara_alarabia@yahoo.com
alhdara_alarabia@hotmail.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لا يجوز طبع كل أو أي جزء من
هذا الكتاب أو تخزينه بواسطة أي نظام لإخزن المعلومات أو نقله على
أية هيئة سواء مطبوعة أو إلكترونية أو شرائط مغنطة أو غير
ذلك أو أية طريقة معلومة أو مجهولة إلا بإذن كتابي من المؤلف

تقديم هذه الطبعة

جاءت رسالة الإسلام برداً وسلاماً تدعو الناس إلى الإيمان بالله الواحد الخالق، ولكنها
قوبلت بالكفر والجحود والبطش والتعذيب لوأدها وكتم أنفاسها. فلما أخلص لها المؤمنون
بها وصبروا وأسلموا وجوههم لله نصرهم الله، فأقاموا أول دولة تجمع جزيرة العرب بعد أن
كانت بدواً أشتاتاً وقبائل شتى.

ولما كان دين الإسلام رسالة إلى جميع البشر وهو خاتم الرسالات فكان على المؤمنين به أن
يبلغوه إلى الناس كافة، ولكن طواغيت فارس والروم أبى أن يحدث ذلك.

لم يكن من أهداف المسلمين أبداً إكراه أحد على الدخول في دينهم، إنما كان هدفهم
الأوحد هو أداء الأمانة بتبليغ الرسالة، ومن أجل ذلك فرض الجهاد في سبيل الله، وكانت له
في الشريعة الإسلامية فقه وأحكام، وخرجت من بيداء العرب جيوش تحمل تلك الرسالة،
دعوة المخلوقين إلى عبادة الذي خلقهم، مجرد دعوة دون إكراه، فمن شاء فليؤمن ومن شاء
فليكفر ثم مرجعهم جميعاً إلى الله.

وقوبلت تلك الجيوش بجيوش أكثر عدداً وأكبر عدة، حتى ذهب بعض الكتاب إلى أن انتصار
المسلمين كان معجزة من معجزات الله، ولكن إرادة الله وسنته في خلقه قضت أن تكون لهذا
الكون قوانين وقواعد تحكمه، وأن كل نتائج لها مقدمات تؤدي إليها خلافاً لمنطق المعجزات.

كانت الفتوح حروباً لم تكن لقادتها سوابق في تجهيز الجيوش وتخطيط معاركها، ولا
درسوا علوم الحرب في مدارس وكليات حربية، وإنما كانوا من الأساتذة الذين كان ما قاموا به
أسساً لهذا العلم يتعلمه اللاحقون عنهم، وصار معرفته وتسجيله دعماً للتاريخ الحربي
ولعلم الحرب الذي ينهل منه من يبغى التفوق فيه، كما وأنه إيضاح لازم لجانب من جوانب
التاريخ الإسلامي لم يسبق استيفاءه.

ومن قصور النظر ومحدودية الفهم أن يظن أحد أن علم التاريخ هو مجرد النظر إلى الماضي،
إنما التاريخ هو دراسة الماضي وفهم عبره للاستفادة به في حاضر الحياة وفي مستقبلها.

ولقد تولت دار النفائس ببيروت - مشكورة - نشر ذلك منذ ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م ولطبعات
عديدة، ومن الكتب ما يبقى سنوات وسنوات وعقوداً بل وقروناً. من أجل ذلك نقوم بإصدار

الجزء الأول

الباب الأول : المقدمة ومنهج البحث

الباب الثاني : العرب وشبه جزيرة العرب

الباب الثالث : عدة الحرب

الباب الرابع : الدولة الساسانية

الباب الخامس : المقياس

هذه الطبعة من مصر لتظل تحت يد القراء، فإن الفتوح الإسلامية كما تقول هذه الكتب كانت حدثاً فرداً في تاريخ كوكبنا لم تكن له سابقة أو لاحقة في رسوخ قدمه واتساع رقعته وثبات آثاره أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، وهي دراسة استراتيجية وتكتيكية لمعارك الفتوح وتوقعيها على خرائط تعود إلى واقعها في عصر حدوثها. وقد حدث في هذه الطبعة التي تصدر من مصر تعديل في بعض الخرائط لزيادة الإيضاح، وحتى تكون تحت يد القارئ في مصر والعالم العربي عامة.

و«الطريق إلى المدائن» هو الكتاب الأول من هذه المجموعة، وهو عن بدء الفتوح في اتجاه العراق في أعقاب حروب الردة، يشمل في قسمه الأول المقدمات اللازمة عن طبيعة المنطقة وسكانها ودولها وأحوالها وأدوات الحرب وأساليبها، ثم ينتقل إلى تناول تلك المعارك لا مجرد نقل أو تجميع من المصادر القديمة وإنما شرحاً وتحقيقاً وتعليقاً يأخذ القارئ إلى معاشتها والسير مع جيوشها والتعرف على أعلامها يحسن بأحاسيسهم ويكابد معهم العناء ويفرح معهم بالنصر.

ومن بعد «الطريق إلى المدائن» يجيء كتاب «القادسية» عن تلك المعركة الحاسمة الواحدة التي انكسر فيها الجيش الكبير لفارس فانفتحت بعدها أرض العراق.

ثم كتاب «سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية»، يتناول عبور المسلمين نهر دجلة ودخول المدائن كما يشرح معركة نهاوند التي توصف بأنها فتح الفتوح التي انفتحت بعدها فارس، وما كان خلال ذلك من معارك بينية، ومصير يزيدجرد الثالث آخر ملوك بني ساسان.

ويجىء الكتاب الرابع «الطريق إلى دمشق» عن فتح الشام، الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان بكافة معاركه وعلى رأسها معركة اليرموك ذرة معارك الفتوح الإسلامية.

ومن بعد فتح الشام يجىء الكتاب الخامس عن «الفتح الإسلامي لمصر»، وهو لم يصدر من قبل.

نسأل الله أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه مفيداً لقارئه ولأمتنا.

والله المستعان،

أحمد عادل كمال

القاهرة ٢٠٠٤

الباب الأول
المقدمة ومنهج البحث

مقدمة

الحروب في التاريخ

تتعاقب على العالم في كل دولة وعصوره أحداث شتى.. أحداث سياسية وأحداث حربية وأحداث اقتصادية، وتطورات فكرية وتغيرات اجتماعية. كل ذلك يصنع التاريخ ويشكل مادته. ولقد قسم علم التاريخ تبعاً لذلك إلى تاريخ سياسى وتاريخ حربي - أو عسكري - وتاريخ اقتصادى وتاريخ فكرى وتاريخ اجتماعى.... الخ.

وتاريخ الحروب (التاريخ العسكري) فرع من فروع علم التاريخ، تناوله العلماء بالبحث والدراسة قديماً وحديثاً. فنجد في المكتبة شروحاً للمعارك الشهيرة التي رسمت خريطة العالم في مختلف العصور، معارك تهمس الثالث، ورمسيس الثاني، وهانيبال ويوليوس قيصر، ومعارك الروم والفرس، وحروب جانكيز خان والتتار، وحروب الإسبان والسكسون، والحروب الاستعمارية، وحروب نابليون، والحرب الأهلية الأمريكية، وحروب محمد علي الكبير وابنه إبراهيم، وحرب السبعين وجميع معارك الحرب العالمية الأولى.. والثانية، واستراتيجية هتلر، والعمليات العسكرية لاغتصاب فلسطين، وحرب كوريا، والغزو الثلاثي لأرض مصر عام ١٩٥٦ و٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧.. إلخ. كل ذلك وغيره فاضت به مؤلفات التاريخ الحربى الغربية. وما ترجم منها أو نقل عنها أو ألف ابتداء بالعربية، جعل هذه المواضيع في متناول يد قارئ العربية، ومن وجهات نظر مختلفة.

أما التحرك الإسلامى، فمظلوم عند الكتاب، مهضوم عند الباحثين! دولتان كبيرتان تقتسمان العالم المعروف في القرن السابع الميلادى بالقوة الحربية، لكل منهما خبرة قرون في الحروب، وبدون مقدمات.. فجأة.. تقوم من العدم دولة - لم تكن من قبل دولة ولا شبه دولة - فتمحو من خريطة الوجود دولة الفرس من المشرق، وتزيح حدود دولة الروم إلى الغرب عشرات الآلاف من الأميال، بأعداد قليلة من الجند وفي سنوات تعد على أصابع اليدين!! حدث لا نظير له في تاريخ العالم، ثم لا نجد في المكتبة ما يشرح لنا من وجهة نظر علم الحرب

- والحرب علم - كيف حدث هذا. كيف أزال جيوش المسلمين من سجل الدول العظمى التي تقسم العالم دولتي الفرس والروم في أقل بكثير مما تزول به الأفراد فضلاً عن الدول، لا سيما الكبرى منها.

ودراسة تاريخ الحروب ضرورة لا بد منها لقادة الجيوش وضباطها ولساسة الدول، ولكل من يريد أن يتابع أحداث الدنيا القديمة والمعاصرة عن بصيرة، فإن التاريخ الحربي دائماً وأبداً يعيد نفسه.. ربما على نفس الأرض، أو على أرض غيرها.. طبق الأصل، أو بتعديل طفيف أو كبير. ولا يخلو الأمر دائماً من عبرة وعظة ودرس يكتسبه الدارس لكل معركة، فضلاً عن المعارك القياسية التي تعتبر نموذجاً يحتذى وينسج على منواله، ولقد كان نابليون بونابرت ينصح ضباطه بأن يقرؤوا سير الحملات التي قام بها كبار القادة وأن يعيدوا قراءتها مراراً وتكراراً لأن فيها الأمثلة العملية على تطبيق مبادئ الحرب. ومما أثر عنه قوله: «اقرأ ثم اقرأ حملات كبار القادة».

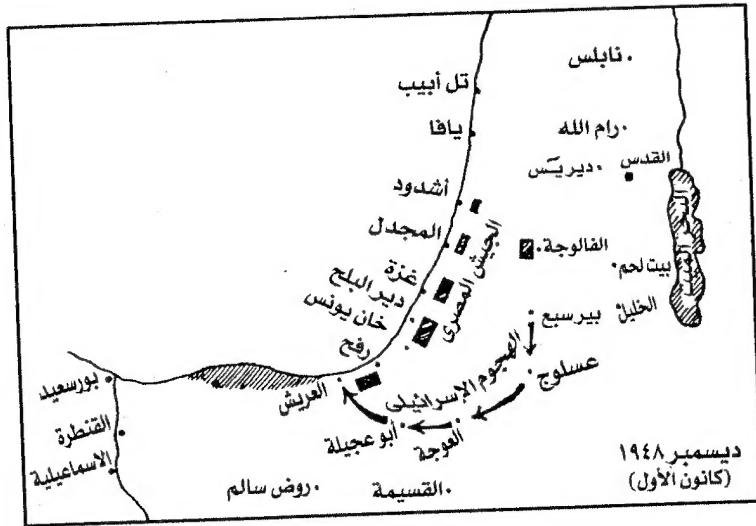
وليس المقصود بدراسة التاريخ الحربي قصره على الاستراتيجية والتكتيك، بل إن هذه الدراسة تتعدى ذلك إلى العوامل السياسية والإدارية والنفسية والعقيدية وأثر البيئة ونظام القيادة، وأثر ذلك كله على سير الحملات ونتائجها. يقول الجنرال ويفل «إذا علمت أن نابليون قد أحرز النصر في حملته سنة ١٧٩٦ بطريقة المناورة على الخطوط الداخلية، أو بعبارة أخرى ماثلة، فليس لهذه المعرفة قيمة تذكر، أما إذا أمكنك أن تدرك كيف استطاع شاب صغير مغمور أن يث روح الحماس في جيش نصف جائع، رث الثياب، متمرد، حتى جعله يقاتل، وكيف بعث فيه النشاط والقوة الدافعة حتى سار وحارب مثلما فعل، وكيف استطاع أن يمد سلطانه وسيطرته على قواد أكبر منه سناً وأوفر تجارباً.. إذن تكون قد تعلمت^(١) شيئاً». ويقول المارشال فوش: «ليس من الممكن القيام بالدراسة في ميادين القتال، فإن المرء في الميدان يبذل ما يستطيع لكي يطبق ما يعرف. فابتغاء القيام ولو بقسط يسير من العمل يتطلب أن يعرف المرء الشيء الكثير وأن تكون معرفته به^(٢) وثيقة». ونقدم هذه الأمثلة لقادة سجلوا استفادتهم من دراستهم لتاريخ الحروب وما أكثرهم.

كتب الجنرال يادين، رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلي في فلسطين عام ١٩٤٨، في مجلة الجيش الإسرائيلي، فتحدث عن تقدم الجيش المصري بحذاء الساحل على محور العريش

(١) معارك الشرق الأوسط - المقدمة.

(٢) معارك الشرق الأوسط - المقدمة.

تل أبيب، ثم قال إنه كان يعلم من دراسته لتاريخ الحروب السابقة على هذه الأرض أن فلسطين دار لها بوابة ذات مصراعين: أحدهما غزة والثاني بير سيع، وأنه من الخطورة بمكان لأي جيش يتقدم من الجنوب إلى الشمال أو بالعكس أن يجتاز هذه البوابة ما لم يكن في يديه كلا المصراعين. فلما وجد أن الجيش المصري اجتاز غزة بهدف الوصول إلى تل أبيب دون أن يعنى بالاحتفاظ في يده ببير سيع، وجد أن فرصته قد سحقت. فجمع القوات الإسرائيلية المتوفرة تحت يده في بير سيع، ليقطع على الجيش المصري المتقدم خط رجعت.



خريطة رقم (١) - حرب ١٩٤٨

ثم يقول إنه قرأ في دراسة للحروب الصليبية، أن صلاح الدين الأيوبي عبر من العريش إلى بير سيع على طريق لم يكن جزء كبير منه معروفاً عام ١٩٤٨، فذهبوا يبحثون عنه حتى وجدوه مطموراً في الرمال. ولما كان من غير المستطاع في ظروف الحرب إزاحة الرمال عن الطريق في وقت مناسب، فضلاً عن أن ذلك العمل سوف يلفت نظر المصريين، الأمر الذي يفسد عنصر المفاجأة، لذلك لجأ إلى الطريقة التقليدية الأكثر سرعة في الحروب، بمد الشباك فوق تلك الرمال التي تكسو الطريق. وعبر عليه بعرباته من بير سيع إلى عسلوج إلى العوجة إلى أبو عجيلة، فطلعت على مؤخرة الجيش المصري بالعريش في حركة تطويق سريعة، وبها مركز الإشارة لجميع القوات المصرية المتقدمة.

فكانت مفاجأة مكنت الإسرائيليين من تدمير سلاح الإشارة، وبذلك فقدت قوات الجيش المصرى المتقدمة الاتصال بين وحداتها ومع قيادتها على مدى ذلك الامتداد الذى انتشرت عليه. وصار من الميسور على الإسرائيليين أن يوجهوا ضرباتهم إلى كل وحدة على حدة وهى منقطعة الصلة عما سواها. وحينما أرادت بعض الوحدات التراجع على عجل أدى التراجع غير المنتظم إلى انعزال قوة الفالوجا التى حوصرت... إلخ.

مثال ثان: حين تولى الجنرال اللبى قيادة الجيوش الإنجليزية بمصر فى الحرب العالمية الأولى وكلف بفتح فلسطين، توقف شهوراً فى العريش يعد العدة لذلك الغزو، ويقرأ تاريخ المعارك السابقة التى دارت على أرض فلسطين، ثم بدأ بعدها زحفه الذى استغرق بضعة أشهر. ولقد درس اللبى معركة تحتمس الثالث دراسة وثيقة، ونسج على منواله فى إحراز النصر على الأتراك فى اختراق ممر عرونا، الذى سلكه من قبل تحتمس، وكان يقول منذ البداية «إن المعركة الحاسمة فى هذه الحملة ستدور رحاها فى ممر^(١) مجدو». ومع ذلك فاته أمر: لقد بدأ ذلك الزحف من صحراء سيناء الحارة فى الصيف، فبلغ القدس على الجبال المرتفعة فى الشمال شتاء، وكان جنوده مازالوا فى ملابسهم الصيفية والسراويل القصيرة، فأصيب جيشه بالانفلونزا. فسأل اللبى الدكتور سير هبرت إيسن Sir Hobart Easen عما يعلمه عن الأمراض التى أصابت الجنود فى تاريخ الحروب فى مصر وفلسطين، فأخبره بأنه ترجم مذكرات لارى Larry، كبير أطباء الحملة الفرنسية على مصر، التى تناولت أمراض الرمد، الذى أدى إلى إصابة كثير من جنود الحملة بالعمى ١٧٩٨ - ١٨٠١، وذكر له أنه أرسل تقريراً ضافياً فى هذا الموضوع إلى وزارة الحرب، فطلب اللبى^(٢) صورة عن التقرير..

مثال ثالث: كان لخالد بن الوليد طريقته فى قيادة معاركه. فهو كأي قائد يرسم للمعركة خطتها، ولكنه يدرك أنه ليس إلا طرفاً فيها وأن أمامه طرف ثان يشاركه التصرف، وربما أفسد عليه خطته وتديره. لا يهم... المهم أنه فى اللحظة التى يبدأ فيها رجحان كفة على أخرى، حتى لو كان هو صاحب الكفة المرجوحة، حتى فى هذه الحالة فهو يدرك أن نوعاً من الخلل فى الصفوف يحدث فى كلا الطرفين. فلا يتخلع قلبه ولا يجزع، وإنما يرمى الميدان بعين الخبير الفاحصة بحثاً عن ذلك الخلل فى صفوف عدوه، وكان لا يخطئه أبداً، فما أن تسنح الفرصة، حتى يبادر إلى انتهازها، ويسدد ضربته فى سرعة وقوة. انهزم المشركون يوم أحد وهو معهم

(١) معارك الشرق الأوسط - المقدمة.

(٢) معارك الشرق الأوسط - المقدمة.

أمام المسلمين الذين كانوا يعتصمون بالجبل، ورأى خالد حماة الجبل يطمئنون إلى هزيمته فيتركون جبلهم وينزلون إلى السهل للمشاركة فى المطاردة. وجدها خالد.. لقد انكشف ظهر المسلمين، فدار بفرسانه من ورائهم وارتقى الجبل وطلع بخيله وراء المسلمين، وأمسك بيده ميزان المعركة. وكان خالد قائد المسلمين أمام الروم فى موقعة اليرموك عام ١٣هـ/ ٦٣٤م، وتفوق الروم وأزاحت فرسانهم قلب جيش المسلمين حتى اقتحموا فسطاطه وهتكوه بسيوفهم.. ونظر خالد إلى الميدان بكل رباطة جأش وثقة يبحث عنها، فوجدها.. وجد أن فرسان الروم سبقت سيقاً كبيراً وما زالت مشاتهم بعيداً فى الخلف. إنها لحظات من لم ينتهزها ويختطفها فاتته إلى الأبد.. وكانت لا تفوته. ما أن لحها حتى حرك قواته إلى الفجوة التى حدثت بين فرسان الروم ومشاتهم، وأخلى لفرسان الروم حتى طلعت خلف جيوش المسلمين ووقف يدافعها، فى حين استدار إلى مشاة الروم، التى صارت بلا فرسان، فشد عليهم شدة ألقت بهم من شاطئ إلى وادى نهر اليرموك. وانتهت المعركة. أكان من قبيل المصادفة البحتة أن نجد رومل، القائد الألمانى الشهير، يحاول أن يسير على نفس النهج؟ كان يقود معاركه من إحدى دباباته المتقدمة فى خط القتال بحثاً عن فرصة يقتنصها، وكثيراً ما فعل ذلك. وكان منطقاً أنه إذا جلس فى مكتبه فإن الدقائق الثمينة تكون قد ضاعت إلى أن تصله الأخبار ليتخذ حيالها قراراً على الخرائط.

التاريخ والفتوح

ومع ذلك - مع هذه القيمة للتاريخ الحربى - فإن الفتوحات الإسلامية من وجهة النظر الحربية، ومن حيث هى تاريخ حربى لم تمل ما تستحق من عناية. ظهرت كتابات كثيرة قديمة وحديثة فى التاريخ السياسى، فضلاً عن دراسات مستفيضة فى التاريخ الفكرى والثقافى والاجتماعى والمالى والإدارى وتاريخ الأدب.. إلخ، قد تكون تعرضت جانبياً للمعارك الحربية ولكن ليس من وجهة نظر الاستراتيجية والتكتيك. كما ظهرت أشياء صغيرة الحجم هزيلة القدر عن تلك المعارك الكبرى، لم يكلف كاتبوها أنفسهم حتى مؤونة أن يعرضوا تلك المعارك على خرائط منضبطة تشرحها وتبين مراحلها كخطة وعمل، إنما نقلوا عن كتب التاريخ السياسى، أو عن أمهات كتب التاريخ ما سطره مؤلفوها وفى أكثر الأحيان بنفس عباراتهم دون ما إضافة أو شرح. وأكثر من اهتم بذلك لم يتعد جهده أن قام بجمع ما أثبتته بعض المصادر التاريخية ولصقه ببعضه. أضاف بعضهم تعليقاً على بعض المعارك ولكن دون أن

يتمكن من وصفها وشرحها، كما نجد مثلاً وصف معركة العلمين أو دنكرك أو أى معركة شهيرة. ولا يفوتنا فى هذا المجال أن ننوه باحاولات المشكورة التى يقوم بها اللواء محمود شيت خطاب ومحمد فرج والفريق طه الهاشمى، ولكنها للأسف جهود فردية، ولا بد لنا من الإقرار بأن التاريخ الإسلامى لم يبحث بعد بحثاً علمياً صحيحاً وفق طرق البحث العلمى الحديث يغطى جميع مجالاته مع ما فيه من مادة ودسم. وما زال أمامنا مجال كبير لهذا. هذا النقص فى البحث والتأليف جعل مدرساً بكلية الآداب فى إحدى جامعاتنا يقول: «... ولكن معلوماتنا عن خطة هجوم العرب فى العراق غير واضحة، وإن كان من الجائز أن خالداً سار أولاً فى بعض أجزاء البداية حيث سهل فتحها وجود قبائل عربية^(١) فيها».

إذ ذاك، وإنى وقد عزّ على ما رأيت، فقد اتجهت إلى استكشاف الأمر بنفسى، مبتدئاً بالفتح الإسلامى للعراق فى عهد الخليفين الأولين أبى بكر وعمر. فما راعنى بعد أن بدأت أضع قدمى على الطريق، إلا أن أحسست بوعورته ومشقته. فهذه المجموعة من أمهات كتب التاريخ الإسلامى - التى تعتبر مصادره - دوت فى عهد متأخر كثيراً عن تواريخ دوران تلك المعارك، وقد فاتتها الكثير مما يتطلبه البحث الحربى: مثل تاريخ الموقعة وأعداد القوات وتشكيلها وتحركاتها وصفة أرض الموقعة وطبوغرافيتها وأنواع أسلحتها والشئون الإدارية.. إلخ. لذلك فصعوبة القيام بهذا البحث، وإخراجه سهلاً ميسوراً لمن أراد الاستفادة منه أمر مقرر لا يختلف عليه اثنان. وقد سبقنا إلى الإشارة إلى هذه الصعوبة الفريق طه الهاشمى^(٢) ونعى على التاريخ الإسلامى «أنه بينما نجد أن المعارك التى خاضها جيش الإسكندر الأكبر فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، ومعارك الرومان مع جيوش الأقوام المهاجرة، وما دار من معارك بين قياصرة الرومان والمنافسين لهم على العرش، مفصلة بشكل لا يجهد الباحث، وأنه قد تم تدوينها بشكل أقرب إلى الصحة مما نحن بسبيله من التاريخ الإسلامى الذى دونه القصاص ومدونو السير والمغازى ومن أرخوا لهذه الفترة بالسماح أو نقلاً عن طريق الرواية والإسناد، فلربما وجدناهم يختلفون على نقاط هامة كالزمان والمكان اللذين وقعت فيهما المعركة وكذلك فى مقدار قوات الفريقين المشتركين فيها». ومع موافقتنا على ذلك فإن لنا عليه تحفظاً فى مجال المقارنة بين تناقض المصادر الإسلامية وعدم وجود مثل هذا التناقض فى التواريخ الأخرى، ذلك أن تعدد مصادر التاريخ الإسلامى وعدم تعددها فى سواء مدعاة إلى مزيد من

(١) التاريخ السياسى للدولة العربية ١٧٠.

(٢) خالد بن الوليد ٣٥.

الثقة فيه، والشك وعدم الثقة فى غيره. وعلى سبيل المثال فقد اكتشف أن فرعون مصر رمسيس الثانى زور تاريخه وسرق مسلات تحتشمس الثالث فمحا اسم تحتشمس عنها ووضع اسمه هو، لينسب أعمال تحتشمس إلى نفسه. هل أقرب إلينا فى مجال الأحداث الكبرى من الحرب العالمية الثانية؟ لقد اختلف تأريخها بين وجهات نظر الكتاب الغربيين والكتاب الشرقيين من الروس... فهم يختلفون حول هذه الحرب ليس فقط من حيث وجهات نظرهم تجاهها، بل ومن حيث وقائعها أيضاً، ولا شك أن الهوى والتعصب للجنس أو للمذهب أو للشخص يقف وراء ذلك الاختلاف. مثل هذه العوامل وجدت قديماً، فإذا انفرد ملك بتسجيل تاريخه نقشاً على حجر فى مقبرة أو مسلة أو غيرها، فمن يضمن لنا أن ذلك الملك كان صادقاً ذا أخلاق؟ فإذا ما تعددت المصادر اختلفت.. رمسيس الثانى انتصر على الحيثيين فى الشام، هذا فى آثار رمسيس... ولكنه انهزم أمام الحيثيين فى الشام، فى آثار الحيثيين!!.

منهجنا

تاريخ الطبري

هذا وقد وجدنا فيما رجعنا إليه من مراجع أن «تاريخ الأمم والملوك» لابن جرير الطبري هو أوفى هذه المصادر التاريخية وأقربها إلى الصحة والثقة، حتى لقد صار مرجعاً لكثير غيره. وبذلك نجد أن تلك المراجع على كثرتها تعيدنا في الغالب إلى ذلك المرجع الأول، ثم إن لم تكن أقل منه فهي لا تضيف إلى ما جاء به إلا القليل، فكان هذا المصدر القيم هو مرجعنا الأول الذي أخذنا عنه كثيراً من مادة هذا البحث بل أكثرها، ثم يليه سائر المصادر. غير أنها جميعاً - مع ذلك - لا تفي لنا بالمطلوب كله، ولا تضع أصابعنا على ما نبغى الوقوف عليه من تفاصيل تلك المعارك. ومع ذلك فكنا دائماً ندرك ما هو النقص الذي نبحت عنه حتى نصل إليه.

وقد اعتمد الطبري فيما يختص بتاريخ الفرس على ترجمات عربية لكتب^(١) فارسية وخاصة كتب ابن المقفع، كما استمد من كتب هشام الكلبي الذي كان يعتمد في تاريخ ملوك الفرس والحيرة على وثائق ومدونات. وعول في تاريخ الروم على نقله من كتب نصارى الشام الذين كانوا يعرفون تاريخ الدولة الرومانية والإمبراطورية البيزنطية من وثائق صحيحة. وأخذ ما كتب عن حروب الردة والفتوح عن سيف بن عمر، وعن المدائني. وقد اعتمد فيما ذكر في كتابه على الروايات، حتى إذا اختلفت الروايات فإنه كان يشبها مسندة موصولة إلى صاحبها على طريقة علماء الحديث. فإذا نقل من كتاب آخر ذكر ذلك بقوله: قال الواقدي، أو قال ابن الكلبي، أو قال ابن اسحق. وكان أحياناً يعتمد على المراسلة فيقول مثلاً: كتب إلى السري عن شعيب عن سيف... إلخ. وهذا كثير جداً فيما نقل الطبري عن سيف، فاخترنا أن نرمز له في الهامش بالأحرف «س ش س» بدلاً من «كتب إلى السري عن شعيب عن سيف...» ولقد درج علم التاريخ الإسلامي فيما يمكن أن يوثق به من روايات على طريقة علم الحديث (حديث رسول الله ﷺ) فاعتمد على الرواية والإسناد في نقل المرويات، وهي طريقة من

(١) الطبري للحوفي.

خصائص هذه الأمة. قال ابن حزم: «نقل الثقة عن الثقة يبلغ النبي ﷺ خص الله به المسلمين دون سائر الملل» وأخرج الإمام مسلم عن ابن المبارك قوله: «الإسناد من الدين، لولا الإسناد لقال من شاء^(١) ما يشاء».

ويسوق الطبري روايته مسندة إلى روايتها، فلربما وجدنا الرواية الواحدة تتناول أكثر من واقعة ولربما وجدنا أحداث الواقعة الواحدة موزعة على أكثر من سند. فدرجنا على استكمال ما ورد عن الواقعة الواحدة من رواياتها المتعددة، واقتضى منا هذا تقطيع الرواية إذا تناولت أكثر من واقعة فنضع في كل واقعة منها ما يتصل بها دون ما عداه.

مصادر أخرى

وإذ كان لا بد لنا لاستكمال الصورة من الحصول على مزيد من المصادر فقد التمسنا ذلك - بعد كتب التاريخ - في كتب التراجم والرجال. حرصنا على أن نتبع في كتب الرجال سيرة كل فرد ورد ذكره في كتب التاريخ من أعلام الفتح، فأضف لنا هذا أشياء فضلاً عن أنه أمدنا بمادة قيمة عن أبطال الفتوح وأعلامها، لفتت نظرنا إلى وجوب تجلية هذه الأسماء وتقديمها إلى القراء. ذلك أننا نجد في المكتبة العربية الكثير مما كتب عن أبي بكر وعمر وخالد وسعد وعمرو... ولكننا لا نكاد نجد شيئاً عن القعقاع بن عمرو وأعيد ابن فديكي والأقرع بن حابس وكثير غيرهم^(٢) لهم وزنهم ويثقلون ثقلاً دافعاً في الحركة الإسلامية. لقد كان من أهم هذه المعلومات وأكبرها قيمة لبحثنا تحديد نسب كل منهم لإحاطة في القتال بقبيلته. وأكثر ما كتب في هذا الشأن انصب على الصحابة. رجعنا إلى أسد الغاية في معرفة الصحابة لابن الأثير، وإلى الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، وإلى الاستيعاب في أسماء الأصحاب، فكان اهتمامهم - ولا سيما الأخيرين - في المرتبة الأولى إثبات صحة صاحب الترجمة لرسول الله ﷺ ورؤيته له أو انتفاء هذه الصحة. يقول صاحب الإصابة في خطبة الكتاب^(٣): «أما بعد فإن من أشرف العلوم الدينية علم الحديث النبوي، ومن أجل معارفه معرفة تمييز أصحاب رسول الله ﷺ من خلف بعدهم» وقال الآخرون مثل ذلك. ثم اهتما في المرتبة الثانية برواية صاحب الترجمة عن الرسول أو عدم الرواية عنه، وأحياناً

(١) قواعد التحديث ١٨٥.

(٢) اللواء الركن محمود شيت خطاب، «قادة فتح العراق والجزيرة».

(٣) الإصابة ص ٣.

يذكر أن شيئاً عن حياة صاحب الترجمة ونسبه، وهذا في المقام الثالث. الاعتبار الأول محدود الأثر جداً في بحثنا هذا، بينما الاعتبار الثاني لا يدخل في موضوعه، أما الاعتبار الثالث وهو الأكثر أهمية لنا فقد كان قليلاً. ولكننا أخذناه في موضوعنا وأفدنا منه. ومن أهم ما أفدناه إلحاق كل شخص بقبيلته ومتابعة عمر كاتنها عن طريق متابعة أفرادها. وقد أورد ابن شيبه في^(١) مصنفه من طريق لا بأس به أنهم كانوا في الفتوح لا يؤمرون إلا الصحابة.

كذلك رجعنا إلى القرآن الكريم وكتب السنة المطهرة وكتب التفسير، فأخذنا عنها شيئاً من تشريعات الحرب والقتال عند المسلمين وبعض الأوصاف والعرض لأساليب القتال. كما رجعنا إلى كتب الأدب العربي حيث وجدنا فيما قيل من خطب وما نظم من شعر وأغان ما يلقي أضواء ويضيف أشياء لا سيما في أساليب القتال والأسلحة المستخدمة وصفاتها وقدراتها. فضلاً عن البيئة، وملامح المعيشة، والتحركات، كأنواع الأطعمة والمساكن والمنازل والركائب... إلخ.

القبائل وحجرات مقاتلة

هذا ومن أهم ما وصلنا إليه، أنه قد تأكد لدينا أن قبائل المسلمين العرب كانت تتحرك كوحدة حربية في الميدان، خلافاً لما ذهب إليه كثير من الكتاب المحدثين من أن الإسلام قضى على النزعة القبلية، وصهر القبائل كلها في بوتقة واحدة لا تدين بالولاء للقبيلة... كلا. إن ما أذابه الإسلام وقاومه هو العنصرية القبلية والتفاخر بالأنساب، ولكنه لم يحارب القبيلة في حد ذاتها كوحدة لها وجود عميق في البيئة العربية. لقد ظلت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية والوحدة الحربية المعترف بها في الفتوح الأولى، واستفاد الكيان الإسلامي من هذا الوجود إلى أقصى حد كما سيتبين في مواضعه من بحثنا هذا.

لقد وجدنا جرير بن عبدالله البجلي يسعى لدى الخليفة أبي بكر، ثم لدى أمير المؤمنين عمر، ليجمع قبيلته بجيلة - وكانت قد تشتت في القبائل على أثر اشتباكها مع بعض القبائل في الجاهلية - فما أن تم ذلك حتى رأيناها تأخذ مكانها البارز كوحدة مقاتلة في جيش المسلمين بالعراق. ولقد ساهمت كوحدة قائمة بذاتها بالفتن من أبنائها في البويب ثم في المطاردة بعدها. وقبل ذلك في معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب اختلطت صفوف المسلمين، فصاح بهم خالد بن الوليد: «أيها الناس تمايزوا حتى نعرف من أين نؤتي» فتميزت

(١) الإصابة ص ١٣.

كل قبيلة في صفوفها، وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الانصار مع ثابت بن شماس. ولقد وجدنا المثني بن حارثة يغير على أسواق شمال العراق بعد البويب في قوة كبيرة علمنا منها النعمان بن عوف الشيباني ومطر الشيباني والمضارب بن يزيد العجلي، وفرات بن حيان العجلي وعتيبة بن النهاس العجلي والنسير بن ديسم العجلي، وأسماءهم تدل أنهم من بني شيبان أو من بني عجل وكلاهما من بكر بن وائل. وفي هذا يقول شاعرهم:

وللمثني في العال معركة شاهدها من قبيله بشر

فنص في وضوح لا يحتاج إلى تدليل آخر على أنهم كانوا من قبيله.

هذا الطابع القبلي الذي اصطبغت به الوحدات كان أكثر ظهوراً في القادسية نظراً لوفرة الروايات والأخبار عنها ونظراً لكثرة عدد جيش المسلمين بها وتعدد قبائلهم. بل لقد وجدنا أن سعد بن أبي وقاص قد صفهم في الميدان على هيئة تقارب توزيعهم وسكانهم جزيرة العرب! هذه المعلومات كادت أن تندثر بأذهاننا ولم نجد أحداً من الكتاب المحدثين التفت إليها أو ذكرها رغم أهميتها البالغة في تصوير أي معركة. وقد أشار إليها ابن خلدون حيث قال: «إنهم كانوا يقسمون الجند مجموعاً ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونها قريباً من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع، فيجعلون بين يدي القائد عسكرياً ويسمونه المقدمة، ثم عسكرياً آخر من ناحية اليمين ويسمونه الميمنة، ثم عسكرياً آخر من ناحية الشمال ويسمونه الميسرة ثم عسكرياً من ورائه ويسمونه الساقة (المؤخرة) ويقف الملك (أو القائد) وأصحابه في الوسط بين هذه الأربعة ويسمون موقفه القلب». فكيف يجتمع المتعارفون في الميدان عند المسلمين العرب إلا أن يكون اجتماعهم قبائل، وفي القرآن الكريم^(١) ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾ لقد وجدنا مصداق ذلك في معارك الفتوح. انظر إلى منازل القبائل في الخريطة تجدها مطابقة لتعبئة خالد بن الوليد في زحفه من النجاف إلى الحيرة، إذ جعل بكر بن وائل عليها المثني بن حارثة مقدمة، وجعل تقيماً عليها عاصم بن عمرو ميمنة، وجعل طيباً عليها عدى بن حاتم ميسرة. ونجد ذلك أيضاً في تعبئة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص في انتقاله من الشام إلى العراق بجيش عدته ستة آلاف. إذ جعل القعقاع بن عمرو التميمي على المقدمة، وقيس بن هبيرة المرادي على الميمنة، والهزهاز بن عمرو العجلي على الميسرة، وأنس بن عباس السلمي على المؤخرة. بعبارة أخرى جعل تقيماً في المقدمة، والقحطانيين من أهل اليمن في الميمنة، وبكر بن وائل في الميسرة، وقيس عيلان في المؤخرة. فإذا طبقنا ذلك على مواطن

(١) الحجرات ١٣.

خرائط الفتوح

كوحداث مقاتلة.. تسليحهم وتدريبهم وأساليبهم فى القتال وتنظيم جيوشهم وتحريكها والشئون الإدارية للحملات والطرق والمواصلات والنقل... أبرز شخصياتهم فى الحرب.. الحافز لهم على التحرك نحو الفتوح، دستورهم الذي يحكمهم ويحتكمون إليه فى ذلك كله، شؤون الغنائم والأسرى وما إلى ذلك... الرجوع بالوحدات التى تقيس بها المصادر القديمة: مثل الميل العربى والفرسخ والدينار والدرهم إلى ما يعادلها من وحدات عصرنا. كذلك وضعنا تقويمًا للتاريخ القمري والميلادى لتلك السنوات التى نبحت تاريخها ساعدنا كثيرًا على إدراك الفصول وحالة الجو والفيضانات والمحاصيل، وعلى مطابقة الروايات على ذلك لتأكيد ما أو نقدها أو نقضها أو الترجيح فيما بينها، ذلك أن مصادرنا درجت فيما ذكرت تاريخه على التقويم الهجرى القمري فقط فكان مطابقته على التقويم الميلادى مفيداً. مثال ذلك، فتح الأنبار، لم يذكر الرواة تاريخه ولكنهم ذكروا أن إبل المسلمين ولدت فى أثنائه، فإذا علمنا أن الإبل تلد فى شهر سبتمبر (أيلول) أستطعنا أن نحدد زمن فتح الأنبار وأن نطابق ذلك بما قبله وما بعده.

وهكذا سار البحث بين شتى مراجع التاريخ والرجال والجغرافيا والحرب والعقيدة والأدب يستكمل من كل جوانبه. وإذا كان الشعر العربى مصدراً له اعتباره فقد أثبتنا منه بعضاً من الشعر الجاهلى وشعر صدر الإسلام، منه ما تناول الفتوح ومنه ما تناول خليفته، على ما فى هذا الشعر من صعوبة الفهم لقراء جيلنا الذى ابتعد كثيراً عن استعمال لغته الأصيلة، الأمر الذى كان يحتاج معه إلى كثير من الشرح. ولما كان موضوعنا فى التاريخ الحربى مما قد يجعل التوسع والاستطراء فى سرد أبيات الشعر القديم وشرحها غير مستعذب لغير هواة أو أهل الاختصاص فيه، فقد وجدنا سؤالاً يفرض نفسه وهو... لمن أكتب؟ إن كنت أكتب إلى محبى الأدب العربى وقرائه فقد يطيب لهم هذا ولكن البحث ليس موضوعه أدب الفتوح - وبودى لو قام بذلك باحث موفق - وإنما نبحت فى «تكتيكها» واستراتيجيتها». ولذلك فإن اللجوء إلى الأدب أو إلى غيره إنما يكون لخدمة ذلك الغرض. فإننا إذا أثبتنا النتائج التى نصل إليها فى أمر ما، وليكن صفة النبأ والقسى التى كان يستخدمها المسلمون الأوائل، فلرب سائل يتساءل - محققاً فى تساؤله - عن مصدر هذه المعلومات، فإذا سقنا لذلك قول الشاعر:

له من خوافى النسر حم نظائر ونصل كنصل الزاعبي فتيق
على نبع زوراء أيما خطامها فمئن وأيما عودها فعتيق

ثم كان لابد لنا من تطبيق تلك الأحداث التى وقعت فى ميادين القتال على خرائط منضبطة للمواقع التى وقعت فيها. وهنا طالعنا عقبة أخرى، وهى أن الخرائط التى بين أيدينا حديثة تختلف عما كانت عليه منذ ألف وأربعمائة عاماً اختلافاً كبيراً، ونعنى هنا أرض العراق بالذات. فكم من موقع لا نجد له على الخريطة أثراً، وكم من نهر تغير مجراه أو تغير اسمه أو لم يعد له اليوم وجود، وكم من مسالك مائية قد استحدثت وأراض شاسعة جفت، وكانت تغمرها من قبل برك ومستنقعات من فيضان النهرين، وكم من قرى أو مدن قد تلاشت أو عاد غيرها فى غير مكانها يحمل اسمها... وهكذا. أمور كثيرة تجهد الباحث وقد تضلله فيتوه فيها. ومن هنا كان رسم مواقع القتال على ما كانت عليه فى حينها مهمة صعبة حقاً، وفقنا توفيقاً كبيراً - فيما نعتقد - باستجلائها مستعينين بالخرائط الحديثة والقديمة مضافاً إليها ما ورد فى الموضوع عن صفات المواقع وأماكنها، وكذلك بالاستعانة بما كتب الرحالة والجغرافيون المسلمون فى القرنين الثالث والرابع الهجريين وما بعدهما مثل: ابن بطوطة وابن حوقل وابن خرداذبه وابن جبير والإصطخرى وياقوت الحموى، استعنا بمعلومات هذه المصادر فى إدخال تعديلات أو إضافات على ما بين أيدينا من خرائط. وقد اعتمدنا أساساً على خريطة العراق الأثرية بمقياس واحد إلى مليون إصدار مديرية الآثار العراقية ببغداد، ثم راسلنا المديرية المذكورة عدة مرات وراجعناها فأمدتنا مشكورة شكراً لا نوفيده حقه بخرائط أفدنا منها ما لم نجده فى أى مصدر آخر، لا سيما منطقة الحيرة فيما بين القادسية إلى النجف والكوفة. كذلك أخذنا أشياء عن بعض «الأطالس» ولا سيما «أطلس أو كسفورد».

خلفية لإبدا منها

بعد ذلك كان لابد من تغليف هذا كله بأرضيته الخلفية وإحاطته بإطاره الذى يحده. دراسة جغرافية العراق الذى دارت على أرضه المعارك، وجغرافية جزيرة العرب التى هب المسلمون منها وأسندوا إليها ظهورهم أو ميسرتهم... دراسة المجتمع الفارسى وسلطاته وطبقاته وجهاز الحرب فيه... جيشه وتكوينه وتسليحه وأنواع تلك الأسلحة ومقدرتها، ثقافته الحربية وتدريبه وأساليبه فى القتال، ملامحه وشخصيته ومعنوياته... دراسة مثل ذلك فى مجتمع المسلمين العرب، قبائلهم وأنسابها ومساكنها وصفاتها وأثر ذلك كله على تحركاتهم

كان لنا أن نتوقع ضجر القارئ، وهو أمر جعلنى أوزع الشرح بين السياق وبين الهامش وفق الحالة فى محاولة لعلاج ما قد ينشأ عن ذلك من ملل. واستميج القارئ عذراً فى ذلك، وحسبى أن وضعت ما استطعت جمعه من مادة مشروحة بين يديه. فإننى أكتب هذا لسد ثغرة كبيرة فى التاريخ الحربى الإسلامى خاصة بل والتاريخ الحربى عامة.

فإن كنا قد أصبنا فذلك غاية قصدنا. وإن كنا قد أخطأنا فى أصول المنهج الذى ذكرنا أو فى تطبيق شىء منه، أو غفلنا عن شىء يمكن إضافته إليه فنحسب ذلك يسيراً إلى جوار ما فيه من صواب وفائدة وإلى ما فيه من جديد كثير. ورجاؤنا ممن يقف على شىء من ذلك أن يرشدنا إليه مشكوراً مأجوراً، وأستعير قول ابن الأثير فى تقديمه أسد الغاية «فرحم الله امرأ أصلح فاسده ودعألى بالمغفرة والعفو عن السيئات». فإن غاية المرام الوصول بهذا البحث إلى أقصى ما يمكننا من كمال، ولا كمال لكتاب غير كتاب الله.

ولابد إبراء للذمة وأداء للأمانة أن نقر أنه منهج مجهد كل الإجهاد اضطررنا معه على غير إرادة منا أحياناً لظروف القاهرة، وخضوعاً لضعف جهدنا أحياناً أخرى أن نترك أشياء كنا نرى استيفاءها أو الرجوع إلى مراجع لم نرجع إليها. ونحن إذ نترك هذا فى هذه الجولة فعلى أمل أن نعود إلى استيفائها فى جولة أخرى قريبة إن شاء الله إن كان فى العمر بقية وفى الجهد عافية. وقد التزمنا بأن نثبت فى الهامش مصدر كل حادثة أوردناها. كذلك أثبتنا مع كل رواية حلقات السند التى روتها على أمل أن نعود إلى تحقيق ذلك على الأقل كأسلوب من أساليب الترجيح بين ما تعارض منها. وللحق والتاريخ لم نجد فيمن كتب أو ألف حديثاً فى التاريخ الإسلامى من عنى بهذا النهج. وإنه لخرى أن نعى على الأجيال المتأخرة قصور همتها عن ملاحقة أسلافها من الأجيال القديمة، ولنضرب لذلك مثلاً آخر هو فى الوقت ذاته دعوة لكافة الجغرافيين المحدثين أن يتقدم منهم من يقوم بهذا العمل الجليل. معجم البلدان، هذا المرجع القيم الذى لا غنى عنه لأى باحث يتعرض لبحث جغرافى أو تاريخى على الرقعة الإسلامية، توفى مؤلفه ياقوت الحموى عام ٦٢٧هـ - ١٢٢٩م فهو مرجع قديم يحتاج إلى تجديد، كأن يزود بالخرائط اللازمة لبيان مواقع البلدان والأنهار والوديان وكافة المواقع التى ورد ذكرها به، ومكانها من خطوط الطول والعرض وما طرأ عليها من خراب أو زوال أو عمران أو تغيير لاسمه، وأن يحول ما فيه من مسافات من القياسات القديمة إلى وحدات القياس الحديثة... إلخ بحيث يكون نعم المرجع المعين تحت يد الباحث الحديث.

ونحن بهذا البحث نحاول المساهمة فى تكوين ثقافة إسلامية وعربية فى فرع بكر من فروع التاريخ الإسلامى. ليس من قبيل التواضع أن لا نزع أننا بلغنا به ما أردنا. ولكننا بلا ريب وبدون تواضع ابتعدنا به قدر الطاقة عن السطحية، حتى يتعلم جيلنا من ذلك الجيل أنه لا مستحيل. سوف نجد فى هذه الصفحات نموذجاً مشرفاً لأمة آمنت برسالة واستوثقت من أنها خير أمة أخرجت للناس، لا عن عصبية كعصبية الشعب الآرى التى رفع شعارها هتلر ولا كخرافة «شعب الله المختار» التى يعتنقها يهود، ولكن لأنها تحمل تلك الرسالة التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، فلم تقصر همتها ولم يحط من معنويتها أن رأت العالم يقتسمه عملاقان، عملاق فى الشرق وآخر فى الشمال والغرب، فقامت تنازعهما معاً ما بين أيديهما من بقاع حتى انتزعتها قسراً وغلبتهما على أمرهما وحررت الناس من عبادة الناس، فدانوا لدين الله الواحد القهار، وفتحت للغزاة الفاتحين أبواب الأرض وأبواب السماء.

قال اللورد أكتون^(١) «إن تاريخ العالم ليس عبثاً على الذاكرة، وإنما هو نوريضىء الروح». وما أجمل من وصف التاريخ بأنه ذاكرة الجنس^(٢) البشرى.. فنسيان تاريخنا فقدان لذاكرتنا، نجلوه لندرسه ولنستفيد منه. ولو لم يكن لنا من دراسته إلا الاستمتاع المجرد والتسلية والقصص لكفى. وليس هو كذلك. فكله نفع ودرس وعبرة وعلم ومفخرة ونور.

(١) موجز تاريخ الشرق الأوسط.

(٢) أضواء على التاريخ الإسلامى.

الباب الثانى
شبه الجزيرة

آثارها على الفتح

فى رأينا أنه كان لجغرافية شبه جزيرة العرب أثرها فى العمليات الحربية التى حققت الفتوحات الإسلامية فى مطلع القرن الأول الهجرى، والسابع الميلادى، وذلك من وجهين:

الأول: أثر هذه الجغرافية على البيئة العربية التى حملت رسالة الإسلام فانطلقت به شرقاً وغرباً. بعبارة أخرى أن الجغرافية الطبيعية للجزيرة العربية كان لها أثرها على الجغرافية البشرية لسكانها الذين كانت منهم جيوش المسلمين الأولى. هذه الطبيعة هى التى رسمت للسكان ماذا يسكنون وماذا يأكلون وماذا يلبسون وماذا يركبون وبأى شىء يحاربون، وتشكيل حياة أهلها من بدابة وبأس وشدة وفروسية لها سماتها المتميزة. كل ذلك كان له بالتالى انعكاساته وأثاره على جيوشهم الحاربة.

والثانى: الأثر المباشر لتلك الطبيعة على استراتيجية العمليات الحربية نفسها، فلقد كانت جزيرة العرب باعتبارها صحراء قاحلة شاسعة ممتدة لا يطررها أحد من خارجها ولا يدرك شتياً عن مسالكها ودروبها ومساربها ومواطن الماء فيها، ولو درى ما استطاع ولا ألف العيش والحياة فيها. بهذه الصفة كانت جزيرة العرب أشبه بسور له باب عليه صمام يسمح بالمرور الحربى فى اتجاه واحد، يسمح بخروج الحملات الحربية منها إلى جيرانها ولا يسمح بالعكس، فانبنت خطط المسلمين أساساً على أنهم فى حالة انتصارهم تنفتح لهم أرض عدوهم، أما فى حالة انكسارهم فإنهم يتراجعون إلى صحرائهم ليلوذوا بها، حيث يعيدون تجميع قواتهم وتنظيمها فى حين يستحيل على عدوهم أن يتعقبهم فيها.

جغرافيتها

وتمتد جزيرة العرب نحواً من ألفى كيلو متر طولاً (هو طول ساحل البحر الأحمر من العقبة إلى باب المندب)، وذلك بخلاف امتدادها الطبيعى بين العراق والشام المعروف بصحراء السماوة. كما تمتد مثل ذلك عرضاً (طول الساحل الجنوبى من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسى) وتضيق إلى النصف من ذلك فى أقصر خط مستقيم بين البحر والخليج. ويمس خط عرض ١٣ ركنها الجنوبى الغربى، بينما يمر خط عرض ٣٠ شمالاً بدومة الجندل

اليوم. وهو جنوب نجد حتى الساحل الجنوبي ويمتد شرقاً إلى حضرموت والشحر وعمان.

والخامس : العروص وسمى عروصاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق ويشمل اليمامة والبحرين. وفيه ارتفاع وانخفاض وجبال وأودية.

وجزيرة العرب بوجه عام صحراء تكثر بها الجبال الجرداء. ومنها الحرار (جمع حرّة) وهى الجبال السوداء. ويتخللها كثير من الوديان التى يجرى فيها ماء السيول فينبت به المرعى والكلاء فى الأراضى القريبة منها ويقيم حولها الناس، وأعظم هذه الأودية الدهناء الذى سكنته قبيلة تميم ببادية البصرة، ويمر على ديار بنى أسد ثم ديار غطفان حيث يسمى وادى الرمة، ويستمر حيث مساكن بنى طىء فيسمونه حائل، ثم يتجه إلى ديار بنى كلب فيسمونه قُرَاقِر ثم يتجه نحو صحراء السماوة فيسميه بنو تغلب سمودى^(١) ثم يعرج إلى الكوفة. هذا الوادى هو الطريق بين المدينة والعراق وهو الوحيد الذى يشق الحجاز ونجد وهو طريق الجيوش الإسلامية إلى الخليج والعراق.

وفى اليمن كثير من الوديان منها ما ينحدر إلى البحر ومنها ما ينحدر إلى الداخل. فمن النوع الأول وادى مور - وهو أعظمها - ووادى زبيد، وهناك واد يتجه شرقاً ويصب فيه كثير من الوديان وهو الذى يفضى إلى موضع سد مأرب.

ويوجد فى جزيرة العرب رياض (جمع روضة) وهى المكان الذى يستنقع فيه الماء. فإذا جاء الماء نبتت البقول والأعشاب الصحراوية ورعت الأنعام، وربما وصلت سعة الروضة إلى ميل مربع، وأصغر الرياض مائة ذراع، فإذا عرضت جداً فهى قيعان (جمع قيعا) وهى المقصودة بقوله تعالى: «كسراب بقية يحسبه الظمآن ماء» وقد ذكر ياقوت الحموى فى معجم البلدان ١٣٦ روضة كانت فى بلاد العرب.

والمنطقة الواقعة إلى الغرب من الخليج العربى (بحر فارس) إلى نجد تسمى الأحساء (جمع حسى) وهو رمل تحتته صلبة فإذا أمطرت نزل الماء فحفظته الصلابة أن يغيض ومنعه الرمل أن يجف، فإذا بحث فى ذلك الرمل أصيب الماء.

وأكثر ما ينزل على بلاد العرب من مياه يغيض فى باطن الأرض، إلا ما كان يمكن حجزه قديماً بسد مأرب والتحكم فيه لزراعة مزروعات دورية. أما شمال الحجاز فتقل به الوديان ويعتمد أهلها على العيون الضئيلة التى لا تكفى إلا الشارب وقلما يوجد لهم الغيث. وأما نجد

(١) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ١/ ١٨٧.

والعروض ففيهما وادى الدهناء بما يصب فيه من وديان وكثير من مائه يذهب فى الأرض. وربما تأخر المطر فاشتد الحال على من يقيم عليه من القبائل. ولذلك درج العرب على الترحال من مكان إلى آخر وراء الماء والمرعى، وقد أضفى عليهم هذا خفة ونشاطاً وطبعهم على عدم الارتباط بالأرض. وتبعاً لهذا اعتمد العرب على الأنعام ولاسيما الإبل، تحملهم وتحمل أثقالهم ويأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسبون بأوبارها.

أما تهامة فهى شديدة الحرارة مع رطوبة عالية. ويشتد الحر بالجبال صيفاً كما يشتد البرد شتاءً. وأما نجد فحار إلا ما اقترب من مياه الأودية فيعتدل نوعاً ما.

وتجتاز جزيرة العرب طرق إلى مكة وإلى غيرها، كل طريق يسمى محجة أو جادة، ومن أعظم هذه الجواد جادة بغداد إلى مكة مارة بالمدينة وبها ٣٤ منزلة وطولها ٨٣٠ ميلاً = ١٥٣٤ كيلو متراً فيكون متوسط المسافة بين كل منزلتين نحواً من ٤٥ كيلو متراً، وهى مسيرة يوم بالإبل المحملة بالأثقال.

وقد أحاطت الطبيعة ببلاد العرب بسور جد متين لا يسهل على غير أهلها التسلل خلاله إلى قلبها، فإذا أراد أجنبى دخولها من الشمال اعترضته صحراء النفود المترامية وفيها كثبان الرمل المتنقلة الخالية من النبات. بينما بقيتها ينبت عشبها فى الشتاء والربيع فى مواطن مختلفة ومبشرة ومتباعدة أحياناً بحيث لا يهتدى إليها إلا أهلها الذين نشؤوا فيها وعرفوا مسالكها. وهم على قلة عددهم ينتقلون فى جنباتها بمعزهم وشائهم وإبلهم، يقاسون شظف العيش^(١).

ولقد حاول خلفاء الإسكندر الأكبر غزو بلاد العرب فباءوا بالفشل لقلة الماء والجهل بالمسالك.

(١) الجغرافيا التاريخية الإسلامية ٥-٦.

الحرب

قبائل العرب

كافة العرب ينحدرون من أصلين كبيرين، قحطان وعدنان. والأول أقدم من الثاني وسابق له، فبينما نجد بين عدنان وبين رسول الله ﷺ اثنين وعشرين جيلاً نجد أن القحطانيين الذين عاصروا رسول الله كان بينهم وبين قحطان ثمان وعشرين جيلاً في الغالب الأكثر، وكثير منهم بلغ نسبه إلى قحطان إلى ثلاث وثلاثين جيلاً في حين وقف بعضهم عند خمس وعشرين. فإذا أخذنا باعتبار الجيل خمساً وثلاثين عاماً كان عدنان قبل النبوة بنيف وسبعة قرون في حين كان قحطان قبلها بنحو من عشرة قرون.

ويرجع اهتمامنا بإلقاء الضوء على هذه القبائل وأنسابها ومنازلها ومواطن سكنها إلى أنها كانت هي البيئة الأولى التي تلقت رسالة الإسلام فانتشر بينها، ومنها انبثق في أنحاء الأرض، وفي هذه القبائل حدثت الردة، كما أن جيوش المسلمين الفاتحين إنما منها تكونت، فهي مادتها وخامتها ووحداتها بعد أن تسربت بالإسلام. ولن نفهم السيرة ولا الردة ولا الفتوح ما لم نهضم هذه البيئة ونُحيط بأبعادها وملامحها.

قحطاً

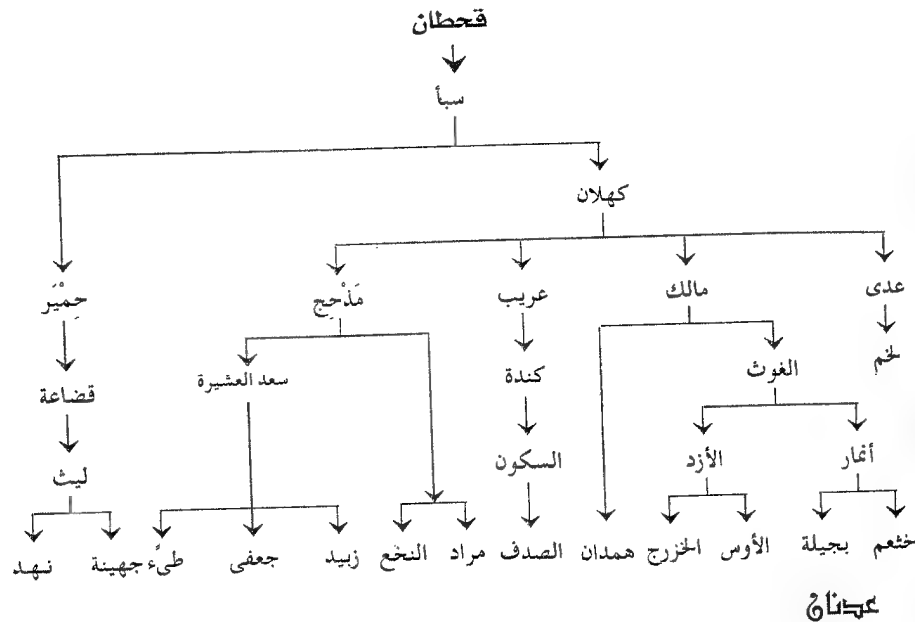
ولقد كان موطن قحطان باليمن، ثم تشعبت قبائله وبطونه من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

فكان منهم حمير، وأشهر حمير قضاة والسكاسك.

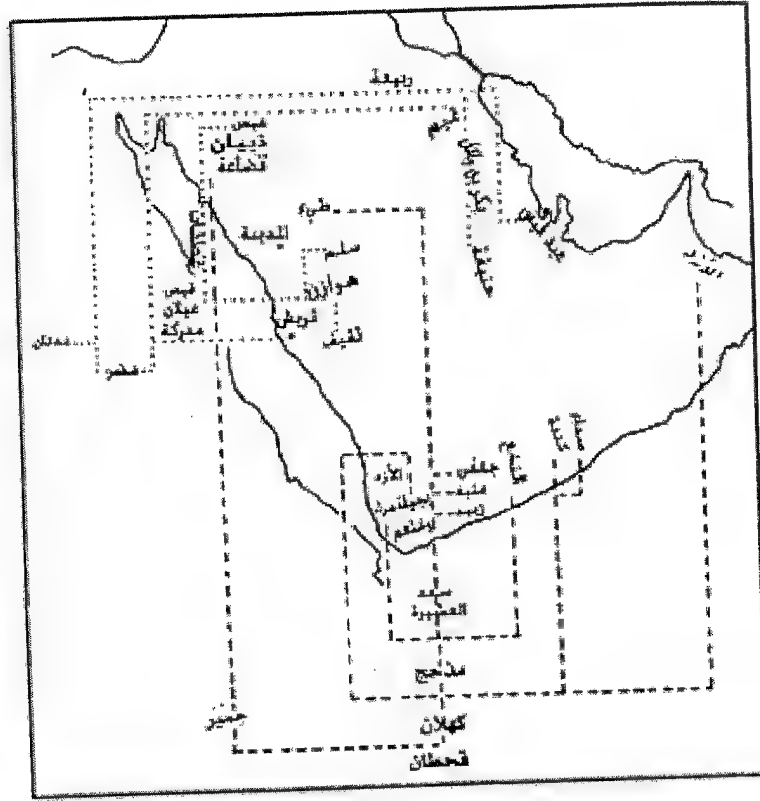
وكان منهم كهلان، وأشهرهم همدان وأنمار ومذحج وطىء وكندة وخم وجدام والأزد وأولاد جفنة ملوك صحراء الشام.

فلما انهار سد مأرب عام ١٢٠ قبل الميلاد خرج أبناء مأرب يرتادون شبه الجزيرة بحثاً عن منازل جديدة تصلح لسكنائهم، فمنهم الأزد نزلوا على المدينة فاستوطنوها فكانت منهم الأوس والخزرج ومنهم من افتتح الحرم وأجلوا ساكنيه من جرهم، ومنهم من اتجه شرقاً إلى

عمان أو غرباً إلى تهامة، ومنهم من أوغل في سيره شمالاً حتى بلغ الشام فنزل على ماء عسان وأقاموا ملك الغساسنة الموالي للروم. ومنهم من اتجه إلى الحيرة بتخوم العراق وهم خنم بن عدى من أدد بن زيد بن كهلان ومعهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة، فكان ملكهم تابعاً لبني ساسان ملوك فارس الذين حكموا العراق. ونزلت قبيلة طيء بالجليل أجاً وسلمى. ونزلت كلب بن وبرة من قضاعة ببادية السماوة حتى اتصلت بأطراف العراق. كذلك بقى باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم. وإلى جوار هذا تخطيط مختصر يبين أشهر تلك القبائل من نسل قحطان.



أما عدنان فكان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ومن نسله كان رسول الله ﷺ. كان موطنه مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة. وقد تشعبت بطون هذا الفرع من نزار بن معد بن عدنان. ثم هاجر بعض من هذه البطون إلى مواطن أخرى تبعاً لمواقع القطر ومنابت العُشْب فاتجهت ربيعة شرقاً، فأقامت عبد القيس بالبحرين، وأقامت حنيفة باليمامة، وأقامت سائر بكر بن وائل فيما بين البحرين واليمامة وإلى ساحل كاظمة بشمال الخليج الفارسي ثم إلى تخوم سواد العراق بين الأبُلَّة (على شط العرب) إلى هيث (على الفرات جنوبى خط عرض ٣٤ شمالاً) وعبرت تغلب الفرات فأقامت بأرض الجزيرة بين دجلة والفرات



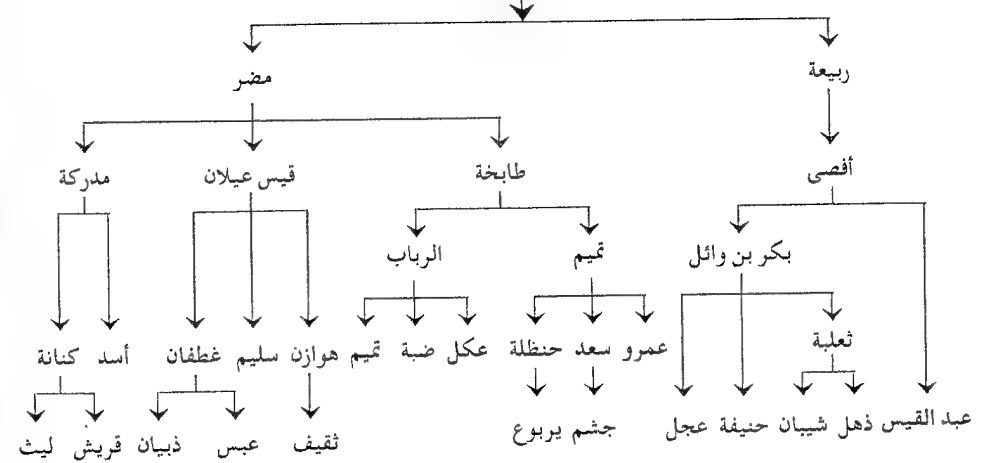
خريطة رقم ٥ - تشعب القبائل ومساكنها من جزيرة العرب.

(١) --- فروع قحطان.

(٢) فروع عدنان.

فإذا تباعدت الأنساب صارت القبائل شعوباً والعمائر قبائل وهكذا. ومن حيث كانت تلك القبائل والعمائر والبطون.. إلخ وحدات حربية، فقد أنشأنا جدولين بيانيين تفصيليين أحدهما لشعب عدنان والآخر لشعب قحطان وضعنا فيهما أشهر الأعلام التي برزت في الحروب، مما أفادنا بتتبع وحدة (قبيلة) كل علم في ميادين القتال وتحرركاتها.

عدنان



وسكنت تميم ببادية البصرة مجاورة لمنازل بكر بن وائل. أما عن فرع^(١) مضر بن معد بن عدنان، فقد نزلت سليم بالقرب من المدينة من وادي القرى إلى خيبر إلى شرقي المدينة حتى حدود الجبلين أجأ وسلمى. وأقامت ثقيف بالطائف واستوطنت سائر هوازن شرقي مكة على طريق البصرة، وسكنت أسد شمالي وادي الرمة شرقي تيماء إلى غربي الكوفة، وكان بينهم وبين تيماء ديار يحترق من قبيلة طيء، وبينهم وبين الكوفة خمس ليال (حوالي ٢٢٥ كيلو متراً)، وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران.

وقد رتبوا أنساب العرب فجعلوها ست طبقات، وهي الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة.

فالشعب: النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان، سمي شعباً لأن القبائل منه تشعبت. والقبيلة: هي ما انقسم فيه أنساب الشعب مثل ربيعة ومضر، سميت قبيلة لتقابل الأنساب فيها.

والعمارة: ما انقسم فيه أنساب القبائل مثل قريش وكنانة.

والبطن: ما انقسم فيه أنساب العمارة مثل بني عبد مناف وبني مخزوم.

والفخذ: ما انقسم فيه أنساب البطن مثل بني أبي طالب وبني العباس.

(١) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ١٤.

البيئة العربية

القبيلة

نشأ عن طبيعة الجزيرة العربية وحتمية انتقال العرب وراء الماء وطلباً للكلاء، نشأ النظام القبلي كضرورة اجتماعية وحيوية حتى يتنقلوا في جماعات وعشائر توفر لأفرادها الحماية والأمن. وقد بلغ من تأصل هذه القبيلة وعمقها أن لم يقتصر وجودها على البادية بل تعداها إلى الحواضر على قلتها وتناثرها في الصحراء المترامية، فنجد أن كل مدينة كانت تنقسم في داخلها إلى أحياء سكنية يسكن كل حي قبيلة. واستمر ذلك حتى بعد ظهور الإسلام فكان للأوس منازل في المدينة كما كان للخزرج منازل. وحين اختطت الكوفة بعد فتح العراق على عهد عمر بن الخطاب أقيمت على هذا الأساس، فكان لكل حي من أحياء العرب الذين فتحوا العراق حي من أحياء الكوفة، وحدث نفس الشيء في الفسطاط التي أقامها عمرو بن العاص بمصر.

وكان^(١) مما انطبع به الفرد العربي اهتمامه ببطولته وإظهار فروسيته. كان لا يخضع لتنظيم ولا يرضى بقيادة، وقد اتصف بجفاف العود وصلابة التكوين والسمرة الشديدة في اللون بفعل حرارة الشمس وشظف العيش. وهو سريع العدو خفيف الحركة حاد البصر.

وأصبح انتصار القبيلة - إلى أن ظهر الإسلام - لا يتوقف على تنظيمها عسكرياً، وإنما يتوقف على تصرف أفرادها ومهارتهم وقدرتهم على القتال. وربما كان هذا هو السبب في ظهور عادة المبارزة بين مبارزين من طرفي النزاع قبل أن ينشب القتال. وغالباً ما كان ينتظر الفريقان نتيجة هذا الصراع الفردي ثم يلتحما بعد ذلك. ولذلك كانت كل قبيلة تدفع بأشهر فرسانها للمبارزة في أول القتال، وكان ذلك نوعاً من استعراض الفروسية والقوة. فلما ظهر الإسلام وفرض الجهاد ظهر معه التنظيم والتكتيك الحربي الإسلامي. وقد كان قتال العرب في الجاهلية على طريقة الكر والفر. ولم تكن هذه تفجعهم بكثير من القتلى، بل كانت معظم حروب الجاهليين تتجه نحو هجوم خاطف ثم الفرار بالغنيمة.

(١) الفروسية العربية ٣٥.

القوافل

وكان للعرب تجارات وأسواق شهيرة. كذلك كانت قوافل التجارة تقطع بلاد العرب ما بين اليمن والشام والعراق. وكانت لكسرى وللعنمان ابن المنذر ملك الحيرة قوافل تجارية (تسمى لطائم • جمع لطيمة) يرسلها إلى نواحي الجزيرة العربية لتباع فيها تحت حماية كبير من العرب، تحمل الثياب وما يحتاجه العرب. كما كان لقريش رحلتان في الشتاء والصيف. ولم يكن العرب أهل صناعة بل كانوا يحتقرونها، ولكن كافة نساء العرب كن يحترفن الغزل^(١). ولم تكن الطرق آمنة ولذلك ظهرت طائفة من الأدلاء تعرف الطرق والسبل.

وفي هذا المقام يذكر لنا التاريخ هذه^(٢) الواقعة. بعث كسرى أنو شروان قافلة إلى عامله على اليمن تحمل نبأ (وهو الشجر الذي كانت تصنع منه القسي والسهام). وكان الفرس يخفرون القوافل بجنودهم من المدائن إلى الحيرة حيث يتسلمها النعمان بن المنذر فيحرسها فرسان من ربيعة حتى بنى حنيفة باليمامة، فيتسلمها هوذه بن علي الحنفي ليحرسها حتى يخرج بها من أرضه فيسلمها إلى فرسان من بنى تميم يخفرونها مقابل أجر ليبلغوا بها اليمن. فلما وصلت القافلة إلى اليمامة، عرض هوذه بن علي على حراسها أن يعطوه الأجر الذي كانوا يعطونه لبنى تميم مقابل أن يصل هو بها إلى اليمن. وعلمت تميم بما فعل هوذه، فسارت فرسانهم ودهمت القافلة وقتلت حمايتها واقتسمتها فيما بينها وأسرت هوذه، فافتدى نفسه منهم بثلاثمائة بعير. وقد انتقم كسرى من بنى تميم بعد ذلك.

طبيعة البيئة فرضت على العرب أن يكونوا قبائل بكل ما في كلمة «قبيلة» من معنى. وضرورة الحياة وحراسة القوافل فرضت عليهم أن يكونوا فرساناً مقاتلين.

وكان العرب لعهد^(٣) الخلفاء الأولين من بنى أمية يسكنون بيوتهم التي كانت من الوبر والصوف أو من الجلد، ولم تزل العرب إلى ذلك العهد أهل بادية إلا قليلاً منهم. فكانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بنسائهم وسائر حللهم وأحيائهم من الأهل والولد واستمر هذا شأنهم لقرون بعدها. ولذلك كانت عسكرهم كثيرة المواضع بعيدة ما بين المنازل متفرقة الأحياء، يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى.

(١) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية.

(٢) الفروسية العربية ١٩.

(٣) ابن خلدون ٤٨٠.

وكان طعام العرب في غالب الأزمان لا يخرج في تكوينه عن التمر واللبن واللحم، وخاصة لحم الإبل وبعض الحبوب. وفي الحديث عن مالك بن أوس بن الحدثان عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أخرجوا زكاة الفطر صاعاً من طعام - وطعامنا يومئذ البُر والتمر والزبيب»^(١) والأقط. وكانوا يأكلون لحوم الصيد والسويق والألبان وربما ابتلع أحدهم الريح أو مضغ القيصوم (نبات) والشيخ أو حرش اليربوع، وكانوا يصيدون الضب والظبي والأرنب. وكان الغالب من أهل باديتهم لا يعاف شيئاً من المأكَل لقلتها عندهم، وكان أحسن اللحوم عندهم لحوم الإبل، ولا يفضلون شيئاً عليها. وكان الاصطياد سيرة فاشية حتى كان أحد المكاسب التي عليها معاشهم. أما ما كان يتعاطاه غيرهم من التأنق في الأطعمة المتنوعة والألوان الشهية، فلم تكن العرب تعرفها ولا كانت تمر على أذهانهم. حكى أن عبدالله بن جدعان وكان سيداً شريفاً من سادات قریش، وفد على كسرى مرة وأكل عنده الفالوذج فتعجب منه وسأل عن حقيقته، فقبل هي لباب البُر (القمح) يُلَبك مع العسل. فابتاع غلاماً يصنعه وقدم به مكة، فصنع بها الفالوذج ووضع مواعده بالأبطح إلى باب المسجد ثم نادى: «من أراد أن يأكل الفالوذج فليحضر». فكان ممن حضر إليه أمية بن أبى الصلت فأكل منه ثم مدحه بشعر^(٢).

وكان للعرب أطعمة شهيرة يتخذونها من الأصناف المذكورة. فمنها السخينة وهي تتخذ من الدقيق دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء، وإنما يأكلونها في شدة الدهر وغلاء السعر وعجف المال. ومنها الحريقة وهي أن يذر الدقيق على ماء أو لبن حليب فيُحسَى، وهي أغلظ من السخينة يُبقي بها صاحب العيال على عياله إذا عضه الدهر. ومنها الصحيرة وهي اللبن يُغلى ثم يذر عليه الدقيق. ومنها العذيرة وهي دقيق يحلب عليه لبن ثم يحمى بالرضيف. ومنها العكيسة وهي لبن يصب عليه الشحم المذاب. ومنها الغريقة وهي حلبة تضم إلى اللبن والتمر وتقدم إلى المريض والنفساء. ومنها الأصية وهي دقيق يعجن بلبن وتمر. ومنها الرهية وهي بُر يطحن بين حجرين ويصب عليه لبن. ومنها الحيس وهو الأقط مع السمن والتمر. والصناب وهو الخردل مع الزبيب. والبريك وهو الزبد مع الرطب^(٣). وغير ذلك كثير مما لا

(١) أسد الغابة ٢٩٧ - والأقط لبن مجفف يطبخ به.

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ١ / ٣٨٠.

(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ١ / ٣٨١ - ٣٨٥.

يخرج عن هذه الدائرة، فهي تباديل وتوافيق لخلط أصناف محدودة.

أما اللحم فكانوا يطبخونه شواء على النار أو سلقاً خفيفاً لا ينضجه في مارجيل، وكان ذلك مستحباً عندهم. قال عبدة^(١) بن الطبيب التميمي، وكان من جند المثنى بن حارثة في معركة بابل.

لما نزلنا نصينا ظِلَّ أَخْبِيَّةٍ وفار للقوم باللحم المارجيل
وَرَدَّ وَأَشْقَرُ ما يُؤْنِيهِ طابِخُهُ ما غَيْرَ الغَلَى منه فهو مأْكول
ثُمَّتَ قَمْنَا إلى جُرْدٍ مُسَوِّمَةٍ أعرافهن لأيدينا مناديل

وكان العرب يبكرون في الغذاء ويؤخرون العشاء في انتظار حضور^(٢) الضيف. وكانوا يذمون الشبع، وكثرة الأكل عندهم معيب. وفي لغتهم كثير من ألفاظ الذم في هذه المادة. فإذا كان الرجل حريصاً على الأكل فهو نَهْمٌ وَشَرٌّ، فإذا زاد حرصه وجودة أكله فهو جَشَعٌ، فإذا كان لا يزال قرماً إلى اللحم (القرم شدة الشهوة إلى اللحم خاصة) وهو مع ذلك أْكول فهو جعم، فإذا كان يتتبع الأطعمة بحرص ونهم فهو لعوس ولحوس، فإذا كان رغب البطن كثير الأكل فهو عيصوم، فإذا كان أْكولاً عظيم اللقم واسع الخنجور فهو هبلع... وذكر صاحب بلوغ الأرب^(٣) غير هذه ثمان عشرة صفة قبيحة كلها حول هذا المعنى.

ومن أوانيهم للطعام: الفَيْخَة، وهي إناء صغير لا يشبع الرجل، والصحفَة تشبع الرجل، والمكتلة تشبع الرجلين والثلاثة، والقصة تشبع الأربعة والخمسة، والجفنة تشبع السبعة إلى العشرة، والدسيعة أكبرها^(٤).

وكانوا يورون النار بقدح الزند والزنده. وأفضل ما اتخذت منه الزناد شجرتا المرخ والعفار، فتكون الأنثى وهي الزنده السفلى مرخاً ويكون الذكر وهو الزند الأعلى عفاراً. والعفار شجر صغير (يشبه الغبيراء) وأما المرخ فنبات ينبت قضباناً سمحة طوالاً لا ورق لها. وليس في الشجر كله أورى زناداً من المرخ، وربما كان المرخ مجتمعاً ملتفاً وهبت الريح فحك

(١) الكامل - للمبرد ١ / ٢٦٥، والمارجيل جمع مرجل وهو الإناء الكبير للطبخ. ورد: أحمر. وأشقر: أبيض، وهما صفتا اللحم. ما يؤنيه: لا ينضجه. والجرد المسومة هي الخيل. يقول: إنهم بعد أن أكلوا مسحوا أيديهم في أعراف الخيل.

(٢) بلوغ الأرب ١ / ٣٧١.

(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ١ / ٣٧٩.

(٤) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ١ / ٣٨٧.

بعضه بعضاً فأورى فاحترق الوادى كله. والزندة عود مربع فى طول الشبر أو أكثر وفى عرض إصبع أو أشف وفى صفحاتها فرض (واحدها فرضة وهى النقرة)، والزند الأعلى نحوها غير أنه مستدير وطره أرق من سائره، فإذا أراد المقتدح أن يقتدح بالزنداد وضع الزندة ذات الفراض بالأرض ووضع رجله على طرفيها، ثم وضع طرف الزند الأعلى فى نقرة من نقر الزندة فهيا فى الفرضة مجرى للنار إلى جهة الأرض بحز قد حزه بالسكين فى جانب الفرضة ثم قتل الزند بكفه، ويلقى فى الفرضة تراباً يسيراً لتخشينها، ويجعل إلى جانب الفرضة عند مفضى الحز رية تأخذ فيها النار، فإذا قتل الزند لم يلبث الدخان أن يظهر، ثم يتبعه النار فتتحد فى الحز وتأخذ فى الرية، وتلك النار هى السقط^(١).

وقد عرف العرب تقطير ماء البحر، «وكان لهم طرق^(٢) من العلاج لدفع مضرة ماء البحر إذا اضطر أحد منهم إلى شربه، منها أن يجعل فى قدر ويجعل فوق القدر قصبات وعليها صوف جديد منقوش ويوقد القدر حتى يرتفع بخارها إلى الصوف فإذا كثر عصره، ولا يزال على هذا الفعل حتى يجتمع له ما يريد فيكون فى الصوف ما عذب ويبقى فى القدر الزعاق».

ملابس العرب

كانت كسوة العرب الرحل الخيط فى الغالب ولبس العمائم، وربما ألقوا رداء على ظهورهم وأتزرروا بإزار. وأما أهل الحضر وسكنة المدر منهم فكانوا يتفننون فى لباسهم. وكانت عمائم العرب لفافة على رؤوسهم وكانت مُحَنَكَةً، أى طرف منها تحت الحنك. ومن أسمائها العصاة والمعجر والمشوّد. وكانت السادة تلبس العمائم المهراة وهى الصفراء، وكان الزيرقان بن بدر يصبغ عمامته بصفرة. وقال أبو الأسود الدؤلى عن العمامة أنها جنة فى الحرب (يعنى وقاية).

وكان من عادة فرسان العرب فى المواسم والجموع والأسواق وما أشبه التقنّع، وكانوا يكرهون أن يعرفوا فلا يكون لفرسان عدوهم هم غيرهم. وربما مع ذلك أعلم الفارس منهم بنفسه زيادة فى ثقته بنفسه، فكان حمزة بن عبدالمطلب يوم بدر معلماً بريشة نعام حمراء. وكانوا ربما جعلوا العمامة لواء أو شدوا بها أوساطهم عند الإحساس بالجهد. وكانوا يديرونها على رؤوسهم ويرسلون منها على الظهر وهو الذؤابة. وكان يقال عن العمامة تَلَحَّاهَا الرجل إذا أدار منها تحت ذقنه وهو المأمور به، فإذا لم يديرها فهو المنهى عنه، فإذا أدارها على بعض

(١) بلوغ الأرب ٣.

(٢) بلوغ الأرب ١/٣٩٦.

فمه فذلك اللثام وإذا أدارها على فمه فهو اللفام، فإن بلغ بها أصل فمه فذلك النقاب، فإذا لم يظهر منه إلا العينان فهو الاحتجار والتوصيص. ولم تزل العرب تلهج بذكر النعال والفرس تلهج بذكر الخفاف، وبنو الحارث بن سدوس لا تلبس نعلًا قط إذا نكبت.

الإبل والبيوت

وكان الجمل عند العرب ذا قيمة، فكان يركب للتنقل ويستخدم فى حمل الأثقال، ويشرب لبنه ويؤكل لحمه وتتخذ الثياب والفرش والبيوت من وبره^(١). ويقرر القرآن الكريم ذلك الواقع فيقول: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٧﴾. وقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ٣٠﴾. وقد اختلفت أسماء البيوت عند العرب باختلاف أنواعها. فالخباء ما كان من صوف الغنم وهو على عمودين أو ثلاثة، والبجاد ما كان من وبر الإبل، والفسطاط ما كان من شعر الماعز، والسرادق ما كان من قطن، والقشع ما كان من الجلد اليابس، والطراف ما كان يتخذة الأغنياء من الأديم وهو الجلد المدبوغ، والحظيرة: بيت كانوا يتخذونه مما يقطع مما تفرق من أغصان الشجر، وكانت تعمل للإبل لتقيها الريح والبرد، والخيمة بيت تبنيه العرب من عيدان الشجر، والأقنة بيت يبنى من حجر، والكُنة بيت يبنى من لبن. وهذه البيوت أحب لأهل البوادي من القصور المشيدة^(٢).

وقد أدت الإبل للمسلمين أجل الخدمات فى فتوحهم، فكانت أداة المواصلات والنقل من أرباض شبه الجزيرة، وكان عليها المعول فى قطع القفار واجتياز المفاوز الجافة. وليس سوى الجمل حيوان يحتمل هذا مع الصبر على العطش، فإذا حضر الماء شربت وروت. وكانوا إذا أوردوها الماء كل يوم قالوا سقيناها رفهاً، وإذا أوردوها يوماً وتركوها فى المرعى يوماً قالوا سقيناها غباً، وإذا أقاموا فى المرعى بعد يوم الشرب يومين، ثم أوردوها فى الثالث قالوا

(١) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية.

(٢) سورة النحل ٥-٧.

(٣) النحل ٨٠.

(٤) بلوغ الأرب ٣/٣٩٤.

سقيناها ربعا، لأنهم يحسبون يوم المقام مع يوم الشرب... وتما ظمأ الإبل في الغالب ثمانية أيام فإذا أوردوها الماء في التاسع منه وهو العاشر من الشرب الأول قالوا سقيناها عشرا، وإذا زادوا على العشرة يوما، قالوا أوردناها رفها بعد عشر.

تدل هذه المفردات من لغة العرب على أن الإبل كانت ترد الماء في اليوم أو اليومين أو أكثر حتى عشرة أيام تصبر على ذلك، وأن الغالب في تمام ظمئها تسعة أيام، فأى حيوان سوى الجمل حباه الله بهذه الخاصية، بل ولا المركبات الميكانيكية الحديثة تستطيع ذلك، فإن مشاكل إمدادها بالماء والوقود في الحملات تعد من أعقد مشاكل الحملة وتضع لها القيادات خطتها كاملة لضمان ذلك وإلا فشلت التحركات.

الاتصالات الخارجية

ولم يكن العرب رغم سكتهم شبه الجزيرة بمعزل عن العالم الخارجى كما قد يتوهم، ولم يكونوا أقواماً تعيش في مجاهل من الأرض. ولكنهم كانوا يتابعون العالم الخارجى ويتصلون به اتصالاً ربما لم يكن يقل عن اتصال أى دولة أو شعب حينذاك بالدول والشعوب الأخرى إن لم يكن يزيد. فنراهم ينزحون ويرحلون إلى حدود جيرانهم من الدول، ويتصلون بغيرهم اتصالاً تجارياً في رحلة الشتاء والصيف. وكانوا يعرفون عن غيرهم الكثير، ولقد رأينا اهتمام المسلمين والمشرىين بما كان بين فارس والروم حتى نزل فيه الوحى بقرآن (أول سورة الروم). قال الهمداني^(١) فى: «الوشى المرقوم»... وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس... إذن فقد كان العرب يتابعون أحداث العالم المعروف، فى حين لم يكن ذلك العالم يكاد يعرف شيئاً عن بلاد العرب ومن فيها قبل أن ينساب المسلمون منها كما يخرج المارد من القمم.

حروب العرب

كان^(٢) للحروب أيام العرب قبل الإسلام عندهم وعند غيرهم صفة من اثنتين عرض لهما المؤرخ ابن خلدون. ننقل عنه ما قال مع بعض الإضافات والتصرف.

الحرب أمر طبيعى فى البشر لا تخلو منه أمة ولا جيل، وهو إما غيرة ومنافسة، وإما

عدوان، وإما غضب لله ودينه، وإما غضب للملك وسعى فى تمهيد.

فالأول: أكثر ما يجرى بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة.

والثانى: وهو العدوان، أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنة بالفقر، كالعرب والترك والتركمان والأكراد وأشباههم، لأنهم جعلوا أرزاقهم فى رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم، ومن دافعهم عن متاعه آذنه بالحرب ولا بغية لهم وراء ذلك من رتبة ولا ملك وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما فى أيديهم.

والثالث: وهو المسمى فى الشريعة بالجهاد.

والرابع: هو حروب الدول مع الخارجين عليها والممانعين لطاعتها.

فهذه أربعة أصناف من الحروب، الصنفان الأولان منها حروب بغى وفتنة، والصنفان الأخيران حروب جهاد وعدل.

وصفة الحروب الواقعة بين أهل الخليفة منذ أول وجودهم على نوعين، نوع بالزحف صفوفاً، ونوع بالكر والفر. أما الذى بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم. وأما الذى بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب. وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر، وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى صفوف الصلاة، القدم مع القدم والكتف مع الكتف، بل وجرت عادة الفرس والروم أحياناً على أن يربطوا هذه الصفوف بالسلاسل، ثم يمشون بصفوفهم إلى عدوهم قدماً فتكون أثبت عند الصراع وأصدق فى القتال وأرهب للعدو لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع فى إزالته. وفى التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾^(١) أى يشد بعضهم بعضاً بالثبات. وفى الحديث «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

ومن هنا تظهر حكمة إيجاب الثبات وتحريم التولى فى الزحف، فإن المقصود من الصف فى القتال حفظ النظام، فمن ولى العدو ظهره فقد أخل بالصف وباء بإثم الهزيمة إن وقعت، وصار كأنه جرهما على المسلمين وأمكن منهم عدوهم، فعظم الذنب لعموم المفسدة وتعديها إلى الدين بخرق سياجه فعد من الكبائر. وفى الصحيحين^(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات. قيل يا رسول الله وما هن؟ قال الشرك

(١) سورة الصف ٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٩٤.

(١) بلوغ الأرب ٣/ ٢١٣.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٤٨٥ - ٥٠١، وبلوغ الأرب ٢/ ٥٦ - ٦٨.

بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف الحصنات الغافلات المؤمنات». ويظهر من هذه الأدلة أن قتال الزحف أشد عند الشارع. أما قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة والأمن من الهزيمة ما في قتال الزحف، إلا أنهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافاً ثابتاً يلجأون إليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف.

التعبئة

أما الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك، فكانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساماً يسمونها كراديس، ويسرون في كل كردوس صفوفه. وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة، وحشدوا من قاصية النواحي استدعى ذلك أن يعجل بعضهم بعضاً إذا اختلطوا في مجال الحرب وتداولوا مع عدوهم الطعن والضرب، فيتخشى من اختلاطهم وتدافعهم فيما بينهم لجهل بعضهم ببعض. لذلك كانوا يقسمون الجند مجموعاً ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونها قريباً من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع. ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد في القلب، ويسمون هذا الترتيب «التعبئة» وهو مذكور في أخبار الفرس والروم في صدر الإسلام، فيجعلون بين يدي القائد العام عسكرياً منفرداً بصفوفه متميزاً بقائده ورايته وشعاره ويسمونه المقدمة. ثم عسكرياً آخر ناحية اليمين عن موقف الملك أو القائد وعلى سمنته يسمونه الميمنة. ثم عسكرياً آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة. ثم عسكرياً آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة (وهو المؤخرة) كأنه يسوق الجيش من خلفه ويقف الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الأربعة ويسمون موقفه القلب. فإذا تم لهم هذا الترتيب سواء في مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكريين منها أو كيفما أعطاها حال العساكر في القلة والكثرة، فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبئة.

هذه الصفوف في الجيوش القديمة هي التي يمثلها سلاح المشاة في الجيوش المعاصرة الحديثة حتى الحرب العالمية الثانية. فسلاح المشاة كان هو المسؤول عن تغطية الجبهة والاحتفاظ بالأرض. ولئن اختلف سلاح المشاة بين القديم والحديث فإنه مجرد اختلاف في الشكل وإن كان اتفاقاً في الجوهر والهدف. لقد زال التراص بمعنى أن يكون القدم مع القدم والكتف مع الكتف، ولكن بقيت الوظيفة كما هي، ولم تكن تعتبر سائر الأسلحة إلا معاونه له. كانت

تغطية الجبهة في حالتها الهجوم والدفاع حتى لا يكون فيها ثغرة ينفذ العدو من خلالها، واجب المشاة. وقد استعاض عن تراص الصفوف في تحقيق هذه الوظيفة باستعمال البنادق والرشاشات الخفيفة وأسلحة المشاة الأكثر ثقلًا والمضادة للدبابات. فأصبح في الإمكان أن تبعد الأقدام وأن ينفرج ما بين الأكتاف، ولكن بشرط أن تكون المسافات الفاصلة بين الجنود في الجبهة مستورة بنيران أسلحتهم التي في أيديهم.

الكر والفر

وما يذهب إليه أهل الكر والفر ضرب المصاف وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات، فيتخذونها ملجأ للفرسان في كرههم وفرهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أقرب إلى الأخذ بأسباب النصر، وقد يفعله أهل الزحف أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة. فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون الفيلة في الحروب ويحملون عليها أبراجاً من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح ورماة النبل والرايات، يصفونها وراءهم في حومة الحرب كأنها حصون، فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم. وقد رأيناهم في القادسية قدموها أمام صفوفهم وجعلوها نواة لفرقهم يلتف حول كل فيل فرقة منهم.

أما الروم وملوك القوط بالأندلس فكانوا يتخذون الأسيرة، فينصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحف به من خدمه وحاشيته، وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه. وترفع الرايات في أركان السريير ويحدق به سياج آخر من الرماة والمشاة فيعظم هيكل السريير ويصير ملجأ للكر والفر، وقد اتخذ رستم مثل ذلك في القادسية.

أما أهل الكر والفر من العرب وأكثرهم الأمم البدوية الرحالة، فيصفقون إبلهم والظهير الذي يحمل نساءهم، فيكون فئة ومرجعاً لهم ويسمونهم الجبودة (أو القداية) وليس أمة من الأمم إلا وهي تفعل ذلك في حروبها وتراه أوثق في الجولة وآمن من الغرة والهزيمة وهو أمر مشاهد.

وكان الحرب أول الإسلام كله زحفاً، وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر لكن حملهم على ذلك أول الإسلام أمران، أحدهما أن أعداءهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم. والثاني أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما رسخ فيهم من الإيمان وطلب الشهادة، والزحف إلى الاستماتة أقرب.

وأول من أبطل الصف في الحروب وصار إلى التعبئة كراديس^(١) مروان ابن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والجبيري بعده. فتنوسى قتال الزحف بإبطال الصف، ثم تنوسى الصف وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف، وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النساء والولدان معهم في الأحياء، فلما حصلوا على الترف وسكنى البيوت والقصور والحوضر وتركوا شأن البادية والقرى، نسوا لذلك عهد الإبل والظعان وصعب عليهم اتخاذها، فخلفوا النساء في الأسفار وحملهم الترف على اتخاذ الفساطيط والأخبية واقتصروا على الظهر الحامل للأثقال والخيام وكان لا يغنى كل الغناء، لأنه لا يدعو إلى الاستماتة كما يدعو إليها الأهل والمال، فيخف الصبر من أجل ذلك وتصرفهم الهيئات (الهيئة صوت العدو الخيف) وتخرم صفوفهم.

ويتأكد حق القائد في ضرب المصاف في الخلف ليكون عوناً للمقاتلة في الأمام، ولا بد أن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف، وإلا مضوا على طريقة أهل الكر والفر فانهزموا وانهزم السلطان بإجفالههم.

أما قتال الترك فكان رمياً بالسهام وتعبئة الحرب عندهم بالصفوف. فكانوا يصفون ثلاثة صفوف صفاً وراء صف، ويترجلون عن خيولهم ويفرغون سهامهم بين أيديهم ثم يتراشقون بالسهم وهم جلوس. وكل صف عون للذى أمامه أن يكبسهم العدو إلى أن يتهياً النصر لإحدى الطائفتين. وهى تعبئة غريبة.

الخنادق

كان من مذاهب الأوائل في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف حذراً من التبييت - الهجوم الليلي - لما فى ظلمته ووحشته من الأثر النفسى ومضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجد النفوس فى الظلام سترأ من عاره، فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وضربوا خيامهم كنوع من الدفاع، ويديرون الحفائر عليهم من جميع جهاتها، وكانت للدولة عليه قوة واقتداراً بجمع الأيدي عليه فى كل منزل من منازلهم.

(انتهى ما نقلناه عن ابن خلدون بتصرف).

(١) عباً خالد بن الوليد جيش المسلمين فى اليرموك كراديس ثمانية وثلاثين كردوساً عام ١٣هـ قبل مروان. غير أننا نرى أن التعبئة بالكراديس نوع من الزحف بالصفوف. فهو ليس إبطلاً للصف وإنما تطوير له.

معارك الإسلام الأولى

مما سبق نفهم أن العرب قبل الإسلام كانوا يقاتلون على طريقة الكر والفر. ولكننا نستطيع أن نقرر أن ذلك كان غالباً، وذلك لاعتمادهم فى حروبهم على الفرسان أكثر من اعتمادهم على المشاة (الرجالة). أما معارك الإسلام الأولى فى حياة الرسول ﷺ فنلاحظ أنها لم تكن كذلك. فقد بدأ ظهور الإسلام والمسلمون ضعفاء فقراء قليل عددهم، قليل المال فى أيديهم، قليلة الخيل عندهم. وفى غزوة بدر فى السنة الثانية من الهجرة كان جيش المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً راجلاً لم يكن بينهم سوى فارسين. وفى معركة أحد فى السنة الثالثة للهجرة كان المسلمون سبعمائة فيهم مائة دارع وفارسين، لم تزدد فرساً عن غزوة بدر. ثم فى العام الخامس من الهجرة وقعت غزوة الخندق وكان المسلمون ثلاثة آلاف ولم تتجاوز خيلهم ستاً وثلاثين فرساً، هى التى شهدت بنى قريظة فى أعقاب الخندق. وبعث رسول الله ﷺ ببعض سبايا بنى قريظة فيبيعت فى نجد واشترى بثمانها خيلاً وسلاحاً. أما فى مؤتة فى العام الثامن من الهجرة فقد بلغ المسلمون ثلاثة آلاف مقاتل، ارتفعوا فى غزوة تبوك فى العام التاسع للهجرة إلى ثلاثين ألفاً، فيهم عشرة آلاف فارس. ولا شك أن هذا الرقم يعد طفرة بالنسبة لما سبق. وغنى عن الذكر أنه فى الفترة موضوع بحثنا كان كل من دخل الإسلام هو فى صفوف جنود المسلمين، فعدد جيش المسلمين يومئذ هو عدد المسلمين من الرجال البالغين الصالحين للقتال جميعاً. هذا وقد بلغ جيش المسلمين على عهد عمر بن الخطاب أكثر من مائة وخمسين ألفاً، أنشأ لهم ديوان الجند فى العام الخامس عشر من الهجرة ليقوم بتسجيل أسمائهم وأعطياتهم وتموينهم وعائلاتهم.

وقبل ذلك كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه أول من اتخذ بيت المال فكان يشتري من موارد ذلك البيت الإبل والخيل والسلاح فيجعله فى سبيل الله.

ولما كان الإسلام ديناً يتناول جميع شؤون الحياة فليس شاذاً أن نجدته يتعرض للقتال وأساليبه. فقد حفظ قدر القتال بطريقة الزحف بالصفوف المتراصة وهى التى اتبعها الرسول ﷺ فى مواجهاته مع قريش، ونجد فى كتاب الله سورة اسمها: «سورة الصف» وهو

الصف للقتال، نقرأ فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾. وبذلك أقر الإسلام طريقة القتال بالصفوف وحث المسلمين عليها ورغبهم فيها. وروى عن أحمد وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذا صفوا للصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال». وعن سعيد بن جبير قال: كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصفاهم. وهذا تعليم من الله للمؤمنين. وقال: وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ أى ملتصق بعضه ببعض من الصف فى القتال. وقال ابن عباس: مثبت لا يزول ملتصق بعضه ببعض^(١).

هذا وقد كانوا ينزلون عن الخيل عند ضيق المعترك فيقاتلون على أقدامهم. ولا يستطيع أن ينزل فى ذلك الموضع إلا أهل البأس والشدة، ولذلك قال المهلهل^(٢):

لم يطيقوا أن ينزلوا فنزلنا وأخو الحرب من أطاق النزولا

ولقد فعل ذلك أبو عبيد بن مسعود الثقفى والمسلمون فى معركة الجسر بالمروحة، كذلك سنرى شيئاً من ذلك فى معركة القادسية.

الباب الثالث

عكة الحرب

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٥٨.

(٢) بلوغ الأرب ٢/ ٧٦.

الخيـل والغروسية

مجد الإسلام الخيل، وهى عماد طريقة الكر والفر فى الحرب. قال ﷺ (١): «الخيـل فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة». واختصها القرآن الكريم بالذكر من كافة عدة القتال فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (٢). وعن أبى بحرية قال: كانوا يكرهون القتال على الخيل ويستحبون القتال على الأرض لقوله: «إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص» (٣). وفى الكتاب الكريم سورة اسمها العاديات (من العدو وهو الجرى) والعاديات هى الخيل التى تعدو فى الحرب، وقد وصفها القرآن الكريم ورفع شأنها حيث أقسم بها إذا جرت فى سبيله فعدت وضبحت (والضبح هو الصوت الذى يسمع من الفرس حين تعدو) (٤) فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾.

ومن عجيب الأمور أن هذه الآيات قد جمعت خواص سلاح الفرسان التى تميز بها حتى عصرنا هذا إذ تقرر الآيات أن العاديات تتميز بخفة الحركة والسرعة (والعاديات)، وبالضجيج والصوت الذى تحدثه (ضبحاً)، (فالموريات قدحاً) يعنى اصطكاك حوافرها بالصخر فتقدح منه الشرر. وتقرر صلاحيتها للعمل النهارى، (فالمغيرات صبحاً) يعنى الإغارة أول النهار وقت الصباح، وإثارتها للغبار الذى يماثل اليوم قذائف الدخان (فأثرن به نقعاً)، واستخدامها فى فتح الشغرات فى صفوف العدو ودق الإسفين فى دفاعاته (فوسطن به جمعاً). وإيراد القرآن لهذه الصفات والمعانى كأنما يقصد به الإشارة إلى جوهر السلاح وصفاته وواجباته لا الوقوف عند شكله. فما كانت تقوم به الخيل قديماً وحتى مطلع القرن العشرين تقوم به اليوم الدبابات والمدرعات ذات العجل وذات الجنزير ونصف الجنزير، وقد تقوم به غداً مركبات أخرى يبتكرها الإنسان. وكلها عاديات.

(١) البخارى ١٢ / ١٣٦ كتاب الجهاد والسير - عن مالك عن نافع عن ابن عمر.

(٢) الانفال ٦٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٤ / ٣٥٨.

(٤) تفسير ابن كثير ٤ / ٥٤١.

هذا وقد جعل الإسلام نفل الراجل سهماً ونفل الفارس ثلاثة أسهم، ففي الوقت الذي كان المسلمون يتفانون فيه في الثبات والقتال بالصفوف الزاحفة المتراسية، طعموا ذلك بالفرسان لتزديدهم قوة إلى قوتهم وثباتاً على ثباتهم، وتوسعوا في ذلك حتى صارت قوتهم الضاربة كلها من الفرسان في فتح المدائن وغيرها من معاركهم، والفرسان هي التي مكنت لهم، بما لها من سرعة وخفة حركة، وبحسن استخدامهم لها ومراهم عليها، مكنت لهم من النصر ومن كسب معركة إثر أخرى حتى مال توازن القوى في العالم إلى صالحهم. وتأرجحت ميادين القتال بين المشاة والفرسان. وقد كاد شارل مارتل - من قياصرة الروم، توفي ٧٤١م بعد قرن من بدء الفتح الإسلامي - أن يحول جنود مشاته من الفرنجة إلى فرسان لكي يناهض فرسان المسلمين. وفي ٨٥٥م أحر بيبان نداء الجندية شهرين عن مواعده المحدد له، من شهر مارس (آذار) - إله الحرب عندهم - إلى شهر مايو (أيار)، وأصبحت ساحة مارس (آذار) ساحة مايو (أيار)، وذلك حتى يتسنى له إعداد العلف اللازم لجيش كله من الفرسان^(١). هذا التطور الكبير يقف على قدم المساواة في تطور الحروب مع اختراع البارود والدبابة والغواصة... إلخ.

ولقد جهل العالم القديم حدود الحصان التي تهبه قدماً راسخة، والسرّج والركاب التي تهب الفارس ثباتاً أعظم. ولكن هذه الأدوات عرفها شرق البحر الأبيض المتوسط منذ القرن الرابع الميلادي^(٢). وكان الرّكّاب قديماً يصنع من الخشب، فكان الرجل يضرب ركابه فينقطع، فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يكن له معتمد، فكان المهلب بن أبي صفرة (حوالي ٦٠هـ) أول من أمر بصنع الرّكّاب^(٣) من الحديد.

غير أن استعمال الخيل عند غير العرب له مشاكله الجسيمة. فإن امتلاك دواب الحرب ودوام تجهيزها الكامل شيء كثير الكلفة، وليس أمام الرئيس الذي يعنيه أن يكون له جيش من الفرسان إلا إحدى اثنتين: إما أن يدعو الاقطاعيين الأغنياء القادرين على تمويل فرسانهم، وإما أن يهب هو الآخرين الوسائل التي يواجهون بها هذه النفقات، وموارده بطبيعة الحال ليست بالتى لا تنفذ! ومن هنا فلن يكون جيش الفرسان كبير العدد قط. فضلاً عن ذلك فإن زمن الحملات الحربية لا بد وأن ينحصر في نطاق ثلاثة أشهر على الأكثر هي شهور العلف،

وهي من مايو (أيار) إلى أوائل أغسطس (آب)، تلك هي فترة الحصاد وجنى الكروم. ولذلك لم يكن يدعى إلى القتال في الدولة الرومانية إلا من كان يمتلك أربع وحدات من الأرض (١٠-١٥ هكتار) وفوق هذا، لم يكن الرجال يجندون إلا من المناطق المجاورة لميدان^(١) القتال.

ولذلك لم يكن غريباً أن نجد أن الحصان لم يستعمل في فرنسا مثلاً إلا في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، للتنقل أولاً ثم للقتال بعد^(٢) ذلك.

أما عن الخيل عند المسلمين الأوائل فلم يكن لها مشكلة. كان الفرس ملكاً خاصاً لصاحبه ولم يكن ملكاً للدولة ولا للقبيلة. فكان المسلم يتطوع بنفسه وبفرسه، لا يكلفون الخليفة ولا بيت المال شيئاً، إنما كانوا ينزحون بنسائهم وأثقالهم على إبلهم يجنبون الخيل ويسحبونها من ورائهم، كما كانوا ينتقلون في ديارهم من شبه الجزيرة ويقنعون بما يصيبون من الغنائم، إذ كان لهم أربعة أخماس الغنيمة.

فإذا كان الفارس قد نشأ على شطف من العيش ودرج على الكفاف من الحياة... فكذلك كان فرسه، لم يكن يشتري له علفاً أو ينتظر له موسم الحصاد أو الكروم، إنما كان ينتقل به في شبه الجزيرة وراء الماء والكلاء الذي ينبت مع سقوط المطر هنا وهناك... لا تكلفة ولا مشاكل. الحياة عند العربي تنقل وراء الماء، وحيثما وجد الماء فهناك الكلاء. نعم لقد اقتضت عناية بعضهم بخيله أن يطعمها الحبوب كالشعير وغيره. وبلغت ببعضهم أن كان يسقى خيله لبناً حتى بعد الفطام، إلا أن عامة خيلهم لم يكن ثمة عناء في إطعامها، فقد كانت الخيل وكل دوابهم تأكل ورق السمر (النبق) وورق الشجر عامة، كما كان بعضها يأكل العذرة (وهي القمامة والفضلات). يروى البخاري في حديث الهجرة: «... وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله ﷺ: على رسلك فإنني أرجو أن يؤذن لي. فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال نعم. فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر وهو الحَبَطُ أربعة أشهر»^(٣). ويروى أيضاً عن زيد بن خالد الجهني أن النبي ﷺ سأل رجل عن اللقطة فقال: «اعرف وكاءها - أو قال وعاءها - ثم عرفها سنة ثم استمتع بها فإن جاء ربها فادها إليه. قال فضالة الإبل؟ فغضب حتى احمرت وجنتاه - أو قال احمر وجهه - فقال مالك ومالها! معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وترعى الشجر

(١) تاريخ الجيوش ٣٧ - ٤٠.

(٢) تاريخ الجيوش ٥٠.

(٣) البخاري ٢/ ٢١٢ - والخطب الذي يسقط من الشجر بخبطه بالعصا.

(١) تاريخ الجيوش ٣٧.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الكامل للمبرد ٢/ ٢١٩.

فدورها حتى يلقاها ربها. قال فضالة الغنم؟ قال: هي لك أو لأخيك أو للذئب^(١). وجاء في تاريخ الطبري^(٢) رواية عن أبي سفيان أنه قال في العام الرابع للهجرة «إن هذا عام جذب ولا يصلحنا إلا عام ترعى فيه الإبل الشجر ونشرب فيه اللبن».

ولقد كانت الخيل أول الإسلام قليلة نادرة في المدينة ومكة، لأنهما كانتا حاضرتين ولم تكونا باديتين ولم يكن أهلها بدواً، كذلك قلت الخيل في اليمن حيث كثرت الإبل، في حين كثرت الخيل في نجد من الخليج إلى البحر الأحمر. فإذا خرج المسلمون من شبه جزيرتهم إلى العراق أو الشام فالكلأ أكثر والمرعى أرفع.

وخيل العرب أجود خيول الدنيا، وكانت عند العرب أعظم عددهم للحرب وعليها مدار أمرهم، وبها يجولون في كرمهم وفرهم. وكانوا إذا ساروا لحرب ركبوا الإبل وقادوا الخيل ليريحوها - كما يحدث الآن بالنسبة للدبابات، فإنها تحمل على عربات حتى ميدان القتال حيث تنزل لتقاتل - فإذا اقترب العرب من عدوهم أو أرادوا الغارة نزلوا عن إبلهم وركبوا^(٣) الخيل. ونستطيع أن ندرك حمولة الإبل من هذه القصة التي رواها ابن عبد الحكم في سيرة عمر بن عبدالعزيز أنه كتب إلى حيان بمصر: إنه بلغني أن بمصر إبلًا نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أذاك كتابي هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل.

وبتتبع تحركات ذلك العصر التي علمت مسافاتنا وجاءت مقترنة بذكر أزمانها، نجد أنها كانت تتم على ظهور الإبل بمعدل يتراوح حوالى خمسة وأربعين كيلو متراً في اليوم. ولقد اعتبر اليوم الذى هو وحدة لقياس المسافات ٤٤٣٥٢ كيلو متراً، ويبدو أن هذا المعدل كان لتحركات قوافل التجارة المحملة بالأنقال وما شاكل ذلك، أما تحركات الحملات الحربية فكانت تصل إلى خمسين، وربما ستين كيلو^(٤) متراً. أما التحرك السريع بالخيول كنقل الأخبار وحمل الرسائل والغارات الخاطفة فيمكن اعتماد الروايات التي تصل بسرعتها إلى مائة أو مائة وعشرة كيلو مترات في اليوم^(٥).

وكان للعرب في تربية خيولهم مزيداً من العناية في الجاهلية والإسلام، وكان الرجل يؤثر

(١) البخارى ١/ ١٨.

(٢) الطبرى ٤٢/ ٣.

(٣) بلوغ الأرب ٧٦/ ٢.

(٤) قطع خالد بن الوليد ما بين الأنبار وعين التمر (حوالى ١٣٠ كيلو متراً) فى ثلاثة أيام.

(٥) عاد الثنى من المدينة إلى الحيرة (حوالى ١١٠٠ كيلو متراً) فى عشرة أيام. وقطع خالد ما بين الفراض بشمالى العراق إلى مكة (حوالى ١٥٥٠ كيلو متراً) فى أسبوعين.

فرسه على نفسه وأهله وولده فيسبت طاوياً ويشبع فرسه^(١). ولذلك وقفوا على أحوالها وأوصافها الخمودة والمذمومة ما لم يقف عليه غيرهم، وعلموا من عللها وأمراضها وأدوائها وعلاجها ما لم يعلمه سواهم. ووصفوا مشيها وعدوها وألوانها، وسموها بأسماء ناسبت أحوالها، وامتدحوها وبالغوا في رعايتها وحفظوا أنسابها. وقد كتب ابن هشام الكلبي كتاباً في نسب الخيل وأخبارها في الجاهلية والإسلام مما يشعرا بقيمة الفرس عند العربى وحرصه على تسجيل نسبه لتقدير أصالته، فداحس مثلاً هو الفرس المشهور أيام عيس وذبيان، أبوه ذو العقال وأمه جلوى، والغبراء خالته وأخته لأبيه.. وهكذا. ومن أشهر الشعر العربى وصف امرئ القيس لجواده:

مَكْرٌ مَفْرٌ مَقْبِلٌ مَدْبِرٌ مَعَاً كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَه السَّيْلُ مِنْ عَلٍ

ولكى تتخلص الخيل العربية المقاتلة من الترهل كانوا يعمدون إلى الفرس فيجيعونها أياماً لا تعيش إلا على السوائل الخفيفة، حتى إذا خمص بطنها جَلَّوْهُ بالجلال (وهو ما يشد على وسط الدابة) وشدوه على بطنه ثم أخذوا يقدمون له الغذاء يزيدونه قليلاً قليلاً حتى يظل خصره دقيقاً ولا يتفلطح كرشه. وكانوا يسمون ذلك تضيير الخيل. وقد ساعد هذا التخفيف من اللحم والشحم خيل العرب على أن تكون أسرع عدواً من غيرها وأخف حركة من سواها. ولقد عقد رسول الله ﷺ مسابقة بين الخيل المضمرة لمسافة طويلة كما عقد سباقاً للخيول التي لم تضرر لمسافة أقل. وفي هذا تقرير للآثار التي تنشأ عن التضيير. وفي مختار الصحاح: تضيير الفرس أن تعلقه حتى يسمن ثم ترده إلى القوت (وهو ما يقوم به البدن - الكفاف) وذلك فى أربعين يوماً وهذه المدة تسمى المضمار. والموضع الذى تضر فيه الخيل أيضاً مضمار. وفى القرآن الكريم^(٢) ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

قال ابن القيم: «الفروسية أربعة أنواع أحدها ركوب الخيل والكر والفر بها. والثانى الرمي بالقوس. والثالث المطاعنة بالرماح. والرابع المداورة بالسيوف، فمن استكملها استكمل الفروسية».

وقال الشاعر:

(١) بلوغ الأرب ٨٢/ ٢.

(٢) سورة الحج ٢٧.

وما أدرك الأوطار مثلُ محققٍ بأجرد طائرٍ كالعسيب المَشْدَب^(١)
وأسمر خطي وأبيض باترٍ وزَغَفٍ دلاصٍ كالغدير المَشْوَبِ

وكانت الفرس وسيلة العربي في مطاردة صيده لإشباع جوعه أولاً وللرياضة ثانياً. ولم تكن العرب تعد المال في الجاهلية إلا الخيل والإبل. وقال الجاحظ: «الفرس من طبعه الزهو في المشي^(٢) ويحب سائسه ويعجبه راكبه، ولا يحب الأولاد، وهو غير ويعرف المصيبة». وكان العربي يتعلم ركوب الخيل منذ صباه.

التدريب على الخيل

قال ابن الهذيل: «أعلم - أرشدك الله - أن أصل الفروسية الثبات، وأن مبتدأها إنما هو الركوب على العري من الخيل (بدون سرج ولا ركاب). ومن لم يتدرب أولاً على العري لم يستحكم ثبوته في الغالب، بل يكون أبداً قلقاً في سرجه، لا سيما عند خَبِّه وركضه، فلا يؤمن سقوطه إن اضطرب فرسه أو أصابته هنة... فمن أراد التفرس على العربي فليلبس ثياباً خفافاً مشهرة ويلجم فرسه ويشد عليه جُلَّ صوف أو شعر وثيق الحزام واللب^(٣)، فإن الراكب على الجُل^(٤) أثبت منه على المجرّد. ويقف عن يسار فرسه عند منكبه ويمسك عنان لجامه بيده اليسرى، وإن أخذ العرف مع العنان فلا بأس به. ويثب بسرعة وخفة، فإذا استوى على ظهره جمع يديه في العنان عند كاهل الفرس (ما بين كتفيه) ونصب ظهره وضغط بفخذه موضع دفتي السرج من ظهر الفرس، ويتقدم قليلاً، فالتقدم أحسن على العري من التأخر، ويمد ركبتيه وساقيه وقدميه إلى كتفي الفرس حتى يمكنه أن ينظر إلى إبهامي قدميه، وليكن اعتماده على الضغط بفخذه، فبذلك يحوز الثبات. وكل من لزم ركوبه غير ذلك فلا ركوب له ولا ثبات^(٥). ولا شك أن هذا التدريب يحتاج إلى قوة عضلية ولياقة بدنية عالية، كانت دائماً هي سمة الفرسان المسلمين.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «علموا أولادكم العوم والرماية ومروهم فليشربوا على الخيل وثباً، ورووهم ما يجمل من الشعر^(٦)».

(١) أجرد طائر: فرس يطوى المسافات. العسيب: هو سعف النخل شبهه به لرفع قوامه ونحافته. أسمر خطي هو الرمح. وأبيض باتر هو السيف. وفي المنجد الزغف: الدرع الواسعة الطويلة. ودلاص: لين براق فهو سهل الحركة يتميز مثل سطح الغدير لا يعوق حركة لابسسه.

(٢) قيل إنه سمي خيلاً لا ختياله في مشيه.

(٣) موضع القلادة من الصدر. واللب ما يشد من سيور السرج في صدر الدابة ليمنع استئثار السرج (المنجد).

(٤) ما يشد على جسم البعير من قماش.

(٥) الفروسية العربية ٤٧.

(٦) الكامل للمبرد ١/ ١٢٦.

أدوات الحرب عند العرب

وهي متعددة. أهمها السيف والرمح والقوس والسهم والدرع، أما الخيل فقد تقدم ذكرها.

السيف^(١)

هو أحسن آلاتهم وأشهرها ذكراً وأقربها إلى نفوسهم، ولذلك كثرت أسماؤه عندهم ولهجوا به في أشعارهم. وأول من عمل الحديد من العرب هو الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمه. ولذلك قيل لبنى أسد القيون (جمع قين وهو الحداد)، كما قيل لكل حداد هالكي. والأبيض من أسماء السيف^(٢) عند العرب.

وكان من أحسن السيوف عند العرب السيوف المَشْرِفِيَّة. والمشرفي هو السيف المنسوب إلى مشارف، وهي على الأرجح مشارف الشام، وقيل كانت موضعاً باليمن. ومن أحسنها أيضاً السَّرِيَجِيَّة نسبة إلى سريج وهو رجل من بني أسد أيضاً كان حداداً يصنع السيوف. والمهند هو السيف صناعة الهند.

وكان أحسن سيوفهم المصقول الحاد القاطع الرقيق الذي لا ينثنى. وكانوا يكرهون السيف الضعيف الذي علاه الصدا، وإذا ضرب به لم يقطع. وقد بلغ من اهتمام العرب بالسيف أن وضعوا أسماء لأجزائه المختلفة مثل الذبابة^(٣) وهي طرفه الذي يضرب به والذؤابة وهي علاقته، والطَّبة وهي أيضاً الحد والطرف الذي يضرب^(٤) به، والغرار وهو حد السيف، والعمود، والجوهر وهو الفرند يعني الوشي، وكذلك فعلوا بغمده.

وكانوا لتمكنهم من استخدامه وإفهم له يقولون عن السيف: إنه يغني عن غيره ولا يغني عنه غيره ويعمل به عمل السلاح كله. فكانوا يطعنون به كالرمح ويضربون به كالعمود ويقطعون به كالسكين ويجعلونه سوطاً ومقرعة ويتخذونه جمالاً ووجهة في الملاء وأنيساً في

(١) بلوغ الأرب ٢/ ٦٢ و ٣/ ٣٥٤.

(٢) مختار الصحاح.

(٣) المنجد.

(٤) يقال أصابته طبة السيف وطبة النصل والمراد به موضع الضرب من السيف - الكامل للمبرد ١/ ٥٦.

الوحدة ورفيقاً للسائر. قال عليه السلام مشيداً بفضلته ومحبة فيه: «لا تتمنوا لقاء العدو ولكن إذا لقيتموه فاتبتوا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف».

ولقد بلغ من اعتداد العرب بالسيف أن حفظوا تاريخ المشهور من سيوفهم. مثال ذلك صمصامة عمرو بن معدى كرب الزبيدي. يروى هشام بن محمد الكلبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه خالد بن سعيد إلى اليمن فمر برهط عمرو بن معدى كرب الزبيدي من مذبح، فأغار عليهم، فسبا امرأة عمرو وعدة من قومه، فعرض عليه عمرو أن يمن عليهم ويسلموا ففعل فوهب له عمرو الصمصامة وقال:

خليل لم أهبه من قلاه ولكن المواهب للكرام
خليل لم أخنه ولم يخني كذلك ما خلالي أو ندأمي
حبوت به كريماً من قریش فسربه وصين عن الليام

واستشهد خالد بن سعيد يوم مرج الصفر وفي عنقه الصمصامة فأخذه معاوية فكان عنده، ثم نازعه فيه سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية فقتل له به عثمان فلم يزل عنده. فلما كان يوم الدار (دار عثمان بن عفان) وضرب مروان على قفاه وضرب سعيد، أخذ الصمصامة منه رجل من جهينة فكان عنده حتى دفعه إلى صيقل ليحمله، فأنكر الصيقل أن يكون للجهنى مثله، فأتى به مروان بن الحكم وهو والي المدينة، فسأل الجهنى عنه فحدثه حديثه، فقال أما والله لقد سلبت سيفي يوم الدار وسلب سعيد بن العاصي سيفه. فجاء سعيد فعرف السيف فأخذه وختم عليه وبعث به إلى عمرو بن سعيد الأشدق وهو على مكة. ومات سعيد فبقى السيف عند عمرو بن سعيد، ثم أصيب عمرو بدمشق وانتهب متاعه فأخذ السيف محمد بن سعيد أخو عمرو لأبيه، ثم صار إلى يحيى بن سعيد. ثم مات فصار إلى عنبسة بن سعيد بن العاصي، ثم إلى سعيد بن عمرو بن سعيد، ثم مات فصار إلى محمد بن عبد الله بن سعيد. ثم صار إلى أبيان بن يحيى بن سعيد فحلاه بحلية ذهب، فكان عند أم ولد له. ثم إن أيوب بن أبي أيوب بن سعيد بن عمرو بن سعيد باعه من الخليفة المهدي بنيف وثمانين ألفاً فرد المهدي حليته عليه. ولما صار الصمصامة إلى موسى الهادي أمير المؤمنين أعجب به وأمر الشاعر أبا الهول أن ينعته ففعل، ثم دعى الواصل بصيقل وأمره أن يسقنه فلما فعل ذلك تغير^(١). هذا تاريخ سيف أثبتناه كمثال.

(١) الطبري ٣/ ٢٦٤ - فتوح البلدان ١٤٢.

وكان العرب يعتقدون أن السيف إذا سل من غمده دون أن يضرب به أوثرت الجين. وهم يعرفون لهذا السلاح خطره فمن عمل به دون دراية ودربة ربما أصاب أذنه أو رجله أو أذن فرسه أو عضده. ولذلك كان للتدريب على استعماله أصول وقواعد. يقول ابن الهذيل في ذلك:

«ومن أراد التعلم به والتمرن في الضرب فليعمد إلى قصبة رطبة، أو قضيب رطب، ويثبت أصله في الأرض ويتوثق منه، ثم يتباعد عنه ويجعله على يمينه، ويجري فرسه ملء فروجه (بأقصى سرعته)، فإذا دنا منه سل سيفه بسرعة وحذر وخفة، ونفخ به ما يحاذي رأسه من ذلك القضيب أو القصبة (النفخ الضرب إلى خارج اليمين)، أو يضرب شزراً بلباقة وخفة (الشزر الضرب عن يمين وشمال)، يفعل ذلك مراراً يقص في كل طلق منه ما أمكنه إلى أن يبقى قدر ذراع ويده من العمل حتى يصير له عادة ويخف عليه العمل به». أ. هـ.

كذلك قال القدماء، إذا أراد الفارس العمل بالسيف طرّف رجله في ركابه بحسب ما يمكنه اعتماده عليه (يعنى لا يدخل رجله كلها في الركاب) ويضرب بالسيف نفحاً وشزراً إلا ما كان قبالة وجهه فيكون حينئذ أشد حذراً على نفسه وفرسه، ويعتلى يده عند الضرب به إلى الخارج ليكون آمناً ويجعل مقابله عن يمينه أبداً في كل حال.

والسيف كان سلاح الفارس والراجل على السواء، وهو في الراجلين (المشاة - أو الرجالة) أكثر. وكان العرب يجيدون المبارزة بالسيوف ركباناً ومشاة وقعوداً وجثياً على الركب - وقد ورد ذكر ذلك في قتال القادسية - وهو أسلوب دفاعي في المبارزة، غير أنه مربك جداً لمن لم يألفه ويعجز عن مواجهته، فهو يمكن صاحبه من إصابة خصمه من أسفل بينما يعجز المبارز الواقف أن يصيب المبارز الجاثي. مثل هذا الأسلوب في المبارزة نلاحظه في يومنا هذا بين المتبارزين بالعضى في لعب التخطيط المشهور في صعيد مصر وريفها.

الرمح

وأجود الرماح عند العرب الآزنية - أو اليزنية - نسبة إلى ذي يزن الملك. كذلك الرماح الخطية نسبة إلى الخط، وهي جزيرة بالبحرين كانت مرفأً لسفن الرماح الواردة من الهند أو من جنوب فارس. وقيل كانت قد وقعت إليها سفينة فيها رماح وأرقت بها في السنين المتقدمة فقليل لتلك الرماح الخطية ثم عم كل رمح هذا النسب^(١). وكذلك الرماح الردينية

(١) الكامل للمبرد ١/ ٧٨.

نسبة إلى امرأة اسمها رُدِينَة كانت تعمل الرماح.

والرمح عبارة عن قناة من الخشب ركب فيها سنان من الحديد . قال المتنبي :

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سناناً

ويختلف اسم الرمح باختلاف صفته ، فيسمى صَعْدَة إذا كانت قناته نبتت مستوية دون تشذيب . والعنزة ما كان أطول من العصا وأقصر من الرمح وفيها رُج كزج الرمح (الزج الحديدية فى أسفل الرمح) ، فإذا طالت العنزة شيئاً وفيها سنان دقيق فهي نيزك ومطرد . فإذا زاد طولها وفيها سنان عريض فهي أَلَّة وحرية . ويقال للرمح سمهري إذا كان شديداً ، وصدق إذا كان صلباً . فإذا اجتمع فيه الطول والسنان فهو القناة والرمح . ومن الأسنة نوع يقال له القعضية نسبة إلى قعضب ، وهو رجل قشيري كان يعملها . ومن أحسن الرماح الصلب (المتين) اللدن (الرن) المستقيم الذى إذا هزه صاحبه لم يثنى وإذا طعن به لم ينقصف .

قال ساعدة يصف رمحاً :

لَدُنْ بِهِزُ الكف ، يَغْسِلُ مَتْنَهُ فيه كما عَسَلَ الطريقُ الثعلبُ (١)

وأردوها الرمح المتلوى المعوج المتلم السنان الصلب الخشبة الذى لا لين فيه . قال النبى ﷺ «عليكم بالقنا والقسى فيها نصر نبيكم وفتح لكم فى البلاد» . كما قال «جُعِلَ رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى» (٢) .

والرمح من سلاح الفرسان والمشاة على السواء . وهو فى الفرسان أكثر وأنسب من السيف . وشأن كل أدوات الحرب يحتاج استعمال الرمح إلى تعليم ومران ودربة . قال ابن الهذيل فيمن أراد أن يركب جواده ورمحه معه .

«... أنه يأخذ رمحه بيمينه وعنائه بشماله مع قربوس (٣) سرجه ، ويضع زج رمحه بالأرض ويبعد منها قليلاً ، ويضع صدر قدمه اليسرى فى ركابه الأيسر ، ثم يعتمد على الرمح ويرفع نفسه على فرسه وينهض وهو يدير الرمح على كساء الفرس إلى الجانب الأيمن حتى يستقل بسرعة ، ثم يضع الرمح فى يساره مع العنان ويسوى ثيابه وآلته بيمينه ، ثم ينقل رمحه إلى يمينه . ولا ينبغي أن يتعرض الرجل لأخذ رمحه من الأرض وهو راكب فرساً وطئه الفرس

(١) الكامل للمبرد ١٧٦/١ . وقال : يقال مر الذنب وهو يعسل إذا مشى خفيفاً كالهرولة .

(٢) البخارى .

(٣) قربوس السرج : هو حنوه أى قسمه القوس من قدام المقعد ومن مؤخره فهما قربوسان - المنجد .

فكسره أو ضربه فأبعده عنه . وحين ينزل بالرمح يأخذه بيساره ويضع زجه بالأرض عند يد فرسه اليسرى ويأخذ القربوس بيده اليمنى ثم ينزل . وحين يصير إلى الأرض يأخذ رمحه بيمينه بسرعة لئلا يدور عليه الفرس فيحطمه أو يصيب الأرض بسنانه أو يصيب أحداً .

وللتدريب على العمل بالرمح يغرز الفارس عوداً أو شبهه قائماً بالأرض قدر ارتفاع الفارس ويتوثق من أسفله ويشد فى أعلاه حلقة أو حبلاً ملتوياً يشبه الحلقة ، ثم يتباعد عنه ويجرى فرسه بأقصى سرعته فإذا قرب من ذلك العود تأبط رمحه وأخرج منه عن إبطه بقدر ما يخف عليه حملة وتحتمله قوته (لأن للرمح مع طوله ثقل) ثم يأخذ سنانه تلك الحلقة ثم يلوى رمحه بسرعة ليخلص السنان من الحلقة (١) .

وقد وردت روايات تفيد استخدام المشاة للرمح وقوفاً وجثياً على الركب ، شأن استعمال السيف . خطب عمرو بن العاص (٢) جنوده يوم اليرموك فقال : «غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب وأشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا فى وجوههم وثبة الأسد...»

القوس

وأجودها القسى العصفورية نسبة إلى رجل اسمه عصفور . والقسى الماسخية نسبة إلى رجل من الأزد اسمه ماسخة . وكان لهما علم بالرمى بالنبال أخذوه بالمزاولة والممارسة . وقد وردت روايات كثيرة تفيد أن من المسلمين من حذق الرمي بالسهم إلى درجة تفوق مهارة القناصة بالبنادق اليوم . وكان سعد بن أبى وقاص يستطيع أن يصيب حمامة بعينها من سرب حمام برى يطير فى سماء مكة . وفى فتح الأنبار حاصر المسلمون حصنها وكان أهلها يرمون المسلمين من أعلى الحصن فأمر خالد رماته أن يرشقوهم بالسهم وأن يتوخا العيون ، فأصابوا يومها ألف عين حتى سميت تلك الموقعة ذات العيون . وقد كتب أقوام فى علم الرمي بالقوس رسائل كثيرة بنوا فيها كيف يقف الرامى وكيف يمسك القوس وحال الرامى قريباً وبعداً وارتفاعاً وانخفاضاً وبيان أحوال السهم ويرى النبال وغير ذلك . قال ﷺ : «ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي» . وروى بكر بن عبد الله الانصارى عن النبى ﷺ

(١) الفروسية العربية ٤٣ .

(٢) عبقرية خالد ١٦٧ .

أنه قال: «علموا أبناءكم السباحة والرماية. ونعم لهو المؤمنة في بيتها المغزل، وإذا دعاك أبواك فأجب أمك»^(١).

وكانت^(٢) العرب يتخذ القسي من شجر الضال والنبع والشوحط والسدر والشريان والسراء والتين والأشكال والحماط والتالب والنشم.

وقد وضعوا للقوس ولأجزائها أسماء كثيرة فقالوا: القوس، وكبدها ما بين طرفي العلاقة (وهو وسطها)، والكليّة تلى ذلك، ثم الأبهري يلى الكليّة، ثم الطائف وهما طائفتان الأعلى والأسفل، والسّيّة وهى ما عطف (التوى) من طرفيها، ويدها أعلاها ورجلها أسفلها، والعجس (أو المعجس) مقبضها، وإنسيها ما أقبل على الرامى (الوجه المقعر منها)، ووحشيتها ما كان جهة الهدف (الوجه المحدث منها)، والفرض والفرضة الحزة التى يقع فيها طرف الوتر المعقود، وما فوق الفرضة الظفر. والكُظرة والنعل العقبة التى تلبس فى ظهر السية، والجلانز العقب^(٣) على طائفيها وأصول سئتيها، والخلل الجلود التى على ظهر السئين، والمذروان ما عن يمين المقبض وشماله، والرصاص السيور المضفورة تشد إليها العلاقة، وهى التى علقت به، والغفارة رقعة على الفرضة والسية ليلف فوقها إطابة الوتر، وهى سير يوصل بطرف الوتر. والشريعة الوتر. والدركة حلقة الوتر التى تقع فى الفرضة^(٤).

والعتل القسى الفارسية. وقوس فلق وشريحة إذا كانت من شقة لا من غصن صحيح. والقضيب التى من غصن صحيح. وقوس فجاء وفجواء وفارج إذا بعد وترها عن كبدها وتكون بالتي للقتال لا للصيد (شكل ١-أ). والكتوم التى ليس بها شق. ويقال نرعت فى القوس أى رميت بها، والنزع هو الرمى، يقال رجل شديد النزع يعنى بعيد مدى الرمى. وعروتا الوتر عقدها. وكلما كانت القوس لينة مرنة كلما كانت أشد نزاعاً. وتلين القوس كلما زادت كمية الرطوبة فيها وتيبس بقلتها. ولذلك كانوا يتركونها بعد قطعها من شجرها فى الظل لتتشرب ماء اللحاء. قال الشماخ بن ضرار^(٥):

فَمَطَّعَهَا حَوْلِينَ مَاءَ لَحَائِهَا وَيَنْظُرُ مِنْهَا أَيُّهَا هُوَ غَامِزُ

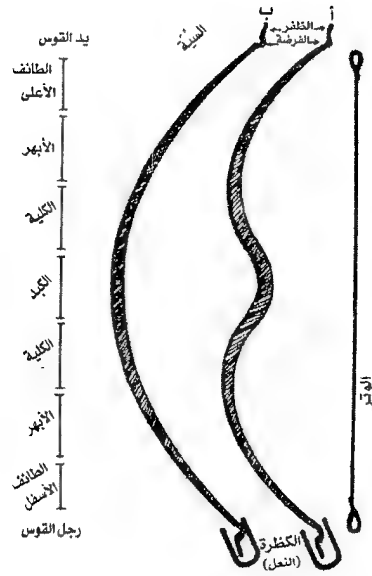
(١) أسد الغابة ٤٨٨ - أخرجه ابن منده وأبو موسى.

(٢) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ٣/٣٥٥.

(٣) العقب هو العصب الذى تصنع منه الأوتار - المنجد.

(٤) بلوغ الأرب ٣/٣٥٦.

(٥) الكامل للمبرد ١/٣٥ - وقال: يقال: تقطع الرجل الظل، إذا تحول من مكان إلى مكان (فيه).



شكل ١ - القوس

الكظرة تلف بشرائط من الجمل على طرفي القوس حتى لا يخرج الوتر عن الفرضة

مطعها أى شربها، فقولها مطعها حولين أى تركها حولين حتى تشرب ماء اللحاء، وقالت الخنساء تشكو شيخوختها^(١):

لقد قُصمت منى قناة صليبة وَيُقَصِّمُ عود النبع وهو صليب

والإصابة^(٢) بالسهم على سبع درجات من حيث شدتها وقوتها. ذكر الإمام الشافعى رضى الله عنه أربعاً منها - وقد كان الإمام الشافعى رامياً يرمى عشرة أسهم فى عشرة أهداف فما يخطئ - وهى:

١- الخاضل وهو الذى يقرع القربة ولا يחדشها.

٢- الخازق وهو الذى يחדشها ولا يثقبها.

٣- الخاسق وهو الذى يثقبها ويثبت فيها.

(١) الخنساء ١١٠.

(٢) بلوغ الأرب ٣/٣٥٤.

٤- الحابى وهو أن يدنى الرامى يده من الأرض فيرميه فيمر على وجه الأرض كأنه يحبو فيصيب الهدف.

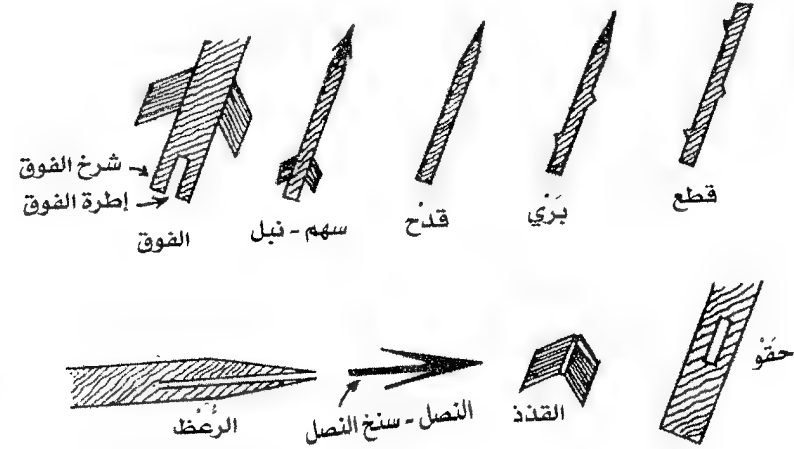
وأضاف أصحاب الشافعى ثلاثاً آخر وهى:

٥- المارق وهو الذى يبرق فى القرية ويثقبها وينفذ فيها.

٦- الحارم وهو الذى يخرم طرف القرية أى يقطعها.

٧- المزدلف وهو الذى يسقط بقرب الهدف ثم يشتن (يزدلف) فيصيب الهدف. ويحدث مثل هذا اليوم فى ضرب النار ويقال له «اكستروما».

والسهم هو الذى يرمى به القوس. وأول ما يقطع العود ويقتضب يسمى قطعاً. ثم يبرى فيسمى برىاً وذلك قبل أن يقوم. فإذا قوم وصار صالحاً أن يراش (يوضع فى مؤخره الريش) وأن ينصل (يوضع فى مقدمه النصل) فهو القدح. فإذا ركب له الريش والنصل صار سهماً ونبلاً^(١).



(شكل ٢- السهم)

وأجود السهام كانت سهام بلاد، وسهام يثرب وهما قريتان من قرى اليمامة. ويقال للسهم أيضاً النبل والنشاب، أما المريخ فسهم طويل له أربعة آذان يُغالى به. وكان نوع من السهام عريض النصل اسمه المعبلة والمشقص. وقيل المعبلة^(٢) واحدة المعابل وهى سهم خفيف. وخشب السهم قبل أن يعمل اسمه نَضْبَى (وجمعه أنضاء)، فإذا خرق موضع نصله

(١) بلوغ الارب ٣/ ٣٥٧.

(٢) الكامل للمبرد ١/ ١٦٥.

فهو قدح. ويقال فوق السهم إذا جعل له فوق وهو برد طرفه من موضع الوتر، وشرخا الفوق جانباه، والأطرة العقب الذى على الفوق، والحقو موضع الريش ومستدقه، والزافرة مستغلظه، والمتن وسطه، والرُعظ هو الخرق الذى يدخل فيه سنخ النصل، ويقال ارتدع السهم إذا رجع النصل متأخراً فى^(١) السنخ. والقدح ريش السهم، والأقدح السهم الذى لا ريش له، والمريش الذى له ريش، ونصل السهم حديدته، والكليتان عن يمينه وشماله. وكان الهدف يسمى قرطاساً.

روى البلاذرى^(٢) عن أبى رجاء الفارسى عن أبيه عن جده قال: «حضرت وقعة القادسية وأنا مجوسى، فلما رمتنا العرب بالنبل جعلنا نقول دُوك دُوك، نعنى مغازل، فما زالت بنا تلك المغازل حتى أزلت أمرنا. لقد كان الرجل منا يرمى عن القوس «الناو كية» فما يزيد سهمها على أن يتعلق بثوب أحدهم، ولقد كانت النبلة من نبالهم تهتك الدرع الحصينة والجوشن المضاعف مما علينا».

وكان للسهم سوق فى المسجد حيث يجتمع الناس. عن جابر^(٣) أنه قال: «مر رجل فى المسجد ومعه سهام فقال له رسول الله ﷺ أمسك بنصالها».

والكنانة، والجعبة، والوفضة، محفظة النبال. ومنها الكنائن الزُغرية نسبة إلى زُغر موضع بالشام كانت تصنع به كنان حمر مذهبة لامعة. والقرن والجفير جعبة مشقوقة فى جنبها لتهوة السهام حتى لا يتآكل ريشها.

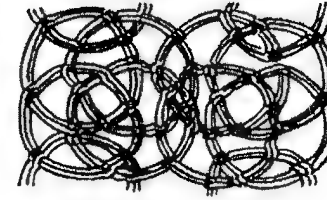
الدرع

هو القميص المتخذ من الزرد - أو السرد - وتنسب إلى فرعون مصر فيقال فرعونية. كما تنسب إلى داود وسليمان عليهما السلام. كذلك تنسب إلى الحطم بن محارب بن عمرو بن وداعة بن لكيز بن عبد قيس بن أفضى، أو إلى حطم أحد بنى عمرو بن مرثد بن بنى قيس بن ثعلبة فيقال: «الحطمية». والدرع السلوقية نسبة إلى سلوق، قرية باليمن. وقد لبس رسول الله ﷺ الدرع فى الجروب، وكان له درع اسمها البتراء كانت على الحسين يوم قتل، وكان على سعد بن معاذ يوم الأحزاب درع من حديد مقلصة خرجت منها ذراعه كلها.

(١) الكامل للمبرد ١/ ١٩.

(٢) فتوح البلدان ٣١٨.

(٣) البخارى ١/ ٥٩.



(شكل ٣)

نموذج لحلق متضافر

والدرع نوعان: نوع عبارة عن صفائح صلبة من حديد تثبت بالقميص فتبدو كفلوس السمك. ومن دروع الصفائح نوع صفائح كبيرة وتتحرك مع المفاصل بمفصلات. ونوع من الحلق المتضافر المتداخل بعضه في بعض بحيث يصد السيف والسهم والرمح فلا تنفذ منه. وكلما كان الدرع أقوى واستعصى خرقه أو النفوذ فيه، وكلما خف وزنه مع هذا كلما كان أفضل وأجود. ولذلك يعتبر الدرع المزروود من الحلق المتضافر أفضل من درع الصفائح. ومن دروع الحلق ما كان حلقه مزدوجاً زيادة في قوته، يقال له التؤام جمع تؤام. قال أوس^(١) بن علفاء الهجيمي:

أعان على مراس الحرب زَغَفٌ مُضَاعَفَةٌ لَهَا حَلَقٌ تُوَامُ
ومُطَرَّد الكعوب ومَشْرَفِيٌّ من الأولى مضاربه حُسامُ
ومُرْكُضَةٌ صَرِيحِيٌّ أبوها يَهَانُ لَهَا الغلامَةُ والغلامُ

وقد كان داود عليه السلام أول من صنع الدرع من الحلق المتضافر، وفي القرآن الكريم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِيبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلَسْلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوهاً شَهْرٌ وَرَوَّاحهاً شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمَاثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (٢).

قيل^(٣) كان داود لا يحتاج أن يدخل الحديد النار، ولا أن يضربه بمطرقة بل كان يفتله بيده

(١) دولة النساء لعبد الرحمن البرقوقي، زغف: درع محكمة، مطرد الكعوب: يعنى الرمح، والمشرقي: السيف، ومركضة: الفرس تركض.

(٢) سورة سبأ ١٠ - ١٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٢٧.

مثل الخيوط، ومثل هذا القول لا يتأتى عن فهم واستنتاج وإنما يلزمه الرواية والنقل وهو ما لم يقدمه من قال به فضلاً عن أن الآيات لا تفيد. وقيل كان داود يرفع في كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم. وقوله: «وقدر في السرد» أى احسب ما يلزم فلا ترقق الحلق فينكسر ولا تغلظه فيثقل دون داع، وإنما اجعله بقدر. والسرد هو حلق الحديد، فيقال درع مسرودة إذا كانت من الحلق. ومن الواضح أن عصر داود وسليمان قد صاحبتة نهضة صناعية خارقة سخرت فيها الجن فأقامت لسليمان المحاريب، وهى البناء الحسن، وقيل هى ببيان دون القصور. وأقاموا له جفاناً (جمع جفنة) كالجواب (جمع جابية) وهو الخوض الذى يجبى فيه الماء. والقدرور الراسيات: الثابتات فى أماكنها لا تتحرك ولا تتحول لعظمها، وهذا وذاك مما يلزم الصناعة وصهر المعادن والمسوكات، كما أسيلت له عين القطر، والقطر هو النحاس المنصهر. وأى صناعة لا تقوم على حديد لأن فى يد الصانع يشكله كيف شاء، ونحاس منصهر يصنع به ما يريد.

والدرع هى المقصود الثانى فى الآية ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَائِيلَ تَقِيَكُمُ بِأَسْكُمُ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (١).

أدوات أخرى

ومن آلة الحرب أيضاً البيضة، وهى ما يلبس فى الرأس مثل الخوذة من الحديد. والمغفر وهو: زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة. ومنها المِجَنُّ^(٢)، والترس، والدركة، وهى ثلاثة أسماء لمسمى واحد، وهو ما يعمل من بعض الجلود بلا خشب ولا ظهر يتقون به وقع السيوف على أبدانهم، ويحملونها على أذرعهم.

ومنها المنجنيق وهى آلة لرمى الحجارة، والعرادات أصغر من المنجنيق. وهما من آلات حصار الحصون. وقد نصب رسول الله ﷺ منجنيقاً على أهل الطائف، ونصب سعد بن أبى وقاص عشرين منجنيقاً على أسوار بهرسير.

ومنها الدبابات وهى عربة كانت تصنع من الخشب المكسو بالجلد يدخلها الرجال ويقتربون بها من جدران الحصون حتى تلتصق بها لينقبوها، وهى تحميهم من سهام عدوهم

(١) سورة النحل ٨١.

(٢) مختار الصحاح - وفى حديث مرسل أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقطع إلا فى ثمن الجن. وكان ثمن الجن يومئذ ديناراً - أسد الغابة ٣٥٣.

وحجارتهم وزيتهم المغلى ونيرانهم، وكانت أحياناً لا تفى بتوفير الدفاع ضد جميع هذه الأنواع من المقاومة والأساليب المضادة. ولم يكن العرب يصنعونها ولكن حدث أن اشتروها من الشام. يروى (١) المقرئ في حصار الطائف أن النبي ﷺ أرسل إلى جرّش (٢) وهي مدينة كانت في أرض البلقاء وحوران من عمل دمشق، في عمل الدبابات والمتجنيق وكانت تصنعها. وسميت كذلك لأنها كانت تدب ديبياً. ويروى أيضاً أن المسلمين دخلوا تحت دبابتين وزحفوا بهما إلى جدار حصن الطائف ليحفروا فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محمّاة بالنار فحترقت الدبابتين وكانتا من جلود البقر، فأصيب من المسلمين جماعة وخرج من بقى تحتها فقتلوا بالنبل.

الرايات والإعلام

كان اللواء - وهو العلم - في الأصل يمسكه رئيس الجيش. ثم صار يحمل على رأسه (٣)، يحمل له عنه غيره حتى يتفرغ هو للنظر إلى المعركة. واللواء غير الراية، فاللواء ما يعقد في طرف الرمح ويلوى عليه، أما الراية فهي ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح. فاللواء دون الراية وهو علامة لخل الأمير يدور معه حيث دار، وقد يكون لأمرء وحدات أصغر من القائد العام. والراية يتولاها صاحب الحرب. وكان من عادة العرب اتخاذ اللواء في حروبهم. وفي فتح خيبر فرق رسول الله ﷺ الرايات. ولم تكن راية قبل خيبر إنما كانت ألوية. فكانت راية النبي ﷺ سوداء تدعى العقاب (النسر) من برد (رداء) للسيدة عائشة رضي الله عنها، وكان لواءه أبيض. ودفع راية إلى علي بن أبي طالب، وراية إلى الحباب بن المنذر وراية إلى سعد بن عباد (٤). ولما رحل رسول الله ﷺ من ثنية الوداع في غزوة تبوك عام ٩ هـ عقد الألوية والرايات، فدفع لواءه الأعظم إلى أبي بكر رضي الله عنه ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام، وراية الأوس إلى أسيد بن الحضير ولواء الخزرج إلى أبي دجاجة، وأمر كل بطن من الأنصار والقبائل من العرب أن يتخذوا لواء أو راية (٥). كما عقد في يوم حنين ويوم الفتح لعمه العباس راية سوداء (٦).

(١) امتاع الأسماع وهامشه ٣٦٦ و ٤١٧.

(٢) هي الآن من أعمال شرقي الأردن إلى الشمال من عمان بحوالي ٣٥ كيلو متراً.

(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ٦٧ / ٢.

(٤) امتاع الاسماع ٣١٣.

(٥) امتاع الاسماع ٤٥٠.

(٦) صبح الأعشى ٢٧٠ / ٣.

وكانت عناية الفرس بالرايات والأعلام أعظم بكثير جداً من عناية العرب بها في الجاهلية أو في الإسلام. ففي حين لم تكن عند المسلمين سوى شيء - أي شيء - يرفع كعلامة تدل على مكان الأمير واتجاهه إذا تحرك ليتجمع حوله قومه، كانت عند الفرس مظهراً من المظاهر، انعكست عليها كل أبهة الملك وفخخة الدولة. فكانوا يصنعونها من الحرير الزاهي الألوان الكثير الرسم والشعارات.

كان من راياتهم وشاراتهم الحربية راية من النسيج شريطية الشكل، طويلة ورفيعة، تشبه الرباط تخفق على عصا. وفي بعض (١) النقوش الخاصة بهرام الثاني ظهر حامل الراية ممسكاً بقناة ثبت بها عارض من الخشب يعلوه ثلاث كرات، واحدة على كل من طرفيه والثالثة فوق القناة مباشرة. وكانوا عندما يبدأون الهجوم يلحون بعلم ناري اللون. وكان من أعلامهم ما عليه صورة أسد أمسك في مخالبه دبوساً وسيفاً، وهو قريب الشبه بشعار إيران، وعلم آخر أسود اللون عليه صورة ذئب، وعلم عليه صورة نمر وأعلام أخرى عليها غزال أو خنزير برى أو نسر ملكى أو تين له سبعة رؤوس متقابلة، وعلم عليه صورة حمار وحشى وآخر عليه صورة ثور، وعلم له أهداب عليه صورة قمر بلون أرجواني.

أما علم الدولة وراية فارس الكبرى، فهي العلم الملكي الساساني المشهور في التاريخ، المعروف (٢) بـ «درفش كابين» أو «درفش كاويان». وتقول بعض الأساطير القديمة أنه كان من فوطه حداد يدعى كاوه، كان قد بدأ يثير الناس على الملك الظالم الغاصب الضحاك الذي حكم الدنيا ألف عام، فرفع كاوه الجلد الذي يأتزر به على رمح ودعا الناس لعزل الضحاك وانتهت الثورة بسقوط الجبار واعتلاء أفريدون عرش الدولة القديمة. فدرفش كابين معناه علم كاوه، وقيل بل معناه العلم الملكي. وما وصلنا من أوصافها يرجع إلى آخر العهد الساساني - عهد الفتح الإسلامي. وقد وصف هذا العلم كثير من الكتاب الفرس والرواة العرب، كما رآه الفاتحون في القادسية، قال الطبري: «إنه راية كسرى وكانت من جلود النمر عرض ثمانية أذرع في طول اثني عشر ذراعاً (حوالي ٦ × ٤ متر)». ويقول البلعمي: «إن الفرس وقد ظفروا في جميع المعارك التي رفرف عليها هذا العلم أضافوا إلى زينته بعض الجواهر عقب كل انتصار. وكان مؤشّي بقطع الذهب والفضة والجواهر والآلي». وأضاف المسعودي إلى وصف الطبري: «أنه على خشب طوال موصل، وكانت مرصعة بالياقوت واللؤلؤ وأنواع الجواهر».

(١) إيران تحت حكم الساسانيين ٢٠٠.

(٢) إيران تحت حكم الساسانيين ٤٨٣.

وقال الخوارزمي: «إنه كان من جلد دب وقيل من جلد أسد. وكان يتيمن به ملوك الفرس، فغشوه بالذهب ورصعوه بالجواهر الثمينة». وقال الثعالبي: «إنهم كانوا يتبركون بها ويتنازعون الزيادة فيها والمغالاة بجواهرها ويتنافسون في محاسنها، حتى صارت على امتداد الأيام يتيمة الدهر وكريمة العمر وبكر الفلك ونكتة الحقب، فكانوا يقدمونها بين أيديهم في الحروب ولا يؤثرون بها إلا السالار (الرئيس) المقدم والرئيس المعظم من قوادهم وأصحاب جيوشهم. ثم إذا قضوا منها أوطارهم ردوها إلى خازنها اختاط عليها».

ويقول مطهر بن طاهر المقدسي: «إنه كان أولاً من جلد الماعز أو الأسد فجعله الفرس من الذهب والديباج. إن درفش كايان والتاج كانا من شعائر الملك، وكان يوضع حين الحرب بجانب تخت الملك، وكان هذا يعين خمسة من الموازنة (كبار رجال الدين) ليحملوه أمام الجيش وهو يسير للقتال. وكان يعطى أثناء المعركة لأكفأ أبطال الملك. ويقول ابن خلدون: «إن هذه الرواية قد طرز عليها طلسم أعد على حساب النجوم». ويقول الفردوسي: «إن علم الملك كان عليه صورة الشمس بلون بنفسجي ومن فوقها قمر مذهب». ويقول المسعودي: «إنها وقعت يوم القادسية في يد ضرار بن الخطاب فعوض عنها بثلاثين ألف درهم وكانت قيمتها ألفي ألف ومائتي ألف (٢٢٠٠٠٠)، وفي موضع آخر قال ألفي ألف دينار (٢٠٠٠٠٠٠ دينار)». أما الثعالبي فيقول: «إنها وقعت بيد رجل من النخع فضمها سعد بن أبي وقاص إلى جملة ما أفاء الله على المسلمين من روائع يزدجرد ونفائس جواهره وحملها مع التيجان والمناطق والأطواق المرصعة وغيرها إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فأمر بحلها وفتحها وقسمها بين المسلمين».

وهذا الخلاف في الرواية عن من سقطت في يده درفش كايان بالإضافة إلى هذا المصير الذي صارت إليه أشهر راية في التاريخ، ينم عن مدى اهتمام المسلمين الأوائل بهذه المظاهر. كان الفرس في واد وكان المسلمون في واد جد بعيد.

ركوب البحر عند العرب

تحيط البحار بالجزيرة العربية من شرقها وجنوبها وغربها، وقد يتبادر إلى الذهن أن يتيح هذا للعرب أن يكونوا أمة بحرية. ولكننا إذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أن الشاطئ الغربي لجزيرة العرب الواقع على البحر الأحمر تحرسه من الشمال إلى الجنوب شعاب مرجانية غاطسة تشكل أكبر الخطر على الملاحة، فضلاً عن أن سكان تلك الجهات لم يتصلوا بجيرانهم من الروم والأحباش اتصال صناعة، ولم نقف قط على أنه كانت هناك صلات بحرية بين العرب والروم، وإنما كانت تجارة قريش تسلك المسالك البرية فحسب، حتى أنه حين هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة - إبان الاضطهاد الوثني في بدء ظهور الإسلام وعبروا البحر في هجرتهم تلك - كان ذلك حدثاً في تلك البيئة، حتى عرفوا بأصحاب السفينة. غير أن الاتصالات بين اليمن والحبشة تقطع بوجود الملاحة في تلك الجهات الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة. أما إذا سرحنا بأبصارنا تجاه الشرق وجدنا الخليج العربي «بحر فارس» وكان للفرس فيه ملاحا، ولسفن الهند والسند (هي اليوم باكستان الغربية) والصين غدو ورواح نحو الأبله، بل وكانت تدخل في دجلة وفي الفرات حتى الحيرة، فكان من الطبيعي أن نجد عرب تلك التخوم قد عرفوا ركوب البحر وذكروه في شعرهم وقصيدهم. وفي معلقة عمرو بن كلثوم - وكان من ربيعة - قوله في الفخر:

ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفينا

وفي القرآن الكريم ترداد لذكر ركوب البحر من مثل قوله: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾^(١). وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٢). وقد عرفوا السفن الشراعية والسفن بالمجاديف^(٣)، ولم يعرف الملاحة النهرية منهم إلا الذين نزلوا العراق.

(١) سورة الإسراء ٦٦.

(٢) سورة الإسراء ٧٠.

(٣) بلوغ الأرب ٣/ ٣٦٦.

مصادر السلاح للعرب

من أين للعرب بهذا السلاح المتنوع، ولم يكونوا أمة صناعية بل لقد كانوا يحتقرونها على ما ذكر ابن خلدون؟ فمن أين لهم بهذه الأنواع المتعددة؟

ذكرنا فيما سبق أن بعض العرب كان يصنع سلاحاً مثل الرماح الردينية والقسي الماسخية ومثل السيوف الهالكية، غير أنه وبدون شك كان ذلك قليلاً جداً لا يفي بحاجة قبائل العرب في شبه الجزيرة. ومن المعلوم أن العرب كانت لهم تجاراتهم مع جيرانهم، مع اليمن والحبشة ومع الحيرة وفارس ومع الشام. وكانت لقريش^(١) بصفة خاصة رحلتان تألفهما وترجع آمنة في أسفارها لتعظيم سائر العرب لها، ذكرهما القرآن الكريم في سورة قريش فقال: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)﴾. كانت رحلة الشتاء إلى اليمن فتعود بمصنوعات اليمن وحاصلاتها وما انتقل إلى اليمن من الحبشة أو الهند أو فارس. وكانت رحلة الصيف إلى الشام وإلى الحيرة بالعراق فتأتي بمنتجات الشام ودولة الروم، كما تأتي بمنتجات الحيرة وما انتقل إليها من فارس والهند والصين. كذلك كانت تنقل بضائع هذه الأسواق إلى بعض.

وبطبيعة الحال كان السلاح مما ينتقل إلى شبه الجزيرة فيما ينتقل إليها من جميع هذه الأسواق مما يحتاج إليه العرب. يعني السلاح الرومي والسلاح الفارسي والهندي والحبشي. وهذا مصدر ثان.

كذلك كان اليهود الذين سكنوا شبه الجزيرة في المدينة وفي خيبر أهل صناعة يجيدون الصياغة والسبك بصفة خاصة. كانوا صاغة يسبكون الحلى من الذهب فينتقل إليهم عرب شبه الجزيرة يشترون الحلى لنسائهم.. كما كانوا يسبكون السلاح ولاسيما السيوف والدروع يبيعونها تختلف القبائل العربية ليتقاتلوا ويقتل بعضهم بعضاً حتى يتسنى لهم هم العيش الآمن خلف حصونهم، شأن تجار الحروب في كل زمان ومكان. وما زال ذلك دأبهم إلى يومنا هذا، وقد برع اليهود في هذه الصناعة التي ظلت تنتقل إليهم جيلاً بعد جيل منذ كان

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٥٣.

داود وسليمان عليهما السلام.

نستطيع إذن أن نقرر أن السلاح الذي كان في أيدي العرب قبل الإسلام وصدره حتى بدأت حركة الفتوح عام ١٢ هـ قد انتقل إليهم من كافة هذه المصادر. كان لديهم سلاح قليل صنعوه، وكان لديهم سلاح من الحبشة ومن الهند وسلاح من فارس ومن الشام. ونستطيع أن ندرك أن السلاح الفارسي أو الرومي لم يكن هو السلاح الرسمي - الميرى - الذي كان يتسلح به جيش الفرس أو جيش الروم، وإنما هي أنواع أخرى من الصناعة الشعبية - كذلك كان لدى العرب سلاح يهودى صنعه يهود شبه الجزيرة وباعوه إلى العرب أو وقع في أيدي المسلمين كغنيمة حرب. فقد نتج عن غزوة بنى النضير في العام الرابع الهجرى أن جلوا عن المدينة ولهم ما حملت الإبل إلا الحلقة (يعنى السلاح) فغنم المسلمون منهم خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفاً^(١). كما غنم المسلمون من بنى قينقاع ٥٣٠٠ قطعة سلاح، منها ٢٥٠٠ سيف و٣٠٠ درع و٢٠٠٠ رمح و١٥٠٠ ترس وحجفة، وبعث رسول الله ﷺ بطائفة من سباياهم إلى الشام لبيعهم وشراء سلاح^(٢) وخيل بثمانهم. وفي فتح خيبر في العام السابع الهجرى غنم المسلمون من حصن الصعب آلة الحرب ومنجنيقاً ودبابات كما وجدوا في أرض خيبر ٥٠٠ قوس عربية و١٠٠ درع و٤٠٠ سيف و١٠٠٠ رمح^(٣). وفي العام التاسع للهجرة فتح خالد بن الوليد دومة الجندل بأمر رسول الله ﷺ - وهذه لم يكن أهلها يهوداً - وصالح أكيدر بن عبد الملك صاحب حصنها على أشياء منها: ٤٠٠ درع و٤٠٠ رمح و٢٠٠٠ بغير و٨٠٠ رأس^(٤). أما بعد الانتصارات الأولى للمسلمين في فتوحهم فمما لا ريب فيه أنهم غنموا سلاحاً فارسياً ورومياً.

كان سلاح المسلمين إذن متعدد الماركات، متنوع الشكل والجودة وجهة الصنع. كان في يد كل منهم ما تسنى له الحصول عليه شراء أو مغنماً أو صنعاً. وهذا يفسر لنا إطلاق أسماء على قطع السلاح، فمثلاً كان الرسول ﷺ سيفه العَصْب^(٥) الذي شهد به بدرًا. وغنم في بدر سيفه^(٦) ذا الفقار. وأصاب من سلاح بنى قينقاع ثلاثة أسياف، القلعي والبتار والحشف، وكان

(١) إمتاع الأسماع ١٨٠ - ١٨٣.

(٢) إمتاع الأسماع ٢٤٥ - ٢٥٢.

(٣) إمتاع الأسماع ٣١٣.

(٤) إمتاع الأسماع ٤٦٥.

(٥) العصب في اللغة هو القاطع - الكامل للمبرد ٢٦/ ١.

(٦) إمتاع الأسماع ٩٥.

عنده بعد ذلك المخزّم ورسوب أصابهما من القلس^(١). كما أصاب من بنى قينقاع ثلاثة رماح وثلاثة قسي هي: الروحاء وقوسا شَوْحَط (من شجر الشوحط) تدعى البيضاء، وقوساً صفراء تدعى الصفراء من شجر النبع، وأصاب منهم أيضاً درعين: السعدية وفضة. وكان عليه يوم أحد درعه ذات الفضول ودرعه فضة، وكان عليه يوم خيبر درعه ذات الفضول ودرعة السعدية، وكان له ترس فيه تمثال رأس كبش^(٢). كما غنم سعد بن أبي وقاص يوم بدر سيفه ذا الكتيفة. وغنم مالك بن أسيد سيفاً اسمه المرزبان^(٣). نقول: لو لم تختلف هذه الأسلحة في أشكالها وصفاتها لما تعددت أسماؤها.

الباب الرابع

الدولة الساسانية

(١) الطبري ٣/ ١٨٥.

(٢) الطبري ٣/ ١٨٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٨٣.

بنو ساسان

كانت العراق قطعة من سلطان فارس تحت حكم بنى ساسان حين غزاها المسلمون عام ١٢ هـ. وبنو ساسان^(١) - الأسرة المالكة - تنسب إلى رجل من عائلة نبيلة عاش في أواخر عهد الدولة الإشكانية، وكان سادناً لبیت نار أناهید فی إصطخر ثم خلفه ابنه بابك في وظيفته، واستطاع هذا أن يعين أحد أولاده الصغار أردشير في الوظيفة العسكرية الكبرى على مدينة دارابجرد. وفي حوالي ٢١٢ م أصبح أردشير سيداً على كثير من مدن الإقليم بالغلبة أو بقتله حكامها. بينما ثار أبوه بابك على قريبه الملك جوتشهر وقتله وولى مكانه. ومات بابك فارتقى مكانه ولده الأكبر سابور واشتعلت الحرب على تنازع السلطة بينه وبين أخيه أردشير، ولكن سابور مات فجأة وكان له إخوة آثروا السلامة فمتحوا التاج دون منافسة إلى أردشير فقبله منهم، غير أنه خشى من وجودهم فقتلهم.

وغزا أردشير كرمان وسواحل الخليج الفارسي والأهواز وميسين Mésène عند مصب نهر دجلة. وفي هذا الوقت وفدت قبائل عربية من التي نزحت من اليمن بعد إنهيار سد مأرب واستقرت في الحيرة غربي الفرات في زمن معاصر لنشوء الدولة الساسانية، فنشأت إمارة عربية تابعة للدولة الساسانية واعتبرت حصنهم حيال العرب الرحل. ثم نشبت معركة أخيرة بين أردشير وجيش الإشكانيين الذي قاده أردوان آخر ملوكهم وانتصر أردشير في ٢٨ ابريل (نيسان) ٢٢٤ م ودخل المدائن. ثم أخضع بابل لطاعته ثم ميديا وهمدان وأذربيجان وأرمينية ثم سجستان وخراسان وخرارزم وبلخ. وأرسلت أقاليم أخرى سفراءها إليه معترفين بسيادته، فتوج نفسه شاهنشاه (يعني ملك الملوك) لفارس وتابعه أبناؤه على ذلك فكانوا يصفون أنفسهم بأنهم كائنات إلهية آل إليهم الحق الإلهي في ملك فارس. ونقل أردشير عاصمته من إصطخر إلى سلوقية (المدائن) التي كانت خارج الأراضي الفارسية بالمعنى الحقيقي وكانت دولة الروم الكبيرة على أبوابها. ومات أردشير في ٢٤١ م وتوالى على عرش فارس حوالي ثلاثون من بنى ساسان كان آخرهم الأكاسرة الآتية أسماؤهم:

(١) إيران في عهد الساسانيين ٧٤ - ٨٣.

طبقات المجتمع الفارسي

كان في فارس أيام الساسانيين سبع طبقات^(١) :

الملوك

وهم الطبقة الأولى (شهر داران) ويحملون لقب ملك. وقد سوغ هذا الملك فارس أن يحمل لقب ملك الملوك (شاهنشاه). وتشمل هذه الطبقة الأمراء التابعين الذين يحكمون أطراف الدولة وحكام الإمارات، وأولئك الذين ضمن لهم ملك فارس الإمارة لهم ولذويهم من بعدهم نظير خضوعهم مع التزامهم بوضع قواتهم الحربية تحت تصرفه وأداء جزية معينة. وربما كان من هؤلاء ملوك الحيرة والبحرين. وقد كانت الدولة مقسمة إلى أربع إيالات يحكم كل إيالة منها مرزبان من هذه الطبقة يحمل لقب شاه. وكان يضاف إليهم الحكام المنتسبون إلى الأسرة الساسانية. ولقد كان أبناء الملوك يولون حكم الإمارات، وخاصة الذين يؤمل فيهم ارتقاء العرش، كنوع من المزان على الحكم.

الإشراف

وهم الطبقة الثانية (واسبوران) - وهي طبقة العائلات السبع الممتازة - وكان لكل من هذه الأسر منطقة نفوذ من مناطق فارس تقيم بها ويظهر فيها سلطانها، هذا إلى جوار انخراطهم في البلاط. وجميع الألقاب التي تنتهي بمقطع «آن» تدل على أسرات إقطاعية أو فروع منها. وكان الرعايا ملزمين بدفع الضرائب إما إلى سيد الإقطاع أو إلى الدولة أو إليهما جميعاً، كما كانوا ملزمين بأداء الخدمة العسكرية تحت رئاسة سيد الإقطاع. كذلك كان للدولة إقطاعات يديرها حكام من قبل الملك مباشرة تشمل قسماً له أهميته واعتباره من مساحة فارس.

(١) إيران في عهد الساسانيين ٨٤.

كسرى الثاني بن هرمز الرابع ٥٩٠ - ٦٢٨ م وهو كسرى برويز.
قباد الثاني (شبيرويه) بن ٦٢٨ - ٦٣٣ م بدأت حملة خالد بن الوليد مايو (آيار) -
كسرى الثاني
قباد في أواخر مايو (آيار) ٦٣٣ م.

أردشير الثالث بن شبيرويه ٦٣٣ م
شهر براز (ثورة وقتل أردشير) ٦٣٤ - ٦٣٥ م في عهده كانت موقعة بابل مع المشني بن
حارثة. ومات شهر براز مع الهزيمة في
أواخر مايو (آيار) بعد أن ملك ٤٠ يوماً.

آزرميدخت
بوران بنت كسرى برويز ٦٣٥ م
يزدجرد الثالث بن شهريار بن
كسرى برويز
ملكت بضعة أشهر قبل بوران.
حتى آخر سبتمبر (أيلول) ٦٣٥.
آخر الأكاسرة.

وقد كانت بعض المناصب العامة تورث بين أفراد الأسر السبع الممتازة مثل وظائف تنويع الملك، وإدارة شئون الحرب والإدارات المدنية وفض المنازعات بين المتخاصمين الراغبين في التحكيم، وقيادة الفرسان وجباية الضرائب ورعاية الكنوز الملكية، والعناية بالأسلحة والتعبئة الحربية. ويذهب كريستنسن إلى أن الوظائف الوراثية في الدولة لا بد كانت وظائف شرفية استناداً إلى أنه لا يعقل أن تكون وظيفة هامة كقيادة الجيش تنتقل بالوراثة وألا يكون للملك حق الخيار بين مستشاريه. والذي نراه أن هذه الوظائف لم تكن تورث كما يورث العرش وإنما كانت حكراً على طبقة معينة محصورة في هذه الأسر السبع، فلم يكن الملك ليختار قائد جيشه من عامة الشعب حتى ولو ظهرت بطولته. وهو ما نلاحظه في كل ما ورد عن قادة الفرس الذين قاتلوا المسلمين. فقد كان هرمز قائدهم في ذات السلاسل من بيوتات الشرف وله قلنسوة تدل على ذلك. وكان قباذ وأنو شجان على ميمنته وميسرته وهما يمتان إلى بنى ساسان بأواصر القربى، وكان نرسی قائدهم في السقراطية من هؤلاء الأشراف. وكان بندويه بن بسطام وأخوه تيرويه قائداً ميمنته وميسرته ابني خال كسرى وابني خال نرسی. وكذلك رستم قائدهم في القادسية وكان قبلها أميراً على خراسان. كذلك مهران بن بهرام جوبين قائدهم في عين التمر، ومهران بن باذان قائدهم في البويب وكان أبوه عامل كسرى على اليمن، ومن هذه البيوتات أيضاً كان بهمن جاذويه قائدهم في معركة الجسر... إلخ.

وقد لبث الواسبوران يتساندون زمناً طويلاً بعد سقوط الدولة الساسانية. كتب ابن حوقل في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يقول: «وفارس سنة جميلة وعادة فيما بينهم كالفضيلة من تفضيل أهل البيوتات القديمة وإلزام أهل النعم الأولية، وفيها بيوت يتوارثون فيما بينهم أعمال الدواوين على قديم أيامهم إلى يومنا هذا».

رجال الدين

والطبقة الثالثة رجال الدين، وقد اعتبر الساسانيون الدين المجوسى الزرادشتى هو الدين الرسمي، ورفعوا شأن رجال الدين، وكان عددهم كبيراً جداً، فقد دعي إلى المجلس الأول منهم ثمانون ألفاً وقد تضاعف هذا العدد بعد ذلك، ثم اتخذ الملك منهم مجلساً من سبعة للمشاركة في الأمور، وهم أعظم الجمع في التقوى والمعرفة، وكانت بلخ هي مقر المجوسية ومركزها. وكانت أملاكهم واسعة وكان من سلطتهم فرض الضرائب. ومن الأقوال المنقولة عن زرادشت منشئ هذه الديانة - وكانوا يلتقونها الناس: «ولو أن حسناتكم تتجاوز عدد

أوراق الشجر وقطرات المطر ونجوم السماء ورمال الشاطئ، فلن تكون نافعة مقبولة إلا إذا قبلها الموبدان! (رجل الدين)».

ولم يسمح أردشير بأى دين آخر في فارس، ونتج عن ذلك اضطهاد الأديان الأخرى ولا سيما اليهودية والنصرانية. وقد اشدت اضطهاد المسيحية بصفة خاصة بعد اشتباك الفرس والروم في حروب مستمرة. وبالرغم من ذلك فقد ظل عرب الحيرة وعرب الجزيرة من اللخمين الذين انتشرت فيهم النصرانية موالين للفرس في كافة حروبهم مع الروم. كما ظل عرب الشام من الغساسنة الذين انتشرت فيهم النصرانية أيضاً موالين للروم. ولم تشفع نصرانية هؤلاء ولا هؤلاء للحيلولة دون أن يلتحموا كلما التحمت فارس والروم. ومن أجل ذلك لم يكن غريباً بل كان طبيعياً أن نجد هؤلاء هؤلاء كل قد انضم إلى أسياده في قتال المسلمين غزاة العراق أو الشام. ولكن ظل هؤلاء العرب بعيداً عن دين الفرس لم يعتنقوه.

وكان على رأس رجال الدين الزرادشتى موبدان موبد وهو بمثابة البابا عند النصارى. وكانوا عدة أقسام، فمنهم الحكام، والعباد، والمغان وهم السدنة الروحانيون للدين الزرادشتى، والزهاد والسدنة (الهربدان) ثم علماء مختلفون، ثم المراقبون (دستوران) والمعلمون. وكانوا من قبيلة واحدة (مغان). وقد ساروا مع نبلاء الإقطاع جنباً إلى جنب. وكان لرجال الدين إجراء أحكام الطهارة والاعتراف والعفو والغفران والحكم بالغرامة بعد الإقرار بالذنب (ككفارة) ومراسم الزواج والميلاد والجنائز وقراءة الطالع. وكان على الفرد أن يصلى للشمس أربع مرات نهائياً وللقمر وللنار وللماء. وكان التعليم الابتدائي والعالي بأيدي رجال الدين.

رجال الحرب

والطبقة الرابعة رجال الحرب (ارتشتاران) وعلى رأسهم إيران سباهيد، وهم من الفرسان وكانوا زهرة الجيش الساساني، ثم الرجالة (المشاة)، ولكل من القسمين رتبة وموظفوه. وكان ضباط الجيش يسمون الأساورة، وكانوا يعيشون إبان السلم من ريع أراضيهم. وكان إيران سباهيد يجمع بين وزارة الحرب والقيادة العامة للجيش والقيام بمفاوضات الصلح، كما كان من مستشاري الملك. وكان من مزايا القواد أن يدخلوا المعسكرات على صوت الطبل. وكان من رجال الحرب أيضاً الحرس الملكي. أما فرق المشاة فكانوا يستخدمون في الأقاليم كشرطة أو جلادين، كذلك كانت فرق الرماة تلحق بالقرية. وكان هناك موظف كبير هو مؤدب

الأساورة مهمته تعليم أبناء المحاربين في المدن والرساتيق حمل السلاح وآدابه . ولم يكن يحق لسوى هذه الطبقة أن يتولى وظائفها . ولعل هذه الطبقة كان جانباً من الطبقة الثانية ، طبقة الأسر السبع الممتازة إذ لم يكن الفرسان الأساورة يخرجون عن هذه الطبقة .

الكتاب

الطبقة الخامسة كتاب الدواوين (ديبران) على رأسهم إيران دبيرد، وينقسمون إلى كتاب الرسائل وكتاب الحسابات وكتاب الأقضية... إلخ ويدخل فيهم الشعراء والأطباء والمنجمون.

الدهاقين

والطبقة السادسة دهكانان، وهم الدهاقين رؤساء القرى وكانوا يستمدون قوتهم من الملكية الوراثية للإدارة المحلية. وكانوا أساساً متيناً للإدارة، فهم الرؤساء وملاك الأراضي والقرى ولم تكن أملاكهم واسعة جداً كالإقطاعيات، وإنما كانوا أشبه بالعمد. وكانت وظيفتهم الأصلية استلام الضرائب، وإليهم يرجع الفضل في تمويل الدولة. وكانوا مثقفين إلى حد ما وقد ظلوا إلى ما بعد سقوط دولتهم بعدة قرون يحفظون شيئاً من تاريخهم وآداب ديانتهم^(١).

الشعب

أما الطبقة السابعة فهي طبقة الشعب من الفلاحين والصناع، ويدخل فيهم الرعاة والتجار وأهل الحرف. وكان كثير من التجار يستطيع القراءة والكتابة والحساب، أما عدا ذلك فثقافة أفراد الشعب كانت ضئيلة جداً.

(١) إيران في عهد الساسانيين ٤٠٠ .

النظام الحربي للفرس^(١)

اتجهت سياسة أردشير وخلفاؤه الأوائل إلى حماية حدود الدولة في الشرق والشمال والغرب وإعداد الدفاع عنها. وقد أدمجت طوائف الجند التي كانت تتبع قبل ذلك صاحب الإقطاع في الجيش المنظم. وكان أكبر الألقاب العسكرية وراثياً في الأسرة المالكة، كما كانت وظيفتا رئيس شئون الجيش وقائد الفرسان وراثيتين في أسرتين من الأسر الكبيرة.

وصف الضابط الروماني آمين مارسلن Ammien Marcellin جيش الفرس فقال: «إن نخبته كانت تتكون من الفرسان الدارعين النبلاء (أسواران - وهم الأساورة)، وكان لهم المقام الأول في المعارك، وكانت نتيجة المعركة تتوقف على قوتهم وشجاعتهم. وكان الفرسان يلقون ضد الروم بأفواج منظمة من الفرسان المدرعين في صفوف كثيفة كل الكثافة، فكان بريق الدروع يعكس هبة تبهر الأبصار. وكانت هذه الفرق كأنها صيغت من حديد وقد غطى كل جسد بالواح ملتصقة تتحرك مفاصلها الحديدية في يسر وفقاً لحركة أعضاء الجسم، كما كان للوجه قناع يحميه، فكان من المتعذر إصابة الفارس ما لم يسدد الطعن أو يوجه السهم إلى الفتحات الصغيرة قبالة العينين، أو ثقبى التنفس الدقيقين أمام الأنف. وكان بعض الفرسان المسلحين بالحرايب يقفون بلا حراك حتى كأنهم جمادات، ويقف بجانبهم الرماة، وقد مدوا أذرعهم ليشدوا الأقواس المرنة بحيث يلمس الوتر الجزء الأيمن من صدورهم، بينما السهم معلق في أيديهم اليسرى، وكان السهم ينطلق فيدوى في الفضاء نحو هدفه». ويقول آمين: «إن الفرس مع ذلك لم يكونوا ذوى بأس في الحروب ولم يتعودوا النضال في جسارة إلا أن يكونوا على مسافة بعيدة من أعدائهم، فإذا بدأت فرقهم في التراجع فإنهم يتقهقرون سراعاً كالريح، مطلقين سهامهم من خلفهم - ليخففوا من ضغط مطاردتهم».

قال آرثر برني^(٢) Arthur Birnie: «كانت قوة الفرس عموماً قائمة على الفرسان والرماة، وكان أسلوبهم في القتال أن يمتطروا العدو سهاماً، ثم يكتسحونه بهجوم الفرسان في

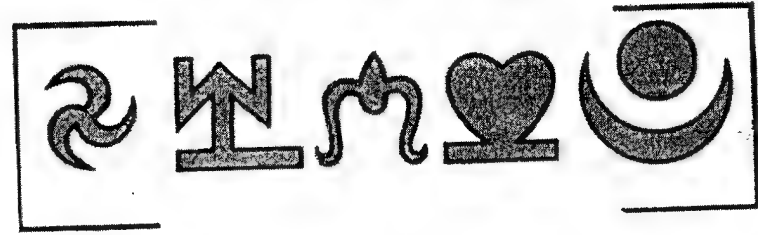
(١) إيران في عهد الساسانيين ١٩٦ .

(٢) عبقرية خالد ١٨٦ عن The Art of War .

التوقيت الملائم. وقد نجح هذا الأسلوب مع الرماة الميديين ومع الفرسان حاملي الرماح الليديين ومع المشاة الثقيلة من البابليين والمصريين. لكنها فشلت مع الإغريق بسبب ضعف فرق المشاة الفارسية، فإذا ما تمكن جنود الإغريق من الاقتراب - ويتوقف كل شيء على هذا - عاجلوا مشاة الفرس بسيفوفهم القصيرة ودروعهم الصغيرة». وأغفل الكاتب الغربي كعادة الغربيين فشل هذا التكتيك الفارسي في مواجهة المسلمين، ولكن القائد المسلم المشي بن حارثة الشيباني ذكره في حديث له مع قواد وحدات جيشه بعد معركة البويب^(١)، قال: «... فلا يروعنكم زهاء (منظر) ترونه ولا سواد (كثرة) ولا قسي فح (أجود أنواع القسي) ولا نبال طوال، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها، كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت». وسنرى أنه كلما التقى المسلمون بالفرس عاجلوهما بالهجوم حتى يلتحموا بهم. والسيف هو سلاح الالتحام الذي يتفوق به المسلمون على الفرس وليحرموهم من فرصة استعمال القسي والسهام التي يجيدون استخدامها، والتي كان المسلمون أيضاً يجيدون استخدامها، ولكن الاشتباك بسلاح يبرزون فيه أعداءهم، كان أصلح لهم من الاشتباك والتراشق بسلاح يتساوون في مهارة استخدامه.

وكان لدى الساسانيين فرقة من عشرة آلاف من الفرسان المختارين تسمى «فرقة الخالدين» وفرقة أخرى من الفدائيين تمتاز بالجأرة وتحدى الموت.

وقد وجد في بعض النقوش الساسانية علامة على بعض القلنسوات الطويلة لرجال يلتفون حول الملك، لعلها العلامات التي كانت تميز الضباط من الفرق المختلفة منها:



شكل رقم (٤) - إشارات ضباط الفرق الفارسية

وكان الفرس يستخدمون الأفيال في القتال. وكانت الفيلة تتخذ مكانها خلف الفرسان، وكانت أصواتها ورائحتها ومناظرها غير المألوفة لأعدائهم تلقى الرعب فيهم وفي خيلهم.

(١) انظر معركة البويب في الجزء الثالث.

وكان سائسوها يركبونها وفي أيديهم اليمنى سكاكين ذات مقابض طويلة، فإذا ما دحر الفيل فارتد إلى صفوف الفرس يدوسهم، وكان هذا يحدث أحياناً، فيبادر الفيال إلى قتله بإغمار السكين بين عظام رقبتة.

وكانت مؤخرة الجيش تتألف من (بايكان) وهم^(١) المشاة من أهل القرى الذين يسخرون للحرب دون أجر أو غيره من المثوبة، وكانوا على الأقل مدرعين بدروع مستطيلة ومقوسة من الخيزران المشابك المغطى بجلد غير مدبوغ. وهم جنود غير مهرة بوجه عام. خطب الإمبراطور الرومي جوليان في جنده فأشار بإصبعه إلى بعض الأسرى الفرس وقال: «إنهم معززة قدرة قد مسختهم القدرة وهم يلقون السلاح ويولون الأدبار قبل أن يتدبرهم أحد بالحرب». وكانت الفرق المختدة من الشعوب المخاربة في أطراف الدولة (مثل عرب الحيرة) أكثر نفعاً في الحرب من المشاة الفلاحين. وكانت الوحدات الكبيرة من الجند تسمى «كند»، أما «درفش» فكانت فرقة أصغر (درفش معناها لواء)، وكانت وحدات أصغر من ذلك تسمى «وشت»^(٢).

وفي عهد كسرى^(٣) أنوشروان ٥٣١ - ٥٧٩م أجرى إصلاحاً مالياً قضى به على الظلم الذي كان واقعاً على دافعي الضرائب واستهدف به في الوقت نفسه، أن تكون الأموال تحت يده في أي وقت لأغراض الدفاع والحرب. وتبع ذلك إصلاح حربي. فقد كان أفراد الجيش مجبرين على الجندية بلا أجر، بل كان عليهم فوق ذلك أن ينفقوا على أسلحتهم. وكان المشاة من الفلاحين البؤساء يعملون في الجيش لهدم الأسوار وسلب القتلى وخدمة الفرسان. وتفقد أنوشروان الأساورة، فمن لم يكن منهم ميسوراً أمده بالدواب والعدة وأجرى لهم ما يقوهم. وكان سلاح الفارس أيام أنوشروان ثقيلًا يتكون من تجافيف (دروع للفرس)^(٤) وللإنسان) ودرع وجوشن (درع صدر لا ظهر له) وساقين وسيف ورمح وترس وجُرْز (عمود من حديد) تلزمه منطقة، وطبرزين (بلطة)^(٥) للقتال) أو عمود وجعبة فيها قوسان بوتريهما وثلاثين نشابة، ووترين مضفورين يعلقهما الفارس في مغفر له ظهرياً. وكان السلاح الرئيسي عندهم القوس والنشاب، وهو السلاح التقليدي القديم لدى الفرس الذي يحسنون استخدامه



طبرزين

(١) كريستنسن ١٩٨.

(٢) إيران في عهد الساسانيين ٢٠٠.

(٣) إيران في عهد الساسانيين ٣٥٢.

(٤) المنجد.

(٥) الطبر والطبرزين الفأس من السلاح - المنجد.

منذ أقدم العصور. وقد شهد لهم بروكوب القيصري Procope من ضباط الروم، الذي يعتبر ما كتبه من المصادر الرئيسية عن حروب الروم مع الفرس في عهد قباذ الأول وكسرى أنوشروان، فقال: «إن الفرس يجيدون جميعاً رماية السهام وهم أمهر الناس في استعمال هذا السلاح، ولكن رميهم السهم يحتاج دائماً إلى قوة لأن أوتار الأقواس ليست محكمة الشد».

وقد نقل ابن قتيبة عن الآيين (بعض كتبهم) بعض تعاليم الفرس وتعليماتهم لمقاتليهم. فيذكر عن الكمائن أنه ينبغي أن تختار لها أماكن قريبة من الماء حتى ينال الجند منه إن طال مكثهم، وألا يخيفوا سباعاً ولا طيراً ولا وحشاً. وأن يكون إيقاعهم كضرم الحريق وأن يجتنبوا الغنائم، وينهضوا من المكمن متفرقين إذا ترك العدو الحراسة وإقامة الرماة، وإذا سرح دوابه للرعى. ويذكر أيضاً البيات (الهجوم الليلي) وما يجب أن يصحبه من ضجة وضوضاء لإلقاء الرعب في نفوس الأعداء، وأن ينتهزوا فرصتها إذا هبت الريح، أو في أصوات خريف الماء وأن يتوخى بالوقعة نصف الليل أو أشد ما يكون إظلاماً، وأن يصير جماعة من الجند في الوسط ليسمع بالضجة والضوضاء من ذلك الموضع وأن يُشرد قبل الوقعة من دوابهم بقطع أرسابها (أحبالها) وهمزها بالرمح في أعجازها وأن يهتف هاتف ويقول: «يا معشر أهل العسكر: النجاء النجاء فقد قتل قائدكم فلان وقتل وهرب خلق»، ويقول آخر: «أيها الرجل استحيى لله»، ويقول آخر: «العفو العفو»، وآخر يقول: «أوه أوه»، وهكذا. ويتناول أيضاً حيل محاصرة الحصون وكيفية الوصول إلى أسرار أهل الحصن وكيفية إفزاعهم، وذلك بأن يدس فيهم من يصغر شأنهم ويؤيسهم من المدد. أو بكتابات ترسل إليهم على نشاية فيها تثبيط لهممهم مثل «إياكم أهل الحصن والاعتذار وإغفال الحراسة، عليكم بحفظ الأبواب فإن الزمان خبيث وأهله أهل غدر، فقد خُدع أكثر أهل الحصن واستمِلوا». وأن يطاف حول الحصن ويشار إليه بالأيدي كأن فيه مواضع حصينة وآخر^(١) ذليلة.

وفي الآيين: من إجادة الرمي بالنشاب في حالة التعلم إمساك المتعلم القوس بيده اليسرى بقوة عضده الأيسر، والنشابة بيده اليمنى وقوة عضده الأيمن، وكفه أصدريه^(٢)، وإلقاؤه ببصره إلى معلّم الرمي (الهدف) وإجادته نصب القوس بعد أن يطأطي من سبّتها بعض الطأطأة وضبطه إياها بثلاث أصابع وإضاؤه السبابة على الوتر وإمساكه بثلاثة وعشرين كأنها ثلاثة وستون وضمة الثلاث ضمّاً وتحويله ذقنه إلى منكبه الأيسر وإشرافه (رفعه) رأسه

(١) عيون الأخبار ١٠ .

(٢) الأصدرا عرقان تحت الصدغين - المنجد .

وإرخاؤه عنقه، وميله مع القوس وإقامته ظهره وإدارته عضده ومغطه القوس مترافعاً، ونزعه الوتر (شده) إلى أذنه ورفع به بياض عينيه من غير تصريف لأسنانه وتحويل لعينه وارتعاش من جسده، واستبانته موضع^(١) رجحة النشاب.

ومنذ عهد كسرى أنو شروان أصبحت لكلمة أساور (فارس) قيمة أخرى وأصبح الفرسان وأبناء الملوك هم الطبقة الأولى في بلاط كسرى، وكان الملك يختارهم رفقاء في السفر، وقد كلف عدد منهم بتربية أبناء كسرى برويز. وقد استخدم أنو شروان الأسرى في الأغراض الحربية حتى أنه غزا اليمن بقائد من قواده في جند من أهل الديلم. وألغى أنو شروان وظيفة إيران سباهيد ووزعها على أربعة إصبهيدز، واحد للمشرق وخراسان والثاني للعراق حتى حدود الدولة البيزنطية، والثالث لليمن، والرابع لأذربيجان وما والاها. ولكل واحد من هؤلاء خليفة هو المرزيان، ويبدو أنه كان أشبه بالمحافظ أو المدير في إقليمه .

(١) عيون الأخبار ٢٩ .

يجدوا الإيرانيين يبيحون التزوج من أمهاتهم أو أخواتهم أكثر مما راعتهم عادة عرض الجيف التي هي عادة مقدسة واجبة .

وكان للشمس عندهم حرمة عظيمة، وكانوا يعبدونها ويقسمون بها . وفي إبان الاضطهاد الساساني لنصارى إيران كانوا يؤمرون بعبادة الشمس^(١) . وكان تقديس عناصر الطبيعة خاصة أصيلة في الدين الزرادشتي فكانوا يحافظون على الماء والنار من النجاسة، وكانوا يقدسون الماء قبل كل شيء إلى حد أنهم لا يغسلون به وجوههم ولا يلمسونه إلا للشرب أو رىّ الزرع، وكان بول الثيران أبعد أثراً عندهم في الطهارة^(٢) من الماء . ومع هذا فإن مكانة النار أعظم شأنًا في الدين الزرادشتي .

وتتعدد الآلهة كثيراً في ذلك الدين . ويمتلىء بأساطير وخرافات كثيرة جداً . من ذلك أن دورة الدنيا تستمر اثني عشر ألف سنة، في الثلاثة آلاف الأولى يبقى عالم النور وعالم الظلمات متجاورين في هدوء، وفي الثلاثة آلاف الثانية يعيش عالم النور بالقوة، وفي الثلاثة آلاف الثالثة يصطرع الخير والشر، ثم يظهر زردشت فيهدى الناس إلى الحق، وفي نهاية كل ألف من الثلاثة آلاف الأخيرة يظهر مخلص يولد من بذور زردشت الخبأة في إحدى البحيرات . ومع مولد آخر مخلص يبعث الأبطال والتنانين الشيطانية ليتقاتلوا، ثم يبعث الموتى ويقع النجم المذنب جوتجهر على الأرض فتشتعل وتذيب جميع المعادن وتسيل على الأرض، ويكون على جميع المبعوثين من الموت أن يعبروا هذا السيل فيكون للأتقياء كاللبن الساخن ويمضون منه إلى الجنة ثم يسقط الشر إلى الأبد في الظلمات وتبقى الدنيا المطهرة في سكون لا يُعكر صفوه إلى الأبد .

وبيوت النار كانت معابد الساسانيين . يصف المسعودي خرائب بيت نار قديم كان في إصطخر فيقول : «وللفرس بيت نار باصطخر تعظمه المجوس ... وقد دخلته وهو على نحو فرسخ من مدينة إصطخر، فرأيت بنياناً عجيباً وهيكلًا عظيماً وأساطين صخر عجيبة، على أعلاها صور من الصخر طريفة من الخيل وغيرها من الحيوان عظيمة القدر والأشكال، محيط بذلك حيز وسور منيع من الحجر وفيه صور الأشخاص قد شكلت وأتقنت صورها، يزعم من جاء هذا الموضع أنها صور الأنبياء» . والقاعدة في الدين الزردشتي أنه لا يجوز أن تصل الشمس إلى النار المقدسة وعلى هذا الأساس كان بيت النار في وسطه غرفة مظلمة كل الإظلام

(١) إيران في عهد الساسانيين ١٣٢-١٣٣ .

(٢) إيران في عهد الساسانيين ١٣٤ .

المجوسية

الأوستا هو الكتاب المقدس للدين الزرادشتي، وكان يسمى ونديداد ومعناها الشريعة المضادة للشيطان . وهو باللغة الأوستية القديمة، ويحوى مجموعة من القواعد والمراسيم التي تختلف فيما بينها باختلاف الأقاليم الفارسية وبينها تناقضات واضحة . ويتناول الونديداد الأنواع المختلفة من النجاسات والآثام ووسائل الطهر والتوبة، ثم يبحث في العدوان وقتل (الكائنات الأهورية)، الرجال والكلاب وكلاب الماء، وما يفعل بالجثث، فقد حرمت الديانة الزرادشتية تحريماً باتاً تلويث العناصر بدفن الجثث أو حرقها، فإن دفنها يلوث التراب وحرقها يلوث الهواء ! وإنما توضع فوق منصة من الآجر - اسمها دَحْمَة، وهي برج الصمت، وجمعها دخمات - وترك كي تنهشها جوارح الطير، ويؤكد هذا ما رواه السائح الصيني البوذي هيون تسياغ الذي زار إيران في عهد الساسانيين، قال إن الجثث كانت غالباً تترك^(١) . وحين حوكم سياوش أقوى رجال الدولة في عهد قباد الأول بسبب فشله في مفاوضات الروم، وكانت المحكمة عازمة على شنقه، وجهت إليه اتهامات أخرى عقوبتها الإعدام منها أن زوجته ماتت قبيل المحاكمة فدفنها دون أن يعرض جثتها على الدخمة حتى تلتهمها الطيور، وحكم عليه بالقتل . ثم أراد قباد الأول أن يحمل أهل جورجيا النصارى على قبول الدين الزرداشتي وحرّم عليهم أن يدفنوا جثث موتاهم وأوجب عليهم أن يعرضوها على الدخمات وفقاً للمراسم المجوسية، مما دعا جورجين ملك جورجيا - وكان تابعاً لملك إيران - أن يستجير بامبراطور الروم فأجاره ووقعت الحرب بين فارس^(٢) وبيزنطة . هذا يؤيد ما ذكره رواية الطبري - كما سنرى في صفحات هذا البحث - حينما نشبت المعارك بين الفرس المجوس وبين المسلمين من أن الفرس كانوا لا يعرضون لقتلهم، وإنما كانوا يتركونهم في الميدان حيث قتلوا . وذكر الونديداد النجاسة التي تلحق من يمس جثة آدمي أو حيوان ميت أو امرأة حائضاً . وقد أحس الفلاسفة البيزنطيون^(٣) الذين آووا إلى بلاط كسرى أنو شروان بخيبة أملهم، وراعهم أن

(١) إيران في عهد الساسانيين ٢٤ .

(٢) إيران في عهد الساسانيين ٣٤١ .

(٣) إيران في عهد الساسانيين ٤٢٢ .

يوضع فيها هيكل النار. وقد كان منظر المعبد يبعث الجوس على الاستغراق وذلك بقاعاته المظلمة، حيث تشتعل النار فوق المذبح، والآلات المعدنية تلمع من أطراف وأهوان وشبابيث ومساند البراسما التي تشبه الهلال، وحيث الهرايدة يتلون الأوراد التي لا تنقطع بصوت مرتفع ولحن جميل حيناً، وبصوت منخفض إلى حد التمتمة حيناً آخر^(١)... إلخ.

هذا الدين الذي ساد دولة الساسانيين وذكرنا لحة مختصرة عنه لم يكن ندأ بحال من الأحوال لأن يقف أمام الدين الإسلامي الزاحف الذي امتاز بامتزاجه بالحياة ينظمها كما ينظم أمور المعاد في مزج متسق، فكان ديناً ودولة وعبادة وقيادة ومناسك ومعاملات، مما دعا الموازنة إلى تغيير كثير من أصول الزردشتية^(٢) بعد الفتح الإسلامي.

فارس قبيل الفتح

بين الفرس والروم

عند قيام الدولة الساسانية كانت فتوحات الروم قد جاوزت^(١) نهر الفرات واقتطعت أرض الجزيرة. ولذلك اشتبكت دولة بنى ساسان بدولة الروم من عهد أردشير الأول منشئ الدولة. واتصلت الحروب بين الدولتين وأصابتهما معاً بدمار كبير. وفي ٥٦٠ م هزم الروم ووقع امبراطورهم فاليريان أسيراً في أيدي الفرس وظل سجيناً عندهم حتى مات ذليلاً. فكانت الحرب بين الدولتين سجالاً غير أن كلتاهما كانت خاسرة بها، حتى من يحالفه النصر يوماً فقد كان نصراً باهظ التكاليف ثم لا يلبث أن ينقلب إلى هزيمة. وانتصر سابور على الروم في أرض الجزيرة ومع ذلك فقد أصاب الجزيرة دمار كبير على أيدي الجيش الفارسي. وكان يحدث للجيش الفارسي أن يعزل أو يهلك جوعاً حتى وهو منتصر كما وقع له وهو محاصر القسطنطينية، فقد تركه هرقل أمام أسوارها وزحف بجيش رومي إلى فارس من طريق آخر، فاكسحها ودمرها وسيى نساء كسرى.

وكان من أهداف ملوك الفرس من وراء تلك الحروب نهب خيرات وأموال البلاد المفتوحة، غير أن ذلك النهب كان يؤول إلى الملك، في حين يدفع الشعب بأكمله نفقات الحملة. وفضلاً عن حروب الروم، فقد كان للفرس حروبهم الأخرى على حدودهم الشرقية والشمالية مع قبائل الهون حتى اضطروا في بعض الأحيان إلى أن يدفعوا لهم جزية، كما كانت لهم حروبهم ضد الأحباش باليمن.

كسرى أنو شروان

وحتى عصر كسرى أنو شروان ٥٣١ م كان نظام المقاسمة سائداً بين الملوك والزراع، فكان

(١) الخراج في الدولة الإسلامية.

(١) إيران في عهد الساسانيين ١٥٣.

(٢) إيران في عهد الساسانيين ٤٢١.

الملك يقاسم أصحاب الأرض محصولاتهم على نسب تتراوح بين السدس^(١) والثالث. ولكن بعد ٥٣١م عدل عن هذا النظام إلى نظام المساحة، وذلك بفرض خراج محدد على الأرض. وكان لذلك فائدة مزدوجة للمزارعين والملوك. ففيما يختص بالمزارع أصبح عليه مقدار معلوم محدد يؤديه نقداً وهو حر التصرف في محاصيله، لا استيلاء ولا مقاسمة. وفيما يختص بالملوك أصبحت خزائهم عامرة بالنقود اللازمة لتمويل الحروب، فالضرائب تجبى نقداً وليست عيناً وهذا أصلح لمواجهة الطوارئ. وقد فرضها كسرى على الرؤوس وعبر عنها بالجماجم، كما فرضها على سبع غلات هي الحنطة والشعير والأرز والكرم والرتاب والنخل والزيتون، وترك ما سوى ذلك، وكان الخراج يجبى على ثلاثة أقساط سنوية. أما الجماجم فتجبى على كل رجل بين العشرين والخمسين من عمره. وقد وضعت هذه الضرائب على عموم الشعب، أما الطبقات الممتازة من الواسبوران والمرازية والأساورة والموابذة والهرايدة والكتاب ومن كان في خدمة الملك فلم يكن عليهم ضرائب.

بعث أنو شروان

كان عهد كسرى أنو شروان قمة مجد الإمبراطورية الساسانية، وكان ذلك قبل الزحف الإسلامي بخمسين عاماً. ثم خلفه ابنه هرمز الرابع ٥٧٩م، ذكر بعضهم أن عدالته فاقت عدالة أبيه، وقيل عكس ذلك، ويبدو على الأرجح أنه كان ظالماً فاسداً. فقد ظلم عماله الناس ونهبهم، فشارت أقاليم بابل والسوس وكرمان، وغزا الروم الجزيرة وآشور، وغزا الترك خراسان والأقاليم الشرقية، وكادت الدولة أن تدول لولا شجاعة وحكمة قائدها المشهور بهرام جوبين. وتجددت الحرب مع بيزنطة ٥٨١م ولم يظفر فيها الفرس، فانتزع هرمز الرابع القيادة من بهرام جوبين (الرجل الخشبي) بطريقة مهينة. فثار بهرام وعم البلاد التمرد والتذمر، وكان هرمز قد سجن بندويه وهو أحد معارضيه، فخلصه أخوه بسطام من سجنه واقتحما معاً القصر الملكي وخلعا هرمز وسجنه ثم سملا عينيه ونصبا ابنه كسرى برويز (يعنى المظفر) مكانه. وقتل هرمز بعد ذلك بقليل. وتجراً بهرام جوبين وطلب العرش ففر كسرى برويز ولجأ إلى امبراطور بيزنطة فأئجده بينما دخل بهرام المدائن ووضع التاج على رأسه غير أن الأمر لم يستتب له. وانتصر كسرى برويز بمعاونة الروم، وفر بهرام إلى بلاد الترك حيث قتل بعد قليل وانتهت ثورته. وعاد كسرى إلى العرش ومعه زوجة رومية نصرانية تدعى شيرين

(١) الخراج في الدولة الإسلامية ٦٩.

اختصها بكل حبه، وقيل بل كانت فارسية من أسرة وضيعة. وفي بيزنطة قتل موريق الذي آوى كسرى فاتخذها هذا ذريعة لشن حرب جديدة مع الروم استمرت ربع قرن ٦٠٣ - ٦٢٨م.

سورة الروم

واكتسح كسرى الروم أمامه، فاستولى على خران والرها وحلب وأرمينيا وآسيا الصغرى وانطاكية ٦١١م وقيصريّة ودمشق ٦١٤ ثم أورشليم ٦١٥، وانتزع الصليب الأعظم وبعث به إلى المدائن. وأرسل قائده شهر براز فغزا مصر ٦١٦هـ واستولى على الإسكندرية ٦١٧، وفرض على كل ما فتح جزية باهظة، وهدم معابدها وسلب أموالها، وحمل إلى بلاده كل ذهبها وفضتها ورخامها وصناعاتها المهرة، ولم يضع لهذه البلاد أى نظام. وقد أتاح له كل ذلك أن يزيد ما كان فيه من ترف^(١) ومتعة. وجمع كسرى برويز من الأموال ما لم يجمعه أحد من الملوك.

غلبة الفرس هذه هي التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا بِرُءُوسِهِمْ فِي الْأَرْضِ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٢) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُؤْمِنُونَ (٣) يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤) وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥)﴾. لقد رأينا طرفاً من الوثنية المجوسية ونستطيع الآن أن ندرك لماذا كان المسلمون يميلون إلى جانب الروم بمشاعرهم ضد الفرس وقد كانوا مازالوا بمكة يعانون من اضطهاد قريش الوثنية. عن ابن عباس^(٢) قال: «كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب». وقد راهن أبو بكر قريشاً على أربع فلاتص - وهي النوق الشابة - على أن الروم سينتصرون على الفرس في سبع سنين - وكان ذلك قبل تحريم الرهان - فمضت السبع، ولم يكن شيء، ففرح المشركون بذلك وشق، على المسلمين، فذكر ذلك للنبي - ﷺ - فقال: «ما بضع سنين

(١) الطبري ١٥٧/٢ - مروج الذهب ١٢١/١.

(٢) سورة الروم ١-٦. وعلى ذلك فتقديرنا أن سورة الروم قد نزلت في عام ٦١١م قبل الهجرة بعشر سنوات، أو في العام الرابع من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن أبا بكر كسب الرهان قبل الهجرة بقليل، فقد كانت الهجرة عام ٦٢١م.

(٣) تفسير ابن كثير ٤٢٢/٣.

عندكم؟» قالوا: دون العشر، قال: «أذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل»، فما مضت السنتان حتى جاء الركبان بظهور الروم على الفرس، وعاث هرقل الروم في بلاد الفرس وقتل رجالها حتى انتهى إلى المدائن فقتل من بها، وأخذ جميع ما فيها من أموال، وسبى نساء كسرى وحريمه، وحلق رأس ولده وأركبه على حمار، وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والدلة. وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس للروم.

أوقف هرقل زحف الفرس، واستعاد آسيا الصغرى وأرمينيا وأذربيجان، وفي ٦٢٣ و٦٢٤ استولى على مدينة جنزك، وهرب منه كسرى حاملاً النار المقدسة، واستولى هرقل على القوقاز ثم غزا وادی دجلة، واستولى في ٦٢٨ على قصر الملك في دستجرد.

كسرى برويز

وقد أثر عن كسرى^(١) برويز أنه كان فاسداً جشعاً شراً يحقر الناس ويستخف بهم. وكان بينه وبين قائده شهر براز عداً خفياً، وقد أرسل كسرى إليه أثناء محاربه الروم ثلاث رسائل ظهر منها نية القتل، فامتنع شهر براز (ومعناها خنزير الدولة) عن الحضور إليه، وانضم إلى ملك الروم وهو الذي رسم له الطريق إلى فارس. وقد جمع كسرى برويز في مدة حكمه الثماني والثلاثين عاماً كل ما استطاع من أموال كدسها في خزائنه. ففي عام ٦٠٧ - ٦٠٨ كانت خزائنه التي نقلها إلى بيت المال الجديد بالمدائن تحتوى على ٤٦٨ مليون مثقال من الدراهم، خلاف مقادير هائلة من الجواهر والكسي جمعها من الناس بفرض خراج استثنائي. وفي العام الثالث عشر من حكمه كان لديه ٣٠٠ مليون مثقال من الدراهم. وجاء في الطبري: وكذلك في النهاية، أنه كان في قصره ثلاثة آلاف امرأة للوطء، وألوف من الجوارى اتخذهن للخدمة والغناء، وثلاثة آلاف رجل يقومون بخدمته، وكانت له ثمانية آلاف وخمسمائة دابة لمركبه، وسبعمئة وستون فيلاً، واثنان عشر ألف بغل. وكان يجمع النساء أنحاء مملكته حسب الطلب ففي بعض الكتب التي بعث بها إلى العمال:

«خير النساء التي تفكر في عشق الرجل، وكانت بين الطول والقصر، عريضة الصدر، استوى منها الرأس والعجز والرقبة، الصغيرة القدمين، من كانت بين السمن والهزال، مقوسة الأخص، بسيطة البنان لينة الجسم معتدلتة، تفاحية الثديين، بيضاء الأظافر كالثلج، رمانية

(١) إيران في عهد الساسانيين.

اللون، ملوزة العينين، دقيقة الحاجبين كصوف الضأن الصغير، لؤلؤية الثغر رقيقة، سوداء الشعر مع ميل إلى الاحمرار طويلته، لا تتكلم بطريقة لا تواضع فيها».

وقد عدد البلعمي والشعالي اثنتي عشرة عجيبة لكسرى - وزادها بعضهم عن ذلك - منها: قصر المدائن ودفش كايان وزوجته شيرين (روضة الحسن وضرة البدر) وشيرين بالفارسية معناها: الحلوة، وقد عشقها وتزوجها في أوائل حكمه، واحتفظت بتأثيرها^(١) فيه، والمطرب سرکش (سرجس) والمطرب فهليذ، والخدام خوش أرزو، والفرس شبديز (لون الليل)، وفيلا أبيض. وكان له كنوز منها: كنز فيء الرياح، وذلك أنه حين حاصر الفرس الإسكندرية، حاول الروم أن ينقذوا نفائس المملكة فجمعوا خزائنها وذخائرهم في سفن كثيرة، فلما خرجت في البحر عصفت الريح فسيرتها إلى صفوف الفرس حتى ظفر بها القائد شهر براز وبعث بها إلى المدائن، فأعجبت كسرى واستولى عليها. وكنز الثور، كان أحد الفلاحين يحرق أرضه بمحراث يجره ثوران، فدخل سلاح المحراث في عروة قمقم مملوء ذهباً، فذهب به إلى باب الملك فأمر بحفر الأرض، فأسفرت عن مائة قمقم مملوء ذهباً وفضة وجواهر من كنوز الإسكندر الأكبر وعليها ختمه فاستولى عليها. وكنز العروس ويتكون مما تدفع الهند والصين من جزية. وكنز الديباج الملكي، وكنز أقر أسيا، وكنز المحرق، وكنز اللآلئ، والماء الطيب، وكنز شادورد، وتاج الإيوان. ونفائس كثيرة مثل الشطرنج المنحوت من الباقوت الأحمر وقصب الزمرد، والنرد المتخذة من البسد والفيروز، ومائتا مثقال من الذهب كالشمع اللين، كان يخرج من بين الأصابع إذا قبض عليه وينطبع، ويتخذ منه التماثيل، ثم يعاد إلى حاله، فيعود كما كان.

وكان أعظم نفائس كسرى التخت الذي يشبه القبة، وهو سرير من العاج والساج، صفائح ودرابزيناته من الذهب والفضة، طوله مائة وثمانون ذراعاً وارتفاعه خمسة عشر ذراعاً، وفي مراقبه (درجاته) سرر من الشيز والأبتوس مضببة بالذهب وعليه طاق من الذهب واللازورد فيه صور الفلك عليه البروج الإثنا عشر والكواكب السبعة السيارة والقمر الوضاء وما يجتاز من بروج، ويرى فيه المنجمون النجم الثابت والسيار، ويرون فيه كم انقضى من الليل وكم سارت السماء فوق الأرض، وفيه الأقاليم السبعة وصور الملوك وهيئاتهم في المجالس والحروب والمصائد. وفيه أيضاً ما يدل على معرفة ساعات النهار، وله على مقداره أربعة بسط من الديباج المنسوج المرصع باللآلئ والبيواقيت يختص كل واحد منها بما يشاكله ويوافقه من

(١) إيران في عهد الساسانيين ٤٥٧.

فصول السنة. وكان في حديقة قصره الذي خربه هرقل في دستجرد ٦٢٨م النعام والغزلان وحمر الوحش والطواويس والديوك البرية والسباع والتمور^(١). كذلك كان من هذه العجائب بساط كسرى، وكان يسمى القُطْف وهو الذي غنمه المسلمون حين دخلوا المدائن، ثقل على يزديجرد حملته في فراره فتركه. وبقي القُطْف بعد توزيع غنائم المدائن لم تعتدل قسمته، فبعث به سعد بن أبي وقاص مع الأخماس إلى عمر بن الخطاب، فكان ستين ذراعاً في ستين ذراعاً بساطاً واحداً مقدار جريب (٣ / ١ فدان). «فيه طرق كالصور، وفصوص كالأنهار وخلال ذلك كالدير وفي حافته كالأرض المزروعة والأرض المبجلة بالنبات في الربيع من حرير على قضبان الذهب، ونواره بالذهب والفضة وأشباه^(٢) ذلك». «وكانوا يعدونه للشتاء إذا ذهب الرياحين. فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه، فكانهم في رياض. أرضه بذهب، ووشيه بفصوص، وثمره بجوهر، وورقه بحرير وماء الذهب^(٣)».

نكتفي بهذا القدر الذي يعتبر ضئيلاً بالنسبة لما ورد عن فخخة ذلك العصر وأبهته لرسم صورة عنه مقابلة للصورة التي رسمناها لبيئة المسلمين.

بحث برويز

كان ذلك قبل زحف المسلمين إلى العراق بخمس سنوات، حين مرض كسرى برويز، فنقلوه إلى المدائن ليرتب وراثته العرش ومعه زوجته شيرين وولديه منها مردانشاه وشهريار، وكان في نيته تثبيت مردانشاه. وعلم بذلك قباذ الملقب بشيرويه، وهو ابن كسرى من زوجة أخرى، ويبدو أنه كان أكبر إخوته، فعزم على الدفاع عن حقوقه ورتب أمره. وذات صباح سمع كسرى المريض الناس يصيحون فرحين: «قباذ شاهنشاه»، فأخذه الهلع وهرب فاخْتَبأ في حديقة القصر، حيث عثر عليه. وقبض عليه، فسجن في مخزن، ثم قتل بسهم. وأمر شيرويه ففتح سجنهم الرهيب المعروف بقلعة النسيان، وأفرج عن عدد كبير من مسجونى الدولة فانضموا إليها. وأمر شيرويه بقطع أيدي إخوته السبعة عشر وأرجلهم، حتى يفقدوا صلاحيتهم للملك، فلا ينافسوه عليه، ثم قتلهم. من هؤلاء كان شهريار بن كسرى برويز وابن شيرين، شهريار هذا كان والد يزديجرد الثالث آخر ملوك بني

(١) إيران في عهد الساسانيين ٤٥١.

(٢) الطبرى ٤ / ١٧٧، عن المهلب بن عقبة الأسدي وطلحة بن الأعلم وزباد بن سرجس ومحمد بن عبدالله وعمرو وسعيد.

(٣) الطبرى ٤ / ١٧٨ عن عبدالله بن عمير.

ساسان. ثم مات شيرويه بعد ذلك مسموماً أو بالطاعون^(١) الذي انتشر، وقال عنه الطبرى: «هلك فيه الفرس إلا قليلاً^(٢) منهم». في عهد شيرويه هذا، بدأ زحف خالد بن الوليد نحو العراق عام ١٢ هـ ٦٣٣م.

وولى بعده ابنه أردشير، ومكث ملكاً عاماً ونصف عام حتى أقبل القائد شهربراز، فاقتحم المدائن واستباحها واغتصب الملك ومكث فيه أربعين يوماً. وسيأتى في الأجزاء التالية إن شاء الله تعرض آخر لأحوال فارس الداخلية المعاصرة لحركة الفتح عند انتقالنا إلى خطوات الفتوح.

يقول^(٣) برون في A Literary History of Persia: «إن فارس ولو أنها كانت في المظهر تبدو رائعة فخورة، إلا أنها كانت في صميمها متعفنة، حياتها مملوءة بالدسائس، تغلى داخلها بالسخط وتمزقها المنازعات الأهلية».

(١) إيران في عهد الساسانيين ٤٧٥ - ٤٧٨.

(٢) الطبرى ٢ / ٢٢٩.

(٣) الخراج في الدولة الإسلامية ٨٢.

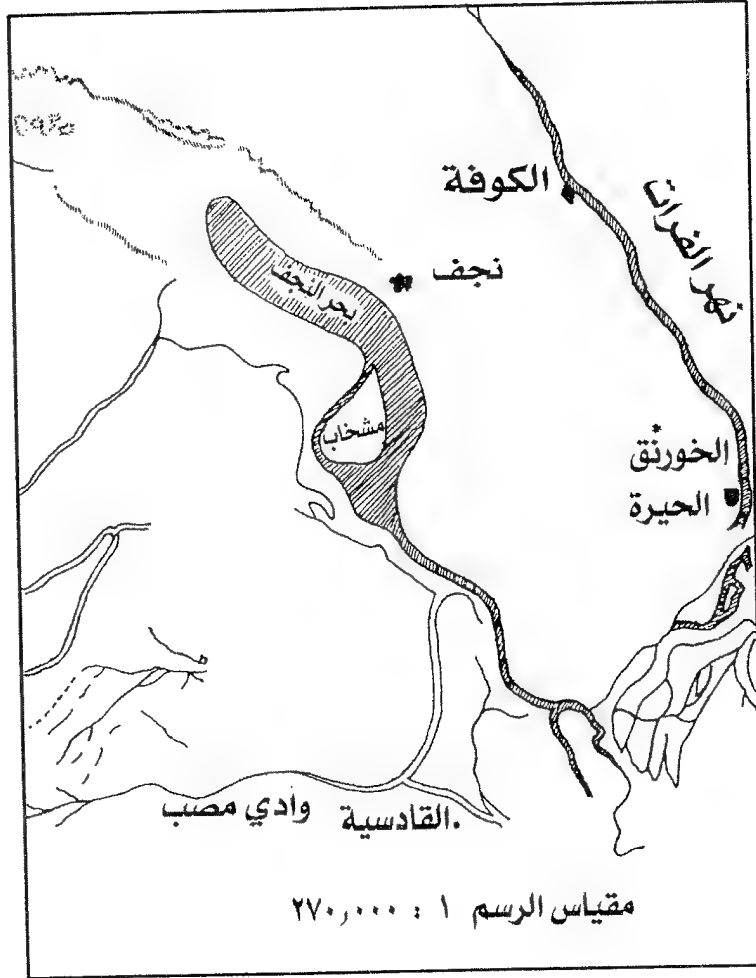
مُدْهَامَتَانِ ﴿١﴾. والأدهم هو الأسود. والعراق في لغة العرب الاستواء، سموه عراقاً لاستواء أرضه حين خلت من جبال تعلو وأودية تنخفض. ويشق العراق من شماله إلى جنوبه النهران الكبيران: دجلة والفرات، ولذلك عرف منذ القدم ببلاد بين النهرين.

العراق

ذكرنا في عرضنا لجغرافية جزيرة العرب أنها تفسر لنا، كونها قاعدة هجوم سمحت بالانسياح منها إلى خارجها، ولم تسمح بالعكس. ولا بد لاستكمال هذه الصورة، ونحن بصدد دراسة فتح العراق أن نلقى نظرة على أرض العراق تتيح لنا معرفة طبيعتها مع الاهتمام بالتعرف على ما طرأ من تغير على مدى ذلك الزمن بغية الرجوع بخريطتها إلى ما كانت عليه في عصر الفتح.

ومن الناحية الجغرافية التاريخية، كان العراق يحتل موقعاً استراتيجياً بالغ الأهمية لأنه كان يقع ضمن الجسر البري الذي يربط القارات الثلاث: آسيا وأوروبا وأفريقيا، كما كان يصل المحيط الهندي براً بالبحر الأبيض المتوسط. وقد كان لذلك كله أثره على تجارة الترانزيت، فكان لموقعه دور هام في عهد طرق القوافل التي كانت تعبره من آسيا إلى أوروبا، مثل طريق الحرير المشهور الذي كان يمر الحرير خلاله من الصين إلى الدولة الرومانية، كما كانت تنقل خلاله التوابل والعاج والسكر والكحل والبخور والأحجار الكريمة. ولم يفقد موقع العراق أهميته تلك إلا بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، ثم بعد شق قناة السويس^(١).

وأرض العراق سهل منخفض حتى لكأنه واحة كبيرة وسط ما حوله، فمن الشرق يحصره إقليم الجبال، ومن الشمال تحده جبال أرمينيا وأذربيجان، ومن الغرب صحراء السماوة التي ترتفع عن مستواه. وفي جنوبه وجنوبه الغربي العروص ونجد. ولقد عُرف العراق عند العرب باسم السواد، وذلك لسواده بالزرع والأشجار، لأنه حين تاخم جزيرة العرب التي قل الزرع فيها والشجر، كانوا إذا خرجوا من أرضهم إليه ظهرت لهم خضرة الزرع والشجر، وهم يجمعون بين الخضرة والسواد في الأسماء، فسموا خضرة العراق^(٢) سواداً. ومن هذا ما وصف به القرآن الكريم الجنة^(٣) بقوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (١٦) قَبَائِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٧)﴾



خريطة رقم (٦) - منطقة الحيرة

والفرات ينبع من الأراضي التركية على ارتفاع ٣٠٠٠ متر عن سطح البحر، وينشأ عن

(١) جغرافيا العراق الطبيعية ٦.

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ٢١٥/١.

(٣) سورة الرحمن ٦٢-٦٤.

عدة منابع تلتقى وتتجمع بشمال العراق، ثم يمتد^(١) ١٧٨٠ ميلاً (حوالي ٣٣٠٠ كيلو متراً)، ويمر بجسر منبج ثم بالس وصفين والرقعة والرحبة وهيت حتى يصل إلى الأنبار، فتأخذ منه أنهار مثل: نهر عيسى ونهر النيل ونهر الملك وغيرها، فتصب في دجلة، ويعلو مستوى الفرات في هذا المكان عند الفلوجة سبعة أمتار عن مستوى دجلة المقابل له والذي لا يبعد عنه أكثر من ٥٠ كيلو متراً، ولذلك نجد الأنهار الواصلة بين النهرين في هذا الجزء من السواد، تنحدر من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي من الفرات إلى دجلة، أما في الجنوب فالأمر على العكس، إذ يعلو مستوى دجلة عن مستوى الفرات. ويستمر الفرات في رحلته إلى الكوفة ونرسي والطفوف حتى يصل إلى البطيحة التي بين البصرة وواسط. وإذا أردنا أن نستشف شيئاً مما كان عليه الفرات القديم في منطقة من أهم المناطق التي دارت عليها معارك فتح الحيرة والقادسية بين المسلمين والفرس، وجدنا المسعودي^(٢) يصف لنا ذلك فيقول: «وقد كان الفرات الأكثر من مائة ينتهي إلى بلاد الحيرة، ونهرها يبين إلى هذا الوقت - وقته - وهو يعرف بالعتيق، وعليه كانت وقعة المسلمين مع رستم، وهي وقعة القادسية، فيصب في البحر الحبشي، وكان البحر حينذاك في الموضع المعروف بالنجف في هذا الوقت، وكانت تقدم هناك سفن الصين والهند إلى ملوك الحيرة... فلما انقطع الماء عن مصبه في ذلك الموضع انتقل البحر براً، فصار بين الحيرة وبين البحر في هذا الوقت مسيرة أيام كثيرة، ومن رأى النجف وأشرف عليه تبين له ما وصفنا، وكنقل الدجلة العوراء^(٣)، فصار بينهما وبين الدجلة في هذا الوقت مسافة بعيدة، وصارت تدعى ببطن جوخي (أو بطن حرجي)، وذلك من جهة مدينة فارس من أعمال واسط إلى دانوقاء إلى نحو بلاد السوس، وكذلك ما حدث في الجانب الشرقي ببغداد من الموضع المعروف برقة الشماسية، وما نقل الماء بتياريه من الجانب الغربي من الضياع التي كانت بين قُطْرُبَل ومدينة السلام (بغداد) كالكفرية المعروفة بالقب، والموضع المعروف بالبشرى (أو اليسرى)، والموضع المعروف بالعين (بالعمر)، وغير ذلك من ضياع قُطْرُبَل، وقد كان لأهلها مطالبات مع أهل الجانب الشرقي ممن ملك رقة الشماسية في أيام المقتدر بحضرة الوزير أبي الحسن... فإذا كان الماء في نحو من ثلاثين سنة قد ذهب بنحو من سبع ميل فإنه يسير ميلاً في قدر مائتي سنة، فإذا تباعد النهر أربعة آلاف ذراع من موضعه

(١) العراق قديماً وحديثاً ٥٩.

(٢) مروج الذهب ١/ ١٠٣.

(٣) الدجلة العوراء: الاسم القديم لشط العرب.

الأول، خربت بذلك السبب مواضع وعمرت مواضع، وإذا وجد الماء سبيلاً منخفضاً وانصباباً، وسع بالحركة وشدة الجريان لنفسه، فاقتلع المواضع من الأرض من أبعد غايتها، وكلما وجد موضعاً متسعاً من الوهاد ملأه في طريقه من شدة جريته حتى يعمل بحيرات وبطائح ومستنقعات». هذا وقد أمدتنا مديرية الآثار العراقية ببغداد مشكورة بخريطة الحيرة (خريطة ٦) - مركز قضاء النجف -، تدعم ما ذكر المسعودي، وقد أفادتنا كثيراً عند تصوير سير المعارك على هذه الأرض.

واعتباراً من جنوب المسيب يتفرع الفرات إلى فرعين كبيرين، ثم يتفرع كل من هذين الفرعين وتحتاز أفرعهما أرض السواد حتى تعود إلى التجمع مرة أخرى قبل التقائها بدجلة^(١)، وهي في هذا تشكل شبكة معقدة غاية التعقيد.

أما دجلة فينبع من جنوب شرقي تركيا، وطوله من منبعه إلى مصبه ١٧١٨ ميلاً، ويصب فيه كثير من الروافد مثل: الزاب الكبير والزاب الصغير فوق مدينة السن، يأتيان من بلاد أرمينيا وأذربيجان، ثم ينتهي إلى تكريت وسر من رأى والمدائن، فيصب فيه الخندق والصراة ونهر عيسى وغيرها من الأنهار التي تأخذ من الفرات، وأنهار أخرى تنحدر من جبال إيران. فإذا خرج دجلة من مدينة واسط تفرقت في أنهار أخرى إلى بطيحة^(٢) البصرة.

ويلتقى النهران عند القرنة ليسلكا مجرى واحداً، بعد ذلك يعرف بشط العرب - وكان يسمى قديماً دجلة العوراء، ويبلغ طوله^(٣) حوالي ١١٠ كيلو متراً ويبلغ عرضه عند المصب أكثر من كيلو مترين، بينما يضيق عند البصرة إلى حوالي كيلو متر واحد. ويتأثر شط العرب بأحوال المد والجزر في الخليج العربي الذي يتكرر مرة كل حوالي ١١ ساعة، ويصل الفرق بين منسوب المد ومنسوب الجزر إلى ١٧٠ متراً صيفاً، حيث تهبط مياه الأنهار. ويقل إلى ما يقرب من ٢٥ سم خلال موسم الفيضان الذي يستمر حوالي شهراً في الجنوب هو شهر أبريل (نيسان)^(٤).

ومن المؤكد أن شط العرب لم يكن على طوله الحالي في عصر الفتح، ولا كان ساحل الخليج الفارسي حيث هو اليوم. فإن الترسبات التي تجلبها مياه دجلة والفرات تملأ رأس ذلك

(١) جغرافيا العراق الطبيعية ١٧٣.

(٢) مروج الذهب ١/ ١٠٥.

(٣) جغرافيا العراق الطبيعية ١٨٠.

(٤) جغرافيا العراق الطبيعية ٢٥.

بعثت به إلينا مديرية الآثار العراقية ببغداد أنه: «عندما كان نهر كرى سعده عامراً، كانت منطقة هور الحمار أرضاً عامرة بالمزارع والقرى، وما زالت آثار الأبنية القديمة قائمة في منتصف البحيرة، كتل شعيب وأم الساح وأبو زركى وأبو صلابيخ». ونهر كرى سعده كراه (يعنى حفرة) سعد بن عمرو بن حرام بأمر من سعد بن أبى وقاص. وقد أشار سعد بن أبى وقاص إلى شيء من هذه البطائح، وهو يصف موقع القادسية في رسالته، إلى عمر بن الخطاب: «... وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاج (متجه) إلى الحيرة... وإن ما عن يمين القادسية إلى الوجبة فيض من فيوض مياههم». والوجبة كانت بالصحراء جنوبى الفرات بجنوب العراق. وفي رسالة من عمر إلى سعد: «إنك تقدم على بلد منيع وإن كان سهلاً، كؤود لبحوره وفيوضه ودأدنه، إلا أن توافقوا غيضاً من فيض».

وأصل هذه البطائح، أنه فى عهد^(١) قباز الأول بن فيروز، قبل الفتح الإسلامى بقرن من الزمان، انبثقت المياه فى فيضان عظيم جنوب كسكر، وغلب ماؤه فأغرق كثيراً من الأراضى الواطئة العامرة. وأعاد كسرى أنو شروان استصلاح بعض تلك الأراضى، وأقام المسنيات (السدود) لحمايتها. ولكن فى عام ٦ أو ٧ من الهجرة، فاض النهران فيضاً لم يحدث مثله، وغرقت الأراضى وحاول كسرى برويز أن يصدّها، واشتد فى ذلك حتى أنه صلب فى يوم أربعين عاملاً - وقيل سبعين - فلم يقدر على حيلة. وغزا المسلمون العراق وانشغلت الفرس فى الحروب، فكانت البشوق تنفجر والجسور تنهار فلا يلتفت إليها أحد. واتسمت البطيحة وعظمت حتى قدرها ابن رسته بأنها كانت ثلاثين فرسخاً فى ثلاثين، وقدرها لى سترانج حديثاً بأنها كانت خمسين ميلاً عرضاً فى مائتين طولاً، وهى مساحة قريباً من تقدير ابن رسته^(٢). وقد تم استصلاح كثير منها فى عهد الأمويين.

والرياح السائدة فى العراق شمالية غربية معظم أيام السنة. ويدوم الشتاء من يناير (كانون الثانى) إلى أوائل مارس (آذار)، ويكون الجو معرضاً للأعاصير التى ينقلب فيها اتجاه الرياح إلى جنوبية شرقية. ويدوم الصيف من أول يونية (حزيران) إلى آخر سبتمبر (أيلول) أو أوائل أكتوبر (تشرين الأول)، وتزداد الرطوبة صيفاً فى الجنوب عنها فى منطقة المدائن وبغداد، مما يجعل السكان يشعرون بالضيق. وفى أشهر الصيف تشرق الشمس من ١٢ إلى ١٤ ساعة فى اليوم، وتكون السماء صافية خالية من الغيوم. وشهر يوليو (تموز) أحر شهور

السنة، وتصل الحرارة أحياناً فى وسط وجنوب العراق إلى ٥٠ مئوية. وأحياناً تمر فى الصيف عواصف رملية - ربما صادفت أغسطس (آب) - وتدوم فترة الحر الشديد أربعين يوماً، اعتباراً من العشر الأواخر من يونية (حزيران) حتى نهاية يولية (تموز). وتشتد الرياح فى بعض أيام الصيف، فتصل سرعتها إلى ٦٥ كيلو متراً، وكلما ازدادت سرعتها ازدادت كمية الغبار الذى تحمله معها من صحراء السماوة. وشهور الصيف جافة خالية من المطر.

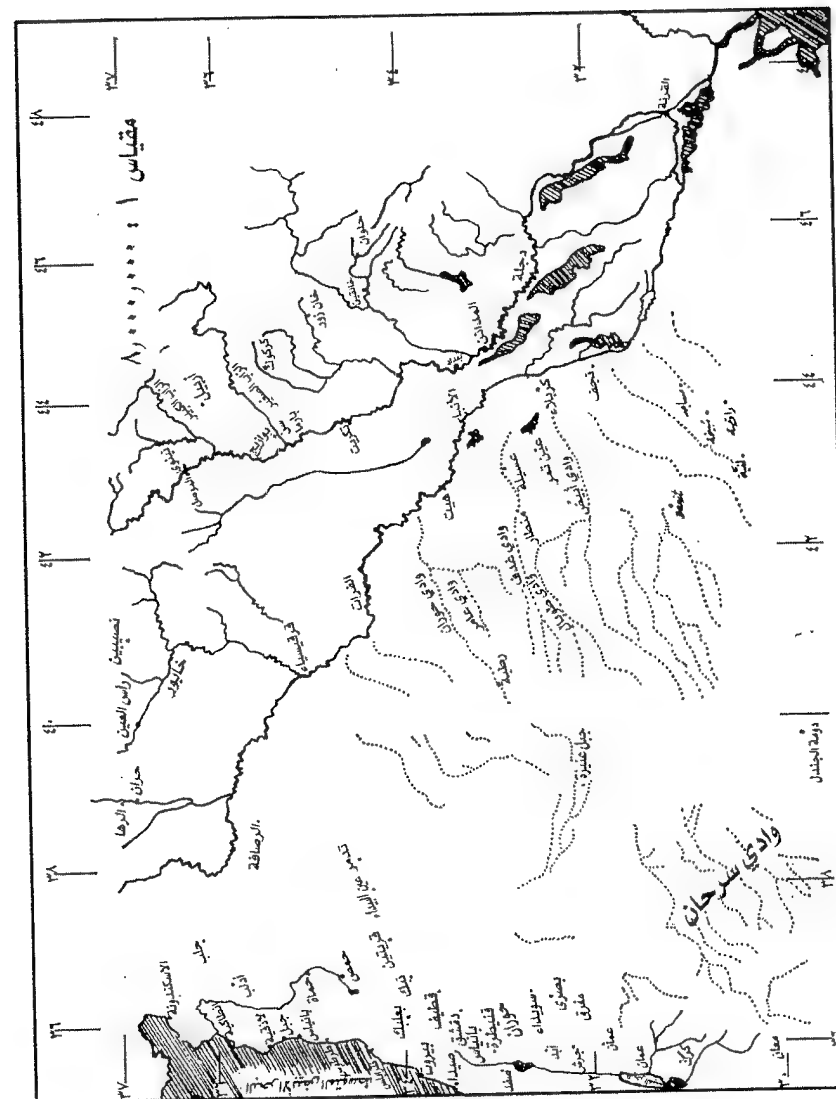
وتفصل صحراء السماوة بين العراق فى الشرق والشام فى الغرب، وقد أتاح هذا للمسلمين ميزة استراتيجية، وهى أنهم فى فتح الشام وفى فتح العراق كانوا فى مركز يتيح لهم حرية توجيه الضربات يميناً إلى الفرس أو شمالاً إلى الروم، ويسمح لهم بنقل قواتهم بين الميدان الشرقى وبين الميدان الغربى وبين شبه الجزيرة فى جهالة تامة من الفرس ومن الروم الذين لم يكن لهم أن يعلموا أين ومتى وكيف توجه إليهم الضربات. وبإدوية السماوة لا عيون ولا آبار بها، وغاية ما يبل الصدى غدران أو برك طبيعية متباعدة وخزانات صناعية يحفظ بها ماء المطر كان يعرفها أهل تلك الجهات ولا يفطن إليها سواهم^(١).

(١) الجغرافيا التاريخية الإسلامية ٦.

(١) فتوح البلدان ٧٤١ - ٧٤٥.

(٢) الخراج فى الدولة الإسلامية ١٧٩.

الباب الخامس المقاييس



خريطة رقم (٨) - العراق

وحدات القياس

يصادف من يتعرض لدراسة التاريخ الإسلامى بوحدات للقياس تختلف عما يجرى به العمل اليوم، فنجد البريد والفرسخ والميل والذراع لقياس المسافات والأطوال، ونجد الدينار والدرهم كوحدة للمعاملات. ولا بد لمتابعة البحث من الوقوف على الصلة بين هذه الوحدات والوحدات المعلومة لنا. وقد تعرض لهذا الأمر كثير من المؤلفين العرب والمستشرقين، واختلفوا فيما وصلوا إليه اختلافاً كبيراً، وذهب كل منهم يدل على وجهة نظره ويسوق أدلة تحقيقه. ولا نرغب أن نعيد هنا ذكر ذلك، فهو ليس من أهداف هذا البحث، وحسبنا أن نحتزى النتيجة التى نطمئن إليها. ونزكى ما توصل إليه الأستاذ المحقق محمد ضياء الدين الرئيس وضمنه نحواً من تسعين صفحة من كتابه «الخراج فى الدولة الإسلامية»، فهو بحث مفيد ونافع ولا غنى عنه لدارس التاريخ الإسلامى.

المسافات والأطوال

اليوم = ٢ بريد = ٨ فراسخ = ٣٥٢ ر٤٤ كيلو متراً.

البريد = ٤ فراسخ = ١٧٦ ر٢٢ كيلو متراً.

الفرسخ = ٣ ميل = ٥٥٤٤ مترًا = ١٢٠٠٠ ذراعاً مرسله = ٩٠٠٠ ذراعاً هاشمية.

المرحلة = من خمسة فراسخ إلى ستة (من ٢٨ إلى ٣٣ كيلو ومتوسطها ٣٠ ر٥ كيلو متراً).

الميل = ٤٠٠٠ ذراع مرسله = ٣٠٠٠ ذراع هاشمية = ١٨٤٨ مترًا.

وقد جاء فى The Concise Oxford Dictionary أن الميل البحرى أو الجغرافى الذى هو دقيقة من دائرة الأرض الكبرى قد حددته البحرية البريطانية بأنه ٦٠٨٠ قدماً. والقدم الإنجليزى ٣٠ ر٤ سم، يعنى أن الميل البحرى = ١٨٤٨ ر٣٢ مترًا. وهو مقدار الميل العربى.

الغلو = ١ / ١٠ ميل = ١٨٤٨ مترًا.

الذراع الأساسى = ٤٦ ر٢ سم. وله أسماء أخرى، فهو الذراع الأصلى، والشرعى، والمرسله، والمصرى العتيق، والصنحيج، وذراع القياس، وذراع اليد، وذراع الكرباس، وذراع

العامّة، والذراع الآدمي، والذراع الصغير.

الذراع السوداء = ٥٠ ر ٦٩ سم.

الذراع القديم = ٥٣ ر ٩ سم وهو ذراع الملك الفارسي.

الذراع الهاشمي = ٦١ ر ٦ سم وهو ذراع الملك، وهو ذراع المساحة.

الذراع البلدي = ٥٧ ر ٧ سم وهو ذراع التجار.

القدم = ٣٠ ر ٨ سم (القدم الإنجليزي ٣٠ ر ٤ سم).

المساحات

الجريب = ٣٦٠٠ ذراعاً مربعة من الأذرع الهاشمية = ١٣٦٦ متراً مربعاً.

والفدان المصري الحالي = ٣٠٧ ر جريب = ٤٢٠٠ ٦ / ٥ متراً مربعاً. أما الفدان القديم الذي كان على عهد دخول الفرنسيين مصر فقد كان ٥٩٢٩ متراً مربعاً.

الفرسخ المربع = ٢٢٥٠٠ ر جريب.

القفيز = ١٠ / ١ ر جريب = ١٣٦٦ متراً مربعاً.

العشير = ١٠ / ١ قفيز = ١٣٦٦ متراً مربعاً.

والجريب والقفيز أيضاً اسمان لمكيالين.

المكاييل

الصاع = ٢٧٥ لتراً = قدح وثلاث.

القسط = ١٣٧ لتراً = ٣ / ٢ قدح.

القفيز = ٣٣ لتراً = ١٢ صاعاً = ٤٨ مدّاً = ٢ كيلة مصري.

وهو الذي وضعه عمر بن الخطاب على سواد العراق مع الدرهم عند فتحه، وهو الذي كان موضوعاً من عهد كسرى أنو شروان.

الجريب = ٨ قفيزاً.

الكر = ٦٠ قفيزاً.

الموازين

الأوقية = ٤٠ درهماً.

الشعيرة = ٦٠ / ١ من الدرهم.

النش = ٢٠ درهماً.

النواة = ٥ دراهم.

النقود^(١)

تهتم الشريعة الإسلامية بالنقود في ميدان العبادات والمعاملات، وذلك لاتصال النقود بالزكاة والخراج والعشور والجزية والصدقات والعقود والوقف والديات والعقوبات... إلخ. وقد مرت النقود في تاريخ المسلمين بأدوار من الزيادة والنقصان في فئة العملة المتداولة، مما استدعى معرفة نوع العملة ومقدارها في العصر الذي نبهته. وقد استخدم المسلمون في ذلك العصر نوعين من العملة هما: الدينار والدرهم.

الدينار

كان الدينار أصلاً عملة رومانية ذهبية عرفها العرب وتعاملوا بها قبل الإسلام وبعده. وقد أشار إليها القرآن الكريم^(٢) في قوله: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنهُ بِقِطْعَةٍ مِّنْهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِن تَأْمَنهُ بِدِينَارٍ لَّا يُوَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾. وحين أصلح عبدالملك بن مروان النظام النقدي في الدولة الإسلامية سنة ٧٤هـ، لم يمس عيار هذه العملة، وإنما عمل على ضبط وزنها عن طريق صنع زجاجية غير قابلة للزيادة أو النقصان وإلا انكسرت فبطلت، ومن ثم أصبح الوزن الشرعي للدينار الإسلامي منذ تعريبه هو وزن المثقال، ولم يتغير وزن الدينار عن هذا أبداً في أي عصر من العصور^(٣) وهو ٢٥ ر جراماً، وكان عيار الدينار العربي وأجزائه مرتفعاً، وكان في الغالب ثلاثة وعشرين وثلاثة أرباع قيراط. فإذا أردنا حساب قيمته بعملة اليوم، نجد أن جرام الذهب من هذا العيار في ٣١ / ٥ / ٢٠٠٠ بسوق الموسكى بالقاهرة

(١) النقود العربية ٦.

(٢) سورة آل عمران ٧٥.

(٣) الخراج في الدولة الإسلامية ٣٣٦.

يساوى ٣١٦٥ جنيهاً مصرياً^(١). نخلص من هذا إلى أن ذلك الدينار كان فيه من الذهب ما يساوى ١٣٤٥ جنيهاً مصرياً فى التاريخ المذكور. وبطبيعة الحال يتغير هذا السعر من يوم لآخر ومن سوق لآخر، وهذه طبيعة أسواق النقود يتغير سعر المبادلة فيها بتغير الزمان والمكان. فعلى من يريد أن يقدر قيمة ذلك الدينار، فى أى وقت، أن يحسب قيمة ما فيه من الذهب، إذ ليست النقود فى واقع أمرها إلا سلعة عيارية يرتضيها الجميع كأداة للمبادلة وتقييم لها. وقد كانت النقود فى ذلك الوقت تستمد قيمتها من قيمة ما فيها من المعدن الثمين، وليس من سعر إلزامى يفرضه القانون كما هو شائع فى عملات اليوم من المعادن الرخيصة أو العملات الورقية.

الدرهم^(٢)

هو عملة فضية اشتق اسمها من الدراخمة اليونانية. وقد استعار العرب استعماله من الفرس. وقد ذكر البلاذرى^(٣) أنه كانت ترد عليهم دراهم الفرس البغلية (نسبة إلى ملك اسمه رأس البغل) كما قال: «إن الدراهم الواردة من بلاد الفرس كانت مختلفة الأوزان، صغراً وكباراً، فكان منها ما هو مثقال وزن عشرين قيراطاً، وكان منها ما هو اثنا عشر قيراطاً، وكان منها ما هو عشرة قرايط»، وذكره الماوردى أيضاً. وقد حدد عمر بن الخطاب وزن الدرهم بالوزن المتوسط بين هذه الأنواع الثلاثة فكان وزنه ١٤ قيراطاً، وبذلك يكون ٢٠ / ١٤ من المثقال أى ١٠ / ٧، واعتبر هذا هو الدرهم الشرعى الذى انعقد عليه الإجماع منذ صدر الإسلام. غير أن ما فعله عمر بن الخطاب كان درهماً حسابياً فقط، ولكنه لم يضرب نقوداً جديدة على هذا الوزن.

وحين أصلح عبد الملك بن مروان النظام النقدي حدد وزن الدرهم بسبعة أعشار وزن الدينار، أى أنه كان ٢٩٧٥ غراماً، وضرب الدراهم بهذا الوزن. وكان الدرهم الساسانى المستخدم فى فجر الإسلام^(٤) قطعة مستديرة من الفضة على أحد وجهيها نقش يمثل الجزء العلوى من صورة كسرى، ويظهر وجهه فى وضع جانبي (بروفيل)، وعلى رأسه التاج الساسانى الجنتح. أما الوجه الثانى للدرهم، فعليه حارسان مسلحان أو كاهنان بينهما بيت

(١) كان ثمنه يسوق الموسكى ١١٠ قرشاً مصرياً فى ٣٠ / ٤ / ١٩٦٩ (الطبعة الأولى من هذا الكتاب)، وبطبيعة الحال يتغير تقديره بتغير سعر الذهب.

(٢) النقود العربية ١٠.

(٣) فتوح البلدان ٥٧١.

(٤) النقود العربية ٢٤.

نار. وتشير الكتابات البهلوية المنقوشة على الدرهم إلى اسم الملك، وأحياناً عبارات دعائية له ولأسرته. وفى الهامش الخارجى للدرهم توجد ثلاثة أو أربعة أهلة، وفى داخل كل هلال نجمة إشارة إلى كوكب الزهرة عند تقابله مع القمر، وهو دلالة على الرخاء عند منجمى الفرس. وقد كان الفرس أهل تنجيم يعتقدونه ويرسمون تصرفات حياتهم بمقتضاه.

تطور النقد العربى^(١)

كان العرب يحصلون من معاملاتهم مع الشام على أرباح طائلة تصل إلى ١٠٠٪ وكانوا يحصلون أحياناً من قافلة تجارية واحدة إلى الشام على خمسين ألف دينار من الذهب (حوالى ستة وثلاثة أرباع مليون جنيه مصرى). ولقد كانت تصل إلى شبه الجزيرة إلى جوار النقود البيزنطية والفارسية قطع قليلة من النقود الحميرية من اليمن. وكانوا يسمون الدراهم الفارسية الساسانية الورق، والورق فى اللغة هو الفضة، وفى سورة الكهف: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ...﴾ وعرفوا الدينانير البيزنطية الذهبية على أنها تبر، كما كانوا يسمونها «العين». فلما جاء الإسلام أقر الرسول ﷺ تعامل الناس بهذه النقود وقال: «المكيال مكيال المدينة، والميزان ميزان مكة»، وقد كانت النقود من الموازين، والوزن يراد به الذهب والفضة خاصة. وقد تعامل الرسول نفسه بها فزوج علياً رضى الله عنه ابنته فاطمة رضى الله عنها على صداق قدره ٤٨٠ درهماً، وجعل زكاة المال خمسة دراهم عن كل خمس أوقيات من الفضة، ونصف دينار عن كل عشرين ديناراً من الذهب. وكان تعامل العرب بهذه النقود بالوزن، ولم يكن بالعدد.

وسار أبو بكر رضى الله عنه بسنة النبى ﷺ فى إقرار العمل بهذه النقود، فلم يغير منها شيئاً. فلما ولى عمر، وفتح الله على المسلمين بلاد فارس، أقر التعامل بالنقود الساسانية فى العراق وفارس، كما هى بلغتها وحروفها البهلوية وشارات وشعارها غير الإسلامية، حتى أسماء دور السك وتاريخ الضرب استمر باللغة البهلوية كذلك. وقد ورد على هذه الدراهم التى ضربها المسلمون على الطراز الساسانى أسماء ما يقرب من مائة دار للسك كانت تسكها. وفى عام ١٨هـ، ضرب عمر بن الخطاب الدراهم بنفس النقش حتى بصورها، غير أنه زاد عليها عبارة: «الحمد لله»، وفى بعضها: «محمد رسول الله»، وفى بعضها: «لا إله إلا الله وحده».

(١) النقود العربية ٢٢.

وفى عهد عثمان، ضربت دراهم نقش عليها: «الله أكبر»، وظل الدرهم يحمل الطابع الساساني، وأسماء وصور بنى ساسان أكثر من نصف قرن تحت الحكم الإسلامي، حتى كتب الحجاج بن يوسف الثقفي اسمه بالعربية على الدراهم، ثم اختفى تماماً هذا الطراز الساساني فى إصلاح عبد الملك بن مروان للنظام النقدي للدولة سنة ٧٤هـ.

ومثل ذلك جرى مع الدينار الرومى، فقد قبل عمر بن الخطاب النموذج البيزنطى للدينار عندما ضرب^(١) نقوده. وظلت الدنانير تحمل الشارات المسيحية والصلبان فوق تيجان الأباطرة، وفوق عصا المطرانية، ثم بدأ ذلك يختفى فى تطور تدريجى طويل لتظهر بدلاً منها الكتابات العربية، وصور الخلفاء حتى صارت عربية تماماً فى عهد عبد الملك بن مروان.

ومن الثابت فيما يختص بسنوات الفتح، وما قبلها، وما بعدها أن بلاد العراق وفارس اختصت بالدراهم الفضية، بينما اختصت الشام ومصر والمغرب بالدنانير الذهبية، ذلك أن البيزنطيين كانوا قد عقدوا مع الساسانيين معاهدة بشأن النقود تقضى بأن يضرب الساسانيون نقوداً من الفضة، وألا يتخذوا نقوداً ذهبية سوى النقود البيزنطية الجارية فى التعامل، ولا غرابة فى هذا، فقد كان الساسانيون يفتقرون إلى الذهب فى القرن السابع الميلادى نتيجة الحروب التى شنوها على الروم، ثم الهزيمة التى أوقعها بهم هرقل، وما تبع ذلك من فوضى، وارتفاع نفقات الحرب، والحزبة الحربية.

أما قبول المسلمين لاستمرار سك النقود على الطراز الساساني بما فيه من بيوت النار، وصور الأكاسرة الذين بادوا بحروف بهلوية، أو على الطراز البيزنطى بما فيه من صلبان وصور ملوك الروم والنقش عليها بحروف رومية، هذه الظاهرة لا ندرى لها تعليلاً أكيداً ولكننا نظن أنها تتمشى مع روح الإسلام المتسامحة فى احترام حرية العقيدة والرأى، وما دام أهل فارس مازالوا مجوساً، فلتكن نقودهم على شعاراتهم، وما دام أهل الشام ومصر ما زالوا على نصرانيتهم، فلتكن النقود المسكوكة لتعاملهم حاملة لصلبانهم وشعاراتهم كما يريدون. تسامح المسلمين مع الشعوب المفتوحة أمر معروف، وقرآنهم هو الذى يعلمهم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. أما بعد أن دخلت هذه الشعوب أفواجاً فى دين الإسلام، ومال أهلها عن دياناتهم الأولى إلى دين الإسلام، فلم يعد ثمة معنى لاستمرار سك النقود على الطرازات الساسانية أو البيزنطية، وإنما تصبح شعارات الإسلام هى المناسبة لهم، وهو ما فعله عبد الملك بن مروان عام ٧٤هـ، بعد حوالى ستين عاماً من الفتح.

(١) النقود العربية ٢٦.

وقد كانت الأوقية عند العرب ٤٠ درهماً = ١١٩ جراماً، ونصاب الزكاة فى الفضة خمس أواقى = ٥٩٥ جراماً، وهذه كان عليها خمسة دراهم. أما النصاب من الذهب فهو ٢٠ ديناراً = ٨٥ جراماً من الذهب، وكان فيه نصف دينار. هذان المقداران من نصاب الذهب والفضة كانا متساويين فى القيمة. ومعنى هذا أن ثمن الوزن من الذهب كان سبعة أمثال نفس الوزن من الفضة. ولما كان الدينار يزن مثقالاً فى حين يزن الدرهم ١٠ / ٧ مثقال، فإن هذا يعنى أن الدينار الواحد كان يساوى فى قيمته عشرة دراهم. يؤيد هذا أن عمر بن الخطاب جعل فى الجزية أربعة دنانير على أهل الذهب معادلة لأربعين درهماً على أهل^(١) الفضة.

هذا ونستطيع أن نجد بعض أسعار ذلك العصر من قيمة الدية بنفس القيمة من أصناف متنوعة، فقد كانت كالاتى^(٢):

١٠٠٠ دينار على أهل الذهب.

١٠٠٠ درهم على أهل الفضة.

١٠٠ من الإبل.

٢٠٠ من البقر.

٢٠٠٠ من الغنم.

٢٠٠ من الحلل.

إذن، فقد كان الجمل مساوياً مائة درهماً أو عشرة دنانير، والبقرة خمسين درهماً، والشاة خمسة دراهم، والحلة خمسين درهماً. هذه نماذج من القوة الشرائية لتلك النقود فى ذلك العصر.

وقد استعرض الأستاذ الرئيس بعض تقديرات المؤلفين المحدثين لقيمة هذه العملة. وانتهى إلى أن تقدير الدينار بأنه ستين قرشاً مصرية هو الأقرب إلى الصحة، وبناء على ذلك، فإن قيمة الدرهم فى تقديره (وهو عشر الدينار) تساوى ستة قروش. ولنا على هذا اعتراض، إذ من ائمال أن نعتبر الدينار الذى يحوى من معدن الذهب ما قيمته ١٣٤٦٥ جنيهاً مصرية أن قيمته ستون قرشاً، وإنما قيمته ترتبط قطعاً بقيمة ما فيه من ذهب. أما إذا أردنا تقييم الدرهم

(١) فتوح البلدان ١٤٨.

(٢) الخراج فى الدولة الإسلامية.

بنفس الطريقة، فإننا نجد أن سعر جرام الفضة في سوق الموسكى بالقاهرة في ٣٠/٤/١٩٦٩ = ٢٨٨٤ مليماً، ومن حيث أن الدرهم كان يزن ٢٩٧٥ جراماً، فإن قيمته إذن تعادل ٨٥٧٩٩ مليماً مصرياً (حوالي ٨٦ مليماً)، وفي هذه الحالة نجد أن النسبة بين الدرهم والدينار قد اختلفت كثيراً، فلم تعد ١: ١٠، وإنما صارت نحواً من ١: ٥٥. هذا الاختلال في النسبة نتج عن اختلاف قيمة الفضة بالنسبة للذهب تماماً، كما اختلفت النسبة في القيمة بين البقر والذهب أو الفضة. فإن البقرة كانت تساوي خمسة دنانير أو خمسين درهماً، ولكنها اليوم لا تساوي هذا ولاذاك، فإذا استخرجنا قيمتها على قاعدة الذهب كانت ٢٣٣٧٥ رجبياً مصرياً، وإذا استخرجنا هذه القيمة على قاعدة الفضة كانت ٢٩٠ رجبياً مصرياً، في حين أن البقرة في مصر في التاريخ المذكور تساوي ١١٠ من الجنيهات.

التقويم

كان من المفيد كثيراً في بحثنا هذا، أن نربط التقويم القمري الهجري بالتقويم الشمسي الميلادي للفترة التي ندرسها. ولقد أفادنا هذا في مطابقة الأحداث مع فصول السنة وطبيعة المناخ والمحاصيل والفيضانات، كما أفادنا في الضبط والترجيح بين بعض التواريخ اختلف عليها. ولقد أخذنا مطالع العام الهجري من قاموس المنجد، وكذلك أيام الأسبوع منسوبة إلى التقويم الشمسي، ومزجنا ذلك كله. بطبيعة الحال تختلف بدايات ونهايات الشهور القمرية باعتبار ما إذا كان الشهر السابق ثلاثين يوماً أو تسعة وعشرين، وهو ما لا يمكن اليوم ضبطه تفصيلاً لذلك العصر، بل إن نتائج اليوم لعصرنا الذي نعيش فيه لتعجز عن ضبطه، ولذلك فهناك احتمال لفروق مقدارها يوم. ومع ذلك فقد حاولنا جهدنا الإقلال من هذا الاحتمال بتطبيق ما علم لنا من التاريخ القمري منسوباً إلى أيام الأسبوع، كأن يذكر الرواة أن رسول الله ﷺ توفي يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ١١هـ، وأن السيدة فاطمة توفيت ليلة الثلاثاء الثالث من رمضان ١١هـ، وأن وقعة أجنادين كانت سنة ثلاث عشرة في جمادى الأولى لليلتين بقيتا منه يوم السبت قبل وفاة أبي بكر رضي الله عنه بأربع وعشرين ليلة، وأن وفاة أبي بكر، كانت مساء الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة عام ١٣هـ وهكذا...

وبذلك تمكنا من تحديد التاريخ الميلادي لكل حادثة أو معركة بأقرب ما يمكن من الدقة، وأثبتنا التاريخ الميلادي إلى جانب التاريخ الهجري كما سيمر معنا.

الجزء الثاني

الباب السادس: مدخل إلى الفتوح (حروب الردة)

الباب السابع: حملة خالد بن الوليد

الباب الثامن: اكتساح العراق الجنوبي

الباب التاسع: فتح الحيرة

الباب العاشر: خالد ينجز مهمة عياض

الباب الحادي عشر: ختام مرحلة وانتقال خالد إلى الجبهة الغربية (الشام)

الباب الثاني عشر: هذه الحملة (تحليل ونقد)

الباب السادس
مدخل إلى الفتوح
مع الردة

تهذيب

كانت حركة الفتوح من ناحيتها السياسية والحربية امتداداً لعمليات ردع الردة في جزيرة العرب. ولذلك كان علينا لكي ندخل العراق من أبوابه مع جيوش الفاتحين أن نبدأ من الردة، فنذكر عجالة جد مختصرة عنها، وعن ما وقع فيها.

توفي رسول الله ﷺ في الثاني عشر من ربيع الأول ١١ هـ، وولى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة. وقد أمر الرسول قبل وفاته ببعث أسامة بن زيد بن حارثة إلى تخوم الشام، فبادر أبو بكر بتنفيذ ذلك في آخر ربيع الأول ١١ هـ. وكما جاءت وفود العرب من قبل إلى رسول الله ﷺ معلنة إسلامها، فقد جاءت الآن إلى أبي بكر^(١) لتعلن ارتدادها. وجاءته الأخبار من أرجاء شبه الجزيرة أن العرب قد انتقضوا ومنعوا ما كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ من الزكاة، إلا قريشاً وثقيفاً وأهل المدينة. وذهب بعض من ارتد إلى أبعد من ذلك قبل وفاة النبي، فادعى النبوة! مثل الأسود العنسي باليمن ومسيلمة بن حبيب الكذاب في بنى حنيفة باليمامة، وطلحة بن خويلد في بنى أسد، وقد اجتمع إليه المرتدون من طيء وغطفان وأشجع. وتذبذب هوازن فقدمت رجلاً وأخرت أخرى، وارتد بعض من سليم، وكذلك سائر الناس بكل مكان. وجاءت كتب أمراء النبي ﷺ من كل مكان بانتقاض من انتقض وتبسطهم بالتنكيل والتمثيل بالثابتين^(٢) على إسلامهم.

وأخذ المسلمون بالموقف لولا أن قيض الله أبا بكر الذي يعدل إيمانه إيمان أمة. قال عبد الله بن مسعود: «لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن الله من علينا بأبي بكر، أجمعنا على أن لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون، وأنا نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين، فعزم الله لأبي بكر على قتالهم، فوالله ما رضى منهم إلا بالخطبة الخزية أو الحرب المجلية، فأما الخطبة الخزية فأن يقرروا بأن من قتل منهم في النار، ومن قتل منا في الجنة، وأن يدؤوا قتلاً ونغنم ما أخذنا منهم، وأن ما أخذوا منا مردود علينا، وأما الحرب المجلية فأن

(١) الطبري ٢١٢/٣ عن عبيد الله بن سعيد، عن عمه عن سيف. وس ش س، عن هشام بن عروة عن أبيه.

(٢) الطبري ٢٢٢/٣ عن عبيد الله عن عمه عن سيف. وس ش س، عن هشام بن عروة عن أبيه.

يخرجوا من ديارهم^(١)».

كان طبيعياً أن ينتظر أبو بكر رجوع أسامة وجيشه قبل أن يتحرك لردع المرتدين، غير أن عبساً وذبيان عاجلوه وخرجوا في زحف يريدون المدينة، فبادرهم في جمادى الأولى أو الثانية عام ١١ هـ وقتلهم قبل رجوع أسامة. وكان على ميمنة أبي بكر النعمان بن مقرن المزني، وعلى ميسرته أخوه عبدالله بن مقرن، وعلى الساقة (المؤخرة) أخوهما سويد بن مقرن المزني^(٢)، وخرجوا من آخر الليل، فما طلع الفجر إلا وهم والمشركون في صعيد واحد، ما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف، فما بزغت الشمس حتى ولوا الأدبار، وغلب المسلمون المرتدين على أرضهم، واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة، فوضع فيها النعمان بن مقرن في عدد، ثم عاد إلى المدينة. ووثب المشركون من عبس وذبيان على من فيهم من المسلمين فقتلهم كل قتلة، وفعل من وراءهم من المشركين مثل فعلهم في سائر القبائل، فحلف أبو بكر ليقتلن في كل قبيلة من قتل من المسلمين^(٣). وانضمت فلول عبس وذبيان إلى طليحة في براحة من مياه بني أسد. ومع رجوع أبي بكر إلى المدينة جاءته صدقات من ثبت على إسلامه من القبائل، منهم عدى بن حاتم الطائي جاء بركة مسلمي بني طيء.

جيوش حروب الردة

وعاد أسامة وجيشه بعد أربعين يوماً من مخرجه - وقيل بعد سبعين - فأبقاهم أبو بكر بالمدينة ليريحوا ظهورهم (خيلهم وإبلهم)، وبعدما استجمعوا عقد أبو بكر أحد عشر لواء وجهها إلى المرتدين في مواطنهم من أرجاء شبه الجزيرة. وكانت هذه الجيوش^(٤) كالاتي:

- ١ - خالد بن الوليد إلى طليحة بن خويلد في بني أسد ومن انضم إليهم من مرتدي طيء وعبس وذبيان. فإذا فرغ منه فإلى مالك بن نويرة، زعيم ردة بني تميم بالبطاح.
- ٢ - عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة بن حبيب الكذاب في اليمامة.

(١) ابن الأثير ٢ / ١٣٠.

(٢) النعمان بن مقرن وإخوته، سيتردد ذكرهم كثيراً في الفتوح.

(٣) الطبري ٣ / ٢٢٤ س ش س، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد.

(٤) الطبري ٣ / ٢٢٥ س ش س، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد. وهذا الترتيب للجيوش عندنا.

٣ - شرحبيل بن حسنة في أثر عكرمة ولنفس الهدف.

٤ - طريفة بن حاجر إلى بني سليم ومن معهم من هوازن.

٥ - عمرو بن العاص إلى قضاة ووديعة والحارث.

٦ - خالد بن سعيد إلى مشارف الشام.

٧ - العلاء بن الحضرمي إلى البحرين.

٨ - حذيفة بن محسن الغلفاني إلى دبا بعمان.

٩ - عرفة بن هرة إلى أهل مهرة.

١٠ - المهاجر بن أبي أمية إلى الأسود العنسي بصنعاء ثم إلى حضرموت.

١١ - سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن.



خريطة رقم (٩) - جيوش حروب الردة

منشور الخليفة إلى القبائل

وكتب أبو بكر إلى جميع قبائل العرب كتاباً من صيغة واحدة^(١)، هي:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة، أقام على إسلامه أو رجع عنه.

سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى.

فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، نقر بما جاء به ونكفر من أبي ونجاهده.

أما بعد، فإن الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فهدى الله بالحق من أجاب إليه، وضرب رسول الله ﷺ بإذنه من أدبر عنه حتى صار إلى الإسلام طوعاً وكرهاً. ثم توفي رسول الله ﷺ وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذي عليه، وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٢). وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مَتَ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾^(٣). وقال للمؤمنين: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(٤). فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله له بالمرصاد حي قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم حافظ لأمره منتقم من عدوه يجزيه.

وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبتكم من الله وما جاءكم به نبيكم ﷺ، وأن تهتدوا بهداه وأن تعتصموا بدين الله، فإن كل من لم يهده الله ضالاً، وكل من لم يعافه مبتلى، وكل من لم يعنه مخذول. فمن هداه الله كان مهتدياً ومن أضله كان ضالاً، قال الله

(١) الطبري ٢٢٦/٣ س ش س، عن عبد الله بن سعيد، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك.

(٢) سورة الزمر، الآية ٣٠.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٣٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾^(١). ولم يقبل منه في الدنيا عمل حتى يقربه ولم يقبل منه في الآخرة صرف ولا عدل.

وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾^(٢).

وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٣).

وإني بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه، ومن أبي أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتله، وأن يسبى النساء والذراير ولا يقبل من أحد إلا الإسلام. فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله. وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الأذان. فإن أذن المسلمون فأذنوا، كفوا عنهم وإن لم يؤذنوا عاجلوهم. وإن أذنوا أسألوهم ما عليهم، فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقرؤا قبل منهم، وحملهم على ما ينبغي لهم.

تعليمات إلى قادة الجيوش

خرجت الرسل بالكتب أمام الجنود وخرجت أمراء الجيوش في جيوشهم على آثارهم ومعهم عهود هذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع في أمره كله سره وعلايته.

(١) سورة الكهف، الآية ١٧.

(٢) سورة الكهف، الآية ٥٠.

(٣) سورة فاطر، الآية ٦.

وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام. فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقرروا له، ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم، لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم. فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله. فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسرى به. ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمه لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام. فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه. ومن أبى قاتله، فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه. وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم، لا يكونوا عيوناً (جواسيس) ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم. وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض، ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول».

عمليات الجيش الأول والثاني والثالث والرابع

خالد يجتاح بنى أسد

هذا الجيش الأول الذى تجمع فى ذى قصة خارج المدينة على يريد منها نحو نجد، كان عدته أربعة آلاف أقلهم من المهاجرين، وكان فيهم من الأنصار ما بين أربعمئة إلى خمسمئة عليهم ثابت بن قيس ويحمل رايهم أبو لبابة، وكان أكثرهم من القبائل القريبة من المدينة، بعضهم من كنانة. وعقد أبو بكر لواء الحملة ثم عرض إمارتها على زيد بن الخطاب، فاعتذر عنها بأنه ينشد الشهادة، وأن قائد الجيش لا ينبغي أن يباشر القتال بنفسه. فعرضها على أبى حذيفة بن عتبة، فاعتذر عنها للسبب نفسه. فعرضها على سالم مولى أبى حذيفة فكان كسابقه، فأمر على الجيش^(١) خالد بن الوليد. يدلنا هذا على أن خالداً حتى ذلك التاريخ، ورغم أنه سيف الله المشهود له فى ميادين الحرب، لم يكن بين الصحابة المرشح بالتركية، بل كان هناك من ينظر إليهم على الأقل بأنهم أنداد له وأقران.

أقام طليحة فى منازل بنى أسد ببزاحة، وقد انضمت إليه فلول عبس وذبيان الذين هزمهم أبو بكر رضى الله عنه. وأرسل طليحة إلى جديلة والغوث (بطين من طيء)، فتعجل أقوام منهم إليه وأوصوا قومهم باللاحاق بهم. غير أن عدى بن حاتم الطائى - وكان ممن ثبت على إسلامه من بنى طيء، وقدم على أبى بكر بالمدينة بإبل الصدقة، ثم خرج مع خالد فى جيشه - استمهل خالد أياماً حتى يثنى طيئاً عن ردتهم^(٢)، وأفلح فى ذلك، وأرسلوا فى استرجاع من سبق منهم إلى بزاحة، فرجع إليهم خمسمئة فارس من الغوث. فقال خالد: «يا أبا طريف ألا نسير إلى جديلة؟».

قال عدى: «يا أبا سليمان لا تفعل. أقاتل معك بيدين أحب إليك أم بيد واحدة؟»

(١) عرجون، وعبقريه خالد ٩٦ و١٦١.

(٢) ترجمة عدى بن حاتم فى آخر الكتاب. وكتاب «عدى بن حاتم» أحمد عادل كمال.

قال: «بل بيدى».

قال: «فإن جديلة إحدى يدي».

فكف عنهم خالد فأتاهم عدى فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا. فحمد الله وسار بهم إلى خالد وهم في أهبة الحرب. فلما رآهم خالد في عدتهم ظن أنهم جاءوا لحربه، فنادى في جيشه، فقيل إنما هي جديلة أتت تقاتل معك، ففرح بهم. وقالوا له: «نحن لك حيث أحببت»، فضمها خالد إلى جيشه وعقد لواء طيء، غوثها وجديلتها لعدى^(١) بن حاتم، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب أو شكروا أن يكونوا عليهم. فكان عدى أبرك رجل على قومه، وبذلك صار جيش خالد خمسة آلاف. وكانت سليم مازالت مترددة في ردتها، فلما سار خالد نحو بني أسد، كتب خالد إلى معن بن حاجر عامل أبي بكر على سليم أن يسير بمن ثبت معه على الإسلام. فسار إليه معن وقد استخلف على عمله أخاه طريفة بن حاجر قائد الجيش الرابع من جيوش أبي بكر لقمع الردة. هؤلاء الذين سار بهم معن من سليم لم نقف على عددهم.

وشغلت نجد كلها بهذه المعركة التي على الأبواب. كان ضرار بن الأزور من فرسان بني أسد المشهورين، ومن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مع خالد في جيشه وهو يتجه إلى قومه من بني أسد. وقد كان من القادة الذين اعتمد عليهم خالد في حروب الردة وفي فتوح العراق والشام. كانت لضرار مكانة في أهل المنطقة، وكان أخوه عبدالرحمن بن الأزور ثابتاً على إسلامه، ولكنه لبث في بلاد قومه من بني أسد حيث ظهرت الردة، فبعث إلى ضرار ليحرض الأنصار على جهاد المرتدين قصيدة مطلعها:

قد قلت للمرء الشقيق ضرار طال البكاء لفرقة الأنصار

كذلك أرسل مهلهل بن زيد الخيل الطائي إلى ضرار^(٢) يقول: «في حال محاربة طليحة، إن دهمكم طليحة فأعلمني فإن معي حد العرب (قوتهم) ونحن بالإكثار (مكان) بحبال فيد»، أولئك مسلمون ارتفعوا بإيمانهم فوق النزعة القبلية، وقد كان بين أسد وبين طيء حلف في الجاهلية أراد طليحة أن يستغله في تجنيد طيء معه.

(١) الطبري ٣/ ٢٥٣ حدثنا عبيد الله بن سعد، قال حدثني عمي، س ش س، عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد وبدر بن الخليل وهشام بن عروة. صادق عرجون ١٣٠، خالد بن الوليد.
(٢) الاستيعاب ٢/ ٢٠٣ - الإصابة ٤١٧٢ - ٦٣٦٨ - ٨٤٧٣. وكان لضرار فرس من مشاهير خيل العرب اسمها: الحبر، فكان يقال له: فارس الحبر (بلوغ الأرب ١١٧/ ٢).

ولما تراءى^(١) جند طليحة قال عدى بن حاتم لخالد: «يا أبا سليمان اجعل قومي مقدمة أصحابك». فقال له خالد: «يا أبا طريف إن الأمر قد اقترب وأنا أخاف أن أقدم قومك، فإذا لحمهم القتال انكشفوا فأنكشفت من معن، ولكن دعني أقدم قوماً صبراً لهم سوابق، وهم من قومك (يقصد المهاجرين والأنصار)»، فقال عدى: «الرأى ما رأيت». ولا شك أنها كانت نظرة صائبة من خالد تدل على إدراكه أصول علم النفس العسكري.

ودارت المعركة بين خالد وبين طليحة، وقد اجتمع إليه جيش يربو على جيش خالد بألف مقاتل أو يزيد^(٢). وانهزم المرتدون، فقام طليحة إلى فرس له فحمل عليه امرأته وهرب إلى النقع من منازل كلب على تخوم الشام، وانفض جمعه، وقتل منهم من قتل، وهرب منهم من هرب، وأقر من بقي بالإسلام.

وكتب أبو بكر إلى خالد: «ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً. واتق الله في أمرك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. جد في أمر الله ولا تنين. ولا تظفرون بأحد قتل المسلمين إلا قتلته، ونكلت به غيره، ومن أحببت ممن حاد الله أو ضاده ممن ترى أن في ذلك صلاحاً فاقتله».

فأقام خالد في بزاخة شهراً يصعد عنها ويصوب، ويرجع إليها في طلب الفارين ممن مثل بالمسلمين، فنكل بهم^(٣)، منهم من أحرق ومنهم من أوثقه ورضخه بالحجارة، ومنهم من رمى به من رؤوس الجبال ونكسهم في الآبار وخزقهم بالنبال كما فعلوا بالمسلمين فعل بهم على سبيل القصاص.

قبائل ألقت السلاح

وكانت بنو عامر وسليم وهوازن على مقربة ترقب مجرى الحوادث، فلما رأوا ما كان قالوا: «ندخل فيما خرجنا منه، ونؤمن بالله ورسوله»، فعادوا إلى الإسلام. وفي رواية أخرى، أن طريفة بن حاجر (الجيش الرابع) قاتلهم حتى هزمهم. وظفر خالد بقرّة بن هبيرة صاحب ردة بني عامر، فلم يقتله لأنه كان قد اكتفى بمنع الزكاة دون أن يقتل أحداً من المسلمين أو يثقل به، فأرسله إلى أبي بكر ليرى فيه رأيه، وكتب^(٤) إلى أبي بكر.

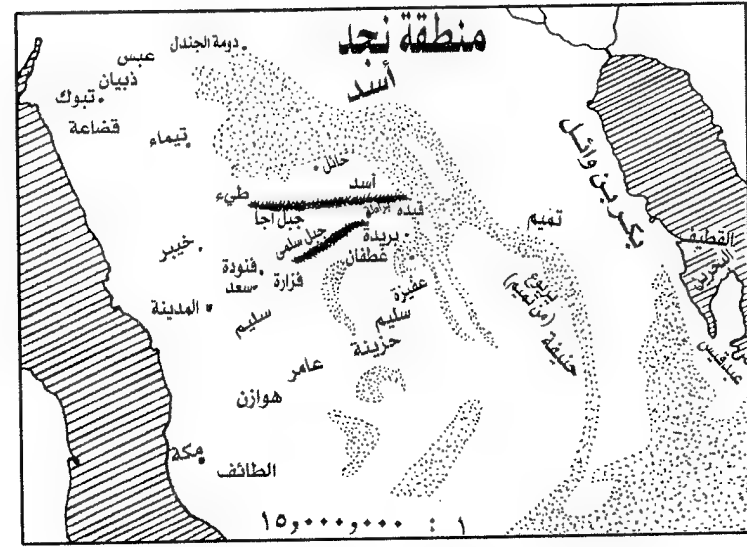
(١) عرجون ١٣١ - «طليحة بن خويلد» أحمد عادل كمال.

(٢) عبقرية خالد ٩٩.

(٣) الطبري ٣/ ٢٣٣ س ش س، عن أبي عمرو، عن نافع.

(٤) الطبري ٣/ ٢٣٣ س ش س، عن أبي عمرو وأبي ضمرة، عن ابن سيرين.

«.... ولم أقبل من أحد قاتلني أو سألني شيئاً حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين فقتلتهم كل قتلة وبعثت إليك بقرة وأصحابه».



خريطة رقم (١٠) - منطقة نجد

أما هؤلاء الذين عادوا إلى الإسلام من بعد ردة، فلم يكن ليعدو عليهم، وقد أسلموا، ولم يكن ليطمئن إليهم وقد تذبذبوا بين الكفر والإسلام، فاكتفى بنزع سلاحهم واستحلفهم على ما غيَّبوا منه حتى جمع منهم شيئاً كثيراً استعمله في قتال أعدائه، وأعطاه لمن يحتاج إليه من جنده، ثم أعاد جمعه منهم بعد القضاء على الردة، فقدمه إلى أبي بكر فضمه إلى ما كان قبضه من أسد وغطفان من السلاح والكراع. فلما توفي أبو بكر اعتبره عمر أنه كان استعارة لوقت الحاجة فردّه إلى أصحابه وإلى ورثة من مات^(١) منهم.

وعلم طليحة بانتهاج ردتهم فأسلم هو الآخر، وخرج نحو مكة معتمراً، ثم عاد إلى المدينة في عهد عمر فبايعه، ورجع إلى داره في بزاخة بنى أسد وظل مقيماً بها حتى خرج إلى العراق.

حدث في تميم

أما تميم فقد اختلفت بطونها فممنهم مرتد ومنهم ثابت على إسلامه. وتزعم مالك بن نويرة ردة بنى تميم. وادعت امرأة اسمها سجاح النبوة في بنى تغلب من أرض الجزيرة بشمال العراق، وزحفت في جموعها لتغزو أبا بكر! فلما بلغت الحزن من منازل بنى تميم راسلت مالك بن نويرة فحالفها ووادعها، فأقبلت إليه ثم جاوزته إلى مسيلمة في اليمامة. وخشى مسيلمة أن تشغله سجاح عن قتال أبي بكر في الوقت الذي يتقرب زحف المسلمين إليه، فعرض عليها أن يتزوجها ليضم قوتها إلى قوته ويأكل بقومه وقومها العرب^(١)، فقبلت وتزوجها. غير أننا نجد أنها لا تلبث أن تكرر راجعة إلى الجزيرة.

ولما أراد خالد الخروج إلى بطاح بنى تميم اعترض الأنصار وتخلفوا عنه وقالوا: «ما هذا بعهد الخليفة إلينا. إن الخليفة عهد إلينا إن نحن فرغنا من بزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا». فقال خالد: «إن يكن عهد إليكم هذا، فقد عهد إلي أن أمضى، وأنا الأمير وإلى تنتهي الأخبار. ولو أنه لم يأتني له كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت إن أعلمته فاتتني لم أعلمه حتى أنتهزها، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه فلم ندع أن نرى أفضل ما بحضرتنا ثم نعمل به. وهذا مالك بن نويرة بحياننا وأنا قاصد إليه ومن معي من المهاجرين والتابعين بإحسان ولست أكرهكم».

وخرج خالد من بزاخة بنى أسد. وعاد الأنصار يقبلون الأمر فيما بينهم. قالوا: «إن أصاب القوم خير إنه خير حرمتموه. وإن أصابتهم مصيبة ليجتنبنكم الناس». فأجمعوا على اللحاق بخالد وأرسلوا إليه رسلاً فأقام على الطريق حتى لحقوا به ثم ساروا جميعاً. فلما قدموا منازل بنى تميم بالبطاح لم يجد جمعاً^(٢). إذ كان مالك بن نويرة قد فرق قومه في مياهم ونهاهم عن الاجتماع وأمرهم بالرجوع إلى الإسلام. وأرسل خالد خيله فجاءته بمالك بن نويرة في نفر من قومه فقتلهم، وكان ضرار بن الأزور الأسدي هو الذي ضرب عنق مالك، وتختلف الروايات اختلافات كثيرة حول الظروف والملابسات التي صاحبت مقتل ابن نويرة. وتزوج خالد امرأة مالك وكان هذا وذاك سبباً في غضب عمر بن الخطاب على خالد بن الوليد.

(١) الطبري ٣/ ٢٣٩.

(٢) الطبري ٣/ ٢٤١ س ش س، عن الصعب بن عطية بن بلال.

(١) عرجون ١٣٨.

ردّة بني حنيفة

أما عكرمة بن أبي جهل (الجيش الثاني) الذي بعثه أبو بكر إلى مسيلمة وأتبعه بشرحبيل (الجيش الثالث)، فقد تعجل الأمر وصادم مسيلمة قبل أن يأتيه شرحبيل فغلبه مسيلمة. وأدرك الخبر شرحبيل فأقام بالطريق. وكتب عكرمة إلى أبي بكر بالذي كان فغضب لذلك وكتب إليه ألا يرجع إلى المدينة فيوهن الناس، وأمره أن يمضي فيساند حذيفة وعرفجة على قمع ردة عمان ومهرة. ثم يتم دورته حول شبه الجزيرة إلى اليمن. رضى الله عن أبي بكر، ما أجمل رأيه وفكره. كما كتب إلى شرحبيل أن يقيم حيث كان بأدنى اليمامة حتى يأتيه أمره.

ورجع خالد من البطاح (بنى تميم) إلى أبي بكر لمساءلته عن مقتل مالك ابن نورة، فسمع عذره وقبل منه ورضى عنه ثم وجهه إلى مسيلمة وجمع له الناس. ورجع خالد إلى عسكره بالبطاح حتى يدركه الجمع الجديد، فلما وافاه نهض إلى اليمامة، وبنو حنيفة يومئذ كثير قدرهم بعض الرواة بأربعين ألف مقاتل في قراهم.

وأعاد شرحبيل غلطة عكرمة فتعجل القتال مع بنى حنيفة ودارت الدائرة عليه، وأدركه خالد فلامه على فعلته. وأمد أبو بكر خالدًا بسليط بن قيس من أصحاب بدر من الأنصار كمؤخرة له ليحمي ظهره حتى لا يؤتى من خلفه. وجمع مسيلمة جموعه ثم خرج إلى عقرباء وجعل على ميمنته الحكم وعلى ميسرته نهار الرجال. وقدم خالد شرحبيلًا وجعل على مقدمته خالد بن فلان الخزومي وعلى ميمنته زيد بن الخطاب وعلى ميسرته أبا حذيفة. وجعل راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس. وكان في هذا الجيش عبدالرحمن بن أبي بكر ووحشى الحبشى قاتل حمزة بن عبدالمطلب يوم أحد (وهو الذى قتل مسيلمة). وكانت أم تميم التى تزوجها خالد بن الوليد بعد مالك بن نورة تصحبه وتقيم فى فسطاطه، وقد عهد إليها أن ترعى أسيراً من كبار قوم مسيلمة اسمه مَجَاعَة أسره المسلمون بالطريق.

إذا أردنا أن نقدر جيش خالد وجدنا أنه خرج من ذى القصة فى أربعة آلاف، انضم إليهم ألف فارس من طيء، ثم انضم إليه معن بن حاجر بعدد غير معلوم لنا من ثبت على إسلامه من بنى سليم، وأمه أبو بكر بعدد آخر لا نعلمه قبل أن يتحرك إلى اليمامة، ثم بعدد آخر عليه سليط بن قيس، هؤلاء جميعاً لحقوا بشرحبيل بن حسنة الذى كان يقود الجيش الثالث، والذى لا يقل فى تقديرنا بأى حال عن ألفين. كذلك لحق بخالد من ثبت على إسلامه من بنى

تميم. فهذه سبعة آلاف معلومة بأعدادها، وأمداد غير معلومة العدد من سليم وتميم ومدد الخليفة والردء الذى كان عليه سليط. فنستطيع القول أن خالدًا كان يقود فى اليمامة جيشاً لا يقل عن عشرة آلاف، وربما تجاوز ذلك إلى اثنى عشر ألفاً أو نحوها.

والتحم الجمعان بعقرباء. وتفوقت بنو حنيفة حتى أزالوا خالدًا عن فسطاطه، واقتحموه وفيه أم تميم ومَجَاعَة مقيداً فى الحديد، فهموا بقتلها ولكن مجاعة أجارها فتركوها ومزقوا الفسطاط بالسيوف. واستبسل المسلمون وزحفوا فردوا المرتدين إلى حديقة عرفت بحديقة الموت وفيها مسيلمة. واقتحمها المسلمون عليهم وقتلوا مسيلمة وأكثروا القتل فى بنى حنيفة. وقد صبرت بنو حنيفة يومها للمسلمين من مطلع الشمس إلى صلاة العصر^(١). وكانت المصيبة فى المهاجرين والأنصار أكثر منها فى أهل البادية. وقتل من الصحابة وقرء القرآن جمع كبير، وبلغ عدد من قتل من المهاجرين والأنصار وتابعيهم بإحسان ١٢٠٠ منهم ٣٦٠ من أهل المدينة وحدها، بينما قتل من بنى حنيفة حوالى عشرون ألفاً. ويبدو أن معركة اليمامة قد استأصلت بنى حنيفة إذ لم يظهر لهم بعد ذلك ذكر فى الفتوح أبداً، ولم يذكر لنا التاريخ بطلاً من بنى حنيفة خلافاً لما ذكر لنا من سائر القبائل. قال خالد بن الوليد: «فما ضرب أحد من بنى حنيفة بعده بسيف»^(٢).

وجمع خالد ما كان خارج الحصون ثم نادى بالرحيل لينزل على حصون بنى حنيفة. وكلمه مَجَاعَة فأوهمه أن الحصون مملوءة رجالاً، ولم يكن بها فعلاً إلا النساء والصبيان. وطلب منه الصلح على أن يسلموه ما عندهم من الذهب والفضة (الصفراء والبياض) والسلاح وربيع السبى والخيل وحائطاً من كل قرية ومزرعة، وأن يعصم دماءهم على أن يسلموا. وقبل خالد. وبذلك انتهت ردة اليمامة أكبر حركات الردة، فنزل خالد وادياً من أودية اليمامة اسمه الوبر فجعل منزله به. وفى قتال مسيلمة قال ضرار بن الأزور الأسدى^(٣):

ولو سئلت عنا جنوبُ خُبرْت
عشيةٌ سالت عَقرباءُ بها الدم
عشيةٌ لا تغنى الرماح مكانها
ولا النبلُ إلا المُشرفي المصمَّم
فإن تبغى الكفار غير مليّة
جنوبٌ فيّني تابع الدين مسلم

(١) ابن الأثير ١٣٩/٢.

(٢) عزرون ١٦٤.

(٣) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ٢/٢٦ فى أبيات.

معجم البلدان - مادة عقرباء.

عمليات الجيش السابع^(١)

الردة في البحرين

أما أهل البحرين من ربيعة (وهم بنو عبد قيس وبنو بكر بن وائل) فقد كان أسبقهم إلى الإسلام الجارود بن المعلّى بن عمرو بن حنش حين ارتاد المدينة، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فأسلم. ثم أرسل النبي العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدى كبير عبد قيس فدعاه إلى الإسلام فأسلم. وأقام العلاء بالبحرين أميراً من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم مات المنذر بعد وفاة الرسول بقليل. وارتد من كان بالبحرين من عبد القيس وبكر بن وائل. قالت عبد قيس: «لو كان محمد نبياً لما مات». وبلغ ذلك الجارود بن المعلّى فبعث فيهم فجمعهم ثم قام فخطبهم فقال:

«يا معشر عبد القيس إني سائلكم عن أمر فأخبروني به إن علمتموني ولا تجيبوني إن لم تعلموا.

- سل عما بدا لك.

- تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟

- نعم.

- تعلمونه أو ترونه؟

- بلا بل نعلمه.

- فما فعلوا؟

- ماتوا.

- فإن محمداً صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا. وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. وأكفر من لا يشهد.

(١) لم نذكر عمليات الجيشين الخامس والسادس، لأنه لم يكن لهما دور في الفتح، بل انتهت مهمتهما في حروب الردة.

- ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأنت سيدنا وأفضلنا».

وثبتوا على إسلامهم حين ارتدت سائر ربيعة واجتمعت بالبحرين. ارتد الحطيم بن ضبيعة أخو بني قيس بن ثعلبة فيمن تبعه من بكر بن وائل وانضم إليه من غير المرتدين من لم يزل كافراً. ونزل القطيف وهجر، وبعث إلى المرتدين في دارين فأقاموا له حتى يحصر عبد قيس المسلمين بينه وبينهم. وأرسل إلى المنذر بن النعمان بن المنذر - وكان يسمى الغرور، وهو من آل المنذر الذين ملكوا الحيرة يوماً - فبعثه إلى جوثا وقال له: «اثبت فإنني إن ظفرت ملكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة».

واشتد الحصار على المسلمين من عبد قيس في جوثا حتى كادوا أن يهلكوا. وفي ذلك قال شاعرهم عبدالله بن حذاف أحد بني أبي بكر بن كلاب:

ألا أبلغ أبا بكر رسولاً وفتيان المدينة أجمعينا
فهل لكم إلى قوم كرام قعود في جوثا مخصرينا
كأن دماءهم في كل فج شعاع الشمس يغشى الناظرينا
توكلنا على الرحمن أنا وجدنا الصبر للمتوكلينا

العلاء يتحرق

فأرسل أبو بكر العلاء بن الحضرمي على قتال أهل الردة بالبحرين، ولحق به ثمامة بن أثال في مسلمي بني حنيفة، وقيس بن عاصم في مثل عسكر العلاء من بني تميم. وسلك العلاء الدهناء وبات في بحبوحتها بين الحنانات والعزافات عن يمينه وشماله، ثم سار حتى ينزل هجر. وأرسل العلاء إلى الجارود أن يضم قواته في عبد قيس حتى ينزل عليه من ناحيته. وتجمع المرتدون والمشركون - إلا أهل دارين - إلى الحطيم. وحفر كل من المسلمين والمشركون خندقاً حول عسكره، فكانوا يتراوون القتال، ثم يعودون كل خلف خندقه، واستمروا على ذلك شهراً.

وفي ليلة، سمع المسلمون ضوضاء شديدة في عسكر المشركون، فقال العلاء: «من يأتينا بخبر القوم؟» قال عبدالله بن حذاف - وكانت أمه عجلية من بني عجل -: «أنا آتيكم بخبر القوم». فخرج حتى إذا دنا من خندقهم اشتبهوا فيه، ورأبهم أمره فأخذه، فقالوا له: «من أنت؟» فنسب نفسه إليهم، وجعل يصرخ وينادي على أحد أخواله من بني عجل ويقول: «يا

العلاء يفتح دارين

جمع العلاء قواته وخطبهم فقال: «إن الله قد جمع لكم أحزاب الشيطان وشرد الحرب في هذا البحر، وقد أراكم من آياته في البر لتعتبروا بها في البحر، فانهضوا إلى عدوكم، ثم استعرضوا البحر إليهم فإن الله قد جمعهم». فقالوا: «نفعل ولا نهاب والله بعد الدهناء هولاً ما بقينا». فارتحلوا حتى إذا أتى ساحل البحر اقتحموه رجالاً وركباناً، على الصاهل والحامل والشاحج والناحق، الراكب والراجل، وكان العلاء والمسلمون يدعون: «يا أرحم الراحمين، يا كريم يا حلیم، يا أحد يا صمد يا حي يا محيي الموتى يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت يا ربنا». واجتازوا مياه الخليج وهم على ذلك يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل، وإن ما بين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر في بعض الحالات.

هل هي معجزة؟ هل شق لهم البحر كما شقه الله لموسى؟ سوف نتطرق لذلك عند التعرض لعوامل نجاح الفتوح، ونبين أن زمن المعجزات قد انقضى بانقضاء النبوات وأن علينا أن نجد لكل شيء سبباً. ولنا لهذا الحادث تعليل مقبول. فإن دارين جزيرة في الخليج الفارسي، وهذا الخليج شأن كل الخلجان يتعرض لظاهرة المد والجزر، ولا بد أن يكون المسلمون قد صادفوا انحسار المد وعبروا والجزر في أظهر حالاته وهو ما يفهم من ذلك الوصف «... يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل». فهي لا تدخل في باب المعجزات، ولكنها ظاهرة طبيعية لا تخرق سنن الكون.

طلع المسلمون على المرتدين بالجزيرة التي حصروا أنفسهم فيها فأذهلتهم المفاجأة واقتتلوا قتالاً شديداً فما ترك المسلمون بها مخبراً، وسبوا الذراري واستاقوا الأموال فبلغ نفل الفارس ستة آلاف درهم والراجل ثلث ذلك. فلما فرغوا عادوا أدرأجهم حتى عبروا رجوعاً كما ذهبوا. رجعوا إلى البحرين وقد انتهت الردة بها، وعز الإسلام وأهله وذل الشرك وأهله. فمن أراد الرجوع من جيش العلاء رجع ومن أراد المقام^(١) أقام.

نكتفي بهذا القدر عما كان من شأن ردة القبائل التي كانت على طريق العراق. أما سائر جيوش قمع الردة فقد قامت بما وكل إليها. فانتهت ردة أهل عمان ومهرة واليمن، وقضى على ردة الأخابث من عك وعلى ردة حضرموت. سقطت الردة وعادت شبه الجزيرة إلى الإسلام. وتم ذلك قبل انتهاء عام ١١ هـ.

(١) الطبري ٣/ ٢٦٠ عن عبيد الله بن سعيد، عن عمه عن سيف عن إسماعيل بن مسلم، عن عمير بن فلان العبدی.

أبجراه»، فجاءه أبجر بن بجير، فعرفه وقال: «ما شأنك؟» فأثار عبدالله فيه النزعة القبلية وقال: «لا أضيعن بين اللهازم! علام أقتل وحولي عساكر من عجل وتيم اللات وقيس وعنزة؟ أيتلاعب بى الحطّم ونزاع القبائل وأنتم شهود؟» فخلصه من أيديهم وهو يقول: «والله إني لأظنك بش ابن الأخت لأخوالك الليلة». قال عبدالله: «دعنى من هذا وأطعمنى، فإننى قد مت جوعاً» فغلب له طعاماً، فأكل ثم قال: «زودنى واحملنى وجوزنى (يجعله يجتاز المنطقة) أنطلق إلى طيتى (أهلى)». وكان أبجر قد غلب عليه الشراب ففعل وحمله على بعير وزوده وجوزه، فخرج عبدالله بن حذاف حتى دخل عسكر المسلمين، فأخبرهم أن القوم سكارى.

ولم يضع العلاء الفرصة فتحرك من فوره، وخرج المسلمون عليهم حتى اقتحموا مواقعهم وأخذوهم بالسيوف. وأخذ المشركون على غرة فاقتحموا الخندق ليهربوا، فمنهم من تردى فيه ومنهم من نجا ومنهم من قتل أو أسر. واستولى المسلمون على ما في معسكرهم، فلم يفلت رجل إلا بما عليه. أما الحطّم فقد ضربه أبو ضبيعة فقطع رجله من الفخذ وتركه، فقال الحطّم: «أجهز على»، قال: «لا أحب أن تموت حتى أمضك» (أتركك تشعر بالمضض)، فكان الحطّم لا يمر به في الليل أحد من المسلمين إلا قال: «هل لك في الحطّم أن تقتله؟» حتى مر به قيس بن عاصم التميمي، فقال له ذلك، فمال عليه فقتله^(١).

وخرج المسلمون يطلبون الفارين، وقد بلغ أكثرهم دارين - وهي جزيرة في الخليج الفارسي - فركبوا إليها السفن، ورجع آخرون إلى بلاد قومهم. ولما أصبح الصباح قسم العلاء الأنفال، ونفل رجالاً من أهل البلاء، ثم كتب إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل، فأرسل إلى عتيبة بن النهاس العجلي وإلى عامر بن عبد الأسود وإلى خصفة التيمي وإلى المثني بن حارثة الشيباني بلزوم أماكنهم، وأخذ الطرق على أهل الردة. وأمر مسمع بمبادرتهم، فمنهم من أناب وعاد إلى الإسلام فقبلوا منه وضموه إليهم، ومنهم من أبى فمنع من الرجوع إلى مقصده فعادوا حتى عبروا إلى دارين، فاجتمعوا بها مع من سبقهم إليها. وأقام العلاء حتى جاءته رسائل من كاتبهم من بكر بن وائل بقيامهم بأمر الله وغضبهم لدينه، فاطمأن إلى أنه لن يؤتى من خلفه من جهة البحرين فبدأ يتجه إلى دارين.

(١) وقيل: قتله الحارث بن عوف العبدی أحد عبد قيس، وقيل: بل أخوه حبيب. وقيل: قتله الشماخ الشاعر.

آثار حروب الردة

انتهت الردة إثر معارك طاحنة اشتعلت بها شبه الجزيرة جميعها، فلم تكن حدثاً عابراً انتهت وانتهى كل شيء بانتهائه، وإنما تركت في التاريخ أثراً وآثاراً.

١ - لزوم فتح جبهة جديدة

وأول هذه الآثار أن الردة حدثت في شبه الجزيرة بعد أن صارت لأول مرة منذ بدء الخليقة دولة. فهي إذن حرب أهلية لا نغالي إذا قلنا إنها شملت كل فرد فيها. فقد كان كل فرد واحداً من اثنين، مرتداً أو ثابتاً على إسلامه ولا ثالث لذلك، ولم يكن هذا أو ذاك بمنأى عن تلك الأحداث. فكان بكل مكان من شبه الجزيرة عشائر قتلى، ومصابون من الخارجين على سلطان الدولة، وعائدون إلى الدين الحنيف من بعد ردة، وثابتون على إسلامهم لم يقتربوا ردة. كيف يتعايش هؤلاء جميعاً في صفاء قلب وهدوء نفس في بيئة درجت على طلب الثأر؟ لم يكن بد - من الناحية السياسية البحتة - من فتح جبهة جديدة تشد انتباه الناس كافة واهتماماتهم عما كان يجوز أن يشغلهم في ديارهم بشبه الجزيرة. فكان من أهم آثار الردة أنها ولدت الشعور بضرورة فتح جبهات تنسى الأمة ما كان من أمرها وتسحب عليه ستائر النسيان لتجمعها من جديد على هدف واحد يصرفها عن تذكر الخلافات داخل شبه الجزيرة، فكانت الفتوح. نعم لم تكن الردة - أو قمع الردة - هي العامل المؤثر على بعث الجيوش إلى الفتح، وإنما كانت فريضة الجهاد لنشر الإسلام هي الباعث الأول بلا ريب، وسنعود إلى هذا عند التعرض لبواعث الفتح، غير أن الردة وما أسفرت عنه هي التي ولدت حركة الفتوح وأقتتها بمقات حتمتها فيه.

٢ - طاقات جاهزة للتعبئة

ومن جانب آخر ما كان في الإمكان أن تبدأ حركة الفتوح وفي شبه الجزيرة ردة. فتمهيد شبه الجزيرة وإخضاع جميع ربوعها لسلطان الدولة، ودخول أهلها جميعاً في عقيدة الإسلام كان أمراً لا بد منه ولا محيص عنه حتى يمكن الاتجاه إلى خارجها. إن جزيرة العرب هي قاعدة

الفتوح، فكيف كان يتسنى الفتح إذا لم تكن له قاعدة أو كانت هذه القاعدة مضطربة غير مستقرة. أما الآن فقد أصبح ممكناً تعبئة كل طاقات شبه الجزيرة وحشدتها للأعمال الحربية التي تلت. هذه السياسة كانت مما سن رسول الله ﷺ قبل وفاته، أن لا يقبل من عربي يسكن شبه الجزيرة غير الإسلام، وأن يجلى من سوى ذلك من اليهود والنصارى، فتم إجلاء اليهود في حياته وأوصى بإجلاء نصارى نجران فأجلأهم عمر بن الخطاب مع تعويضهم عن ديارهم تعويضاً مجزياً.

٣ - تدريب الأبد منه

أثر آخر كانت له أهميته الكبرى في الصلة بين الردة والفتوح وقنطرة ما بينهما، ذلك أن معارك الردة بحكم ترتيبها الزمني واتساع رقعتها وكبر حجمها، كانت أول تدريب حربي عملي لكافة المسلمين في جزيرة العرب، وكانت أول «مناورات بالذخيرة الحية» سواء في ذلك أهل الحضر وأهل البادية. كانت تدريباً على كافة شؤون الحرب على مستوى الجيوش الكبيرة ابتداء من الحشد والتعبئة العامة إلى التحركات والسير، إلى الالتحام إلى أعمال الدوريات والحصار، إلى الخبايا وتدريب الشؤون المعيشية للقوات فرسانها ومشاتها، نسائهم وذرايعهم على السواء. كانت الحروب بين العرب قبل ذلك حتى عصر النبوة على مستويات أقل من ذلك بكثير. فكانت الردة أول حرب اشتعلت فيها كل الجزيرة واشترك في معاركها عشرات الألوف، ولمدة غير قصيرة أدت بنا إلى أن رأينا في الفتوح مقاتلين من طراز فريد مارسوا الحروب وعركوها. ولا نعدو الواقع إذ نقرر أن أي مقاتل من جيوش الفرس والروم لم ينل من التدريب ما نال المقاتل العربي المسلم. يؤيد ذلك أن كانت نتيجة المباشرة التي تسبق المعارك دائماً في صالح المسلمين كما سنرى.

٤ - ظهور قيادات حربية

وكما كانت حروب الردة مجالاً لتدريب المقاتلين على كافة المستويات، فقد كانت فرصة مواتية لتكوين وإظهار قيادات حربية كان يتحتم عليها لكي ترقى سلم الخبرة والكفاءة والقيادة، أن تتدرج من قيادة عمليات صغيرة إلى قيادة عمليات أكبر ثم إلى أكبر منها، وهكذا حتى تتيح لهؤلاء القادة أن تنمو مواهبهم وأن يظهرها ويثبتوا وجودهم وجدارتهم.

٥- ثقة في النظام وقدراته

ثم لا شك أن النصر الذي أحرزه المسلمون في تلك الحروب قد منحهم ثقة لا حدود لها بأنفسهم، وبقدراتهم وبأنظمتهم الذي انتصر بهم في هذه المعارك وانتصروا به. هذه الثقة شيء هام جداً في مواجهة قوى عاتية أكبر من القوة المادية والعديدية للمسلمين حين خرجوا من ديارهم فاتحين. لقد صار مستقراً في أذهانهم أنه ليس هناك شيء اسمه مستحيل، فإذا كان هناك مستحيل فهو ألا ينتصروا. إذا كان هناك مستحيل فهم صانعوا هذا المستحيل.

بل إن هذه الثقة قد جاوزتهم إلى أعدائهم، فلا يسمعون باسم مثل خالد بن الوليد حتى يكون هذا في حد ذاته مثاراً لرعبهم وعاملاً من عوامل هزيمتهم.

إن لكل قتال جانبيه المادي والمعنوي. الجانب المادي هو القوة بكل مكوناتها من عدد وعتاد وتدريب وخبرة وجندية وقيادة ومخابرات... إلخ. والجانب المعنوي يشمل الإيمان بالهدف والروح المعنوية والحالة النفسية... إلخ. ونستطيع أن نؤكد أن مصير أي معركة يتحدد في قلوب المتعاركين فيها قبل أن يتحدد على أرضها. وقد خرج المسلمون فاتحين يملؤهم الأمل والثقة في النصر. يدعم ذلك ويؤكد سوابق من الردة رأوا فيها الحلم حقيقة والأمل واقعاً.

من هنا نرى أن معارك الردة كانت ذات قيمة فنية لا تقدر. وإذا كان التاريخ قد نعي كثرة من قتل فيها من أعلام المسلمين وحفاظ القرآن، فإننا نرى أنه كان لابد من هذا سداداً لثمن خبرة الحرب التي اكتسبها المسلمون، فمكنت لهم من أعدائهم وذللت لهم النصر على الفرس وعلى الروم على السواء. فمن حيث كان شهداء الردة ثمناً دفعته الأمة نقول: إنهم لم يكونوا لكسب حروب الردة فحسب، وإنما كانوا ثمناً لقمع الردة وللفتح بعدها. كانوا ضريبة الحياة لهذه الأمة وانسياح الإسلام في الشرق والغرب.

هذه الأسماء التي ظهرت في عملية صنع ذلك الجند الذي قل نظيره من أمثال: القعقاع بن عمرو وأخيه عاصم بن عمرو وزهرة بن الحوية وجريز بن عبدالله والمثنى بن حارثة وعدى بن حاتم والنعمان بن مقرن وإخوته، وغيرهم كثير وكثير، ما أخرج مكتبتنا العربية اليوم، بل والمكتبة الحربية للعالم كافة إلى من يزيح عن هذه الأسماء تراب الزمن حتى تلمع لأبناء جيلنا نجوماً وشموساً كما أضاءت بهم الدنيا يوماً. لقد ظهر الكثير عن رؤوس القادة مثل: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص، وفي رأينا أنها لم توف ومازال ينقص الكثير لتبيان كفاءاتهم الحربية، ولكن قصرت الهمم أن تقدم لنا ما يناسب هؤلاء الفرسان المسلمين النبلاء. ما كان أدري خالد بن الوليد بالقعقاع بن عمرو أو عتيبة بن النحاس أو الإخوة العشرة أبناء مقرن أو غيرهم حتى يستعملهم على أعمال كبيرة في حرب العراق إن لم يكونوا رشتهم كفاءاتهم التي ظهرت في ماضيهم المشرق المشرف في ميادين الحرب قبل الفتح؟

بل ما الذي رشح خالد بن الوليد نفسه عند أبي بكر ليسند إليه فتح العراق ثم فتح الشام؟ إنه ماضيه الذي بدأ رويداً في عصر النبوة، ثم ازداد لمعاناً وإشراقاً في حروب الردة. في الردة أخرج أبو بكر أحد عشر جيشاً عليها أحد عشر قائداً، وكانت اختباراً عسيراً لكفاءة هؤلاء، ونتيجة هذا الاختبار هي التي رشت خالد بن الوليد ولم ترشح عكرمة بن أبي جهل أو شرحبيل مثلاً لقيادة فتح العراق.

لقد كانت حروب الردة مرحلة وسيطة - من حيث الحجم وكل ما يترتب على الحجم - بين غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وبين المعارك الكبرى للفتوح التي غيرت شكل الأرض وخريطة العالم مثل اليرموك أو القادسية وما بعدهما. وبالرغم من أنها مرحلة في تدرج ودرجات في سلم، فإننا إذا نظرنا للزمن الذي استغرقه هذا التدرج لوجدنا أنه طفرة وأى طفرة.

إننا نجد الدول الكبرى في عصرنا الذي نعيش فيه كثيراً ما تفتعل الحروب والمعارك، أو تكون بمنأى عنها فتحترس أنفها فيها، مثل الحرب الأهلية في إسبانيا التي اشتركت فيها قوات من ألمانيا وإيطاليا والجزيرة وفرنسا لتكون ميداناً لتجربة أسلحتها الجديدة واختبار تخطيطها وأفكارها في الحرب وتدريب جنودها وإنشاء قادة صقلتهم معارك حقيقية. مثل ذلك أفاده المسلمون من حروب الردة. لم يفتعلوها، ولكنها كانت حرباً حقيقية أفادوا منها تجربتهم في الحروب.

الباب السابع
حملة خالد بن الوليد
«ثمانية عشر ألفاً يحبون الموت»

القائد العام خالد بن الوليد

القائد المشهور ذائع الصيت على مدى القرون والأجيال، الذي خاض عشرات المعارك، منها الكبير الحاسم، في جزيرة العرب والعراق والجزيرة والشام، لم يفقد منها معركة واحدة. وصفه داهية الحرب المعاصر له عمرو بن العاص^(١) فقال: «له أناة القطاة ووثوب الأسد». كان خالد جندياً ممتازاً وقائداً ممتازاً، غنياً متقشفاً راسخ العقيدة، شديد الثقة بربه وبنفسه ويعمله وبكفاءة معاونيه وجنده، خبيراً بهم فخوراً بهم، مقداماً. المسئولية ضالته أنى وجدت كان الأحق بحملها، وكان إذا تولى مسئولية منح نفسه أوسع السلطات لإنفاذها، وإذا ولاها أحداً من معاونيه، منحه أيضاً أوسع السلطات للتنفيذ.

كان عميق النظر في الحرب، ذكياً، فطناً، لماحاً، سريع الحركة، نهائراً للفرص، قوى الإرادة، جسوراً موفقاً في جسارته، خطيراً على أعدائه، ميمون الطائر مباركاً له، عالي اللياقة البدنية ومبارزاً جيد التدريب على كافة أسلحة عصره، مبتكراً يقظاً على المجالين التكتيكي والاستراتيجي. كان ذا أعصاب فولاذية، لا يبطره الفوز ولا يهزه تخرج الموقف، قادراً على أن يتخذ بسرعة الموقف الذي يصوبه التاريخ إذا ما درسه خبراء الحرب ملياً بعد قرون وأجيال، فاكتمب من الماضي أمجده، وأدرك في عصره ما انتهى إليه علم الحرب الحديث. كان يعرف هدفه ويحدده ويحافظ عليه، هجومياً في كافة عملياته، قادراً على ابتكار المفاجأة لأعدائه، مفاجآت مذهلة مؤلمة تشل تفكيرهم وتعجزهم عن المقاومة رغم تفوقهم العددي، يدرك قيمة الحرب النفسية وأثرها في الميدان، قدرته فائقة على توفير الحشد الذي يلزمه، مقتصداً في القوى، فلا يدفع إلى معركة بأكثر مما تستحق، آخذاً بمبدأ توفير الأمن لقواته حتى لا يؤتى من وجه لم يحسب حسابه، متمتعاً بمرونة نادرة وخفة حركة شاذة محققاً للتعاون والتنسيق بين كافة الوحدات التابعة لقيادته. أما عن الروح المعنوية التي كان يتمتع بها أو يستطيع أن يبثها في جنده، فلم يكن لها حدود. كذلك أثبت خالد أنه في مجال الإدارة لم يكن بأقل منه في ميدان الحرب. لذلك كله كان المسلمون يحبون أن يقاتلوا معه، وأن يقودهم خالد.

(١) قادة فتح العراق ١٥٦ عن اليعقوبي ٢/ ١٠٨.

أثر قريش في خالد

خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن قريش. يلتقى برسول الله ﷺ في جدتهما مرة، من قبيلة قريش التي سكنت مكة وقامت على أمر الكعبة بيت الله الحرام. وقد كان عرب شبه الجزيرة يعظمونه في الجاهلية، كما عظموه بعد ذلك في الإسلام. وبهذا البيت اكتسبت قريش بين قبائل العرب منزلة خاصة. وتقاسمت البطون الكبرى من قريش المسؤوليات الهامة في مكة.

بنو هاشم، كانت لهم سقاية الحاج.

بنو أمية، كانت لهم راية الحرب يخرجونها عند القتال.

بنو نوفل، كانت لهم الرفادة، وهي إعانة الحاج بالمال.

بنو عبدالدار، كانت لهم السدانة والحجابة واللواء.

بنو أسد، كانت لهم المشورة.

بنو تيم، كانت لهم شئون الديات والمغارم.

بنو مخزوم - عشيرة خالد بن الوليد، كانت لهم القبة، يضربونها ليجمعوا فيها ما يجهزون به الجيش، كما كانت لهم الأعنة، وهي قيادة الفرسان.

بنو عدى، كانت لهم السفارة.

بنو جمح، كانت لهم الأيسار والأزلام.

بنو سهم، كانت لهم الحكومة (التحكيم) والأموال المخجرة.

وظلت هذه الوظائف متوارثة في كل بطن من بطون قريش حتى ظهور الإسلام. ويذهب العقاد إلى أنه لم تكن بينها سلطات فعالة خليقة أن تتعاقب مع الزمن غير ثلاث متفرقات هي: السلطة الروحية لهاشم وعبد الدار، والسلطة السياسية لأمية، والسلطة الحربية لمخزوم.

واشتدت المنافسة على شرف قريش بين بني هاشم وبني مخزوم، حتى بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم بالرسالة، فكان طبيعياً أن نجد بني مخزوم من ألد خصوم الدعوة إلى الإسلام. قال أبو خالد - الوليد ابن المغيرة - : «أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ونحن عظيم القريتين؟» ونزلت في عناده للرسول والرسالة عديد من آيات الكتاب الكريم. وكان الوليد كثير المال، قدر ماله بثنى عشر ألف دينار وكان صاحب بساتين فيما بين مكة والطائف. وكان يكسو

الكعبة عاماً وتكسوها قريش مجتمعة عاماً. وكان لبني مخزوم وحدهم في وقعة بدر ثلاثون فرساً من مائة لقريش كلها، ومائتا بعير وأربعة أو خمسة آلاف مثقال من الذهب غير الأزواد والأمداد. في هذا الثراء والغنى نشأ خالد بن الوليد فلم يذكر أحد من الرواة أو المؤرخين أنه كان ذا عمل يقوم به قبل إسلامه. لعل هذا، بالإضافة إلى لياقته البدنية فضلاً عن مسئولية بني مخزوم عن القبة والأعنة، قد أتاح له الانصراف إلى هوايته المفضلة من ممارسة الفروسية وركوب الخيل والتدرب على استخدام السيف والرمح والقوس. ولاشك أن بروز خالد في ذلك كان واضحاً حتى اسلمته قريش شئون حربها. كان خالد في حوالى العشرين من عمره حين بعث الله محمداً برسالة الإسلام، فوقف من الإسلام والمسلمين موقف أبيه.

أثر أحد في خالد

في السنة الثالثة من الهجرة وقعت موقعة أحد، فجاءت قريش بخيلها ورجلها تريد المسلمين، كانوا ثلاثة آلاف فيهم مائتان من الفرسان، وكان خالد على هذه الخيول، وكان المسلمون ألفاً ليس فيهم سوى فارسان، فأسندوا ظهورهم إلى جبل أحد كموقع دفاعي وجاءت إليهم قريش من بطن الوادي. كان خالد قد بلغ السادسة والثلاثين، وكانت أحد أولى معاركه. ومن رأينا أنها تركت فيه من الأثر والانطباع ما لازمه في كافة حروبه بعد ذلك. ذلك أنها كانت تجربة وجد فيها خالد نفسه واكتسب أسلوبه الخاص به في القتال. ذلك أن المسلمين أحرزوا نصراً على المشركين شرعوا على آثاره يولون الأدبار والمسلمون يطاردونهم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد وكل حماية ظهر المسلمين إلى بعض الرماة الذين اتخذوا أماكنهم على الجبل. فما أن رأى هؤلاء قريشاً تنهزم تاركة متاعها وأدواتها في الميدان، وإخوانهم المسلمين يتعقبونهم ويجمعون غنائمهم حتى تركوا أماكنهم للمشاركة في ذلك. ولم يفت خالد أن يلتقط الموقف وقد اكتشف انكشاف ظهر المسلمين بنزول حماة الجبل من عليه. فدار بالميمنة وارتنى الجبل الخالي من الدفاع بخيله وأتى المسلمين من خلفهم يضرب ويقتل، وعاد فرار قريش لمواجهة المسلمين وانقلبت هزيمة المشركين نصراً ونصر المسلمين هزيمة.

هذه التجربة الأولى لخالد تعلم منها درساً. فإن ذلك الموقف الذي اتخذ فيه خالد قراره في برهة، قد لا تقاس بالثنائى، وما أسفر عنه من نتائج لا بد وأنه ظل يتأمله ويحلله ويدرسه بعد ذلك بينه وبين نفسه، بل لا بد وأنه كان أيضاً محل مناقشة ومدارسة بينه وبين سادة قريش

خالد مع الأحزاب

فى العام الخامس من الهجرة، تحزبت قبائل الشرك بتحريرى من اليهود، وزحفت إلى المدينة فى عشرة آلاف، وهو عدد ندر أن يجتمع لجيش عند العرب، وكان خالد من قادته. وخشى المسلمون مغبة ذلك الزحف، فأشار سلمان الفارسى على رسول الله ﷺ بحفر الخندق فى الجانب المكشوف من المدينة. وفوجئ المشركون حين بلغوا المدينة بهذا الخط الدفاعى فوققوا أمامه ووقف المسلمون قبالتهم خلفه، فأوقفوا هذا الزحف الرهيب عن بلوغ مرامه واقتحام يثرب. ووقفت الأحزاب أياماً فى زمهرير الشتاء قبل أن تعود أدراجها يائسة. فى هذه الأيام التى مكثتها تبادلت الرمى بالنبال مع المسلمين، وتناوب المشركون مناوشة المسلمين، فكان أبو سفيان وأصحابه يوماً، وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص يوماً، وهبيرة بن وهب يوماً، وعكرمة بن أبى جهل يوماً، وضرار بن الخطاب يوماً.

وفى السنة السادسة خرج رسول الله وأصحابه من المدينة إلى مكة للعمرة فى غير موسم الحج ووقفت قريش تمنعه من دخولها، وكان على خيلها يومذاك خالد بن الوليد. وانتهى الأمر باتفاق بين النبى وبين قريش على أن ينصرف المسلمون من عامهم هذا على أن يعودوا فى العام التالى، فتخرج قريش من مكة ويدخل النبى والمسلمون ثلاثة أيام ليس معهم إلا السيوف فى جرابها، وغضب خالد من ذلك الصلح وأقسم أن يخرج من مكة حتى لا يرى المسلمين يدخلونها.

إسلام خالد

اختلفت الروايات حول قصة إسلام خالد وتاريخ ذلك. ونثبت هنا ما رواه ابن سعد فى طبقاته عن الحارث بن هشام كما سمعها من خالد. قال: «لما أراد الله بى من الخير ما أراد، قذف فى قلبى حب الإسلام وحضرنى رشدى، وقلت قد شهدت المواطن كلها على محمد صلى الله عليه وسلم، فليس موطن أشهده إلا وأنصرف وإنى أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء وأن محمداً سيظهر. فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية، خرجت فى خيل قريش فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه بسعفان، فقامت بإزائه وتعرضت له فصلى بأصحابه الظهر إماماً، فهممنا أن نغير عليه فلم يعزم لنا، وكان فيه خير، فاطلع على ما فى أنفسنا من الهجوم به، فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف، فوقع

وفرسانها من أمثال عمرو بن العاص وأبى سفيان وضرار بن الخطاب وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم، بحيث تبلورت نتيجة أحد فى نفس خالد إلى تجارب ودروس ذات عناصر محددة ظهرت بعد ذلك فى المعارك التى خاضها.

تعلم أن العبرة فى النصر أو الهزيمة، إنما يكون بالنتيجة النهائية للمعركة وليس ببعض مراحلها، ومن ثم فإن تخرج الموقف لم يكن ليحرجه أو يذهب بلبه، كما وأن بعض الظفر لم يكن لينشيه ويبطره فيركن إليه.

وتعلم أن يحتفظ بشجاعته وهدوء نفسه وصفاء تفكيره، وإن دارت عليه الدائرة وبدا الموقف معقداً، مطمئناً إلى أن هذه الدائرة إنما هى مرحلة.

وتعلم أن لا يطمئن إلى أنه أحرز النصر إذا دارت الدائرة له على عدوه حتى يجعل من ذلك النصر نتيجة نهائية للمعركة، ثم للحرب كلها.

وتعلم - وهو الأهم - أنه فى المراحل الحاسمة من المعارك حين تخرج المعركة عن جمودها وتبدأ فى الحركة له أو عليه، أن نوعاً من الخلل يحدث فى صفوف كل من الطرفين، وأن عليه أن يلمح ذلك الخلل فى صفوف عدوه، ويبادر إلى دس خابوره ودق إسفينه فى الوقت المناسب لذلك تماماً. فإن لم يفعل فاتته الفرصة. كان خالد يرى ذلك حتى وإن كان الموقف العام فى صالح خصمه... كان يرى أنه تأتى لحظات ربما تقاس بالدقائق، أو بالثوانى تكون مناسبة تماماً لانتزاع الموقف برمته.

هذا الدرس الذى خرج به خالد من أحد، كان يتيح له استخدامه والاستفادة منه ما جيل عليه من كفاءة حربية وشجاعة لا تهتز وبديهة لا تخونه وقوة عضلية ولياقة بدنية يستطيع أن يعتمد عليها. بهذه النظرية فى الحرب، استطاع خالد أن ينتزع النصر فى اليمامة بعد أن اكتسحت جنود مسيلمة فسطاطه الذى لا بد أن كان مقاماً فى قلب المسلمين، وبه امرأته أم تميم، وهتكوه بأسياقهم. وبها استطاع أن ينتزع النصر من الروم على ضفاف اليرموك، وقد اقتحمت فرسانهم فسطاطه أيضاً. ثلاث معارك كبرى فى حياة خالد وتاريخ الإسلام، أحال نصر عدوه المؤكد إلى هزيمة محققة اعتماداً على أسلوبه الذى اكتسبه أول مرة يوم أحد، القائم على البحث عن الخلل فى صفوف عدوه المنتصر، واختطاف الموقف بسرعة. ثلاث معارك هامة لا تذكر دون أن يذكر خالد.

ذلك منى موقعاً وقلت: الرجل ممنوع، وافترقنا، وعدل عن سنن خيلنا، وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشاً بالحديبية قلت في نفسي: «وأى شيء بقي، أين المذهب؟ إلى النجاشي؟ فقد اتبع محمداً وأصحابه آمنون عنده. أفأخرج إلى هرقل، فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية؟ أفأقيم في عجم أو أقيم في دارى فيمن بقي؟» وبينما أنا كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ في عمرة القضاء وتغييت فلم أشهد دخوله. وكان أخى الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في تلك العمرة، فطلبني فلم يجدني فكتب إلي كتاباً، فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإنني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك، ومثل الإسلام يجهله أحد؟! وقد سألتني رسول الله ﷺ، فقال: أين خالد؟ فقلت: يأت به الله. فقال: ما مثل خالد يجهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته مع المسلمين على المشركين، كان خيراً له ولقدمناه على غيره. فاستدرك يا أخى ما فاتك فقد فاتتك مواطن صالحة».

فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام وسرتني مقالة رسول الله ﷺ، ورأيت في النوم كأني من بلاد ضيقة جدبة، فخرجت إلى بلد أخضر واسع، فقلت: إن هذه الرؤيا حق. فلما قدمت المدينة قلت: لأذكرها إلى أبي بكر، فذكرتها. فقال: هو مخرجك الذي هداك للإسلام والضيق الذي كنت فيه الشرك.

فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت: «من أصحابي إلى محمد؟» فلقيت صفوان بن أمية فقلت: أما ترى ما نحن فيه وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرف محمد شرف لنا. فأبى على أشد الإباء وقال: لو لم يبق غيري من قريش ما اتبعته أبداً. فافترقنا وقلت: هذا رجل موتور يطلب وتراً، قتل أبوه وأخوه ببدر. ولقيت عكرمة بن أبي جهل، فقلت له مثل ما قلت لصفوان، وقال لي مثل ما قال صفوان، فقلت له: فاطموا ما ذكرت لك، قال: لا أذكره.

وخرجت إلى منزلي فأمرت براحلتى تخرج إلى أن ألقى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة فقلت: إن هذا لي صديق فلو ذكرت له ما أريد، ثم تذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره، ثم قلت: وما على وأنا راحل ساعتي. فذكرت له ما صار الأمر إليه، وقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب لو صب عليه ذنوب ماء خرج. وقلت له نحواً مما قلت لصاحبيه فأسرع الإجابة وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو وهذه راحلتى بفتح مناخة. وواعدني إن سبقني إلى يأجج أمّام، وإن سبقته أقمت عليه (يأجج على ثمانية أميال من مكة على طريق المدينة).

وخرجنا جميعاً فأدجننا سحراً فلما كنا بالهدة إذا عمرو بن العاص فقال: مرحباً بالقوم. قلنا: وبك؟ قال: أين مسيركم؟ فأخبرناه. وأخبرنا أنه يريد النبي ﷺ ليسلم. فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة على رسول الله ﷺ أول يوم من صفر سنة ثمان، فأنخنا بظاهر الحرة ركائبنا، وأخبر بنا رسول الله ﷺ، فقال: «رمتكم مكة بأفلاذ كبدها». ثم لبست من صالح ثيابي وعمدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلقيني أخى، فقال: أسرع فإن رسول الله ﷺ أخبر بقدمك، فسر به وهو ينتظر. فأسرعت المشى، فلما طلعت على رسول الله ﷺ سلمت عليه بالنبوة، فرد على السلام بوجه طلق، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير». وبايعت رسول الله ﷺ وقلت: استغفر لي كل ما أوضعت فيه من حق عن سبيل الله. فقال: «إن الإسلام يجب ما كان قبله». قلت: يا رسول الله على ذلك. فقال: «اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع من حق عن سبيلك» ثم تقدم عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة فأسلما وبايعا الرسول، فرأى ما كان رسول الله من يوم أسلمت يعدل بي أحداً فيما يحزبه.

في مؤتة

وفي نفس هذا العام الثامن كانت غزوة مؤتة. فقد بعث رسول الله ثلاثة آلاف وجعل أميرهم زيد بن حارثة فإن قتل فجعفر بن أبي طالب فإن قتل فعبدة الله بن رواحة وكان خالد في هذا البعث. ولما بلغوا تخوم الشام وجدوا الروم قد استعدوا لهم بمائة ألف خلاف من انضم إليهم من عرب الشام. وتردد المسلمون بين الالتحام أو الإحجام فلم يكن هناك أى تكافؤ بين القوتين، ثم اختاروا الالتحام فاقتتلوا قتالاً شديداً قتل فيه زيد بن حارثة برماح الروم، فأخذ الراية جعفر فقاتل حتى قتل، ثم أخذ الراية ابن رواحة فقاتل حتى قتل، فأخذ الراية ثابت بن أرقم وصاح في الناس: «يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم» قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلحوا على خالد بن الوليد فأخذ الراية ودافع الروم حتى جمع المسلمين وقد كادوا أن يشتتوا، ثم بدأ يتراجع بهم. وأرخى الليل سدوله فحال بين الفريقين والقتال. وقد خالد الموقف ورأى أنه لا بد من الانسحاب فأصبح وقد بدل أوضاع قواته فجعل الميمنة في الميسرة والميسرة في الميمنة والمقدمة في المؤخرة والمؤخرة في المقدمة حتى يلقي في روع الروم أنها غير قوات الأمس وأن أمداداً قد وصلت. واقتتل يومه ذاك حتى الليل وهو ينسحب إلى قرية مؤتة ثم قفل راجعاً إلى المدينة. ووقف رسول الله على منبره فأنهاى إلى المسلمين أخبار

جيشهم في كلمات حزينة إلى أن قال: «... ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء، هو أمر نفسه... اللهم إنه سيف من سيوفك فأنت تنصره» فمذ يومئذ سمي خالد سيف الله.

كانت مؤتة أول مشاهد خالد في الإسلام ولم يكن ممن ولاهم رسول الله ﷺ من أمراء الجيش، ولكن الظروف فرضته لما ادّلهم الخطب وتآزم الأمر فوجد المسلمون أن الموقف يتطلبه. وإذا كان قد اكتسب شهرته في التاريخ من مواقعه، لا سيما ما كان منها بعد ذلك في حروب الردة وفتح العراق والشام، فقد كان انتخابه قائداً في مؤتة في ظروف كانت تجعلها معركة ميوساً منها شهادة مبكرة من شهدائها بأحقّيته وجدارته. ليس بين أيدينا ما يفيدنا عن السبب في أن رسول الله ﷺ لم يضع خالدًا في قائمة أمراء الجيش. أفكان ذلك لأن الثلاثة الذين عينهم الرسول أكفأ في مجال الحرب من خالد من وجهة نظره ﷺ؟ لا نعتقد ذلك بل نستبعده من افتراضاتنا. فهل كان لسابقتهم على خالد في الإسلام؟ وأيضا لا نعتقد أن يكون ذلك هو السبب فمناصب الحرب لا تكون بالسبق إلى الإسلام بل بالسبق إلى استكمال أسباب الغلب. ولقد استخدم أبو بكر خالدًا لقمع الردة ولم يستخدم عبدالرحمن بن عوف مثلاً وهو أقدم سابقة من خالد. فما السر إذن أن يُترك قائد كبير في جيش يحتاجه دون منصب له فيه. هل كان اختصاراً وتحصيماً وإثباتاً لحسن إسلام خالد أو ترويضاً له؟ ربما كان ذلك والله أعلم. فقد كان صد خالد عن الإسلام يستند إلى كبريائه وإلى صلف بني مخزوم، والإسلام يساوي بين المسلمين، فهم سواسية كأسنان المشط، فليكن خالد جندياً في جيش يقوده زيد بن حارثة عتيق رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد أثبت خالد جدارته وأهليته كمسلم عقيدة وقائد حرب، وأثبت أنه لم يدخل الإسلام طمعاً في شرف أو جاه بعد أن بدأ الدهر يولي قريشاً ظهره.

وأمام انسحاب خالد، نقف وقفة قصيرة. فهل يعتبر الانسحاب هزيمة؟ بذلك قال صبيان المدينة فاستقبلوا الجيش العائد بالتراب يحثونه في وجوههم ويقولون لهم: يا فرار، وهكذا يظن بسطاء الناس عادة، ومن ليس له بالحرب علم ولا معرفة. ولكن كثيراً ما يكون الانسحاب الناجح أكبر نصر للجيش، وأعظم عمل لقائده إذا كان في مأزق لا أمل فيه، فيكون الانسحاب الذي هو نجاة للقوات من خطر الإبادة إلى أن يتهيأ لها ظرف أفضل هو أعظم نصر. وبذلك قال رسول الله ﷺ: «بل الكرار إن شاء الله». ولقد كان انسحاب خالد بالمسلمين من مؤتة عملاً ينطوي على الصواب كل الصواب من الناحية الحربية، كما ينطوي

على الشجاعة كل الشجاعة من الناحية الأدبية إذا أخذنا في اعتبارنا أن وراءه بيئة تلتهب بالحماس، وقد استشهد قبله ثلاثة قادة.

فتح مكة

وفي العام الثامن من الهجرة أيضاً حدث فتح مكة. فقد نقضت قريش عهدها مع رسول الله فقرر فتح مكة، وحشد حشوده وكتب إلى من أسلم من قبائل أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم، كما اجتمع إليه أصحابه من المهاجرين والأنصار، فكانوا جميعاً عشرة آلاف. وكان النبي حريصاً على أن يتم الفتح دون دماء، فاعتمد لذلك على المفاجأة وتكنم في تحركاته وما اعتزم عليه. خرج المسلمون من المدينة في العاشر من رمضان. وخرج بعض القرشيين للاستطلاع، فرأوا جمعاً لم يجتمع للمسلمين من قبل. وقبيل مكة عند ذي طوى عبأ النبي ﷺ جيشه، فقسمه إلى أربع لواءات، كان خالد بن الوليد على واحد منها ليدخل مكة من الليط في جنوبها، وكان معه من القبائل أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة. وكان الزبير بن العوام على لواء ثان ليدخل مكة من كدى بشمالها، وكان سعد بن عبادة على الأنصار ليدخلها من كداء بغربها، ثم كان أبو عبيدة بن الجراح ليدخلها من أعلاها بحذاء جبل هند. وأمر النبي كل الفرق ألا تقاتل إلا إذا أكرهت على ذلك. وتصدى عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو في بعض من اجتمع إليهم لصديقهم القديم خالد بن الوليد، وناوشوه فاشتبك معهم وقتل منهم ثلاثة عشر، كما قتل في هذا القتال ثلاثة من المسلمين. وطلع الرسول ثنية كداء، فنظر إلى جهة خالد ورأى ما يحدث فقال: «ما هذا وقد نهيت عن القتال؟» قالوا: «نظن أن خالدًا قُتل وبدى بالقتال، فلم يكن بد أن يقاتل من قاتله، وما كان يا رسول الله ليعصيك ولا ليخالف أمرك». وسأل رسول الله ﷺ خالدًا عن ذلك فقال: «هم بدأوا ووضعوا فينا السلاح وأشعرونا بالنبل، وقد كفت يدي ما استطعت. قال: «قضاء الله خير».

بعث مكة

فتحت مكة، وطهر المسلمون الكعبة من الأصنام فحطموها، ثم أرسل الرسول ﷺ خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً إلى بطن نخلة حيث كان هيكल العزى من أكبر أصنام قريش، فهدمها خالد في الخامس والعشرين من رمضان. وفي شوال أرسله النبي أميراً لسرية في

ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار داعياً - ولم يبعثه مقاتلاً - إلى بنى جذيمة بن عمار بن عبد مناة بن كنانة بأسفل تهامة. فلما رأوا خالداً أخذوا أسلحتهم فقال لهم خالد: «ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا». فقال رجل منهم اسمه جحدم: «ويلكم يا بنى جذيمة إنه خالد، والله ما بعد وضع السلاح إلا الأسر، وما بعد الأسر إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحى أبداً». قال له رجال من قومه: «يا جحدم أتريد أن تسفك دماءنا؟ إن الناس قد أسلموا ووضع الحرب وآمن الناس». ولم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ووضع القوم سلاحهم، فأمر بهم خالد فكتفوا، ثم عرضهم على السيف ليقتل منهم، فأنكر عليه ذلك عبدالله بن عمر بن الخطاب، فزجره خالد فسكت عبدالله، فأنكر عليه سالم مولى أبي حذيفة وراجعاه واشتد الجدل بينهما، ثم نفذ خالد ما أراد فقتل منهم رجالاً وجحدم يقول: «يا بنى جذيمة ضاع الضرب قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه». وانتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد». ودعا على بن أبي طالب وأعطاه مالا وقال له: «أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك». وأدى على إليهم ديات من قتل وما أصيب من أموال، وبقي معه من المال شيء فقال لهم: «أبقى دم أو مال لم يؤد لكم؟» قالوا: «لا». قال: «فإني أعطيكم هذه البقية من المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يعلم ولا تعلمون». وسر رسول الله لتصرف على وقال له: «أصببت وأحسنيت». وأثار تصرف خالد كثيراً من النقد والجدل بين متهم له مغلف عليه وبين مدافع عنه ومحاول تبرير تصرفه. ويغنيانا عن الخوض في ذلك ما كان من رسول الله ﷺ: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد». وودى الدماء والأموال، ولكنه ظل يستعمل خالداً.

وبعد فتح مكة علمت هوازن أنها غير متروكة، فعزمت على أن تبدأ هي بغزو مكة. واتجه الرسول إلى غزوها في ديارها إلى الجنوب الشرقي من مكة، وخرجت هوازن ومعها ثقيف، كلهم ثلاثون ألفاً، حتى نزلوا حنيناً وهو وادي ضيق من وديان تهامة يقودهم مالك بن عوف. وخبأ مالك خيله ومن ورائها مشاته في شعاب الوادي وعلى رؤوس الجبال. وكان خالد في مائة فرس هي خيل بنى سليم مقدمة لجيش المسلمين الذي بلغ اثني عشر ألفاً. فلما انحدروا في وادي حنين انصبت عليهم هوازن من مخابثها والمسلمون حُسِرَ ليس عليهم دروع، وهوازن قوم رماة لا يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقاً لا يكادون يخطؤون فبغتتهم، واضطرب أمر المسلمين فولوا الأدبار حتى قام فيهم النبي ينادي: «إلى أيها الناس، أنا رسول الله».

بطبيعة الحال كان خالد ممن دهمتهم المفاجأة، وقد انسحب مع المقدمة. وفي موقف كهذا لم يكن بد من ذاك حتى لا يبقى بين المطرقة والسندان، فلما ناداهم الرسول عاد خالد ومن كان معه، وقاتل أشد قتالاً وقاتلوا معه حتى أصيب بجراحات كثيرة، وأتاه النبي ﷺ في رحله بعد أن هزمت هوازن ليعرف خبره ويعوده فنفت في جرحه فانطبق. ورغم هذه الجراح ظل خالد على رأس ألف كمقدمة للمسلمين في زحفهم نحو ثقيف. حاصروها زمناً في حصونها فلم يتسن لهم فتحها، فأذن الرسول للناس بالرحيل. وقد جاءت ثقيف بعد ذلك إلى النبي مسلماً.

وفي رواية أن الرسول أرسل الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق ليجمع صدقاتها، فخرجوا يستقبلونه، فظن أنهم خرجوا لقتاله، فرجع وأخبر الرسول بذلك، فأرسل إليهم خالد بن الوليد فوجدهم على الإسلام. ثم أرسله النبي في أربعمئة وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل، وكان نصرانياً، فزحف خالد إليه من تبوك وفاجأه في دومة الجندل فأسره وقتل أخاه حسان، ثم صالحه على ألفي بغير وثمانمائة فرس وأربعمئة درع وأربعمئة رمح، ودخل المسلمون الحصن وعاد خالد إلى الرسول بأكيدر^(١).

وبعث النبي خالداً إلى ثقيف ليهدم اللات فأمر خالد المغيرة بن شعبة الثقفي أن يهدمها بنفسه، فأخذ المعول وسواها بالأرض وحفر أساسها وأخرج ترايبها.

ثم بعثه النبي في أربعمئة إلى بنى الحارث بن كعب بنجران من أرض اليمن وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثاً قبل أن يقاتلهم، فإن استجابوا فليقم فيهم يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه، وإن أبوا فليقاتلهم. فأسلموا ولم يقاتلوا وأقام خالد بينهم بما أمره به رسول الله ﷺ. ثم أرسل إليه النبي أن يعودوا ومعهم وفد منهم ففعل.

وتوفي رسول الله، وارتد من ارتد من العرب، وأخرج أبو بكر جيوشه لردع الردة، فكان خالد قائد جيشه الأول وهو أكبرها وأهمها جميعاً. قال أبو بكر: «إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: نعم عبدالله أخو العشيرة، خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله سله على الكفار».

شجاعة وفروسية وعزيمة وصدقاً وجلداً وصبراً وإقداماً ونظراً في الحروب . ومن المؤسف أن ذلك الفارس القائد النادر لا نكاد نجد شيئاً عن شخصه خارج نطاق معاركه وفتوحه .

وكان للفرس سلطان في البحرين وعمان واستوطنهما بعضهم ، وكثيراً ما وقع الصدام بينهم وبين بني شيبان . وقد انتصر بنو شيبان انتصارهم الكبير على الفرس في ذي قار من أرض العراق . واكتشف المثنى بأس قومه في القتال كما اكتسب جرأة على قتال الفرس واقتحام سوادهم . يقول ابن الأثير : إن الإسلام جاء وليس في العرب أعز داراً ولا أمتع جاراً ولا أكثر حليفاً من بني شيبان .

وقد عاش مع المثنى أخواه المعنى ومسعود وشاركاه معاركه الرائعة ضد الفرس . ولزوج المثنى ذكر في التاريخ ، شهدت معه معاركه ضد الردة في شبه الجزيرة وضد الفرس في العراق وهي سلمى بنت خصفة التيممية . وفي رواية أنها وفدت مع المثنى على رسول الله ﷺ وأسلمت معه ، فهي على هذا صحابية .

ولما انتقل المثنى إلى رحاب الله ، وقد كان ينتظر قدوم سعد بن أبي وقاص إلى العراق ، ترك له وصيته بأن يقاتل الفرس على حدود أرضهم ، ونقل المعنى وصية أخيه إلى سعد ، وكانت تصحبه سلمى فخطبها سعد من المعنى فقبل ، وصارت هذه المرأة المسلمة المجاهدة زوجاً لسعد بن أبي وقاص ، وشهدت معه القادسية .

وحين استطرد المثنى في تعقبه المرتدين حتى دخل إلى مناطق السيادة الفارسية الكاملة من حوض الفرات ، ترامت أنباؤه إلى الخليفة أبي بكر في المدينة فقال :

« من هذا الذي تأتينا وقائع قبل معرفة نسبه !؟ »

وكان هناك قيس بن عاصم المنقري ، حكيم بن تميم ، خصوم بني شيبان قبل الإسلام فقال :

« هذا رجل غير حامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العمد ! هذا المثنى بن حارثة الشيباني » .

المثنى بن حارثة

قائد عام آخر

قبائل العرب كانت تخرج إلى مكة ، فكان الرسول يعرض دعوته عليها . وجاءت جماعة من بني شيبان ، فتلا الرسول عليهم : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ... ﴾ ^(١) ثم تلا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ... ﴾ ^(٢) فقال المثنى : « قد سمعت مقاتلتك واستحسنيت قولك وأعجبني ما تكلمت به ، ولكن علينا عهد من كسرى لا نحدث حدثاً ولا نؤوي محدثاً ، ولعل هذا الأمر الذي تدعونا إليه مما يكرهه الملوك . فإذا أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلي بلاد العرب فعلنا » . فقال النبي ﷺ : « ما أسأتم إذا أفصحتم بالصدق ، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه بجميع جوانبه » . ثم نهض النبي .

وبنو شيبان قبيلة المثنى ، أحد فروع بكر بن وائل من ربيعة من معد بن عدنان . فمن ربيعة كانت أسد ، ومن أسد كانت جديلة ، ومن جديلة بكر بن وائل بن قاسط ، ومن بكر كان شيبان بن ثعلبة جد المثنى . والمثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعيد بن ذهل بن شيبان . وكانت ديار ربيعة بين الجزيرة والعراق إلى البحرين على شواطئ الخليج الفارسي . ولم تكن لهم مدن ولا قرى ، وإنما كانوا أصحاب مضارب وخيام ، وأهل حل وترحال .

وكانت في الجاهلية حروب ووقائع بين بكر وتغلب ابني وائل ، واستمرت حتى كانت الغلبة لبكر على تغلب ، فافتقرت تغلب بينما انتشرت بكر فيما بين اليمامة والبحرين إلى أطراف السواد ، ومن الأبله إلى هيت . اقتسمت ربيعة تلك المناطق تحاور بني تميم وتتداخل معها أحياناً . وكانت منازل ربيعة كثيراً ما يلحقها الجذب ، بينما كانت منازل تميم (من مضر) في نجد بشمال جزيرة العرب وتمتد إلى البصرة ، كانت أكثر خصباً ، ولذلك كثيراً ما كانت ربيعة تغير على جيرانها من تميم ، فاشتعلت الحرب بينهما اثنتي عشرة مرة ، فازت تميم منها بست وفازت ربيعة بست . في هذه البيئة نشأ المثنى وساد قومه ، فقد كان أكثرهم

(١) سورة الأنعام ١٥١ .

(٢) سورة النحل ، الآية ٩٠ .

الباب الثامن
اكتساح العراق الجنوبي

غارات للمثنى

كان عرب البحرين من ربيعة يتاخمون العراق، وكثيراً ما دخلوه ولهم عليه جراءة. وكان منهم من يعرف مسالكه. ولعلنا نذكر أن فرات بن حيان الذي كان دليل قريش في جاهليتها لتجارتها مع الحيرة بالعراق ومع الشام، وأسرتة سرية زيد بن حارثة، كان عَجَلِيًّا من بني عجل من بكر بن وائل. ولعلنا نذكر أن وقعة ذى قار التي كانت بين ربيعة والفرس في الجاهلية كانت على صحراء العراق. وأخيراً في العام الحادى عشر للهجرة، سار المثنى ابن حارثة الشيباني في مطاردته المرتدين، حتى دخل جنوب العراق.

وإذ انتهت حروب الردة سار المثنى حتى قدم المدينة على أبى بكر رضى الله عنه، وطلب منه التصريح بعمليات^(١) حربية بهذه الجهات فقال له: «أمرنى على من قبلى من قومي أقاتل من يلينى من أهل فارس وأكفيك ناحيتى»، فقبل أبو بكر ذلك. ورجع المثنى فجمع قومه وأخذ يغير على أسفل العراق، تارة على نواحي كسكر فيما بين دجلة والفرات وتارة على أسفل الفرات. وكان المثنى ذا نظر حربى ثاقب، فأعمل فكره فى الأمر، ثم بعث أخاه مسعود بن حارثة إلى أبى بكر بالمدينة يسأله المدد ويقول: «إن أمددتنى وسمعت بذلك العرب أسرعوا إلى وأذل الله المشركين، منع أنى أخبرك يا خليفة رسول الله ﷺ أن الأعاجم^(٢) تخافنا وتتقينا».

خطة أبى بكر لغزو العراق

فما لبث أبو بكر أن نظر إلى موضوع العراق نظرة أخرى، ورسم خطته أن يطبق عليه بفكى كماشة بجيشين^(٣)، جيش من أسفله وجيش من أعلاه، بحيث يلتقيان فى الحيرة. فكتب إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة بعد أن فرغ من أمر مسيلمة وبني حنيقة:

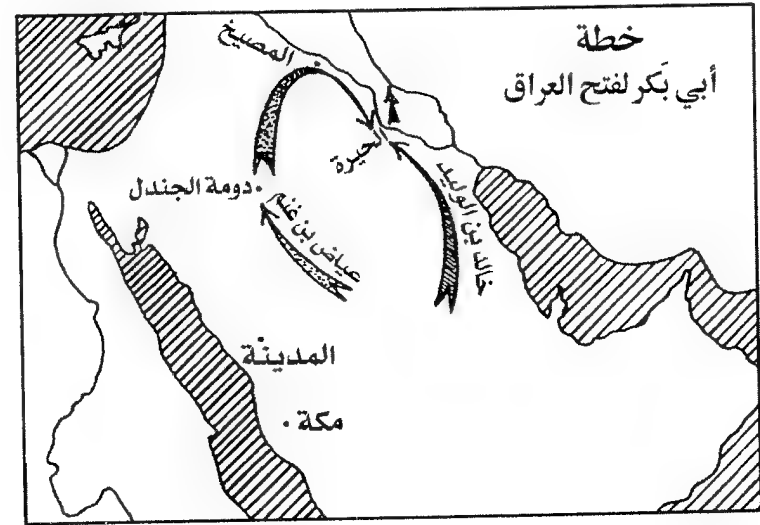
(١) فتوح البلدان ٦٠١ - الاستيعاب ٣/ ٤٩٦.

(٢) الاستيعاب ٣/ ٤٩٧.

(٣) الطبرى ١٩/ ٤ س ش س، عن محمد بن عبد الله، عن أبى عثمان. وطلحة عن المغيرة والمهلب، عن سياه وسفيان، عن ماهان.

«إن الله فتح عليك. فسر إلى العراق^(١) وأبدأ بفرج^(٢) أهل السند والهند، وهى الأبله (ليوم قد سماه) حتى تلقى عياضاً. وتآلف أهل فارس ومن كان فى ملكهم».

كما كتب إلى عياض بن غنم وهو بالعراض^(٣) بين النجاف والحجاز على بعض قوات حروب الردة: «أن سِرْ حتى تأتى المَصِيحَ فابدأ بها ثم ادخل العراق من أعلاها وعارق^(٤) حتى تلقى خالداً. وأذنا لمن شاء بالرجوع ولا تستفتحاً بمتكاره. ثم استبقا إلى الحيرة، فأيكما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه. وإذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس (حصونها) وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليكن أحدكما رداءً (عوناً) للمسلمين ولصاحبه بالحيرة وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم المدائن، وجالدوهم عما فى أيديهم واستعينوا بالله واتقوه وآثروا أمر الآخرة على الدنيا يجتمعاً لكم ولا تؤثروا الدنيا فتسلبوها. واحذروا ما حذركم الله بترك المعاصى ومعالجة التوبة، وإياكم والإصرار وتأخير التوبة».



خريطة رقم (١١) - خطة أبى بكر لفتح العراق

خطة رائعة تلك التى رسمها أبو بكر، يضع بها قوات الفرس غربى الفرات بين فكي كماشة، بحيث تواجه هذه القوات أحد الجيشين وهى مهددة من خلفها بالجيش الثانى. إنه تخطيط يوقع قوات الفرس وقادتهم فى ارتباك من حيث استكناه معرفة أهداف كل جيش ومقصده، ومن حيث توزيع قواتهم لملاقاة كل من الجيشين فى وقت واحد، ومن حيث اختيار أماكن الدفاع والمراقبة، ومن حيث عدم اطمئنان أى قوة للفرس تتواجد غربى الفرات فتبقى قلقة فى أرضها من الناحية النفسية والمعنوية، إذ يزحف إليها جيشان من اتجاهين متضادين. ثم يكون لكل من الجيشين المتقدمين أن يجد العون والتجدة من الجيش الثانى، فضلاً عن أن الطريق الواحد بمياهه المحدودة وكله قد لا يحمل عدد الجيشين، فكان من الأفضل - أو من الألزم - أن تقسم مسئولية الفتح على حملتين تتخذ كل منهما مساراً مستقلاً. ثم هى منافسة فاضلة ومباراة متمعة شيقة بين جيشين من جيوش المسلمين تحفز الهمم وتستثير الحماسة والحمية.

جيش الفتح يحتشد

أذن كل من خالد وعياض لمن شاء ممن معهما بالرجوع، فرجع أهل المدينة وما حولها ونقصت قواتهما حتى لم يبق مع خالد إلا ألفان، فكتب كل منهما إلى أبى بكر يطلب المدد، فأمد أبو بكر خالداً بالقعقاع بن عمرو التميمي^(١). ف قيل له: «أتمد رجلاً قد انفض عنه جنوده برجل؟» وكان أبو بكر عليماً بالرجال، قال: «لا يهزم جيش فيهم مثل هذا» كما قال: «لصوت القعقاع فى الجيش خير من ألف رجل». وأمد عياضاً بعبد بن عوف الحميرى. وكتب إليه وإلى خالد: «أن استنفرا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا يَغْزُونَ معكم أحد ارتد حتى أرى رأيى». فلم يشهد هذه المعارك من سبقت له ردة حتى سُمحَ لهم فى عهد عمر بذلك فيما بعد، لما ظهرت توبتهم وحسن إسلامهم، وعلى ألا يتولوا رئاسات. حتى فى هذا الوقت الذى يفتقر فيه أبو بكر إلى أعداد من الجند، لم ينس الهدف من الفتح وأنه جهاد الدين الحنيف للشرك الوثنى الخبيث فكان يتخير لجيوشه المسلمين الذين ثبتوا على إسلامهم حين فتن الناس وارتدوا، فلم يسمح لمرتد سابق أن يساهم فى الفتح.

وكان مع المثنى أمير من أمراء الجند من بنى عجل هو مذعور بن عدى، نازع المثنى وتكاتبا

(١) ترجمة القعقاع بن عمرو فى آخر الكتاب.

(١) وفى رواية «عارق».

(٢) ميناء.

(٣) الإصابة ٦٣٩٠ فى ترجمة عبد بن عوف (أو ابن غوث) الحميرى.

(٤) عارق: أى ألت العراق.

إلى أبي بكر، فكتب أبو بكر إلى مذعور يأمره بالمسير مع خالد.

نزل خالد^(١) النجاج (على عشرة مراحل من البصرة، بين البصرة واليمامة وبين اليمامة أربعة أيام، لبكر بن وائل^(٢)) على رأس ألفين بقوا معه. وكتب إلى المنثى وكان بخفان أن يأتيه وبعث إليه بكتاب من أبي بكر يأمره بطاعته جاء^(٣) فيه: «إني قد وليت خالد بن الوليد فكن معه» وكان بسواد الكوفة حينذاك، فجاء المنثى إليه مسرعاً. كما كتب خالد إلى أمراء الجند الآخرين، مذعور بن عدى العجلي، وسلمى بن القين التميمي، وحرملة بن مريطة التميمي أن يلحقوا به^(٤). هؤلاء الأمراء الأربعة كان تحت إمرتهم ثمانية آلاف مقاتل. ثم حشد خالد ثمانية آلاف آخر من بينه وبين العراق من ربيعة ومضر، فاكتمل جيشه ثمانية عشر ألفاً كلهم متطوع لم تسبق له ردة، دخل بهم خالد العراق. نستطيع أن نتبين من ملامحهم الآتي:

٥٠٠ فارس من الغوث - من طيء.

٥٠٠ فارس من جديلة - من طيء.

ضمهم عدى بن حاتم الطائي إلى جيش خالد قبل أن يصل إلى براحة بنى أسد في حروب الردة.

١٠٠٠ من تميم ومن قضاة وقليل من الصحابة. وقد أمر خالد الحارث بن مرة^(٥) على من كان من قضاة، وكان من كمة الصحابة. وقيل بل أمر جرير بن عبدالله الحميري^(٦).

٨٠٠٠ من ربيعة ومضر جمعهم خالد.

٤٠٠٠ من بنى شيبان وسائر بكر بن وائل مع المنثى^(٧) بن حارثة.

(١) الطبري ٤/ ٣، عن هشام الكلبي، عن أبي الخطاب حمزة بن علي، عن رجل من بكر بن وائل - فتوح البلدان ٦٠١.

(٢) معجم البلدان.

(٣) الإصابة ٧٧٢٢ من حديث الأصمعي، عن سلمة بن بلال. الاستيعاب، عن أبي رجاء العطاردي.

(٤) سلمة وحرملة كلاهما من بنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم. وكلاهما له صحبة وهجرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم - الإصابة ١٦٦٥ - ١٦٦٨ - ٧٨٦٤ - ٣٤١٣ - الاستيعاب ٢/ ١٢٤.

(٥) الإصابة ١٤٨٠.

(٦) الإصابة ١١٣٧.

(٧) هذه وما بعدها من تفاصيل الأرقام تقديرية. ولكن إجمالها وارد منصوص عليه أنهم كانوا ٨٠٠٠ مع الأمراء الأربعة.

٢٠٠٠ من بنى عجل وسائر بكر بن وائل مع مذعور بن عدى.

١٠٠٠ من تميم مع سلمى بن القين.

١٠٠٠ من تميم مع حرملة بن مريطة.

١٨٠٠٠

كان فيهم من اللهازم أمر عليهم خالد عتيبة بن النهاس العجلي^(١)، كان شريفاً في قومه ومن الكمة الشجعان وكان معه ابنه المغيرة، من رواة أحداث هذه الحملة منذ بدء سيرها.

وكان فيهم من بنى ذهل، وعليهم سويد بن قطبة الذهلي^(٢).

وكان فيهم من هوازن عليهم يزيد بن نبيشه^(٣) من عامر بن صعصعة، وأبو حبيش^(٤) بن ذى اللحية العامري من كمة الصحابة.

(١) الإصابة ٦٤١٤.

(٢) فتوح البلدان ٦٠٢.

(٣) فتوح البلدان ٦٠٥.

(٤) الإصابة ٢١٢ كنى.

ذات السلاسل

محرم ١٢هـ - مارس (آذار) أبريل (نيسان) ٦٣٣م

يبدأ بالأبلة

سار خالد نحو الأبلة، وهي ميناء على شط العرب وإليها كانت ترسو السفن الوافدة من الهند والسند، وهي يومئذ أعظم موانئ فارس شأنًا وأشدّها شوكة. كانت بلدة كبيرة في منطقة القنوات من دلتا نهر دجلة شرقي البصرة، وكانت تقوم على الضفة اليمنى لهذا النهر وعلى الجانب الشمالي للقناة الكبيرة المعروفة بنهر الأبلة^(١). وكان الأبلة يبعد عن موضع البصرة (ولم تكن البصرة قد اختطت بعد) أربعة فراسخ (٢٢ كم) كما تبعد عن بيان خمسة فراسخ^(٢) (٢٨ كم). وعلى ركن الأبلة في نهرها خور عظيم الخطر. وربما سلمت السفن من سائر الأماكن في البحر وغرقت في هذا الخور، يعرف بخور الأبلة^(٣). قال خالد بن صفوان^(٤): «ما رأينا أرضاً مثل الأبلة أقرب مسافة ولا أطيب نطفة (النطفة الماء الصافي أو الكثير) ولا أوطأ مطية ولا أربح لتاجر ولا أخفى لعباد». وهي في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة ونهر الأبلة كان يعد من جنات الدنيا^(٥). قال الخوارزمي: «وأما نهر الأبلة فهو بالبصرة وحواليه من ميادين النخل والأترج والنازغ وسائر الأشجار، وفيها من أصناف الزرع وأنواع الخضروات ما لا ينظر أحسن منه، وعليه من القصور المتناظرة والأبنية الرائقة ما تحار فيه العيون وتهش له النفوس، وفيه يقول ابن عيينة^(٦):

ويا حبذا نهر الأبلة منظرًا إذا مُدَّ في أثنائهِ الماء أو جُرِرَ

(١) دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) قدامة بن جعفر ١٩٤.

(٣) المسالك والممالك للاصطخري ٥٧.

(٤) البيان والتبيين ٢/ ٢٩٧.

(٥) فهرس فتوح البلدان - تحقيق المنجد.

(٦) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ١/ ١٨٦.

وكان نهر الأبلة الطريق المائي الرئيسي الذي يمتد من البصرة ثم يسير جنوباً بشرق حتى دجلة ثم إلى عبادان والبحر. والقول الغالب أن طول هذه القناة أربعة فراسخ أو يريدان. وجزء من هذا النهر حفر بعد بناء البصرة عام ١٧هـ ولم يكن كله على عهد خالد بن الوليد حين اتجه إليها من النجاص. ويذهب ابن خردادبة^(١) إلى أن الأبلة هي دسّت ميسان (أو بهمن أردشير كما في الطبري)، ولكن دائرة المعارف الإسلامية تذكر أن هاتين الولايتين يجب أن يلتصقا موضعهما على الضفة المقابلة لدجلة. وهي من إنشاء اردشير الأول. ثم أصبحت في المكان الثاني بعد البصرة، ولكنها ظلت بلدة كبيرة طوال الخلافة العباسية، وكانت قد بعدت عن البحر بما يرسبه النهر دائماً من طمي. وكانت مشارف الأبلة كلها بستاناً واحداً كما ذكر ابن حوقل في القرن الرابع الهجري. ثم ذكر ابن بطوطة في القرن الثامن نهر الأبلة ولم يذكر مدينة الأبلة وكأنها قد درست.

إعلان الحرب

كان أمير الأبلة من قبل فارس رجلاً يدعى هرمز. وكان من أسوأ أمرائها جواراً للعرب، فكل العرب له كاره حتى ضربه مثلاً في الحبث والكفر، فكانوا يقولون: أخبث من هرمز وأكفر من هرمز. وكان يحارب العرب في البر والهند في البحر.

وقبل أن يبرح خالد النجاص كتب إلى هرمز رسالة أرسلها إليه مع آزاذبة (أبي الزباذبة الذين باليمامة) جاء فيها^(٢):

«أما بعد. فأسلم تسلم واعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

أراد خالد أن يستوفي ركنين شرعيين، الأول أداء واجب الدعوة قبل الحرب، والثاني إعلان الحرب في حالة الرفض. كما لا شك أن خالداً كان يهدف إلى إحداث الأثر النفسي بإلقاء الرعب في قلب خصمه بما اشتمل عليه الكتاب من تهديد ووعيد. ولا بد أن يكون آزاذبه حين سلم الرسالة إلى هرمز قد ذكر له ما يعرف عن خالد بن الوليد وما فعله باليمامة وغير اليمامة، وعن مقدار الحشد الذي يزحف به والذي لم تجمع العرب مثله من قبل في غاراتها على أطراف العراق.

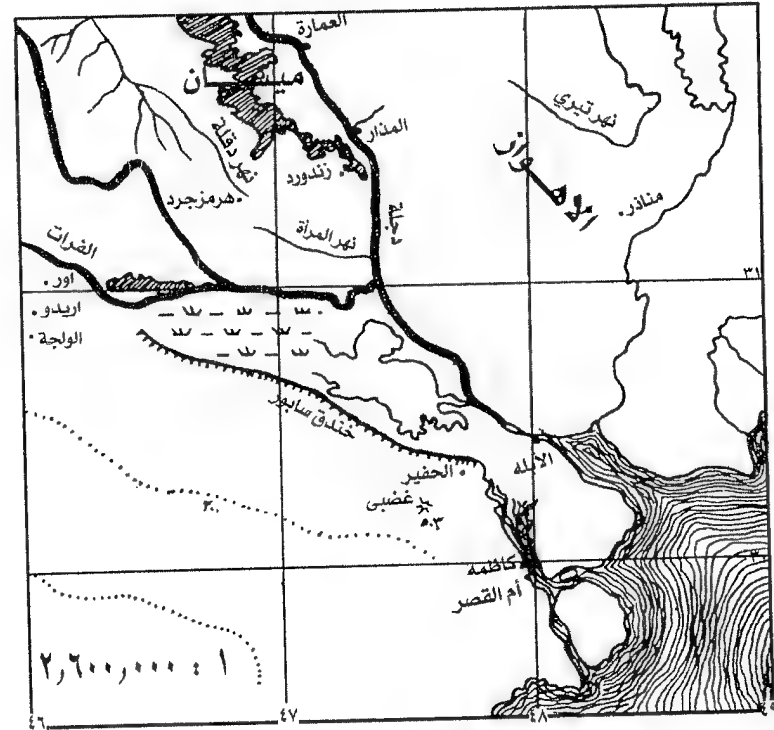
(١) المسالك والممالك ٧.

(٢) الطبري ٤/ ٥، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن الجالد، عن الشعبي.

وقسم خالد جنده إلى ثلاث فرق سبقت في خروجه من النجاف ولم يحملهم على طريق واحد بل سلكت كل فرقة طريقاً.

فسرح المثني بن حارثة قبله بيومين، ودليله ظفر بن دهي وجعله على المقدمة. وسرح عاصم بن عمرو التميمي، ودليله سالم بن نصر وجعله على الميمنة. وسرح عدى بن حاتم الطائي، ودليله مالك بن عباد وجعله على الميسرة. عدى وعاصم أحدهما قبل صاحبه بيوم.

ثم خرج خالد ودليله رافع بن عميرة الطائي. وواعدهم جميعاً الحفير ليجتمعوا به وليصامدوا به عدوهم^(١). والحفير ماء لبنى باهلة^(٢) على أربعة أميال من البصرة (حوالي سبعة كيلو مترات).



خريطة رقم (١٢) - كاظمة

(١) الطبري ٣/ ٣٤٨ قال سيف، عن طلحة بن الأعلم، عن المغيرة بن عتيبة، وكان قاضي أهل الكوفة.
(٢) الحفير أول منزل من البصرة لمن يريد مكة (الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر ص ١٩٠)، وقال ابن خرداذبة من البصرة إلى المنجشانية، ثم إلى الحفير، ثم إلى الرّحيل... إلخ (المسالك والممالك ١٤٦).

لماذا قسم خالد جيشه وفرقه على الطرق؟ ربما كان ذلك لضرورات الطريق حيث لا يحتمل طريق واحد من الطرق الصحراوية القديمة أن يحمل ثمانية عشر ألفاً. وربما كان ليعمى وجهته عن عدوه فيظل في حيرة من أمره حتى آخر لحظة. وربما كان هذا وذاك معاً.

ولما قدم كتاب خالد إلى هرمز كتب بالخبر إلى شيرويه بن كسرى برويز وكان هو الملك، وإلى أردشير بن شيرويه. وجمع جموعه^(١) وكانوا من أهل الأهواز وفارس ومن أهل السواد والجليل. ثم تعجل إلى الكواظم (كاظمة) وهي ماء عذب على ساحل الخليج الفارسي يبعد يومين عن البصرة (٨٨ كم) على طريقها إلى البحرين^(٢). تعجل في أسرع من معه وسبق خيله إلى الكواظم فلم يجد طريق خالد، وبلغه أن المسلمين قد تواعدوا الحفير فمال إليها ليبادر خالداً فيها، ونزل بها فعبأ قواته وجعل على ميمنته قيّاذ وعلى ميسرته أنوشيجان، وهما أخوان ينتسبان إلى آل ساسان، البيت المالك في الدولة.

واختلفوا حول ربط الجند في السلاسل. فقال من لم ير هذا الرأي لمن أخذ به: «قيدتكم أنفسكم لعدوكم! فلا تفعلوا فإن هذا طائر سوء». فأجابوهم: «أما أنتم فيحدثونا أنكم تريدون الهرب». وكان للمثنى عيونه التي تأتيه بالأخبار، فعلم خالد وهو بالطريق بنزول هرمز بالحفير، وعلم أنهم على تعبئة وأنهم مقترنون في السلاسل.

(١) الطبري ٧/ ٤، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن زياد والمهلب، عن عبد الرحمن بن سياه الأحمرى. وس ش س، عن المهلب بن عقبة وزياد بن سرجس الأحمرى وعبد الله بن سياه الأحمرى. والأهواز شرقي شط العرب، وفارس شرقي الخليج الفارسي، والسواد هو العراق، والجليل هو الحد الغربي لهضبة إيران.

(٢) وفي معجم البلدان ساق ياقوت الحموي قول الشاعر:

يا حبذا البرق من أكتاف كاظمة يسعى على قصرات المرخ والعشر

وفي صبح الأعشى يصف بحر فارس (الخليج الفارسي) «... ثم يمتد مغرباً بميلة يسيرة نحو الشمال إلى مدينة عبادان من أواخر بلاد العراق من الشرقي على القرب من البصرة عند مصب دجلة في هذا البحر، ثم ينعطف ويمتد جنوباً إلى كاظمة، وهي جوف على ساحل البحرين مما يلي البصرة على مسيرة يومين منها، ثم يمتد إلى القطيف من بلاد البحرين...» (٢/ ٢٤٣) - وكاظمة على ساحل الخليج الفارسي في الطريق من البصرة إلى البحرين، بينها وبين البصرة مرحلتان، وفيها ركايا كثيرة وماؤها مشروب (معجم البلدان) - وذكر ابن خرداذبة كاظمة على الطريق من البصرة إلى اليمامة وجعل بين البصرة وبين كاظمة منزلاً (المسالك والممالك ١٥١). وطابقه على ذلك قدامة بن جعفر (الخراج وصناعة الكتابة ١٩٣)، فعلى هذا فهي على الطريق من الأبلة إلى جزيرة العرب قبل أن تفترق شعبة منه إلى البحرين وأخرى إلى اليمامة.

الماء لأكرم الجندين

ولعل خالد أراد أن يرهقهم، أو أنه لم يشأ أن ينزل بعد مسيره الطويل على قوم قد تعبوا له (صفوا صفوفهم)، فعدل طريقه إلى كاظمة. وبلغ هرمز ذلك فبادر إلى كاظمة وسبق خالد إليها، فنزلها وقد استبد به الغيظ. وأعاد تعبئة جنده واقتربوا مرة أخرى في السلاسل وقد استحوذوا على الماء فهو في أيديهم ومعهم فيل من أفيال القتال.

وجاء خالد فنزل على غير ماء. فقالوا له في ذلك فأمر مناديه فنادى: «ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين». فأدخل خالد حافراً إضافياً للقتال فجعله أيضاً من أجل الماء في الصحراء.. من أجل الحياة.

خطة غادرة لهرمز

حطت الأثقال من على ظهور الإبل. والخييل وقوف، وصف خالد قواته. ورسم هرمز خطته على الغدر بخالد، فخرج بين الصفين وطلب المبارزة فنادى: «رجل ورجل.. أين خالد؟» وكان قد عهد إلى فرسانه بالغدر وتواطؤوا على ذلك. ونزل خالد بين الصفين وخرج هرمز. ومشى إليه خياله والناس من الطرفين ينظرون ما يكون. فالتقيا فاختلعا ضربتين، ضرب خالد ضربة فتلقاها هرمز، ثم ضرب هرمز ضربة فتلقاها خالد. ولم يمهله خالد بعد ذلك إذ فاجأه بأن هجم عليه واحتضنه. وغدرت حامية هرمز فهجموا على خالد وهو مشتبك مع هرمز وأحاطوا بهما من كل جانب حتى اختفيا بينهما، فما شغل ذلك خالد عن قتله. ولما رأى القعقاع بن عمرو ما صنع الفرس قادم المسلمين وأنشب القتال وهجم عليهم والتحم بهم فكشفهم عن خالد فإذا به يقاومهم ويبارزهم.

هكذا بدأت المعركة، وكان من حسن استهلالها أن فقد العجم قائدهم أمام أعينهم بغدر فاشل. وقل في الأبطال الصناديد بطل مثل خالد ومثل القعقاع. وأخذ الرعب العجم فبدأت هزيمتهم وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل^(١). وجمع خالد متاعهم وفيه السلاسل فكانت حمل يعير ألف رطل، فسميت الموقعة بذلك «ذات السلاسل» وأفلت قباذ وأنو شجان هارين.

(١) الطبرى ٤/ ٦، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن عبد الملك بن عطاء البكائي، عن المقطع بن الهيثم البكائي.

وكان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم في عشائهم، فمن تم شرفه فله قلنسوة قيمتها مائة ألف درهم. فكانت هذه القلانس أشبه بتيجان أو نياشين تدل على رتبة صاحبها ومكانته في الدولة. وكان هرمز من هؤلاء الذين تم شرفهم عند العجم فقلنسوته بمائة ألف، وقد نفلها أبو بكر خالداً، وكانت مفصصة بالجواهر.

إخضاع المنطقة

بعد اندحار الفرس وفرار من فر منهم، تبعهم المسلمون في مطاردة، وما أن رجع المطاردون حتى نادى منادى خالد في الناس بالرحيل في نفس اليوم، وسار بالناس وأثقالهم من خلفهم حتى ينزل بموضع الجسر الأعظم من مكان البصرة. وبعث خالد بأخبار النصر، وبما بقى من الأخماس وبالفيل، وكان قد وقع في أيدي المسلمين، إلى أبي بكر مع زر بن كليب^(١). فلما قدم الفيل المدينة، طيف به ليراه الناس، وقد أدهشهم منظره حتى تساءلت بعض النساء إن كان من خلق الله أو من صنع البشر. ولم يكن أبو بكر رضى الله عنه، ولا المسلمون من هواة الاستعراضات، ولم يكن له فائدة لديهم، فضلاً عن تكاليف إعاشته، إذ المعروف عن الفيل أنه يحتاج إلى ستمائة رطل من الأغذية في اليوم الواحد، فرده أبو بكر مع زرومات في طريق العودة.

وتقدم خالد حتى أتى منطقة البصرة، وبها سويد بن قطبة الذهلي في جماعة من قومه، يريد أن يفعل بالبصرة مثل فعل المثنى بجهة الحيرة^(٢). قال سويد لخالد: «إن أهل الأبله قد جمعوا لى، ولا أحسبهم امتنعوا منى إلا لمكانك». فقال خالد: «فالرأى أن أخرج من البصرة نهراً ثم أعود ليلاً، فأدخل عسكرك بأصحابى فإن صبحوك حاربناهم». أراد خالد استدراج قوات الأبله إلى معركة خارجها، وكان هذا أفضل من مهاجمتها وجيشها متحصن فيها. ونفذ خطته، فتوجه بجيشه نحو الحيرة، فلما أظلم الليل رجع بجيشه فدخل عسكر سويد خلصة. فلما أصبح الصباح، خرج جيش الأبله إلى سويد وهم يعلمون أن خالد قد انصرف إلى الحيرة، فلما اقتربوا ورأوا كثرة من في المعسكر، أسقط في أيديهم وانكسرت معنوياتهم.

(١) زر بن عبد الله بن كليب الفقيمي التميمي. له صحبه ووفادة في نفر من بنى تميم، وقد على النبي فأسلم، ودعا له النبي ولعقبه. كان من أمراء الجيوش في فتح خوزستان، وكان على جيش في حصار جندى سابور وفتحها صلحاً.

(٢) فتوح البلدان ٦٠٢.

فقال خالد: «أحملوا عليهم فإنني أرى هيئة قوم قد ألقى الله في قلوبهم الرعب». فحملوا عليهم فهزموهم، وكثر القتل فيهم، وغرق طائفة في دجلة البصرة. ثم مر خالد بالخرية ففتحها وسبى من فيها، واستخلف بها شريح بن عامر من بكر بن هوازن، وكانت الخرية من مسالح العجم.

نزل خالد موقع البصرة، وبعث المثنى بن حارثة في آثار الجوس في مطاردة عميقة. وأرسل معقل بن مقرن المزني أحد الإخوة العشرة إلى الأبله^(١)، فخرج حتى جاءها فجمع مالها وسبيلها. وانطلق المثنى قائد المقدمة حتى انتهى إلى نهر المرأة وعليه «حصن المرأة» كان لأميرة فارسية تدعى كامورزاد. ولم يشأ أن يوقفه الحصن عما هو بسبيله، فخلف أخاه المعنى بن حارثة لحصاره ومضى هو إلى «حصن الرجل»، وقد كان به زوج كامورزاد فحاصره ثم فتحه واستنزل من به عنوة فقتلهم واستفاء أموالهم. وما أن علمت كامورزاد بذلك حتى صالحت المثنى وأسلمت وتزوجها المعنى.

سبى خالد أولاد المقاتلة الذين قاتلوه ممن كان يقوم بأمر الأعاجم. أما الفلاحون فقد نفذ ما أمره به أبو بكر بشأنهم، فلم يحرك أحداً منهم وأقرهم على أرضهم وجعل لهم الذمة. وبلغ سهم الفارس في ذات السلاسل ومعارك النهر ألف درهم، والراجل على الثلث من ذلك. وقد كان لهذا الظفر أثره البالغ في معنويات المسلمين، فقد رأوا أن الفرس - وقد كانت لهم رهبة عند العرب - ليسوا من طينة تختلف عن طينة الناس، وقد رأوا خالدًا يقتل قائدهم أمام أعينهم كما قتلوا هم جنده، وقد رأوا أن النصر الذي حالفهم ضد المرتدين يستطرد الآن معهم في حربهم ضد الفرس. كما أن ما غنموه كان من الجسامة بحيث لم يكن لهم بمثله عهد.

(١) يذكر الطبري أن هذه الرواية خلاف ما يعرفه أهل السير عن فتح الأبله وما جاءت به الآثار الصحاح. وأن فتحها إنما كان أيام عمر بن الخطاب على يدى عتبة بن غزوان ١٤ هـ. ولكننا نستبعد أن يوغل خالد في العراق تاركاً الأبله وراء ظهره تشكل خطراً عليه، فضلاً عن أنه لم يكن هناك ما يمنعه من دخولها، وقد دحر جيشين لها. وقد سبق في خطاب أبي بكر إليه إذ أمره بالسير إلى العراق أن يبدأ بالأبله. والذي نراه ونطمئن إليه أن خالدًا فتح الأبله عام ١٢ هـ، ثم انسحب المسلمون منها حين انسحبوا من أكثر الأراضي التي استولوا عليها، وذلك حين انتقل خالد إلى الشام على ما سيأتى شرحه، ثم أعاد عتبة فتحها عام ١٦ هـ أثناء دخول سعد بن أبي وقاص المدائن.

معركة المذار^(١)

أول صفر ١٢ هـ - ١٧ أبريل (نيسان) ٦٣٣

موقع المذار

كانت ذات السلاسل في محرم ١٢ هـ (أواخر مارس (آذار) ٦٣٣ أو أوائل أبريل (نيسان)). وبعدها كانت موقعة المذار. والمذار موقع يقع على الشاطئ الشرقي لدجلة، عند التقاء بعض روافده المنحدرة إليه من الشرق^(٢)، وعندها تتشعب الطرق إلى الأهواز والجيل وفارس والسواد على مكان تلتقي به أنهار، يصفه الرواة بقولهم: «على مجمع الأنهار إلى النهر المغيث والمغاث» على مسافة أربعة أيام شمال البصرة بالقرب من واسط عاصمة ميسان (حوالي ١٧٥ إلى الشمال من الأبله). وكانت المعركة في صفر ١٢ هـ على ما ذكر الرواة، وتقديرنا أنها كانت في أوله (١٧ أبريل (نيسان) ٦٣٣ م).

تجربك ساساني مذار

بلغ هرمرز بكتابه إلى أردشير وإلى شيرويه بكتاب خالد إليه وزحفه نحوه من النجاف، فأمداه بقارن بن قريانس. خرج قارن من المدائن مدداً لهرمرز غير أنه لم يدركه. كان قارن يتحرك نحو الأبله حتى إذا انتهى إلى المذار بلغت أخبار الهزيمة ومصرع هرمرز، ووصلت إليه فلول ذات السلاسل، فتباحثوا وتجادلوا وتحاضوا على الثبات، وقالت فلول الشرق من الأهواز وفارس لفلول الغرب من السواد والجيل: «إن افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبداً، فاجتمعوا على

(١) الطبري ٤ / ٧، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن زياد والمهلب، عن عبدالرحمن بن سياه الأحمرى. وس ش س، عن زياد بن سرجس الأحمرى وعبدالرحمن بن سياه الأحمرى، وسفيان الأحمرى والمهلب بن عقبة.

(٢) قال الاصطخرى: «وللبصرة مدن: فأما عبادان والأبله والمفتح والمذار فعلى شط دجلة وهي مدن صغار متقاربة في البر عامرة...» (المسالك والممالك ص ٥٧) - وقال قدامة بن جعفر: من المذار إلى البصرة (وكانت فيه دواب للبريد في عصره) ثلاث سكك (محطات) (الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٢٦) - وقال الطبري: «... على النهر المغيث والمغاث» (٤ / ٧) وقد حددنا مكان المذار على الخريطة نقلاً عن خريطة العراق الأثرية لمديرية الآثار العراقية ببغداد.

العودة مرة واحدة فهذا مدد الملك وهذا قارن لعل الله يدينا ويشفيانا من عدونا وندرك بعض ما أصابوا منا». فتعاهدوا على ذلك.

ثلاثون ألفه قتيلا

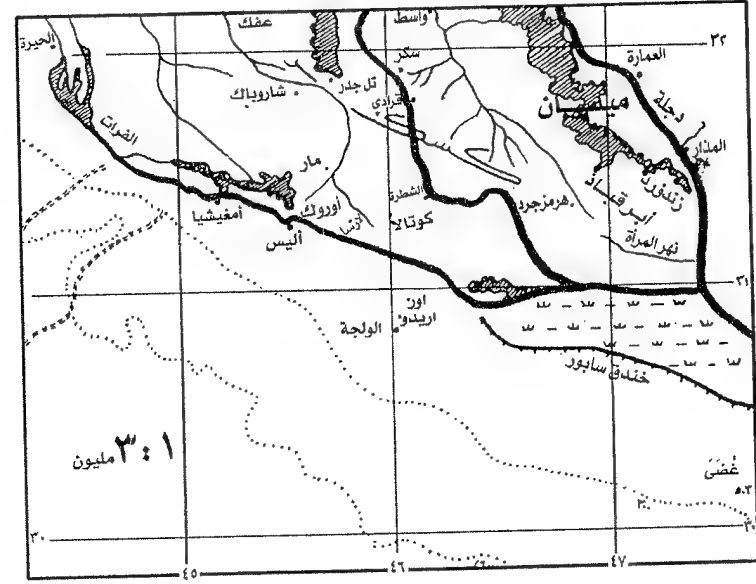
وخرج قارن من القلب يدعو للمبارزة، فبرز إليه خالد بن الوليد ومقل ابن الأعشى بن النباش المعروف بأبيض الركبان، واستبقا إليه فسبق مقل وقتله في المبارزة. وتزاحف الصفان فاقتتلوا على حنق وحفيظة قتلاً أشد مما كان في ذات السلاسل.

وقتل عاصم بن عمرو التميمي قائد الميمنة، أنو شجان قائد ميسرة الخيوس، كما قتل عدى بن حاتم الطائي قائد ميسرة المسلمين، قباذ قائد ميمنة العجم. وكان قارن ممن تم شرفه مثل هرمز، ولم يقاتل المسلمون بعده أحداً ممن تم شرفه من العجم في هذه الحملة، وقتل من العجم ثلاثون ألفاً^(١)، ولجأ الباقيون إلى السفن ليعبروا، وغرق بعضهم في محاولته تلك. ولم يكن مع المسلمين سفن فمنعتهم المياه من طلب عدوهم، ولولا ذلك لأتوا على آخرهم. ولم يفلت منهم من أفلت إلا عراة وأشباه عراة.

أقام خالد بالمدار. وسلم الأسلاب^(٢) لمن سلبها بالغة ما بلغت، وقسم الفئى ونقل من الأخماس أهل البلاء، ثم بعث ببقية الأخماس مع سعيد بن النعمان أخى بنى عدى بن كعب من قريش ووفد معه. وقد زاد سهم الفارس في المدار على سهمه في ذات السلال، وأقام خالد على النهر يسبى أسر المقاتلين ومن أعانهم، وسار سيرته مع الفلاحين فأقرهم على أرضهم، ومن أجاب إلى الخراج من جميع الناس وقبلوا الجزية. وكان في سبى المدار حبيب أبو الحسن البصرى وكان نصرانياً، ومافئة مولى عثمان وأبو زياد مولى المغيرة بن شعبة.

واجبات المؤخرة

ونظر خالد فرأى أن منطقة الأبله التي يريد أن يخلفها وراء ظهره ليتقدم نحو الحيرة ثم



خريطة رقم (١٣) - معركة المدار

وعسكر قارن بالمدار، وقد جعل دجلة عن يمينه والرافد الذي يمهده وراء ظهره وقد كدس فيه السفن. وجعل على ميمنته قباذ وعلى ميسرته أنو شجان اللذين كانا على مجنبتى هرمز بالكواظم. وكان المثني والمعنى قد تقدما في هذه الأرض فبلغهما خبر هذا الجمع فكتبا إلى خالد. وكانما أراد خالد أن يصفى حسابات ما سبق، وأن يشجع جنده على مابعداها، فبادر إلى قسمة الفئى على من أفاءه الله عليه، ونقل من الخمس ما شاء، وبعث مع الوليد بن عقبة ببقيته وبالفتح إلى أبي بكر، وبأخبار اجتماع العجم بالمدار. ثم تحرك نحو المدار داخل أرض العراق، وقد ترك صحاريه وراء ظهره. وأراد أن يأمن المفاجأة فسار على تعبئة واستعداد للالتحام متى ظهر العدو، فسار شمالاً بحذاء دجلة في أثر المثني ومر بزندورد من إقليم كسكر، فافتتحها بعد أن كانت من أهلها مراماة للمسلمين ساعة، وافتتح درني وما في ذمامها بأمان. وأتى هرمز جرد فأمن أهلها أيضاً^(١) وفتحها.

(١) فتوح البلدان ٦٠٣.

(١) الطبرى ٤ / ٧، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن محمد بن عبد الله، عن أبي عثمان.
(٢) الطبرى ٤ / ٧، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن زياد والمهلب، عن عبد الرحمن بن سياه الأحمرى. وس ش س، عن المهلب بن عقبة وزياد بن سرجس الأحمرى وعبد الرحمن بن سياه الأحمرى وسياه. والسلب هو ما يأخذه الخارب مما على قتيله في الحرب، ومن الأحكام المتغيرة بتغير الزمان أخذ الخارب لما يجده مع قتيله المستفاد من قوله صلى الله عليه وسلم: «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه»، فإن منح السلب للمقاتل من قبيل التحريض على القتال في ظروف دعت إليه. وللحاكم أن يفعل ولا يفعل بحسب ما يرى من مصلحة. فهو ليس من قبيل الشرع العام الثابت الذي لا تجوز مخالفته. (عن مجلة العربى - مايو (آيار) ١٩٧٠ - زكريا البرى، قسم الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت).

المدائن منطقة لها أهميتها الاقتصادية القصوى وخطرها الاستراتيجي. فهي أكبر ثغور إيران البحرية، وهي الطريق المائي الوحيد بين المدائن والشرق (الهند والسند والصين)، وهي مدخل السفن إلى دجلة وإلى الفرات، فضلاً عن أنها باب يمكن السير منه إلى الحيرة (وهي الخطة التي وضعها أبو بكر والتزم خالد بتنفيذها)، ومنها يمكن عبور شط العرب للتوغل في دجلة والفرات في أقصر خط مستقيم إلى المدائن، ومنها يمكن عبور شط العرب للتوغل في الأهواز أو فارس والجلال. وهذا كله قد يدفع الفرس إلى محاولة استردادها، بمعنى أنه من الاحتمالات التي توضع في الحسبان أن يوجه الفرس جيوشهم إلى هذه المنطقة سواء من الحيرة، أو من وسط السواد، أو بحذاء الشاطئ الشرقي لدجلة كما حدث في المذار، أو من الأهواز ومرتفعات إيران في الشرق، أو من الجنوب براً أو بحراً.

لذلك، وتأميناً لسلامة قواته، وضع خالد حاميات مناسبة تجاه كل تلك المداخل حتى تكون نقطة لما عسى أن يأتي منها. وضع حاميات تجاه الأبله والخريبة بناحية موضع جسر البصرة على شط العرب وبأسفل دجلة. فخلف سويد بن قطبة الذهلي على ناحيته من منازل بنى ذهل من جهة البصرة، وقال له^(١) وهو يسلمه هذه المسئولية: «قد عرطنا هذه الأعاجم بناحيك عركة أذلتهن لك». واستخلف قطبة بن قتادة بن جرير^(٢) السدوسي على جهته. واستخلف بالخريبة شريح^(٣) بن عامر بن قين من بنى سعد بن بكر بن هوازن. فكانت هذه الحاميات أشبه بنقط الحدود تشرف على منافذ المنطقة وتقف عليها وينظر بعضها إلى بعض، وتنتهي قيادتها جميعاً إلى سويد بن مقرن المزي الذي أمره خالد على الجزية وأمره بنزول الحفير في موقع خلفي متوسط بأطراف الصحراء لجعلها قاعدة له وليحمي ظهر جيش المسلمين المتقدم. وأمره ببث عماله ووضع يده في الجباية. وسويد بن مقرن أحد الإخوة العشرة كلهم في جيش خالد وسيأتي ذكرهم. مر بنا ذكره مرتين. كان مع أبي بكر رضى الله عنه في قتاله مرتدى عبس وذبيان حين هددوا المدينة، خرج معه من المدينة ليلاً وكان على الساقة (المؤخرة) وكان أخوه النعمان على الميمنة وأخوه عبدالله على الميسرة حتى دهموا المرتدين في ذي قبة وهزمهم، هذه مرة. ثم أرسله أبو بكر قائداً للجيش الحادى عشر لقمع ردة تهامة اليمن. أما اتجاه الحيرة فسيستولى خالد أمره بنفسه. وأقام خالد بالمذار قليلاً يجمع المعلومات ويتحسس أخبار عدوه ويرقب اتجاه مساراته.

(١) فتوح البلدان ٦٠٢، عن الكلبي - ذهل من بكر بن وائل، فكانت صحراء تلك المنطقة من مساكنهم.

(٢) الإصابة ٧١٢٢ - الاستيعاب ٣/ ٢٤٧. وسدوس من بكر بن وائل.

(٣) فتوح البلدان ٦٠٢.

كمين في الوجة^(١)

٢٢ صفر ١٢هـ - ٣ مايو (آيار) ٦٣٣م

تحريك ساساني جديد

بلغ خبر موقعة المذار إلى المدائن فبعثت جيشاً آخر يقوده أندر زغر، وكان فارسياً من مواليد السواد ومن سكانه القاطنين به، فلم يكن ممن ولد بفارس ولا بالمدائن أو نشأ بها. وكان قبل ذلك أميراً على خراسان. أرسله أردشير على عجل وأرسل في أثره بهمن جاذويه بجيش آخر، وأمره أن يتبع نفس طريقه حتى يدركه.

وخرج أندرزغر من المدائن حتى أتى كسكر^(٢) ثم جازها إلى الوجة^(٣) وهي في الصحراء خارج كسكر. وخرج بهمن جاذويه في أثره ولكنه خالف فسلك طريقاً غير طريقه إذ اتجه إلى وسط السواد. والظاهر أنه أراد أن يحصر خالداً بين جيش أندرزغر الذي يخرج من السواد إلى تخوم الصحراء ليلتف حوله ويتقدم إليه من ورائه وبين جيشه هو من أمامه في وسط السواد. وتاريخ بهمن جاذويه مع جيوش المسلمين بعد ذلك ينم عن أنه كان من أكبر قادة الحروب لدى الفرس ومن أكثرهم كفاءة ودراية وحسن تصرف.

وانضم إلى جيش أندرزغر حشود أخرى حشرت إليه على عجل من بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين، فعسكروا إلى جنب عسكره بالوجة إلى الخارج من مجرى الفرات. فلما اجتمع له ما أراد واستتم، أعجبه ما هو فيه وعزم على السير إلى خالد دون انتظار بهمن جاذويه.

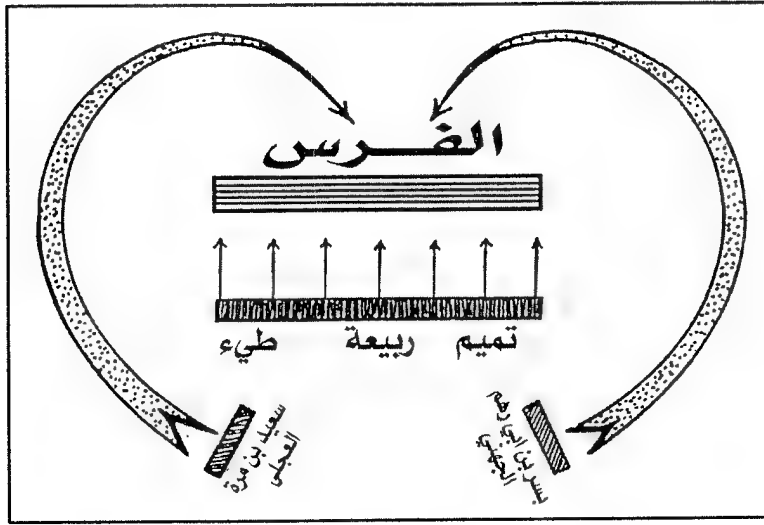
(١) الطبرى ٨/ ٤، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن عمرو، وعن زياد بن سرجس، عن عبدالرحمن بن سياه، وعن محمد، عن أبي عثمان.

وس ش س، عن المهلب، عن أبي عقبة وزيد بن سرجس وعبدالرحمن بن سياه.

(٢) منطقة واسعة بين الكوفة والبصرة - معجم البلدان. وقد أوضحناها على الخريطة.

(٣) لم نقف على ما يحدد لنا على وجه الدقة موضع الوجة من الخريطة خلاف ما ذكره الطبرى من أنها كانت على البر مما يلي كسكر. وقد بدلنا اسمها على اشتقاقه من الفعل ولج يلج بمعنى دخل يدخل فيكون اسمها مستمداً من أنها من مداخل الصحراء إلى العراق.

خالد يفلت من الكماشة



خريطة ١٤ - معركة الوجة

وأخيراً حين اطمأن إلى أن خطته نضجت على النار، أطلق خالد فرقتي الكمين من وجهين؛ من خلف ميمنته ومن خلف ميسرته. ودارت كل فرقة منهما حول جناح العجم المواجه لها لتطلع عليه من خلفه... من حيث كانوا ينتظرون المدد. وأذهلت المفاجأة الفرس وحلفاءهم فبدأت الهزيمة في صفوفهم ثم عمدوا للفرار. وشدد عليهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم واختلط أمرهم حتى لم ير رجل منهم مقتل صاحبه، وفر أندرزغر من الميدان ومضى في هزيمته نحو الصحراء حتى مات عطشاً.

وقام خالد يخطب المسلمين ويرغبهم في بلاد العجم ويزهدهم في بلاد العرب. قال: «ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب (كثير التراب)، وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء (الدعوة) إلى الله عز وجل إلا المعاش، لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولى الجوع والإقلال من تولاه من ائافل عما أنتم عليه». إشارة إلى من تخلف عن الخروج معهم للجهاد.

وسار في الفلاحين بسيرته السابقة فلم يقتلهم أو يحركهم عن أرضهم، ودعاهم إلى الجزية والذمة فأجابوا. وسبى ذراري المقاتلة ومن أعانهم. وكان من قتل يومئذ ابن لجابر بن بجير وابن لعبد الأسود من زعماء نصارى بكر بن وائل، من العرب الذين أعانوا المجوس وانضموا إليهم.

انتهت هذه الأخبار إلى خالد وهو مازال بالمدار فقدر الموقف تقديراً سليماً وآثر أن يخرج من المدار شرقي دجلة إلى طريق الصحراء جنوبى الفرات، ونادى في جيشه بالرحيل وعاد أدراجه إلى الجنوب قبل أن تطبق عليه تلك الكماشة. وتقدم إلى من خلف في أسفل دجلة وأمرهم بالخذل وقلة الغفلة وترك الاغترار. كان خالد يعلم أن عدوه تزداد مقاومته في كل معركة عن سابقتها. وإذا كان قد انتصر في معركتين قبل ذلك، فليس معنى هذا ضمان دوام النصر، وإن أخطر ما يصاب به المقاتل في الميدان الغرور والغفلة واختلال الموازين. ولم يكن خالد ممن ينتشى بالنصر فينسيه الحقائق وما ينبغي عليه من وسائل مواجهتها. كان دائماً مالكاً لأعصابه في حالات النصر كما كان يملكها في الشدائد ونحن فلا يعميه هذا أو ذاك عن أمره. كان خالد يتحرك إلى الوجة للقاء أندرزغر وهو يعلم أن جيشاً آخر يقوده بهمن جاذويه في طريقه إليه.

كمين

نزل خالد على أندرزغر بالوجة ونظر فوجد أن ميدان المعركة أرض منبسطة لا تتخللها مسالك ولا مسطحات مائية، فهي ميدان يسمح بالناورة. صف خالد قواته وأخفى في الخلف قوتين في ناحيتين لعمل كمين، إحداهما عليها بسر بن أبي رهم الجهني، والثانية عليها سعيد بن مرة العجلي. واقتتل المسلمون والعجم ومعهم من ناصرهم من العرب قتالاً شديداً، حتى ظن الفريقان أن الصبر قد فرغ. الجوس يشد من أزهرهم أملهم في أن يصل إليهم بهمن جاذويه، وخالد يدخر كمينه ويستبطنه حتى ينهك عدوه فيخرج عليه وقد بلغ منه الجهد مبلغه، فإنه إذا خرج عليهم وهم في أوج نشاطهم لأمكنهم، استناداً إلى وفرة عددهم، أن يواجهوه من الخلف كما يواجهون خالداً من الأمام، فإنه من أصعب الأمور على التصور وأشقها في التنفيذ أن تحصر قوة صغيرة قوات أكبر منها في أرض منبسطة مفتوحة. أما إذا أجهدوا، فإن التصور الطبيعي المتوقع أن ترتبك صفوفهم وأن يفقدوا توازنهم وأن يعمدوا إلى الفرار. وما دامت قوات خالد صامدة متماسكة فلا ضير أن ينتظر.

وفى يوم الوجلة قال القعقاع^(١) بن عمرو يفخر بالمسلمين:

ولم أرقوماً مثل قوم رأيتهم
وأقتل للرواس من كل مجمع
على ولجات البر أحمى وأنجبا
إذا ضعضع الدهر الجموع وكبكبا

أليس ونهر الخمر^(١)

٢٥ صفر ١٢هـ - ٦ مايو (آيار) ٦٢٢م

عرب مع المجوس

أعان نصارى بكر بن وائل من عرب الحيرة المجوس على المسلمين فى الوجلة وقتل بعضهم. وكان فيمن قتل اثنان من أبناء زعمائهم هما جابر بن بجير وعبد الأسود. فلما وقع ذلك غضب لهم نصارى قومهم فكاتبوا الفرس وكاتبهم الفرس واجتمع العرب فى أليس وعليهم عبد الأسود العجلي ومعهم بعض العجم.

وكتب أردشير^(٢) إلى بهمن جاذويه وكان مازال فى قسياناً أن يسير بجيشه إلى أليس حتى ينضم إلى من اجتمع بها من العجم ونصارى العرب. فقدم بهمن مقدمته وعليها جابان وأمره بالإسراع، ولكنه أوصاه فى الوقت نفسه أن يكف نفسه وجنده عن قتال المسلمين حتى يلحق به إلا أن يبدووه.

سار جابان إلى أليس وهى على صلب الفرات من ناحية البادية، بينما عاد بهمن جاذويه إلى المدائن لمقابلة أردشير فى أمور أراد أن يحدثه فيها فوجده مريضاً فبقى إلى جانبه وترك جابان وما أرسله فيه.

نزل جابان أليس واجتمع إليه فيها مع جيشه جميع القوات الأخرى التى كانت بها من العجم ومن العرب، عليهم عبد الأسود فى نصارى العرب من بنى عجل، وتيم اللات وضيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة. وكان جابر بن بجير نصرانياً وموتوراً مثله فساند عبد الأسود وانضم إليهم زهير ومالك ابن قيس (من قبيلة جذرة) من العرب.

(١) الطبرى ٩ / ٤، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن محمد بن طلحة، عن أبى عثمان وطلحة بن الأعمى، عن المغيرة بن عتيبة.

س ش س، عن محمد بن عبد الله، عن أبى عثمان، وطلحة بن الأعمى، عن المغيرة بن عتيبة.
(٢) هكذا فى الطبرى. وفى كريستنسن أن أردشير ولى ١٨ شهراً، وكان طفلاً.

(١) ولجات: فتحات، وهى أيضاً اسم المكان «الوجلة» - الرواس: الرؤساء - كبكب: كبها على وجهها (مختار الصحاح).

ويعاجلونكم عن الطعام». فعصوه وبسطوا البسط ووضعوا الأطعمة ودعا بعضهم بعضاً وتوافوا إليها.

هجوم سريح من خالد

وانتهى خالد إليهم فوقف وأمر بحط الأثقال، فلما وضعت وكل بنفسه حوامي يحمون ظهره حتى لا يتكرر ما حدث من هرمز في كاظمة، وخرج أمام الصف فنادى: «أين أبجر؟ أين عبد الأسود؟ أين مالك بن قيس؟» فجنبوا جميعاً إلا مالك فقد خرج إليه. قال له خالد: «يا ابن الخبيثة ما جرأك على من بينهم وليس فيك وفاء»^(١) ثم تقدم إليه فضربه ضربة قتلته، ثم زحف عليهم، وكانوا قد جلسوا للطعام، فأقامهم وأجهضهم عنه قبل أن يطعموا. قال جابان: «ألم أقل لكم يا قوم؟ أما والله ما دخلتني من رئيس (رئاسة) وحشة قط حتى كان اليوم». فقالوا تجلداً: «ندعها - يعني الطعام - حتى نفرغ منهم ونعود إليها» قال جابان: «وأيضاً أظنكم والله لهم وضعتموها وأنتم لا تشعرون، فالآن أطيعوني وسموها فإن كانت لكم فأهون هالك، وإن كانت عليكم كنتم قد صنعتهم شيئاً وأبليتكم عذراً». قالوا: «لا اقتدار عليهم!».

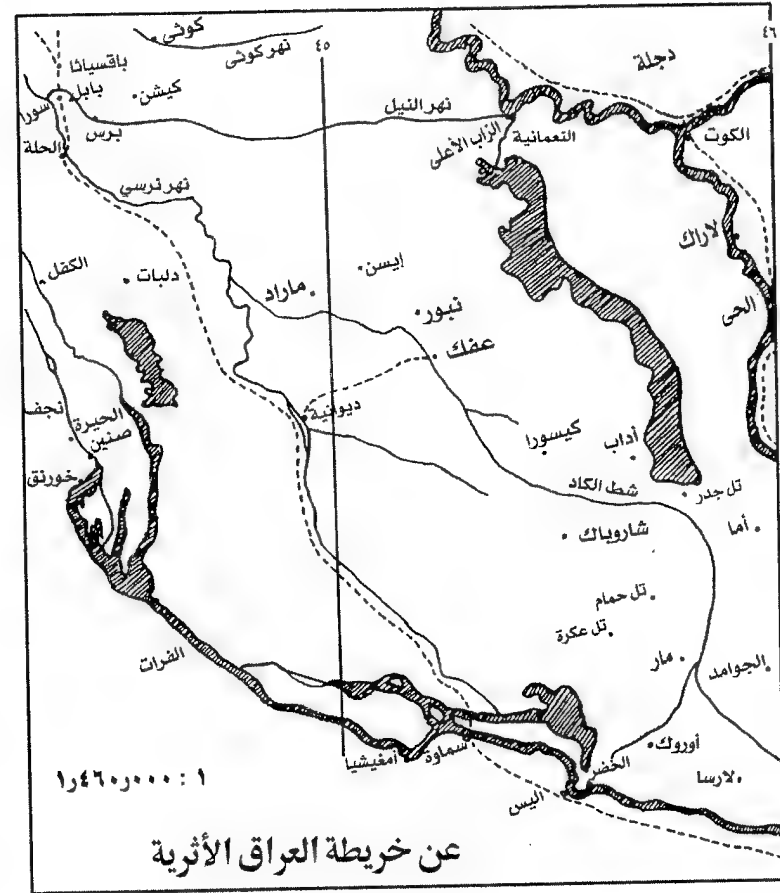
عجيب أمر جابان هذا. قائد في معركة يرى الرأي، ثم يكون من الضعف والهزال أن يعجز عن إنفاذه في جنده! وفي ماذا؟ في وجبة طعام... وجند متهافتون على الطعام لا يطبقون تأجيل وجبة أو أن يصبروا عليها بحضرة عدوهم القائم على رؤوسهم بالسلاح، فيجدون في ضعف قائدهم مندوحة تسمح لهم بالخروج على رأيه. كان جيشاً من عناصر مختلطة من العرب والعجم ينقصه الضبط.

جعل جابان الجوس في القلب، وجعل عبد الأسود ومن معه من العرب في الميمنة، وأبجر ومن معه من العرب على ميسرته. وكان خالد على نفس تعبته في المعارك السابقة، المثني على المقدمة، وعاصم بن عمرو على الميمنة، وعدي بن حاتم على الميسرة.

نهر من الدم

واقتتلوا قتلاً شديداً أشد من أي قتال سبق، واشتدت مقاومة العجم ومن معهم بما يتوقعون

(١) يعني لو قتلتك لا تنفى بما أريد.



خريطة رقم (١٥) - أليس وأمغيشيا

علم خالد بتجمع عرب الضاحية فسار إليهم. وكان تحرك العجم من قسياناً سريعاً - وربما قريباً - فلم يعلم خالد بقدوم جابان حتى التقى به. فلما طلع خالد بنفسه تعبته التي كان عليها على جابان في أليس كان الجوس يستعدون للغداء، فقالوا لجابان: «أنعاجلهم أم نغدى الناس ولا نريهم أننا نحفل بهم ثم نقاتلهم بعد الفراغ؟» ورأى جابان أن المسلمين على تعبته، فقال: «إن تركوكم والتهاون بهم فتهاونوا، ولكن ظنى أنهم سيعجلونكم

من قدوم بهممن جاذويه، فصبروا وصمدوا للمسلمين، وظل المسلمون يشدون عليهم حتى شق عليهم الأمر، فنذر خالد وقال:

«اللهم إن لك على إن منحنا أكتافهم ألا أستبقى منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم».

وكان المسلمون من بكر بن وائل أشد الناس على نصارى بكر بن وائل الذين جاءوا يناصرون المجوس، وكان المثنى بن لاحق أشد مسلمى بكر بن^(١) وائل فى ذلك. وبدأت صفوف جابان تتضعض، فأنكشفوا للمسلمين ومنحهم الله أكتافهم، فأمر خالد مناديه فنادى فى الناس: «الأسر الأسر... لا تقتلوا إلا من امتنع»، فأقبلت خيول المسلمين بهم أفواجاً مستأسرين يساقون سوق الأنعام. فجمعهم خالد، وقد حبس الماء عن النهر فوكل بهم رجالاً يضربون أعناقهم فى النهر يوماً وليلة على رجاء أن يجرى النهر بدمائهم. وخرج المسلمون لمطاردة الهاربين يطلبونهم فى اليوم التالى الذى بعده، حتى انتهوا إلى النهرين، ومقدار ذلك من كل جوانب أليس حيث تفرقوا. فكانوا يأتون بهم وتضرب أعناقهم فى النهر، والنهر لا يجرى دماً حتى قال القعقاع بن عمرو وبشير بن الخصاصة وأمثال لهما خالد: «لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم. إن الدماء لا تزيد على أن تترقق منذ نهيت عن السيلا ن نهيت الأرض عن نشف الدماء، فأرسل عليها الماء تبر يمينك». وأعيد الماء إلى النهر فجرى أحمر قانياً، فسمى لذلك نهر الدم وعرف بذلك إلى قرون بعدها. وكانت على النهر طواحين تدار بالماء، فطحنت بالماء وهو أحمر اللون قوت العسكر - ثمانية عشر ألفاً أوزيدون - ثلاثة أيام.

رجع المسلمون من المطاردة ودخلوا معسكر الحلفاء، فوجدوا الطعام على البسط ووقف خالد عليه وقال:

«قد نفلتكموه فهو لكم، كان رسول الله ﷺ إذا أتى على طعام مصنوع نَفَلَه، وقد نفل الناس يوم خيبر الخبز والطبيخ والشواء وما أكلوا غير ذلك فى بطونهم غير متأثليه^(٢)».

فقعد المسلمون عليه لعشائهم بالليل فى مثل حفل سمر، وجعل من لم ير الأرياف ولا يعرف الرقاق يقول: «ما هذه الرقاق البيض؟!» فيجيب من قد عرفها مازحاً:

(١) الإصابة ٨٣٦٤.

(٢) التائل اتخاذ أصل المال، يعنى أكلوا ما شاءوا دون أن يحملوا منه شيئاً.

«هل سمعتم برقيق العيش؟»

فيقولون: «نعم».

فيقولون: «هو هذا».

ولذلك سمي الرقاق، وقد كانت العرب تسميه قبل ذلك للقرى.

وبلغت قتلى العجم وحلفاؤهم فى أليس سبعين ألفاً جلهم من أمغيشيا (وتسمى أيضاً منيشيا). وبعث خالد بالخبر مع دليل من بنى عجل يدعى جندلاً، فقدم على أبى بكر بالخبر وبفتح أليس وبقدر الفىء وعدة السبى وبما حصل من الأخماس وبأهل البلاء من الناس. وأعجب أبو بكر بصرامته وثبات خبره فأمر له بجارية من ذلك السبى.

أمغيشيا^(١)

٢٨ صفر ١٢هـ - ١٤ مايو (آيار) ٦٢٣م

مصر كبير

كانت أمغيشيا مصراً كبيراً كالخيرة على الفرات، تبعد نحواً من ٤٠ كيلو متراً عن أليس. ولم تكن بأمغيشيا معركة ولم يقع فيها قتال، إنما كانت فيئاً بغير خيل. ذلك أن خالداً بعد أن فرغ من معركة أليس أراد ألا يمنح العجم فرصة، ومن مبادئ الحرب المطاردة لمتابعة استغلال النجاح. وكان من أهم ما يميز خالداً خفة حركته وقدرته على التحرك السريع. فنهض من أليس فأتى أمغيشيا، وكان كثير من أهلها قد قتل في أليس، قتل منهم حوالي أربعين ألفاً على الأقل. فلما تحرك خالد نحو أمغيشيا أعجل أهلها عما فيها فهجروها وجلوا عنها متفرقين في السواد، وقد تركوا بها جل متاعهم. ومن يومئذ صار في السواد «مهاجرون» و«لاجئون».

فتح بلا قتال

وأراد خالد أن يرهب أعداءه ويهون شأن سلطانهم في أعين أهل السواد فأمر بهدم أمغيشيا، وكل شيء كان في حيزها وقد كانت كبيرة الحجم وإليها ينتهي نهر فرات بادلقي، وكانت أليس من مسالحها (مواقعها المسلحة). وأصاب المسلمون في أمغيشيا ما لم يصيبوا مثله من قبل. ولم يصب المسلمون فيما بين ذات السلاسل وأمغيشيا مثل شيء أصابوه في أمغيشيا، فقد بلغ سهم الفارس ١٥٠٠ درهماً سوى النفل الذي نفعه أهل البلاء. وبلغت أخبار أمغيشيا إلى أبي بكر فقال: «يا معشر قريش عدا أسدكم (يعني خالد) على الأسد (يعني فارس) فغلبه على خراذيله (أشلائه). أعجزت النساء أن ينشن مثل خالد؟!».

ألم يكن من الأجدى على العجم - وقد سبقوا إلى المكان وكان يسعهم أن يختاروا - أن يجعلوا معركتهم في أمغيشيا بدلاً من أليس؟ مادامت أمغيشيا كانت مصراً كبيراً كالخيرة،

(١) الطبرى ٤ / ١١، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن محمد، عن أبي عثمان وطلحة، عن المغيرة. س ش س عن بحر بن الفرات العجلي، عن أبيه.

وكانت بالمنطقة التي التقى بها الجيشان، فلا شك أن تحصنهم في الدور والطرق كان أوفق لهم من الخروج في عراء، وقد رأوا مصائر من قبلهم.

أيام

ذكرت المصادر تواريخ تلك المواقع بالشهر دون اليوم. وقد وجدنا المذار والوجة وأليس وأمغيشيا كلها في صفر، فقدردنا أيامها كالاتى على أساس ما جاء في وصف كل موقعة، وبعدها عما قبلها وما بعدها.

محرم خرج خالد من النجاج إلى كاظمة - حوالى ٥٠٠ كيلو متر.

محرم موقعة ذات السلاسل في كاظمة.

١ صفر موقعة المذار - حوالى ٢٥٠ كيلو متراً من كاظمة.

٥ صفر بلغ خبر هزيمة المذار إلى المدائن - حوالى ٤٠٠ كيلو متراً.

١٤ صفر وصل أندرزغر إلى الوجة قادماً من المدائن - حوالى ٣٥٠ كيلو متراً.

١٧ صفر علم خالد وهو بالمذار بتقدم جيش إلى الوجة فسار إليهم.

٢٢ صفر هزم خالد العجم في الوجة بعد أن سار إليهم حوالى ٣٥٠ كيلو متراً من المذار عن طريق أسفل دجلة.

٢٤ صفر علم خالد بتجمع نصارى العرب في أليس. قبل موقعة الوجة أرسل أردشير بهمن جاذويه في أثر أندرزغر من المدائن. فأرسل بهمن جابان إلى أليس - حوالى ٣٠٠ كيلو متراً من المدائن، ٤٠ كيلو متراً من الوجة.

٢٥ صفر سار إليه خالد وهزمه في أليس ثم مكث يومه وغده واليوم التالي لغده يضرب أعناق العجم حتى ٢٧ صفر.

٢٨ صفر سار خالد ٤٠ كيلو متراً إلى أمغيشيا وهدمها.

٢٩ صفر سار خالد من أمغيشيا إلى الخورنق التي تبعد ١٥٠ كيلو متراً.

معركة المقر^(١)

ربيع أول ١٢ هـ - أواخر مايو (أيار) ٦٣٢ م

الطريق النهرى إلى الحيرة

كان آزاذبه مرزيان الحيرة. وكان ممن بلغ نصف الشرف فقلنسوته من فئة الخمسين ألفاً. وكان نظام الحكم في الدولة نظاماً مركزياً إلى أبعد حد، والسلطة كلها في المدائن، فلم يكن أحد يمد الآخر أو يعينه إلا بأمر من الملك. فلما خرب خالد أمغيثيا وعاد أهلها لاجئين لدى دهاقين القرى، علم آزاذبه أنه غير متروك وأن الدور عليه، فقد تبين حينئذ مسار الغزو واتجاه خالد، فأخذ آزاذبه عدته وجمع جنده وتجهياً للحرب.

ونقلت عيون آزاذبه إليه أن خالداً يجمع السفن لينقل فيها جيشه. ذلك أن خالداً لم يشأ أن يعطل زحفه باجتياز أرض امتلأت بالأنهار والبطائح، لاسيما وقد كان الفصل ربيعاً حيث فيفيض النهران: دجلة والفرات، وتغرق مياهما الأرضى ويشق السير على الإبل، فجمع السفن في أمغيثيا ليحمل عليها مشاته على أن تسير الخيل قريباً منها على الأرض. وقدم آزاذبه ابنه على رأس تجريدة من الخيل وأمره بسد الفرات حتى يمنع جريان الماء فيه، ثم خرج في أثره حتى عسكر خارج الحيرة.

أقام الابن^(٢) على فم نهر فرات بادقلى وقام بسده، وكانوا يستخدمون لذلك التراب والقصب (وهو البوص والغاب والأكياب) وفتح مسالك أخرى ليسلكها الماء، وبعث طلائع متقدمة، فأقامت بالمقر على فم نهر العتيق.

وحمل خالد مشاته على السفن في فرات بادقلى مع الأنفال والأثقال، فما بدأ مسيره حتى فوجيء بالسفن تجنح في النهر، فارتاع المسلمون لذلك، وأكثرهم لم يركب السفن من قبل. وعلل الملاحون - وهم من أهل البلاد - ما حدث بأن العجم فجروا الأنهار، فسلك الماء غير سبيله، وأن الماء لا يعود إلى هذا الجرى الذى هم فيه إلا بسد الأنهار التى فتحوها.

(١) الطبرى ٤ / ١١ ص ش س، عن محمد، عن أبي عثمان وطلحة، عن المغيرة.

(٢) لم تذكر المصادر اسمه، وقد ذكرت بعد ذلك ابنين لآزاذبه هما: آزاذمرد وشيرزاذ. وتذهب إلى أن هذا غيرهما.

المياه في مجاريها

وخرج خالد بنفسه من فوره في خيل لشن غارة، هدفها إعادة المياه إلى مجراها. اتجه شمالاً بغرب بحذاء فرات بادقلى حتى بلغ المقر^(١) عند فم العتيق، فوجد خيلاً من طلائع ابن آزاذبه، وكان طلوع خالد عليهم مفاجأة غير متوقعة، فداهمهم وهم آمنون فأبادهم. ثم لم يتوقف وإنما سار من فوره حتى لا تسبقه الأخبار إلى القوة الأساسية لابن آزاذبه حتى وجدها على فم فرات بادقلى والتحم معهم حتى هزمهم. وسد خالد الأنهار وفجر الفرات، فعاد الماء يسلك سبيله، فأرسل إلى أصحابه أن يلحقوا به، وعادت السفن إلى المسير، بينما استمر هو بمن معه من الفرسان السريعة قاصداً الحيرة، حتى نزل بين الخورنق والنجف^(٢) وهي مسافة تمتد حوالى عشرين كيلو متراً. وكان الخورنق قصراً (حصناً) للنعمان بن المنذر، بناه مهندس رومى يقال له: سمنار فى عشرين سنة، فلما فرغ منه ألقاه النعمان من أعلاه فقتله، حتى لا يبنى^(٣) مثله لغيره، فذهبت مثلاً «جزاء سمنار». ويذهب كريستنسن إلى أن هذه القصة خرافة، وأن القصر أقدم من زمن النعمان^(٤). وأن حصن الخورنق من القرميد والسكب، والقرميد: آجر أو شئ يشبهه، وقيل: كل شئ كالخض يطفى به. وقيل: حجارة محرقة أو خرف مطبوخ، والسكب: النحاس أو الرصاص.

مرزيان الحيرة ومعركتها

كان معسكر آزاذبه بين الغريين والقصر الأبيض. فما بلغ خالد الخورنق حتى كان آزاذبه قد انسحب بعسكره إلى ما وراء الفرات من غير قتال، متأثراً بمصاب ابنه وبموت أردشير ملك

(١) في معجم البلدان أن المقر من ناحية البر من جهة الحيرة.

(٢) النجف على نحو أربعة أميال من غرب الكوفة (بلدان الخلافة الشرقية)، وتبعد النجف عن جسر الكوفة ٩ كيلو مترات، وعن كربلاء ٨٥ كيلو متراً. وهي قائمة على رابية مرتفعة فوق أرض رملية فسيحة. وكانت النجف قديماً مصيفاً ومنتزهاً للمناذرة ملوك الحيرة، هواؤها في الصيف حر يابس، وفي الشتاء برد قارس، وحين تشتد الحرارة وتهب الرياح اللافحة «السموم» يلجأ سكان النجف إلى سرايب منحوتة يبلغ متوسط عمق الواحد منها عشرين متراً (العراق قديماً وحديثاً ١٠٦ - ١٠٧).

(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ٢١٣/١.

(٤) ويذهب البلاذرى إلى أن قصر الخورنق بناه النعمان بن امرئ القيس لبهرام بن يزدجرد ابن سابور ذى الاكتاف، وكان بهرام جور فى حجره، ولم تكن للخورنق قبة حتى أحدثها إبراهيم بن سلمة أحد دعاة العباسيين فى خلافة أبى العباس (فتوح البلدان ٧٢٧)، وفى رحلة ابن بطوطة أنه خرج من النجف يريد البصرة فنزل الخورنق وبه عمارة ويقايا قباب ضخمة فى فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات.

فارس، فلم يكن هناك من ينجده ويبحث إليه بالجيش. انسحب آزاذه تاركاً إقليم الحيرة يواجه مصيره، ويدافع أهله من العرب بأنفسهم عن أنفسهم.

إن التصرف الذي اتبعه آزاذه يستوقف النظر لما يتصف به من غباء وتواكل. فبالرغم من أن خالداً قد خاض في العراق خمس مواقع قبل المقر، فإن ذلك المرزبان كان متخلفاً عن إدراك طبيعة خصمه. وإن اعتبار منع جريان الماء هو كل الخطة الدفاعية سذاجة ما بعدها سذاجة، وإنما كان يصلح كخطوة لعرقلة التقدم ليس إلا. ولئن كان ذلك يمنع في حالة نجاحه خالداً من استخدام السفن، فلم يكن ليمنعه من وصوله بالمسلمين إلى الحيرة. ولنفترض أن خالداً قد رضى لإجراء آزاذه، فأنزل جنده من السفن إلى البر ثم سار بهم نحو الحيرة، فأى دفاع آخر أعده المرزبان في هذه الحالة؟ لئن كان يئس من الاحتفاظ بالحيرة، فهو لم ينظر إليها على أنها معركة في حرب وحلقة في سلسلة، وأن واجبه نحو وطنه كان يحتم عليه استمرار المقاومة حتى ولو كانت المعركة خاسرة، ففي الحرب يلزم أن ينزل بعدوه أكبر خسارة، وأن يعرقله أكثر ما يستطيع، وأن يحتفظ بأرضه وموارده أطول ما يمكن، وأن يعمل على توسيع رقعة المقاومة والاحتفاظ ما أمكن بالمعاقل. آزاذه لم يفعل شيئاً من ذلك، وإنما كان يريد من الملك أن يحميه دون أن يقدم هو شيئاً، وترك نصارى الحيرة لمصيرهم اغتوم يدافعون عن أنفسهم إن استطاعوا ولم يكونوا مستطيعين. كان بالحيرة أربعة حصون متقاربة ينظر بعضها إلى بعض، فكانت أنسب مكان لجيش أن يثبت وأن يناوش، لاسيما وقد غمر الفيضان الأرض فوحت.

وفي يوم المقر وما قبله قال أبو مفرز الأسود بن قطبة^(١):

لقينا يوم أليس وأمغى	ويوم المقر آناء النهار
ولم أر مثلها فضلات حرب	أشد على الجحاجة الكبار
قتلنا منهم سبعين ألفاً	بقية حربهم نخب الأسار
سوى من ليس يحصى من قتل	ومن قد غال جولان الغبار

الياب التاسع

فتح الحيرة

ربيع الأول ١٢هـ - مايو (أيار) ٦٣٢م

(١) فضلات: انتصارات، الجحاجة: جمع جحاجح وهو السيد، النخب: الخلاصة وهو ما ينتخب، الأسار: الأسرى.

إمارة الحيرة

نشأت إمارة الحيرة^(١) في تقديرات تتراوح بين عام ١٦٥م وبين عام ٢١٢م مع قيام الدولة الساسانية في إيران. كانت بلداً رقيقة الهواء عذبة الماء صافية الجو، ارتفع مكانها عن عمق أرياف العراق وانخفض عن ارتفاع ما جاورها من صحراء، واتصلت بالمزارع والجنان والمتاجر العظام لأنها كانت من ظهر البر على مرفأ سفن البحر الواردة من الصين والهند وغيرهما، كانت على حافة سواد العراق وحافة البادية، وكان فيها من مباني العرب الجاهليين قصور عظيمة منها قصر الخورنق^(٢). وكان القصر والحصن إسمان لمسمى واحد. وبلغت الحيرة من الأهمية في ذلك العصر أن كان بالمدائن كاتب مختص بالشئون العربية، كما كان بها مترجم يؤجر من عرب^(٣) الحيرة. وكان عرب الحيرة ينزلون ما بين الحيرة والأنبار وهي ونواحيهما وعين التمر وأطراف البراري، الغمير والقطقطانة وحفية، فهم ينتشرون غربي الفرات في البادية.

كان بين الحيرة وبين موضع الكوفة نحو فرسخ^(٤). وكان الجزء المهم من الحيرة على الشاطئ الغربي من الفرات في حدود البادية جنوبى موضع الكوفة، وآثارها ترى إلى الآن إلى الجنوب الشرقي من مشهد على بالنجف^(٥). وكانت جماعة من قبيلة تنوخ قد نزحت من اليمن لانهيار سد مأرب، وانضموا إلى قوم يسمون: العباد، كانوا يقيمون بالعراق، واشتركوا جميعاً في بناء حصن عسكريا حوله، وحفروا حول الحصن ومعسكرهم خندقاً،

(١) الخريطة التي أثبتناها في الجزء الأول برقم ٦ أمدتنا بها مشكورة مديرية الآثار العراقية ببغداد. وقد لاحظنا أن موقع الحيرة بها يختلف عن موقعها في خريطة العراق الأثرية الصادرة عن نفس المديرية. واستناداً إلى المصادر التاريخية التي حددت موقعها بأنها كانت على فرسخ (أو على ثلاثة أميال) من الكوفة - ولم تكن الكوفة قد بنيت حين غزا خالد الحيرة - أخذنا بموقعها الوارد في الخريطة الأثرية وهو ما وجدناه يتفق مع الروايات ويطباقها. وقد أضفنا إلى الخريطة هنا (رقم ١٦ - ص ٢٠٠) نهر البويب وخندق سابور.

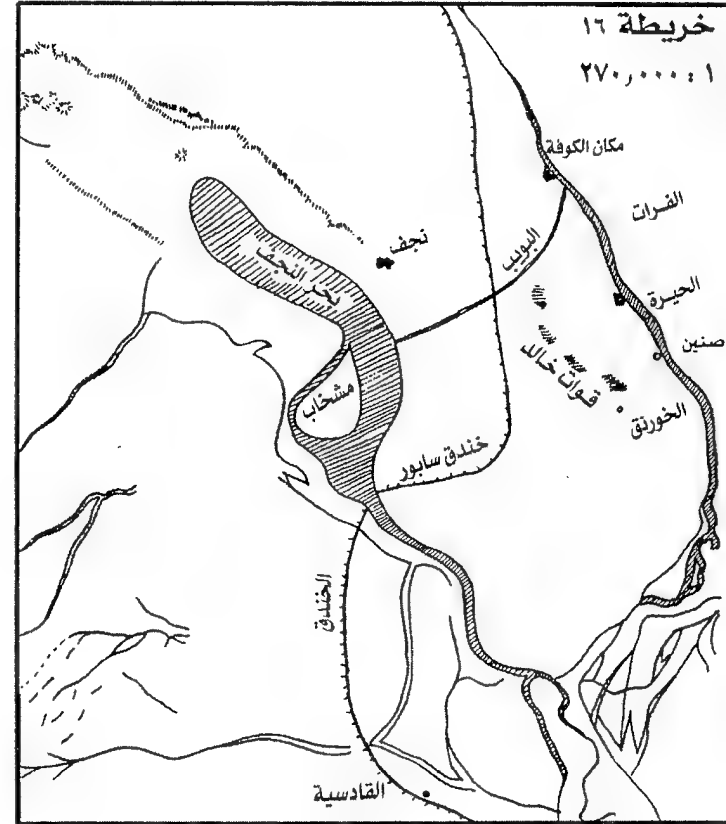
(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ١/ ٢١٣.

(٣) كريستنسن ١٢٤.

(٤) المسالك والممالك - الاصطخرى، ص ٥٨.

(٥) الجغرافيا التاريخية الإسلامية - حسونة.

وهكذا نشأت الخيرة على ضفاف الفرات، وكانت تتخللها فروع منه، وصارت الخيرة عاصمة العرب اللخمين. وانتشرت المسيحية بين عرب الخيرة قبل الإسلام، ووقع الخلاف بين مسيحييها كما وقع بين مسيحيي الحبشة والشام ونجران، بين مؤلهي المسيح ومؤلهي مريم وبين مخالفهم. وقد أرسل النبي ﷺ إلى الحارث الغساني ملك الخيرة يدعوهُ إلى الإسلام فيمن أرسل إليهم من الملوك والأمراء.



خريطة رقم (١٦) - فتح الخيرة

خالد في الخيرة

لحق جيش المسلمين بخالد ومن معه من طلائع، فتقدم بهم من الخورنق حتى نزل بالموضع الذي كان به آزاذه وعسكره فيما بين الغريين^(١) والقصر الأبيض. وتحصن أهل الخيرة في حصونهم وكانت أربعة. فقسم خالد قواته لحصارها وقتال أهلها وهم من نصارى العرب المواليين للمجوس العجم.

فحاصر ضرار بن الأزور الأسدى القصر الأبيض، وفيه إياس بن قبيصة الطائي. ضرار كانت له مواقفه مع خالد في حروب الردة.

وحاصر ضرار بن الخطاب الفهري قصر العدسين وفيه عدى بن عدى بن المقتول. وضرار بن الخطاب أيضاً رفيقاً قديماً لخالد بن الوليد في مواقفه، كان في كتيبة خالد مع المشركين يوم أحد، وقتل ضرار يومها من المسلمين سريق بن حاطب الأنصاري وعمرو بن معاذ بن النعمان، وكان ضرار من فرسان قريش في غزوة الخندق الذين يجيلون خيلهم ويرمون المسلمين شأن خالد وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص وأبي سفيان. ثم أسلم يوم فتح مكة ولم يكن أخاً لعمر ابن الخطاب إلا في الإسلام.

وحاصر ضرار بن مقرن المزني أحد الإخوة العشرة قصر بني مازن وفيه حيرى بن أكال. وحاصر المثنى بن حارثة الشيباني قصر ابن ببيعة وفيه عمرو بن عبدالمسيح. هذا الحصن هو الذي قال فيه السجستاني.

لقد بنيت للحدثان قصراً لو أن المرء تنفعه الحصون
رفيع الرأس أقعس^(٢) مُشْمَخِراً لأنواع الرياح به حنين

وأمر خالد كل أمير أن يدعو أهل الحصن الذي يحاصره إلى واحدة من ثلاث: (الإسلام أو الجزية أو القتال) وأن يمهلوهم يوماً. وأوصاهم فقال: «لا تمكثوا عدوكم من أذانكم فيترصبوا بكم الدوائر ولكن ناجزوههم. ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم». وأبى أهل الخيرة أن يقبلوا واحدة من الثلاث ولجؤا فناوشهم المسلمون.

(١) «الغريين» بناءً على كالتصومعتين بظاهر الكوفة قرب قبر علي بن أبي طالب. وقيل الغري الحسن وإنما سميا الغريين لحسنهما في ذلك الزمان، صنعهما المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء. والغري نصب كان يذبح عليه. (معجم البلدان).

(٢) في المنجد، الأقعس من خرج صدره ودخل ظهره فهو ضد الأحذب، فكأن جدران الحصن كانت مقوسة.

فلما انتهت المهلة، نشب القتال مع كل الحصون، وكان أول من أنشبه ضرار بن الأزور الأسدي مع أهل القصر الأبيض، فقد أصبح الصباح وأهله مشرفون من أعلى الحصن فدعاهم إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو القتال، فاختراروا القتال، وصاح بعضهم ببعض: «عليكم بالخرزيف». وسمع ضرار ومن معه صياحهم، فأمر جنده أن يبتعدوا عن مرمى الحصن وقال لهم: «تنحوا لا ينالكُم الرمي حتى ننظر في الذي هتفوا به».

وما لبث رأس الحصن أن امتلأ بالرجال معلقى الخالي، يرمون المسلمين بالخرزيف وهي المداحي من^(١) الخزف. وأمر ضرار المسلمين أن يرشقوهم، فدنا منهم ثم قصفهم بالنبل، وكانوا من مهارة الرمي وإصابة الهدف بحيث أنهم ألجأوا عدوهم أن يخفضوا رؤوسهم حتى أعروا رءوس الحيطان.

استسلام الجيرة

مثل ذلك حدث في الحصون الأخرى إذ صبح أمير كل فرقة أصحابه بمثل ذلك، وشنوا الغارات على ما في خارج الحصون، فافتتحوا الدور والأديرة وأكثروا القتل. وخرج القسيسون والرهبان من أديرتهم، فنادوا أهل الحصون وقالوا لهم: «يا أهل القصور... ما يقتلنا غيركم».

وأدرك أهل الحصون أن لا جدوى من المقاومة واستمرار القتال، وقد جلا الأعاجم وانتسف المسلمون ما حول حصونهم. فنادوا المسلمين وقالوا: «يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث فادعوا بنا وكفوا عنا حتى تبلغونا خالداً».

وكان أولهم في ذلك عمرو بن عبدالمسيح. ثم تبعته أهل الحصون الأخرى.

خرج إياس بن قبيصة وأخوه من القصر الأبيض إلى ضرار بن الأزور، وقيل: كان قبيصة بن إياس بن حية الطائي، وكان كسرى قد أمره على الجيرة بعد النعمان بن المنذر.

وخرج عدى بن عدى وزيد بن عدى من قصر العدسيين إلى ضرار بن الخطاب. وخرج عمرو بن عبدالمسيح من قصر ابن بقليلة إلى المثنى بن حارثة الشيباني. وخرج حيرى ابن أكال من قصر بنى مازن إلى ضرار بن مقرن.

(١) الخزف ما عمل من طين وشوى بالنار فصار فخاراً، والمداحي من الخزف ما كور منها. والذي نفهمه أنهم كانوا يقدفونها بالقلع أو ما يشبهه.

فأرسل كل أمير من خرج إليه إلى خالد ومع كل رجل منهم ثقة ليصالح عليه أهل الحصن: بينما ظلوا هم على مواقفهم محاصرين تلك الحصون.

ولم يجمعهم خالد وإنما خلا بأهل كل حصن منهم دون الآخرين، ثم جمعهم بعد أن فرغ من كل فريق منهم على حدة. وكان الذي بدأ بهم عدى ومن معه، فلما أدخلوا على خالد فسطاطه قال لهم:

خالد - ويحكم... ما أنتم؟ أعرب فما تنقمون من العرب؟ أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟!

عدى - بل عرب عاربة وأخرى متعربة.

خالد - لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتكرهوا أمرنا.

عدى - ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية.

خالد - صدقت. أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أجبتم فأنتم من المسلمين، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم إن نهضتم وهاجرتم (جاهدتم) وإن أقمتهم في دياركم. فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فالمنابذة والمناجزة، فقد والله أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم^(١).

عدى - بل نعطيك الجزية.

قبيصة - ما لنا بحربك من حاجة، بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية.

(لقد خرج المسلمون من ديارهم هداة، ولم يخرجوا جباة. وكان أحب إلى نفوسهم وقلوبهم لو أن عرب الحيرة قد أسلموا، غير أنهم اختاروا البقاء على دينهم مع أداء الجزية).

خالد - ويحكم إن الكفر فلافة (مفازة) مضلة، فأحرق العرب من سلكها، فلقيه دليان أحدهما عربى فتركه واستدل الأعجمى.

فصالحوه جميعاً على مائة وتسعين ألف^(٢) درهم وأهدوا له هدايا. وبعث خالد بالفتح والهدايا إلى أبى بكر رضى الله عنه مع الهذيل الكاهلى. وقبل أبو بكر الهدايا على أن

(١) الطبرى ٤/ ٣، عن ابن حميد، عن سلمة، عن ابن اسحق، عن صالح بن كيسان.

(٢) وفي فتوح البلدان ٦٠٣ أنهم صالحوه على مائة ألف درهم، ويقال على ثمانين ألف، وعلى أن يكونوا عيوناً للمسلمين، وأن لا يهدم لهم بيعة ولا قصراً.

وفي الطبرى ٤/ ٣ بالاسناد السابق أنها كانت تسعين ألف درهم.

تحسب من الجزية، وكتب إلى خالد أن يحسب لهم هديتهم من الجزية إلا أن تكون هي من الجزية فعلاً. وقد كان من عادة العجم جباية «هدايا» مرتين كل^(١) سنة، في النوروز وهو عيد دخول الصيف، وفي المهرجان وهو عيد دخول الشتاء. وكان فتح الحيرة في شهر مايو (أيار) موسم النوروز، وكان عندهم أفضل من المهرجان، فكان الاحتفال به يمتد ستة أيام تبدأ من اليوم الأول لشهر «أفريدون ماه» وهو أول شهور سنتهم. كما أمر أبو بكر خالد أن يأخذ منهم بقية ما عليهم ليقوى بها أصحابه.

وكانت الجزية^(٢) على القادرين على القتال، ولا جزية على النساء والصبيان والمسنين، وعلى حسب أحوالهم فكانت بين ٤٨ درهماً أو ٢٤ درهماً أو ١٢ درهماً في السنة، وقد روى البلاذري^(٣) أن جزية الحيرة فرضت على ستة آلاف رجل، على كل رجل أربعة عشر درهماً وزن خمسة، فبلغ ذلك أربعاً وثمانين ألفاً وزن خمسة. فإذا أردنا أن نخمن تعداد الحيرة من هذا، نستطيع القول بأنه كان نحواً من ثلاثين أو أربعين ألف نسمة. ولكن قتلى أمغيشيا - التي كانت مصراً كبيراً كالحيرة - كانوا يزيدون عن مثل هذا الرقم، وهذا يجعلنا نميل إلى تقدير الحيرة بأكثر مما يسلمنا إليه تقدير تعدادها بحساب الجزية.

صلح الحيرة

وكتب خالد معاهدة الصلح مع أهل الحيرة:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

١- هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد

عدياً وعمراً ابني عدى

وإياس بن قبيصة

وحيرى بن أكال

وهم نقيب أهل الحيرة، ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به.

٢- عاهدتهم على مائة وتسعين ألف درهم، تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم^(٤) في الدنيا (استسلاماً)، رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد (قوة) حبساً عن

(١) الخراج في الدولة الإسلامية ١٨٠.

(٢) الخراج - أبو يوسف ١٥١.

(٣) فتوح البلدان ٦٠٥.

(٤) في مختار الصحاح - اليد: الذلة والاستسلام، واليد: القوة.

الدنيا تاركاً لها وسائحاً تاركاً للدنيا.

٣- وعلى المنعة. فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم.

٤- وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة.

كتب في شهر ربيع الأول من سنة اثنتى عشرة.

وأعطاهم خالد الكتاب.

وبعد وفاة أبي بكر رضى الله عنه انتقض أهل السواد وذلك بعد خروج خالد من العراق إلى الشام، وعادوا إلى ولائهم لفارس إلا أهل بانقيا^(١). فلما أعاد المثنى افتتاح الحيرة بعد ذلك، أرادوا الاحتكام إلى هذه المعاهدة، فطالبهم المثنى بالكتاب فوجدتهم استخفوا به وضيعوه، فلم يجبههم إلى طلبهم وكتب معهم معاهدة أخرى بشروط جديدة، فلما غلب المثنى على البلاد، عادوا إلى كفرهم وأعانوا العجم واستخفوا بكتابه وأضاعوه أيضاً. فلما فتح سعد بن أبي وقاص الحيرة، أراد أهلها الاحتكام إلى ما سبق من معاهدات فطالبهم سعد بأى من الكتابين، فلم يجيئوا بهما، فوضع عليهم ما يرى أنهم مطيقون، أربعمئة ألف درهم سوى الحرزة التي كانوا يؤدونها إلى آل كسرى.

رواية من فتح الحيرة^(٢)

كان عمرو بن عبدالمسيح (ابن ببيعة) أرجحهم عقلاً، وقد اشتهر بينهم بالحكمة، ولعله كان أكبرهم^(٣) سناً، فكانوا يترددون عليه ويقدمونه في حوائجهم حتى صار كمنادوب اتصال بين أهل الحيرة وخالد بن الوليد، قال له خالد:

- كم سنك؟

أجاب عمرو:

- عظم.

خالد - ابن كم أنت؟

عمرو - ابن رجل واحد.

(١) الطبرى ٢١٠/٤ س ش س، عن محمد وطلحة وأصحابهما.

(٢) الطبرى ١٣/٤ س ش س، عن الغصن بن القاسم، عن رجل من بنى كنانة، ويونس بن أبى اسحق.

٤، ٤، عن هشام بن الكلبي، عن أبى مخنف، عن حمزة بن على، عن رجل من بكر بن وائل. فتوح

البلدان ٦٠٤، عن أبى مخنف، عن أبى المثنى الوليد بن القطامي وهو الشرقي بن القطامي الكلبي.

(٣) قيل إنه كان يومئذ ابن ثلاثمائة وخمسين سنة (البيان والتبيين ١٤٧/٢).

- كم أتى عليك من الدهر؟

- لو أتى على شيء لقتلني.

- كم أتت عليك سنة؟

- مئو سنين (أو قال خمسون وثلاثمائة).

- فما أعجب ما رأيت؟

- رأيت القرى منظومة ما بين دمشق والحيرة، تخرج المرأة من الحيرة فلا تزود إلا رغيماً.

(ومن المعلوم أن بين دمشق والحيرة صحراء السماوة). فتبسم خالد وقال:

- هل لك من شيخك إلا عقله! خرفت والله يا عمرو.

(وظن خالد أن الرجل قد ذهبت السنون بعقله، بينما كان ابن بقليلة يستعرض نفسه).

والتفت خالد إلى أهل الحيرة وقال:

- ألم يبلغني أنكم خيثة خدعة مكررة؟ فما لكم تتناولون حوائجكم بخرف لا يدري من

أين جاء؟

(وتجاهل ابن بقليلة ما في قول خالد من حط لشأنه، وأراد أن يريه من نفسه ما يعرف به

عقله) فقال:

- وحقك أيها الأمير إنني لأعرف من أين جئت.

- فمن أين جئت؟

- أقرب أم بعد؟

- ما شئت.

- من بطن أمي.

- فأين تريد؟

- أمامي.

- وما هو؟

- الآخرة.

- فمن أين أقصى أترك؟

- من صلب أبي.

- ويحك، على أي شيء أنت؟

- على الأرض.

- ففيم أنت؟

- في ثيابي.

- فحرب أنت أم سلم؟

- سلم.

- فما بال هذه الحصون؟

- بنيناها للسفيه نحسه حتى يجيء الخليم فينهاه.

- أتعقل؟

- إي والله وأقيد.

- إنما أسألك.

- وأنا أجيبك.

(فلم يكن عمرو على السطحية التي ظهر بها أول الأمر، ووجده خالد عويصاً حين استكشفه، وكان أهل قريته أعلم به) قال خالد:

- قتلت أرض جاهلها وقتل أرضاً عالمها والقوم أعلم بما فيهم.

- أيها الأمير، النملة أعلم بما في بيتها من الجمل بما في بيت النملة!

(وكان مع ابن بقليلة خادم له يحمل كيساً يعلقه في وسطه. فتناول خالد الكيس ونثر ما

فيه في راحته) ثم قال:

- ما هذا يا عمرو؟

- هذا وأمانة الله سم ساعة.

- ولم تحتقب السم؟

- خشيت أن تكونوا على غير ما رأيتم وقد أتيت على أجلى والموت أحب إلي من مكروه

أدخله على قومي وأهل قريتي.

- إنها لن تموت نفس حتى تأتى على أجلها، بسم الله خير الأسماء رب الأرض ورب

السماء الذي ليس يضر مع اسمه داء، الرحمن الرحيم.

(ثم وضعه - أي خالد - في فمه، وبادروه ليمنعوه ولكنه سبقهم فابتلعه).

عمرو - والله يا معشر العرب لتملكن ما أردتم ما دام منكم أحد أيها القرن^(١).

(١) هكذا في الأصل، ولم نفهم لها معنى.

(وأقبل على أهل الحيرة يقول):

- لم أر كاليوم أمراً أوضح إقبالاً.

وقد رجعنا إلى أهل الاختصاص في الطب والصيدلة نلتبس الرأي والإيضاح لهذا الأمر، فنفوا نفيًا باتًا أن يكون ذلك ممكنًا إذا كانت المادة التي يقال أن خالدًا قد ابتلعها من السميات التي تقتل عادة. ونحن ننتهي إلى أنه ليس في الإسلام ما يتعارض وسنن الكون التي وضع الله لعباده ولما خلق، ولا نستبعد مع ما لخالد من شخصية فذة يندر مثلها في التاريخ أن ينسج الرواة حوله من الأساطير مثل هذه القصة.

انتزع الحيرة من ملك بنى ساسان ودخلها في طاعة المسلمين لم يكن حدثًا صغيراً، ولم يكن ليمر دون أن تجري به ألسنة الشعراء العرب في حينها، ولقد كان ابن بقليلة^(١) أبرزهم في ذلك فقال:

أبعد المُنْدِرِينَ أَرَى سَوَاماً ^(٢)	تُرُوح ^(٣) بَاخُورُنُقَ وَالسُّدِيرِ
وبعد فوارس النعمان أرعى	قُلُوصاً ^(٤) بَيْنَ مُرَّةٍ وَالْحَفِيرِ
فصرنا بعد هلك أبي قُبَيْسٍ	كَجَرِبِ ^(٥) الْمَعَزِ فِي الْيَوْمِ الْمَطِيرِ
تُقَسِّمُنَا الْقَبَائِلَ مِنْ مَعَدٍّ	عِلَانِيَةً كَأَيْسَارِ ^(٦) الْجَزُورِ ^(٧)
وكنا لا يُرام لنا حريم	فَنَحْنُ كَضْرَةِ ^(٨) الضَّرْعِ الْفَخُورِ ^(٩)
نؤدى الخرج بعد خراج كسرى	وخرج من قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ
كذلك الدهر دولته سَجَالٌ	فِيَوْمٍ مِنْ مَسَاءَةِ أَوْ سُرُورِ

ومع فتح الحيرة وصل جرير بن عبد الله ومعه قيس بن أبي حازم إلى خالد، سيرهما إليه أبو بكر - لم يشهدا شيئاً مما كان بالعراق قبل الحيرة إلا ما كان بعدها، كذلك لم يشهدا شيئاً مما

(١) الطبري ٤ / ١٣ من ش س، عن محمد، عن أبي عثمان وطلحة، عن المغيرة.

(٢) السوام المال: الراعى، سامت الماشية رعت.

(٣) تروح = تراح، تستريح (مبنى للمجهول). في معجم البلدان، السدير: نهر بالحيرة، وقيل قصر قريب من الخورنق.

(٤) القلوص: النوق الشابة.

(٥) الجرب: الجمع، الجماعة.

(٦) أيسار: جمع يسير وهو الهين.

(٧) الجزور من الإبل، يقع على الذكر والأنثى.

(٨) الضرة: حلمة الضرع.

(٩) الفخور: الممتلىء.

كان فيه خالد من حروب الردة. بلغا الحيرة فوجداً متوشحاً قد شد ثوبه في عنقه يصلي وحده صلاة الفتح ثمانى ركعات لا يسلم فيهن ثم انصرف من الصلاة فقال: «لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع في يدي تسعة أسياف، ثم صبرت في يدي صفيحة يمانية فما زالت معي، وما لقيت قوماً كقوم لقيتهم من أهل فارس، وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل أليس».

روى الطبراني: «قال حزيم سمعت رسول الله ﷺ يقول هذه الحيرة ورفعت لى، وهذه الشيماء بنت نفيلة الأزديّة على بغلة شهباء معتجرة (متعممة) بخمار أسود... (وذكر حديثاً طويلاً) فقلت: يا رسول الله إن نحن دخلنا الحيرة فوجدتها كما هي فهي لى؟ قال: هي لك. قال: فشهدت الحيرة مع خالد بن الوليد فكان أول من تلقانا الشيماء، فتعلقت بها فسلمها لى خالد». وأخرج البخاري عن خزيم بن أوس بن حارثة بن لام الطائي قال: «اقتتلنا يوم الحيرة فكان أول من تلقانا الشيماء نفيلة الأزديّة فتعلقت بها فقلت: هذه وهبها لى رسول الله ﷺ فدعاني خالد عليها بالبينة فأتيته بها، وهي محمد بن مسلمة^(١) ومحمد بن بشير الانصاريان فسلمها لى». وأخرجه ابن منده أيضاً من نفس الوجه. وقد روى عنه أنه قال: «هاجرت إلى رسول الله ﷺ فقدمت عليه منصرفه من تبوك. وكان معه في قدمه هذا أخوه جرير». وفي أيام الحيرة قال القعقاع بن عمرو^(٢):

سَقَى اللَّهُ قَتْلَى بِالْفُرَاتِ مُقِيمَةً	وَأُخْرَى بِأَثْبَاجِ ^(٣) النَّجَافِ الْكُوفِ ^(٤)
فَنَحْنُ وَطِينًا بِالْكَوَاظِمِ هُرْمُزًا	وَبِالْثَّنَى ^(٥) قَرْنَى قَارَنٍ بِالْجَوَارِفِ
ويوم أحطنا بالقصور تتابعت	على الحيرة الرُّوحَاءُ ^(٦) إِحْدَى الْمَصَارِفِ
حَطَطْنَاهُمْ مِنْهَا وَقَدْ كَادَ عَرْشُهُمْ	يَعْبِلُ بِهِ فَعَلَ الْجَبَانَ الْخُفَالِفِ
رَمِينَا عَلَيْهِم بِالْقُبُولِ وَقَدْ رَأَوْا	غُبُوقَ ^(٧) الْمَنَايَا حَوْلَ تِلْكَ الْخَارِفِ ^(٨)
صَبِيحَةَ قَالُوا نَحْنُ قَوْمٌ نَنْزِلُوا	إِلَى الرِّيفِ مِنْ أَرْضِ الْعُرَيْبِ ^(٩) الْمَقَانِفِ ^(١٠)

(١) ترجمة محمد بن مسلمة في آخر الكتاب.

(٢) الطبري ٤ / ١٥، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف.

س ش س، عن الغضن بن القاسم الكنانى، عن رجل من بنى كنانة ويونس بن أبى اسحق.

(٣) الثَّج: الظَّهر.

(٤) الكوائف، الخيطة، المجاورة. الكنف: الجوار.

(٥) الثنى: النهر، والمقصود هنا موقعة المذار.

(٦) الروحاء، اسم يطلق على الحيرة.

(٧) الغبوق: الشرب بالعشى.

(٨) الخارف: الجوانب، الحرف: الجانب.

(٩) العريب: الفاسد. فى المنجد عرب فسدت معدته، وعرب الجرح تورم وتقيح.

(١٠) المقانف: المتشقة. فى المنجد، قنف المكان: تشقق طينه.

أثار فتح الحيرة

الحيرة مادياً ومعنوياً

كان لفتح الحيرة أثار بعيدة. فقد كانت الحيرة أول عاصمة من عواصم الأقاليم التي يحكمها بنو ساسان تسقط في أيدي المسلمين، وحاضرة متقدمة في الطريق إلى المدائن. لم يكن عامة سكانها من العجم ولكن هذا لا يقلل من أهميتها وأهمية فتحها، فهي مثلاً كهونلولو إحدى ولايات الولايات المتحدة الأمريكية اليوم، فسقوطها كان له الأثر المعنوي الذي يناسبه في نفوس الفرس والمسلمين على السواء. فضلاً عن ذلك فهي قاعدة تموينية تمد جيش المسلمين بكل ما يلزمه من خوم وألبان وتمر وحبوب وعلف. هذا بالإضافة إلى ما للحيرة من ميزة استراتيجية نظراً لموضعها من العراق. فهي موطن قدم مناسب لقفزة هجومية أخرى نحو الهدف الأكبر فضلاً عن ميزتها التي يمنحها لها موضعها من تخوم الصحراء، فهي طريق انسحاب وخط رجعة إذا لزم الأمر.

محاضرات صلح

كان الدهاقين ينتظرون ما يصنع خالد مع أهل الحيرة، فما أن استقام ما بينه وبينهم وتم صلحهم وعرفت شروطه وبلغت أخبار ذلك إلى ما وراء الفرات، حتى أراد أهل تلك الجهات أن يجنبوا قراهم ويلات الحرب، فأتى دهاقين الملقاط وقُس الناطف وما حولهما إلى خالد، وقد أقام فسطاطه في عسكره بالحيرة، يطلبون الصلح، فجاء صلوبا بن نسطونا بن بَصْبَهْرَى دهقان قس الناطف، وزاذ بن بُهَيْش دهقان فرات سرىا - وهؤلاء كانوا من العجم ولم يكونوا من العرب - فصالحوه على ما بين الفلاليح إلى هُرْمُز مجرد في جنوب كسكر بأطراف العراق على ٢٠٠٠٠ درهم وقيل على ١٠٠٠٠٠ رقيق، وأن للمسلمين ما كان لال كسرى من الخرزة. وقد وردت أكثر من رواية عن معاهدة الصلح مع تلك الجهات ولا نرى ما يمنع أن يكون خالد قد كتب معهم أكثر من معاهدة.

الأولى وهي صلح مع أهل قس الناطف^(١)

«بسم الله الرحمن الرحيم

١- هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، ومنزله بشاطئ الفرات .

٢- إني قد عاهدتكم على الجزية.

٣- والمنعة على كل ذى يد، بانقياء وبسما جميعاً (على حوالى ٨٠ - ٩٠ كيلو متراً من

الحيرة).

٤- على عشرة آلاف دينار سوى الخُرْزَة^(٢). القوى على قدر قدرته والمقل على قدر إقلاله في كل سنة.

٥- وأنت قد نقبت^(٣) على قومك وأن قومك قد رضوا بك . وقد قبلت ومن معي من المسلمين، ورضيت ورضى قومك . فلك الذمة والمنعة . فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم .

٦- شهد هشام بن الوليد (أخ خالد بن الوليد) والقعقاع بن عمرو وجريز بن عبد الله الحميري وحنظلة بن الربيع.

كتب سنة اثنتي عشرة في ربيع الأول^(٤).

والثانية عن بلدان أخرى مما بين دجلة والفرات.

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١- هذا كتاب من خالد بن الوليد لزايد بن بهيش واصلوبا^(٥) بن نسطونا

(١) جمعنا بنود هذه المعاهدة من الروايات الآتية:

الطبري ٣/٤، عن ابن حميد، عن سلمة، عن ابن اسحق، عن صالح بن كيسان.

الطبري ١٧/ ٤ س ش س، عن محمد بن عبد الله، عن أبي عثمان، عن ابن أبي بكسيف، وطلحة، عن المغيرة وسفيان، عن ماهان. وعن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن محمد، عن أبي عثمان وطلحة، عن المغيرة.

(٢) ما كانوا يؤدونه إلى كسرى، وكانت أربعة دراهم على كل رأس - (وفى رواية ابن اسحق أن خالداً صالحهم على ألف درهم).

(٣) نَقَبْتُ، أَي أَنْتَ نَقِيبٌ عَلَى قَوْمِكَ.

(٤) في الأصل شهر صفر. ولكننا نرى استحالة ذلك من حيث كان صلح الحيرة - وهو قبل هذا - في ربيع الأول. فضلاً عن أن فصح أمغيشيا كان وفق تقديركم في ٢٨ صفر، مما يتعذر معه أن يتسع شهر صفر

لأَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ .

(٥) في رواية البلاذري أنه بصبهري بن صلوبا - وفي رواية الطبري ٤ / ٣ أنه صلوبا السوادي، عن ابن اسحق.

السوادى ومنزله بشاطئ الفرات .

٢- إنك آمن بأمان الله وإن لكم الذمة .

٣- إذ حقن دمه بإعطاء الجزية فعليكم الجزية .

٤- وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البهقباد الأسفل والأوسط، وقد أعطيت عن نفسك وعن أهل خرجك وجزيرتك ومن كان في قريتيك بانقيا وباروسما . (وفى رواية، وأنتم ضامنون حرب من نقبتم عليه) .

٥- على ٢٠٠٠٠٠ ألف درهم^(١) تقبل في كل سنة . ثم كل ذى يد سوى ما على بانقيا وبسما .

٦- وأنكم قد أرضيتموني والمسلمين، وإنا قد أرضيناكم وأهل البهقباد الأسفل ومن دخل معكم من أهل البهقباد الأوسط .

٧- على أموالكم ليس فيها ما كان لآل كسرى ومن مال ميلهم عن المقام في داره فلم يدخل في الصلح .

٨- شهد هشام بن الوليد والقعقاع بن عمرو وجريز بن عبدالله الحميرى وبشير بن الخصاصية وحنظلة بن الربيع .

كتب في سنة اثنتى عشرة في ربيع الأول^(٢) .

هؤلاء الشهود رجال ذوى أقدار . فهشام أخو خالد والقعقاع نائب القائد العام في جيشه، وجريز الحميرى صحابى من الفرسان الكماة كان على قضاة في هذا الزحف منذ سار من اليمامة . وبشير كان اسمه زحم، فوفد على رسول الله ﷺ فأسماه بشيراً، وكانت امرأته جهدة فسمها النبي ليلى وقد روت عنه حديثين أو ثلاثة وكذلك روى بشير أحاديث . قال قتادة : «هاجر من بكر بن وائل أربعة رجال : رجلا من بنى سدوس، أسود بن عبدالله من أهل اليمامة وبشير بن الخصاصية، وعمرو بن تغلب من النمر بن قاسط، وفرات بن حيان من بنى

(١) فى الطبرى ٣/٤، عن ابن حميد، عن سلمة، عن ابن اسحق، عن صالح بن كيسان أن الجزية كانت تسعين ألف درهم على الخيرة والقرى التى صالح عليها ابن صلوبا .

(٢) البهقباد الأسفل خمسة طساسيج (نواحي)، فرات بادقلى والسيلىين وتستر وروذمستان وهرمزجرد، ويقال إن روذمستان وهرمزجرد ضياع متفرقة من طساسيج عدة (المسالك والممالك - ابن خرداذبة ٨) . والبهقباد الأوسط كورة من أربع طساسيج، الجبة والمداة، وسورادبريسما، وباروسما، ونهر الملك (ابن خرداذبة ٨ و ١١ - وقدامة بن جعفر ٢٣٦) .

عجل» . وسيأتى لبشير ذكر كثير مع الفتوح . وحنظلة بن الربيع من بنى نعيم، كتب للنبي ﷺ مرة كتاباً فسمى حنظلة الكاتب، وكانت الكتابة فى العرب قليلة، كان من الفرسان القادة وله رواية عن النبي، وقد أرسله إلى الطائف^(١) .

وفى أعماله بالخير كتب خالد^(٢) :

«... إني دعوتهم إلى الله وإلى رسوله فأبوا أن يجيبوا، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب، فقالوا: لا حاجة لنا بحربك، ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب فى إعطاء الجزية .

وإني نظرت فى عدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل، ثم ميزتهم (فرزتهم) فوجدت من كانت به زمانة (كبر فى السن) ألف رجل، فأخرجتهم من العدة، فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف، فصالحوني على ستين ألفاً، وشرطت عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على أهل التوراة والإنجيل ألا يخالفوا ولا يعينوا كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم ولا يدلوه على عورات المسلمين، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه، إن أخذه أشد ما أخذه على نبي من عهد أو ميثاق أو ذمة، وإن خالفوا فلا ذمة لهم، فإن فتح الله علينا فهم على ذمتهم، لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبي من عهد أو ميثاق وعليهم مثل ذلك ألا يخالفوا . وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام، فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم .

وأما عبد من عبيدهم أسلم أقيم فى أسواق المسلمين فبيع بأعلى ما يقدر عليهم فى غير وكس ولا تعجيل ودفع ثمنه إلى صاحبه .

ولهم كل ما لبسوا من الزى إلا زى الحرب من غير أن يتشبهوا بالمسلمين فى لباسهم . وأما رجل منهم وجد عليه شيء من زى الحرب سئل عن لبسه ذلك . فإن جاء منه بمخرج وإلا عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب .

وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه حتى يؤدوه إلى بيت المسلمين، عمالهم منهم . فإن طلبوا عوناً من المسلمين أعينوا به، ومؤنة القواد من بيت مال المسلمين» .

(١) الاستيعاب ٢٧٨/١ - الإصابة ١٨٥٩ .

(٢) عبقرية خالد ١٥٢ ولم يذكر المصدر ولا مناسبة الخطاب ولا المرسل إليه، ونعتقد أنه كان موجهاً إلى أبى بكر .

الحماية والجباية

بذلك انفتح للمسلمين ما وراء الحيرة وما وراء الفرات حتى شاطئ دجلة، وبدأ خالد يمارس سلطاته الجديدة الحربية منها والمدنية، فقد كان من مقتضى تلك المعاهدات القيام بأمرين، حماية المستفيدين من أهل الصلح ضد سلطان الفرس، وجباية الجزية منهم. ولذلك بعث خالد بعمال للجباية وبحاميات تحمي أهل الدمة. فكان:

١- عبدالله بن وثيمة النصرى، فنزل في أعلى العمل (شماله) بالفلاليج^(١) على المنعة (الحماية) وقبض الجزية.

٢- جرير بن عبدالله البجلي على بانيقيا وبسما^(٢).

٣- بشير بن الخصاصية على النهرين، فنزل الكوفة في بانبودا.

٤- سويد بن مقرن المزني على تَستَر^(٣) (شرقي دجلة) فنزل العقر فهي تعرف باسمه وتسمى عقر سويد إلى قرون بعدها.

٥- أظ بن أبي أظ (واسم أبيه سويد) إلى روزمستان، فنزل منزلاً على نهر سمي به ويقال له نهر أظ^(٤) إلى قرون بعدها.

هؤلاء الخمسة كانوا عمال خالد بن الوليد على خراج ما فتح من أرض العراق. أما أمراء الثغور الذين هم قواد الحاميات فكانوا:

١- ضرار بن الأزور الأسدي ببانيقيا^(٥).

(١) الفلاليج: جمع فلوحة، وهي القرية. وفلاليج السواد: قراها. والفلوحة الكبرى، والفلوحة الصغرى: قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر (معجم البلدان)، وفي الصحاح الفلوحة الأرض المصلحة للزروع.

(٢) فتوح البلدان ٦٠٧، عن أبي مسعود الكوفي، عن ابن مجالد، عن أبيه، عن الشعبي.

(٣) تستر: مدينة كبيرة ذات أسوار منيعة وأبراج بالأهواز، وكانت أعظم مدينة بخوزستان. ذكر بعض الرواة أن سويد بن مقرن المزني افتتحها عام ١٢ هـ من قبل خالد بن الوليد، وحين تحدث عنها ابن بطوطة في رحلته قال: «هي قديمة البناء افتتحها خالد بن الوليد». ولكننا بالنظر إلى موقعها وحصانيتها نستبعد أن يكون فتح تستر قد تم ضمن أعمال هذه الحملة، ونقطع بأنها لم تفتح إلا ضمن عمليات فتح الأهواز على ما سيأتي مفصلاً في موضعه إن شاء الله.

(٤) في الطبري ١٧/٤ أن أظ رجل من بني سعد بن زيد مناة، فهو على هذا من قميم. وفي الإصابة ٤٧٧ أنه رجل من بني سعد بن بكر، فهو على هذا من هوازن من قيس عيلان.

(٥) في فتوح البلدان ٦١٢، عن أبي عبيد، عن أبي مريم، عن السري بن يحيى، عن حميد بن هلال، قال لما نزل خالد الحيرة، قال ضرار بن الأزور:

أرقت ببانيقيا ومن يلق مثل ما لقيت ببانيقيا من الجرح يأرق

٢- ضرار بن الخطاب الفهري.

٣- المثني بن حارثة الشيباني تجاه المدائن.

٤- ضرار بن مقرن المزني.

٥- القعقاع بن عمرو التميمي.

٦- بسر بن أبي رهم الجهني.

٧- عتيبة بن النهاس العجلي.

كما أرسل عاصم بن عمرو على قوة إلى كربلاء.

وذكر ابن حجر العسقلاني أن ربيعة^(١) بن عتيك كان من أمراء خالد بن الوليد على الحيرة.

فنزلوا على السبب في عرض سلطانه. وأمرهم خالد أن يغيروا وأن يعمروا في أرض العراق إلى عمق كبير، فمخروا ما وراء الفرات حتى شاطئ دجلة. ولم يعد للعجم فيما بين الحيرة ودجلة أمر، وليست لأحد من أهل السواد ذمة إلا الذين كاتبوا خالداً وصاحوه. أما سائر^(٢) أهل السواد فهم واحد من ثلاث، محارب أو متحصن قد حبس نفسه في حصنه لا يخرج منه، وإما جلاء جلوا عن بلادهم فصاروا مهاجرين ولاجئين في أماكن أخرى.

هكذا، وقد استبقى خالد رؤوس الرسايق الذين صالحوه وضمنوا له جباية الجزية رهائن في يديه حتى يتم تحصيلها وتوريدها. وقد جبيت في خمسين ليلة، وتسلمها خالد فقوى بها المسلمون على أمورهم وصارت لهم «مالية». وكتب عمال الخراج براءات «إيصالات» من صورة واحدة لأهل الخراج.

«بسم الله الرحمن الرحيم»^(٣)

براءة لمن كان من كذا وكذا من الجزية التي صالحهم عليها الأمير خالد بن الوليد.

وقد قبضت الذي صالحهم عليه خالد.

(١) الإصابة ٢٦١٢.

(٢) الطبري ١٨/٤، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن محمد بن نويرة، عن أبي عثمان. س ش س، عن محمد بن عبد الله، عن أبي عثمان.

والهلب بن عقبة وزباد بن سرجس، عن سياه الأحمرى وسفيان الأحمرى، عن ماهان.

(٣) المصدر السابق.

وخالد والمسلمون لكم يد على من بدّل صلح خالد ما أقررتم بالجزية وكففتهم. أمانكم أمان وصلحكم صلح، نحن لكم على الوفاء.

شهود: هاشم بن الوليد، والقعقاع بن عمرو، وجابر بن طارق، وجريير ابن عبد الله، وبشير بن عبيد الله بن الخصاصية، وحنظلة بن الربيع، وأزداذ والحجاج بن ذى العنق ومالك بن زيد.

كما كتب^(١) أهل الحيرة كتاباً - تعزيزاً لذلك «إنا قد أدينا الجزية التي عاهدنا عليها خالد العبد الصالح، والمسلمون عباد الله الصالحون على أن ينعونا وأميرهم البغي (العدوان) من المسلمين وغيرهم».

استتب الأمر لخالد على ما فتح من أرض السواد عنوة أو صلحاً، ولكن مازال الفرس هناك فى عاصمتهم المدائن على ضفتي دجلة. ومات أردشير واختلف آله وساسة الفرس على الملك من بعده، غير أنهم جميعاً كانوا مجتمعين على حرب المسلمين الغزاة متساندين لذلك، وقد أنزلوا بهم جاذويه فى بهر سير على الضفة الغربية لدجلة جنوبى المدائن. كان بهم فى جيش كأنه مقدمة وكان معه فيه آزاذبه مرزيان الحيرة الهارب وأشباه له من مرازية السواد الهاربين.

رسائل إلى العجم

وأمر خالد^(٢) صلوبا فأحضر له رجلاً اسمه هز قيل. فأرسله برسالة إلى الفرس، كما أرسل رجلاً آخر من أهل الحيرة اسمه مرة برسالة أخرى. إحدى الرسالتين لملوك الفرس بالمدائن والثانية لمرازيته.

كتب فى الأولى:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس.

أما بعد. فالحمد لله الذى حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم. ولو لم يفعل ذلك

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبرى ٤/ ١٧ من ش س، عن محمد بن عبد الله، عن أبى عثمان، عن ابن أبى مكنف. وطلحة عن المغيرة، وسفيان عن ماهان.

وعن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن محمد، عن أبى عثمان وطلحة، عن المغيرة.

بكم كان شراً لكم.

فادخلوا فى أمرنا ندعكم وأرضكم ونحوزكم إلى غيركم. وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

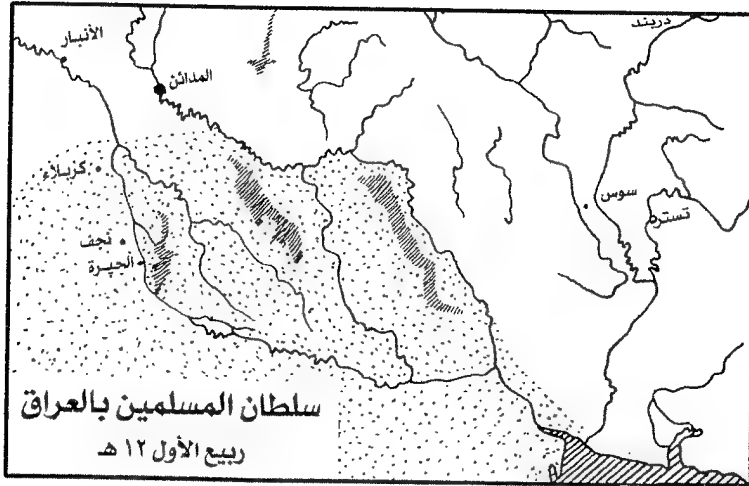
كان ذلك بعد ثورة شهر براز، وقتل أردشير الثالث، وهذا واضح من صيغة الرسالة. لم يوجهها إلى ملك مسمى باسمه، وهو يذكر فيها حل نظامهم ووهن كيدهم... (يرجع إلى الباب الرابع) كذلك انتهزها خالد فرصة لتوجيه رسالة مباشرة لمن هم دون الملوك.

وكتب فى الثانية:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد إلى مرازية فارس.

أما بعد. فأسلموا، تسلموا وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر».



خريطة رقم (١٧) - سلطان المسلمين بالعراق

ووجه خالد كل رسول وجهته وأمرهما أن يوافياه بالخبر.

وأقام^(١) خالد بالخير عاماً فجعلها قاعدته، يصعد منها ويصوب. فكان من بعث بشير بن سعد الأنصاري (والد النعمان بن بشير الأنصاري) إلى يانقيا، فلقيته خيل الأعاجم عليها فرخبنداذ وحمل عليهم بشير فهزمهم وقتل فرخبنداذ. ثم انصرف بشير وبه جراحة مات منها بعد ذلك.

وبلغ خالد أن جابان في جمع كبير بتستر، فوجه إليه المثنى بن حارثة الشيباني وحنظلة بن الربيع بن رياح الأسدي من بني قميم، فلما اقتربا منه انسحب إلى داخل البلاد، فلم يتبعاه.

هذا والفرس مشغولون في المدائن بخلع ملك وتولية آخر، فقد كان لديهم أزمة، ذلك أن شيرويه بن كسرى قتل كل من كان يناسبه إلى كسرى ابن قباذ (كسرى أنو شروان). ثم ثار الفرس بعده وبعد ابنه أردشير، فقتلوا كل من كان بين كسرى بن قباذ وبين بهرام جور. ثم بقوا بعد ذلك في أزمة ملوك لا يجدون من يملكونه عليهم من بيت ساسان. وكانوا حينذاك لا يملكون إلا الدفاع عن بهر سير فحسب حيث كان بها بهمن جاذويه في جيش كبير. ثم ولي الفرس فرخزاذ بن بندوان من غير بني ساسان من رجالات فارس إلى أن يجتمع آل كسرى على رجل إن وجدوه.

الباب العاشر

خالد يقوم بمهمة عياض

(١) الطبري ١٨/ ٤، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن عبدالعزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ابن الهذيل الكاهلي.

س ش س، عن عبدالعزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ابن الهذيل الكاهلي.

سنة نساء^(١)

تم كل ذلك لخالد، في زمن انحصر بين أواخر محرم ١٢ هـ إلى أوائل ربيع الأول من نفس العام، يعني في حوالي أربعين يوماً تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً. أنفذ المطلوب منه كأروع ما يكون الأداء، ولكنه أقام بعد ذلك بالحيرة ينتظر أن يفرغ عياض بن غنم من أمر دومة الجندل، وقد كانت أول موقع عليه أن يفرغ منه ثم يدخل العراق من شماله إلى الجنوب مبتدئاً بالمصيخ حتى يصل إلى الحيرة، فيبقى بها مؤخرة واحتياطياً لخالد وحامياً له حتى يقتحم المدائن. وما أسلم الخطة لولا أن أحد فكي الكماشة توقف ولم يطبق فاختلف التوقيت.

انتهى خالد مما وكل إليه بأسرع مما يتوقع إنسان. بينما أبطأ المطلوب من عياض عن كل ما توقع إنسان، وصمدت له دومة الجندل في أول طريقه إلى المصيخ فلم يفتحها. وأمر الخليفة صريح وواضح. ألا يقتحم المسلمون أرض العجم وخلفهم للفرس جنود وحصون. ولقد كان مازال للفرس بعين التمر عسكر وحصون وبالأنبار عسكر وحصون وبالفراض عسكر ثالث، تشكل جميعها خطراً على ميسرة ومؤخرة أى جيش يتقدم من الحيرة إلى داخل العراق. وسئم المسلمون بالعراق من طول ما انتظروا - ولعل خالدأ نفسه كان أكثرهم سأمًا ومللاً، فقد قال للمسلمين:

«لولا ما عهد إلى الخليفة لم أستنقذ عياضاً، وما كان دون فتح فارس شىء. إنها لسنة كأنها سنة^(٢) نساء!!»

إعاجلة تنظيم

إذ ذاك عزم خالد على أن يقوم بنفسه بعمل عياض. ويستلزم هذا أن يقوم بعمليات يفض

(١) الطبرى ١٩ / ٤، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن عمرو والجالد، عن الشعبي.

(٢) فرغ خالد من الحيرة وعقد صلحها وسائر الصلح مع الدهاقين في ربيع الأول، وسنرى فيما بعد أنه بلغ الفراض في رمضان، وكان قبلها قد فتح الأنبار وعين التمر ودومة الجندل وحصيد والحنافس والمصيخ والثني والزميل والرضاب. وإذن فقد تحرك إلى هذه العمليات على الأكثر في رجب. وحينئذ لا يكون قد أقام بالحيرة أكثر من أربعة أشهر وليس سنة. ولذلك نرى أن مقالة خالد هذه إنما كانت بعد ذلك بعد أن قام بعمل عياض، وكان ضيقه أن لم يزحف إلى المدائن، فاعتبرها، رغم كل ما قام به من عمله هو وعياض، أنها سنة نساء إذ لم يفتح المدائن.

بها حصون الفرس ويصفى قواتهم الواقعة على الفرات شمالي الحيرة. فأدخل خالد على تنظيم قواته وأمرائه على الثغور وعلى الجباية بعض التعديل - وكانت الجباية قد تمت. فقسم ما فتح من أرض العراق إلى أحد عشر قسماً، سبعة بالحيرة وأربعة بالأبلة، على كل قسم أمير من المسلمين.

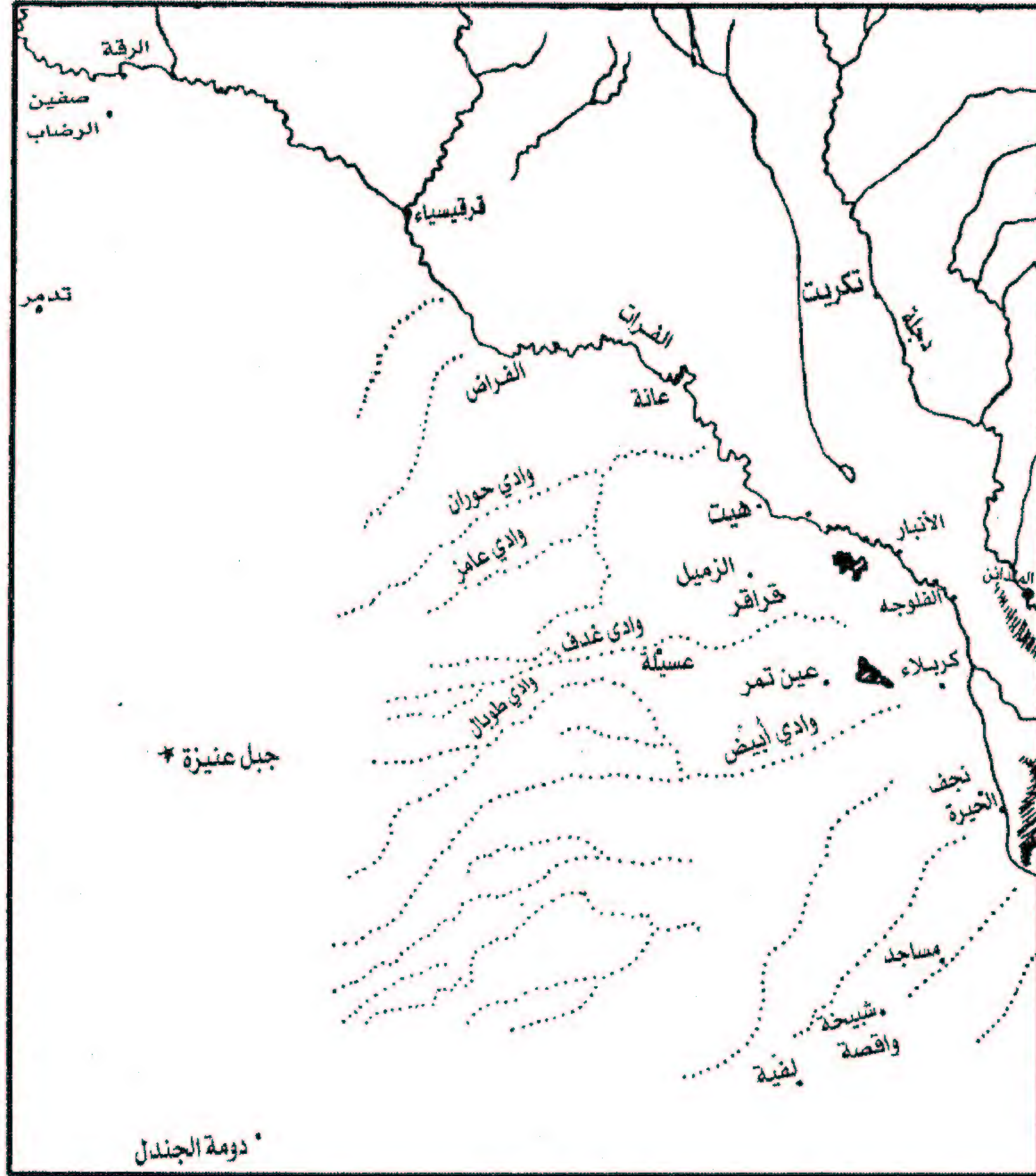
فكان أمراء الحيرة^(١):

- ١- جرير بن عبدالله الحميري.
- ٢- بشير بن الخصاصية.
- ٣- خالد بن الواشمة.
- ٤- الحجاج بن ذى العنق.
- ٥- أط بن أبي أط.
- ٦- سويد.
- ٧- ضرار.

وكان أمراء الأبلة:

- ١- سويد بن مقرن المزني.
- ٢- حسكة الحنظلي^(٢).
- ٣- الحصين بن أبي الحر.
- ٤- ربيعة بن عسل.

وطوال هذه المدة، قبل خروج خالد في عمل عياض، وبعد خروجه، لم يكف أمراء الثغور عن مناوشة العجم والإغارة على شتى جهات السواد حتى شواطئ دجلة، حتى يشغلهم دائماً، وحتى يغنموا منهم ما يستنزف مواردهم وما يتعيشون هم به.



خريطة رقم (١٨) - دومة الجندل

خالد يتحرك

استخلف خالد على الحيرة القعقاع بن عمرو التميمي - وكان يحتل مكانة الرجل الثاني في جيش خالد، أو نائب القائد العام - ثم خرج لإغاثة عياض وليقضى ما بينهما. كان عياض في دومة الجندل التي تقع في قلب الصحراء على مسافة تبعد حوالي خمسمائة كيلو متر إلى الجنوب الغربي، ولكننا نجد خالدًا يتجه شمالاً في طريق الفلوجة حتى نزل بكربلاء على حوالي مائة كيلو متر شمالي الحيرة، وكان على حاميتها يومذاك عاصم بن عمرو التميمي.

(١) الطبري ٤ / ١٩ س ش س، عن محمد بن عبدالله، عن أبي عثمان.

وطلحة عن المغيرة، والمهلب عن سياه، وسفيان عن ماهان.

(٢) في الطبري حسكة الحنظلي، وفي الإصابة الحنظلي، ونذهب إلى أنه الصواب حيث أننا لم نقف في قبائل العرب على ما يمكن أن ينسب إليه لفظ الحنظلي، وحنظلة كانت بطناً من تميم.

فلو أن خالداً اتجه نحو دومة الجندل مباشرة لترك ظهره في الحيرة مكشوفاً لأن يضربه العجم والعرب المواليون لهم من مسالحهم التي سبق ذكرها. كان خالد يعلم أن الخط المستقيم ليس دائماً أقصر الخطوط في الحرب. إنه تحرك لا يختلف في طبيعته عن تحركه المرغوب نحو المدائن. وهو ما يتلافى خالد أن يفعله في حين تكون قاعدته ومؤخرته في الحيرة مهددة غير آمنة. بذلك أمر الخليفة أبو بكر رضى الله عنه. ولذلك كان لابد من الفراغ من تلك المواقع الكائنة إلى الشمال قبل التحرك في أى اتجاه آخر.

إن الإنسان ليعجب اليوم من تلك النظرات الحربية التي هدى إليها رجل موفق مثل أبى بكر! لم يكن لديه أركان حرب يشيرون عليه ولم يدرس الحروب في كلية أو أكاديمية، ولم يكن بين يديه خرائط للعراق ينظر فيها ويرسم... لا شئ من هذا. ولكنه مع ذلك كان يضع لعلم الحرب أصولاً وقواعد وهو جالس على رمال المدينة في مسجد الرسول. ذلك الرجل الفذ، الأبيض الذى تخالطه الصفرة، الحسن القامة النحيل الأحنى، الخفيف العارضين الذى لا يستمسك إزاره يسترخى عن حقويه، الرقيق، العتيق، معروق الوجه، غائر العينين ناتئ الجبهة، عارى الأشاجع، (بارز عروق ظاهر الكف) الأقنى، حمش الساقين محوص الفخذين يخضب شعره بالحناء والكتم^(١).

تقدم^(٢) خالد شمالاً، وقد جعل على مقدمته الأقرع بن حابس التميمي. وكان أمير مقدمته قبل ذلك حتى فتح الحيرة المثنى بن حارثة الشيباني. غير أن المثنى الآن على ثغر متقدم من الثغور تجاه المدائن. ومن الآن فصاعداً سيكون الأقرع^(٣) هو قائد مقدمة خالد بن الوليد المتحركة بدلاً من المثنى الذى تولى قيادة المقدمة المتقدمة جداً للقاعدة الثابتة بالحيرة.

وأقام خالد بكرىلاء أياماً، لعله كان يستطلع أخبار عدوه وما أقبل عليه. وكان الذباب بكرىلاء كثيراً جداً ضايق المسلمين، فشكا عبد الله وثيمة النصرى ذلك إلى خالد، فقال له خالد:

(١) الطبرى ٤ / ٤٩، عن الحارث، عن ابن سعد، عن محمد بن عمر، عن شعيب، عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر، عن أبيه، عن عائشة.

الأقنى: الذى ارتفع وسط قصبتي أنفه وضاق منخاراه. حمش الساقين: دقيقهما. محوص الفخذين: نحيفا. والكتم: نبات يخضب منه الشعر ويصنع منه المدا.

(٢) الطبرى ٤ / ١٩ س ش س، عن أبى روق، عن شهدهم.

(٣) راجع ترجمة الأقرع بن حابس في آخر الكتاب.

«اصبر فإننى أريد أن استفرغ المسالح التى أمر بها عياض فنسكنها العرب، فتأمن جنود المسلمين أن يؤتوا من خلفهم، وتجيئنا العرب أمنة وغير متعتة (متردة) وبذلك أمرنا الخليفة، ورأيه يعدل نجدة الأمة».

ما أشد تقدير خالد لكفاءة أبى بكر العسكرية. وأيضاً ما أشد تقدير أبى بكر لكفاءة خالد.

وكدأب العرب نجد أخبارهم فى أشعارهم، فقد سجل الضيق من إقامة المسلمين وسط ذباب كرىلاء رجل من أشجع فقال:

لقد حبست فى كرىلاء مطيى
وفى العين حتى عاد غثاً سمينها
إذا رحلت من مبرك رجعت له
لعمر أبىها إننى لأهينها
وبينعها من ماء كل شريعة^(١)
رفاق من الذبان^(٢) زرق عيونها

(١) الشريعة: مورد الماء.

(٢) الذبان: كثير الذباب.

معركة الأنبار^(١)

٤ رجب ١٢ هـ - ١٤ سبتمبر (أيلول) ٦٣٣ م (تاريخ تقديرى)

خرج خالد من كربلاء نحو الأنبار على الشاطئ الشرقى للفرات على ١١٠ كيلو مترات شمالاً، وقد قدم أمامه مقدمته، وأميرها الأقرع بن حابس. فلما اقتربت المقدمة ونزلت المنزل الذى يسلمها إلى الأنبار ولدت^(٢) لقوم من المسلمين إبلهم، فلم يستطيعوا الإقامة ولم يجدوا بداً من الإقدام ومعهم بنات مخاض مولودات تتبعهم. فلما نودى بالرحيل صرّوا^(٣) الأمهات واحتملوا المولودات لأنها لم تنطق السير، فبلغوا الأنبار ركباناً وقد تحصن أهلها وخندقوا عليهم وأشرفوا من حصنهم.

كان شیرزاد حاكم ساباط هو قائدهم. وكان أعقلهم وأسودهم وأقنعهم، سواء فى العجم أو فى العرب المواليين لهم. فلما طلعت مقدمة خالد على الحصن تصايح العرب المتحصنون فيه وقالوا:

«صَبَّحَ الْأَنْبَارُ شَرْراً جَمَلٌ يَحْمِلُ جُمَيْلَةً وَحَمَلٌ تُرْبُهُ عَوْذٌ»

وسأل شیرزاد عن معنى ذلك الصياح فترجم له، قال:

«أما هؤلاء - يعنى عرب الحصن - فقد قضوا على أنفسهم، وذلك أن القوم إذا قضوا على أنفسهم قضاء، كاد يلزمهم. والله لئن لم يكن خالد مجتازاً (يجتازه ويمشى معه) لأصالحنه».

(١) الطبرى ٢٠ / ٤ س ش س، عن محمد وطلحة وأصحابهما

قال ابن خرداذبه: إن كورة العالى كانت أربعة طساسيج (نواحي): الأنبار ومسكن وقطربل وبادوريا (المسالك والممالك ٧)، وكذلك ذكر قدامة بن جعفر فى الخراج وصنعة الكتابة، ص ٢٣٥.

(٢) تلد الإبل فى شهر سبتمبر (أيلول). ومن هنا أقتنا ميقات الأنبار. ويطابق ذلك بلوغ خالد إلى الفراض فى رمضان نوفمبر (تشرين الثانى) بعد ثمانية مواقع، ويؤيد ما ذهبنا إليه أيضاً، ما جاء فى أبيات عاصم بن عمرو، من أنهم انتظروا حتى رأوا حصاد الزرع، ونعتقد أنه كان يعنى حصاد القمح. يقول عاصم:

لزمنا جانب اللطاط حتى رأينا الزرع يجمع بالحصاد

اللطاط: ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذى يلى الكوفة.

(٣) صرّ الناقة: شد عليها الصرار، وهو خيط يشد فوق الخلف والتودية لئلا يرضعها ولدها.

المعركة

ثم أقبل خالد، فأطاف بالخندق، ثم أسرع فأنشب القتال، وكان دائماً سريعاً إليه قليل الصبر عنه إذا رآه أو سمع به. تقدم خالد إلى رماته فأوصاهم وقال لهم:

«إنى أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب، فارموا عيونهم لا توخّوا غيرها، فارموا رشقاً واحداً ثم تابعوا».

واصطف الرماة صفّاً، وقد وضعوا سهامهم فى أوتار أقواسهم وشدوها إلى صدورهم بأيمانهم فى وضع استعداد. ثم صدر الأمر فانطلقت السهام كثيفة كسرب من الطير فى نزاع واحد سريعة إلى أهدافها فوق رؤوس جدران الحصن ولها أزيز. ثم تتابع الرمى.

ففقئ ألف عين من أهل الحصن يومئذ، ولذلك سميت تلك الموقعة ذات العيون. وتصايح أهل الحصن وقد شملتهم الفوضى وشغلوا بمن أصيب وقالوا:

«ذهبت عيون أهل الأنبار»

فسأل شیرزاد عما يقولون فترجموه له فصاح بالفارسية «آباد آباد». ثم راسل خالد فى الصلح على أمر - لم تذكره المصادر - ولم يرضه خالد، فرد الرسل.

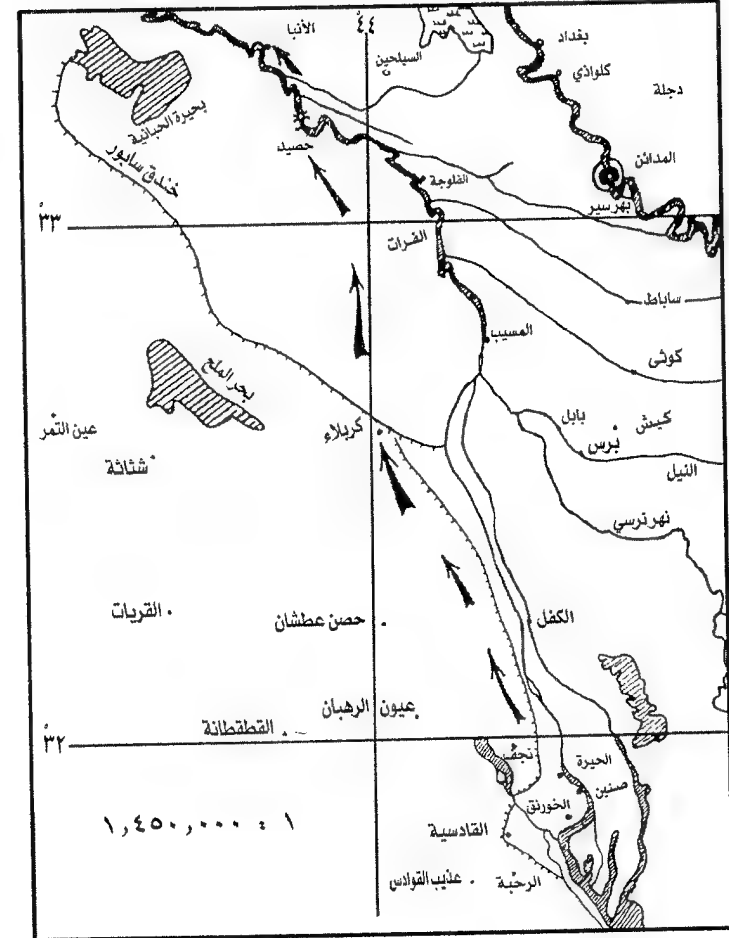
استسلام

وجاء خالد على أضيّق مكان بالخندق، وأتى برزايا الجيش من الإبل العجاف فنحرها ثم رمى بها فيه، فملأه وصنع منها جسوراً اقتحم عليها الخندق واجتمع المسلمون وأعداءهم فى الخندق وانحاز القوم إلى حصنهم، فأرسل شیرزاد إلى خالد بقبول شروطه فى الصلح على أن يخليه ويبلغه مأمنه فى تجريدة خيل ليس معهم من المتاع والأموال شىء، وقبل خالد.

خرج شیرزاد من الأنبار إلى المدائن، فلما قدم على بهمن جاذويه لأمه على استسلامه فشرح له شیرزاد الأمر، وقال:

«إنى كنت فى قوم ليست لهم عقول وأصلهم من العرب - وكان الفرس يحتقرون العرب - فسمعتهم مقدمهم علينا يقضون على أنفسهم، وقلما قضى قوم على أنفسهم قضاء إلا وجب عليهم. ثم قاتلهم الجند ففقؤا فيهم وفى أهل الأرض ألف عين، فعرفت أن المسألة أسلم».

ولما اطمأن خالد والمسلمون، وأمن أهل الأنبار وظهروا، رأهم يكتبون العربية ويتعلمونها. فسألهم خالد عن أنفسهم، فقالوا إنهم قوم من العرب نزلوا على قوم من العرب سبقوهم إلى هناك أيام بختنصر حين أباح العرب ثم بقوا بها. قال: «من تعلمتم الكتاب؟» قالوا: «تعلمنا الخط من إباد» (قبيلة عربية سكنت الجزيرة بشمال العراق).



خريطة رقم (١٩) - فتح الأنبار

وصالح خالد من حول الأنبار وبدأ بأهل البوازيج. كما بعث إليه أهل كلواذى^(١) على الشاطئ الشرقي لدجلة شمالي المدائن بحوالي ٢٥ كيلو متراً ليعقد لهم ذمة، فكاتبهم على ذلك وكانوا عيبته من وراء دجلة. هذا وقد نقض أهل الأنبار وما حولها عهدهم بعد ذلك فيما كان يحدث بين المسلمين والمجوس من تداول السيطرة مرة لهؤلاء ومرة لهؤلاء على تلك المناطق، ما عدا أهل البوازيج فإنهم ثبتوا كما ثبت أهل بانقيا.

(١) كلواذى: بالقرب من الأنبار من البوازيج، وهي قرب بغداد، وناحية الجانب الشرقي من جانبها، وناحية الجانب الغربي من نهر بوق، وهي الآن (في عصر ياقوت الحموي - توفي ٦٢٧هـ)، خراب أثرها باق بينها وبين بغداد فرسخ واحد للمنحدر - معجم البلدان.

عين التمر

١١ رجب ١١٢ هـ - ٢١ سبتمبر (أيلول) ٦٣٣ م. (تاريخ تقديرى)

عجم خبثاء وعرب عملاء

لما فرغ خالد من الأنبار واستتب له الأمر فيها وفيما حولها، استخلف عليها الزبرقان بن بدر التميمي. ثم اتجه نحو عين التمر، وهي حصن بالصحراء اجتمع به مهران بن بهرام جوبين في جمع كبير من العجم، وعقّة بن أبي عقّة^(١) - وكان أحقق مغروراً - في جمع كبير من العرب من قبائل النمر^(٢) وتغلب وإياد ومن اجتمع إليهم.

وسمعوا باقتراب خالد. قال عقّة لمهران:

«إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالدًا».

ووافق هذا هوى مهران فانتهزها وقال:

«صدقت! لعمرى لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم مثلنا في قتال العجم... دونكموهم (يعني نتركهم لكم) وإن احتجتم إلينا أعناكم».

فلما مضى عقّة نحو خالد قال العجم لمهران:

«ما حملك من أن تقول هذا القول لهذا الكلب؟»

قال: «دعوني، فإنني لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم. إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وفلّ حدكم، فاتقيته بهم. فإن كانت لهم على خالد فهي لكم، وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يهتوا، فنقاتلهم ونحن أقوىاء وهم ضعفاء».

فوافقوه على ذلك واعترفوا له بفضل الرأي.

(١) الطبري ٤ / ٢١ س ش س، عن محمد وطلحة والمهلب وزباد.

وعين التمر كانت من كورة بهقباذ الأعلى وهي ستة طساسيج (نواحي) وهي: بابل وخطرية والفلوجة العليا والفلوجة السفلى والنهرين وعين التمر. (ابن خردادبه ٨ وقدامة بن جعفر ٢٣٦)، وكان هناك طريق من عين التمر إلى بصرى بالشام (ابن خردادبه ٩٧)، ولا تزال أطلال حصن عين التمر باقية، وقد أطلق عليه فيما بعد قصر الأخيضر (الفتح العربي للعراق والجزيرة ١١٣). وقد أخذنا موقعها على الخريطة من خريطة العراق الأثرية.

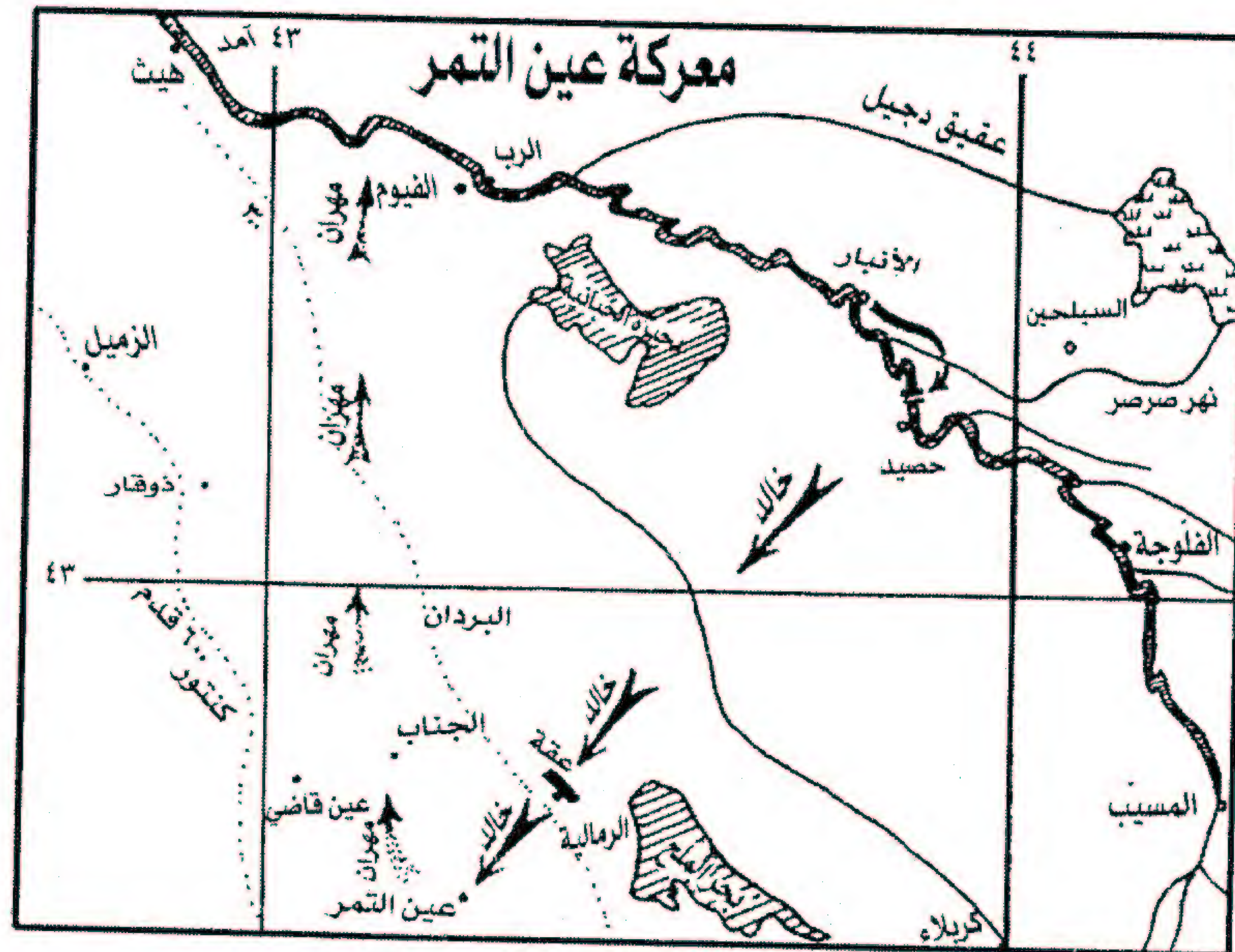
(٢) في فتوح البلدان ٦١٩، أنه عقّة بن القيس بن البشر النمرى.

المعركة

بقى مهران مع الأعاجم في الحصن بعين التمر. وتقدم عقّة بالعرب فنزل لخالد على طريق الكرخ (كرخ بغداد - وهو الطريق إلى بغداد) كالحفير للعجم. وقد جعل على يمينته بجير بن فلان أحد بني عبيد بن سعد بن زهير، وعلى يسارته الهذيل بن عمران. وكانت بين عقّة وبين مهران روحة أو غدوة (نصف يوم أى حوالي ٢٢ كيلو متراً) وربما كان ذلك بالمكان المعروف بالرمالية أو قريباً منه. وقدم خالد فوجد عقّة على تعبئة، فعبأ جنده وقال لمجنبيه:

«اكفونا ما عنده فإنني حامل عليه».

ووكّل بنفسه حماة يحمون ظهره ثم نظر فوجد عقّة يقيم صفوفه. وتقدم له خالد ثم فاجأه بما لم يكن في حسبان، لم يبارزه ولم يقاتله، وإنما هجم عليه فاحتضنه ثم حمّله وعاد به أسيراً. ولم يفاجأ عقّة وحده بل فوجئت جميع قواته فولت الأدبار منهزمة من غير قتال. حينئذ هجم المسلمون عليهم يقبضون عليهم فأكثروا فيهم الأسر. وفر بجير والهذيل قائدا الميمنة والميسرة، واتبعهم المسلمون يقتلون منهم ويأسرون.



خريطة رقم (٢٠) - سقوط عين التمر

وبذلك فشلت خطة مهران . فقد تبدد العرب المواليون له وانتصر المسلمون ولم يفقدوا واحداً من جنودهم . وجاءت هذه الأخبار إلى مهران في حصنه ففتت في عضده وأثرت في معنويته فآثر الهرب وانسحب في جنده تاركين حصن عين التمر . وأغلب ظننا أنه انسحب شمالاً حتى عبر الفرات وانضم إلى قاعدته . فإنه بطبيعة الحال لم ينسحب إلى الطريق الذي جاء منه خالد ، ولم يكن لينسحب في اتجاه كربلاء وفيها عاصم بن عمرو بحامية من المسلمين ، كما أننا لم نجد له ولا لقواته ذكراً في المعارك التالية في المصيخ والثني والزميل .

وجاءت فلول عقة فدخلت الحصن الخاوي واعتصمت به . وجاء وراءهم خالد والمسلمون ، ونزل خارج الحصن وعقة أسير معه ورجل آخر من كبارهم اسمه عمر بن الصعق . وقد ظن أهل الحصن أن يكون خالد كمن كان قبله من يغير من العرب وينصرف - فكذلك كانت حروبهم من قبل - فلما رأوا أنه يحاولهم ويريدهم سألوه الأمان ، ولكن خالداً كان يريد تطهير المنطقة تماماً ليتجه إلى دومة الجندل وكيف يأمنهم على ظهره إذا آمنهم ، فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه دون قيد أو شرط . فاستسلموا للأمر الواقع وفتحوا له الحصن فقبض عليهم أجمعين . ثم أمر فضربت عنق عقة وألقاه على الجسر . ورأى الأسرى جثته فيثسوا من الحياة . ثم أمر بعمر بن الصعق فضربت عنقه أيضاً . ثم تتابع على ذلك فضرِب أعناق أهل الحصن أجمعين وسبى كل من حوى الحصن وغنم ما فيه . ووجد في كنيسهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل ، عليهم باب مغلق فكسره عنهم وأجابوه بأنهم رهائن فاعتبرهم خالد من السبى وقسمهم في أهل البلاء^(١) .

واستشهد بعين التمر بشير^(٢) بن سعد الأنصاري ، انتقض جرحه الذي ذكرنا أنه جرحه في بانقيا في التحامه مع فرخنداذ فمات ودفن بعين التمر ودفن إلى جانبه عمير بن رثاب (بن مهشم بن سعيد بن سهم بن عمرو) وكان أصابه سهم بعين التمر فاستشهد .

لعلنا نذكر الوليد بن عقبة حين بعثه خالد بأخماس الأبله إلى أبي بكر . حينذاك وجهه

(١) كان منهم أبو زياد مولى ثقيف ، ونصير أبو موسى بن نصير صاحب المغرب ، وسيرين أبو محمد بن سيرين ، وعلاثة ، وقد صار إلى المعنى بن حارثة ، وحريث ، وكان لرجل من بني عباد . وحميران بن أبان بن خالد النمري ، وحميران مولى عثمان ، وكان للمسيب بن نجبة الفزاري فاشتراه منه فأعتقه ، وأبو عمرة جد عبدالله بن عبد الأعلى الشاعر . ويسار جد محمد بن اسحق صاحب السيرة وهو مولى قيس بن مخزومة بن المطلب بن عبد مناف ، ومرة أبو عبيد ، جد محمد بن زيد بن عبيد بن مرة ، ونفيس بن محمد بن زيد بن عبيد بن مرة صاحب القصر عند الحرة ، وأبو فروة عبدالرحمن بن الأسود ، وقيل ذلك لفروة كانت عليه حين سبى ، وقيل كان ولاؤه ونصير أبي موسى لبني ضبة (الطبري والبلاذري) .

(٢) ترجمة بشير بن سعد الأنصاري في آخر الكتاب .

أبو بكر إلى عياض^(١) مدداً له ، فقدم الوليد إلى دومة الجندل وعياض محاصرها وأهلها محاصروه وقد أخذوا عليه الطريق فأتعبهم وأتعبوه . قال له الوليد :

«الرأى في بعض الحالات خير من جند كثيف . . ابعث إلى خالد فاستعن به» .

وأخذ عياض بمشورة الوليد فأرسل إلى خالد . وجاء رسول عياض إلى خالد فور فراغه من عين التمر^(٢) ، فكتب من قوره إلى عياض :

«من خالد إلى عياض . إياك أريد

لبث قليلاً تأتاك الجلائب^(٣) يحملن أساداً عليها القاشب^(٤)

كتائب يتبعها كتائب

(١) انظر ترجمة عياض بن غنم في آخر الكتاب .

(٢) الطبري ٤ / ٢٢ س ش س ، عن محمد وطلحة وأبى سفيان طلحة بن عبدالرحمن والمهلب ابن عقبة .

(٣) الجلائب : الخيل . وفي مختار الصحاح جلب على خيله صاح من خلفه واستحثه للسبق . وقرئت أيضاً

الجلائب : جمع حلبة ، وهي خيل السباق تجمع من كل أوب وناحية لا من اسطبل واحد .

(٤) القاشب : السيف الصقيل الخجلو .

فتح دومة الجندل^(١)

٢٤ رجب ١٢هـ - ٤ أكتوبر (تشرين الأول) ٦٣٣م

السير إلى دومة الجندل

فرغ خالد من عين التمر فاستخلف عليها عويم بن الكاهل الأسلمي. وخرج في تعبته التي كان عليها وعلى مقدمته الأقرع بن حابس التميمي. وسبقت الأخبار خالداً فعلم أهل دومة أنه يسير إليهم، وقد اجتمع بدومة قبائل من كلب وبهراء عليهم وديعة الكلبي ويسانده ابن وبرة بن رومانس، والضجاعم عليهم ابن الحدرجان، وطوائف من غسان وتنوخ عليهم ابن الأيهم. وقد أرسلوا إلى أحزابهم ليأتوهم بأمداد جديدة. كانت دومة الجندل موقعاً حصيناً بين المدينة ودمشق، وكان بها من المباني العظيمة حصن مارد الذي كان للسموئل بن عاديا، وكان مبنياً من حجارة سود نحسبها من البازلت. وكان للسموئل حصن آخر بتيماء هو المعروف بالأبلق الفرد، وكان من حجارة سود وبيض وفيهما قالت الزبباء: «تمرد مارد وعز الأبلق». وكان لدومة الجندل أهمية كبرى تحتم العمل على الاستيلاء عليها، فقد كانت جزيرة العرب تقع إلى جنوبها في حين كان للمسلمين جيوش في العراق وفي الشام، وكانت دومة الجندل عند ملتقى الطرق إلى الجهات الثلاث، وكانت على ثلاث عشرة مرحلة من المدينة وعلى عشر مراحل من الكوفة وعلى عشر مراحل من دمشق^(٢).

وكان على أهل دومة الجندل رئيسان: أحدهما أكيدر بن عبد الملك، والثاني الجودي بن ربيعة. فلما بلغهم سير خالد إليهم اختلفوا. قال أكيدر:

«أنا أعلم الناس بخالد. لا أحد أئمن طائراً منه ولا أحد في حرب. ولا يرى قوم وجه خالد أبداً، قتلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه. فأطيعوني وصالحوا القوم».

ولا شك أن هذا الرأي كان عين العقل ولكنهم أبوا. وكان أكيدر مقتنعاً بما يقول واثقاً به، فقد كان له مع خالد تجربة سابقة حين أرسل الرسول خالداً من تبوك إلى دومة الجندل، فعاد

(١) الطبري ٢٢/٤ س ش س، عن محمد وطلحة وأبي سفيان طلحة بن عبد الرحمن، والمهلب ابن عقبة. والتاريخ تقديري بين ما كان قبل ذلك من أحداث، وما كان بعد.

(٢) المسالك والممالك - ابن خردادبه ١٢٩.

بأكيدر أسيراً بعد أن قتل أخاه حسان بن عبد الملك. أبى أكيدر أن يمالىء قومه على حرب خالد فتركهم وشأنهم وخرج يريد الرجوع إلى موطنه. كان موطنه الأصلي دومة العراق بالقرب من عين التمر فكانه سلك طريقاً قريباً من الطريق الذي يجيء منه خالد. ومن الأمور العجيبة التي تستوقف النظر أن يعلم خالد بذلك وهو بالطريق، فبعث عاصم بن عمرو ليعترض طريق أكيدر فأسره عاصم. قال له أكيدر: «إنما تلقيت^(١) الأمير خالداً».

فلما أتى به لم يقبل منه خالد وأمر به فضربت عنقه وأخذ ما كان معه. ومضى خالد إلى دومة الجندل، وكان رؤساء أهلها:

١- الجودي بن ربيعة.

٢- وديعة الكلبي. - على كلب وبهراء.

٣- ابن رومانس الكلبي. - على كلب وبهراء.

٤- ابن الأيهم على غسان وتنوخ.

٥- ابن الحدرجان على الضجاعم.

وكانت الأمداد كثيرة العدد من النصارى فلم يحتملهم الحصن بالإضافة إلى أهله فبقوا خارجه محيطين به.

تميم تجير كلباً

ولما اطمأن خالد من رحلته خرج أهل دومة الجندل وحلفاءهم لقتال المسلمين. وزحف الجودي ووديعة نحو خالد بينما زحف الحدرجان وابن الأيهم إلى عياض، واقتتلوا جميعاً. وانتصر خالد على الجودي وأخذه أخذاً فأسره. كذلك أخذ الأقرع بن حابس وديعة، ولجأت سائر كلب إلى الحصن منهزمة فدخله بعضهم حتى امتلأ بهم، ثم لم يحتمل الباقين فأغلق من في داخل الحصن أبوابه دون من هم بخارجه فبقوا بالعراء، وأقبلت سيوف المسلمين تحصدهم. وكانت تميم وكلب حلفاء في الجاهلية، فصاح عاصم بن عمرو التميمي: «يا بني تميم.. حلفاءكم كلب.. آسروهم وأجيروهم فإنكم لا تقدرون لهم على مثلها» ففعلوا. وكانت وصية عاصم لقومه سبب نجاة بني كلب يومئذ.

كذلك هزم عياض من خرج إليه. وأمعن المسلمون فيهم قتلاً. وشدد خالد هجومه على

(١) خرجت لاستقباله.

الذين لجؤوا إلى الحصن، فأكثر القتل فيهم حتى سد بهم باب الحصن. وأتى بالجودي فضرب عنقه ثم باقى الأسرى فضرب أعناقهم إلا أسرى كلب الذين أجارهم عاصم والأقرع وبنو تميم فأطلقهم خالد وهو يقول: «ما لى ولكم؟ تحفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام؟» فأجابه عاصم: «لا تحسدهم العافية ولا يحوزهم الشيطان».

سقوط الحصن

وفرغ خالد ممن كان خارج الحصن وواصل هجومه على بابه حتى اقتلعه واقتحمه على من فيه. فقتلوا المقاتلين وسبوا الشُّرَحَ (١) (الشباب). ثم أقام مزاداً علنياً لبيعهم لمن يريد. فاشتري خالد ابنة الجودي وكانت مشهورة بجمالها موصوفة به. ثم رد خالد الأقرع بن حابس إلى مقدمته فى العراق، بينما أقام هو فى دومة الجندل أياماً قبل أن يرجع إلى الحيرة، وفى عزمه وقد فرغ من عمل عياض كله أن يزحف إلى المدائن.

ومن استشهد من المسلمين فى فتح دومة الجندل نافع بن غيلان بن سلمة الثقفى الذى أسلم مع أبيه وإخوته يوم فتح الطائف، فرثاه أبوه بأبيات (٢) كثيرة منها:

ما بال عيني لا تغمض ساعة
يا نافع من للفوارس أحجمت
لو أستطيع جعلت منى نافعاً
عن شدة مذكورة وتعانى
إلا اعترتنى عبرة تغشاني
بين اللهاة وبين عقد لسانى

وقد عوتب أبوه على كثرة بكائه عليه فقال: «دعوني أبكى فسينفد دمعى».

جشوة محادية بالعراق

ولاحظ الفرس غياب خالد بجانب من جيشه من العراق وظنوا به الظنون. وكان عرب الجزيرة قد كاتبوهم غضباً لما أصاب عقبة فى عين التمر، وقد أصبح لهم جميعاً مصلحة مشتركة فى النيل من المسلمين. وخرج جيش فارسى من بغداد - وكانت قرية شمالى المدائن - يريد الأنبار. هذا الجيش كان عليه زرمهر ومعه روزبة. فاتجه روزبة إلى حصيد واتجه زرمهر إلى الخنافس. وكان الزبرقان بن بدر عامل خالد على الأنبار منتبهاً إلى ما يحدث فكتب به إلى القعقاع، وهو يومئذ خليفة خالد بالحيرة.

(١) الشارح: الشاب، والجمع شرخ. وفى الحديث «أقتلوا شيوخ المشركين واستحيوا شرخهم» - مختار الصحاح.
(٢) الاستيعاب ٣/ ١٨٧ - ٥١١ - الإصابة ٢٩٢٦ - ٨٨٦٥.

القعقاع يتحرك

كان القعقاع من مدرسة خالد فى الحرب ولا بد أن يكون قد تأثر بمزاملته فى معارك العراق السابقة واصطبغ بصبغة خالد كثيراً. فما أن بلغ القعقاع خبر التحرك الجديد للمجوس حتى بعث أعبد بن فدكى (١) السعدى إلى الحصيد كما بعث عروة بن الجعد البارقى (٢) إلى الخنافس، ومنحهما حرية التصرف إن وجدا إلى ذلك سبيلاً وكان أمره لهما: «إن رأيتما مقدماً فأقدما». فخرجا من الحيرة سراعاً فحالا بين زرمهر وروزبة وبين مقصديهما وأغلقا عليهما الطريق. ولما رأى الفرس ذلك لم يبادروا إلى القتال وإنما انتظروا اجتماع من كاتبهم من عرب ربيعة. وهنا نجد مثلاً حياً لسرعة المسلمين فى اتخاذ قراراتهم وفى تحركهم لتنفيذها وتباطؤ الفرس ومن مالأهم من العرب. فمنذ خروج الفرس من بغداد بلغ خبرهم إلى الزبرقان بالأنبار ثم إلى القعقاع بالحيرة، يعنى أن الخبر قطع أكثر من ٢٥٠ كيلو متراً، فأرسل القعقاع أعبد وعروة إلى مواقع تبعد أكثر من ١٧٠ كيلو متراً، كل هذا ولما يبلغ الفرس الأنبار النى تبعد عن بغداد أقل من خمسين كيلو متراً.

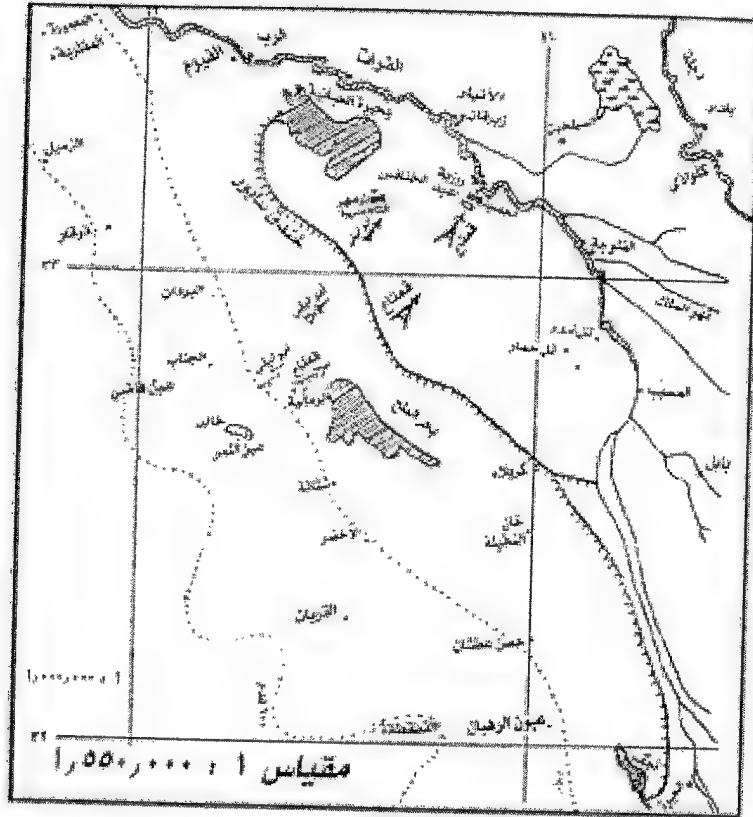
خالد يعود

ورجع خالد من دومة الجندل إلى الحيرة على الظهر (وهو طريق الصحراء إلى الكوفة) ومعه عياض بن غنم وجيشه. وقدم له القعقاع تقديراً للموقف. وكره خالد أن يتقدم إلى المدائن لما فى ذلك من مخالفة لأصول الحرب ومخالفة لأوامر أبى بكر. فإن التحرك الجديد للبعجم يجعل لهم قوة تهدده إذا تورط بالتقدم نحو المدائن. ولذلك قرر خالد أن يصفى هذا الموقف الجديد أولاً.

بعث خالد القعقاع بن عمرو التميمى وأبا ليلى بن فدكى السعدى إلى روزبة وإلى زرمهر فسبقاه إلى عين التمر. وفى نفس الوقت كان نصارى العرب المواليون للفرس قد تجمعوا وتحركوا، فعسكر الهذيل بن عمران بالمصيخ، وعسكر ربيعة بن بجير بالثنى والبشر يريدان الالتقاء بزرمهر وروزبة. وكتب امرؤ القيس (٣) الكلبى بذلك إلى خالد.

(١) أعبد بن فدكى بن المنقرى، كان أبوه فارس بنى سعد.
(٢) عروة بن الجعد، هو الذى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة»، وكان محباً للخيل. قال شبيب بن غرقدة: «رأيت فى دار عروة بن الجعد ستين (وفى رواية سبعين) فرساً مربوطة». واستخدمه عمر لقضاء الكوفة... الاستيعاب ٣/ ١١١ - الإصابة ٥٥٢٠.
(٣) لا ندرى من هو. وهو من مخابرات المسلمين.

استخلف خالد على الخيرة عياض بن غنم. وهو اختيار موفق يصادف محله. فإن عياضاً وجيشه وفدوا حديثاً على العراق، وكان من الطبيعي أن يلزمهم بعض الوقت حتى يعرفوا أرضه وأهله ويدرسوه، كما كان من الأوفق أن يصادم خالد الفرس بمقاتلين قاتلوهم من قبل وهزمهم مراراً وتكراراً ولهم عليهم جرأة. وخرج خالد وقد جعل على مقدمته الأقرع بن حابس، كما كان، فسلك نفس طريق القعقاع وأبى ليلي حتى قدم عليهم بعين التمر فجعلها قاعدة له. ثم بعث القعقاع إلى الحصيد وفيها روزبة. وجعل القعقاع أميراً على الفرقتين، كما بعث أبا ليلي بن فذكى إلى الخنافس وفيها زرمهر، وطلب منهما أن يستدرجا الفرس ليجتمعوا جميعاً مع العرب المواليين لهم إذا أمكنهم ذلك وإلا فليقاتلهم. لقد كان خروج تلك القوات المجوسية من بغداد - كما ذكر الرواة - تحركاً موجهاً ضد الأنبار. ولكننا لا نجد منها هجوماً على الأنبار، وإنما نجدها تعبر الفرات وتربط على شاطئه الغربي وفي صحراء العراق. وليس لدينا الآن مبرر من الروايات لذلك، ولا نعتقد أن ذلك كان إلا بغرض من اثنين. الأول: أنه كان بقصد ضرب حصار حول الأنبار والوقوف على طريق أى مدد من جيش خالد حتى تهاجمها قوات أخرى من العجم أو من عرب الجزيرة، والثاني: أن ذلك التحرك كان بقصد الالتقاء مع حلفائهم من نصارى العرب الذين كاتبوهم واتفقوا معهم، ونحن نرجح هذا الفرض الأخير. ولقد بنى خالد خطته على استدراجهم جميعاً إلى الاجتماع في معركة واحدة. ولكن كلا من المجوس العجم والنصارى العرب أبوا إلا المقام كل في مكانه، ونحسب ذلك لم يكن عن خطة وإنما كان عن خوف وجبن.



خريطة رقم (٢١) - الحصيد والخنافس

حصيد^(١)

١٠ شعبان ١٢هـ - ٩ أكتوبر (تشرين الأول) ٦٣٣م

لما رأى القعقاع أن زرمهر وروزية لا يتحركان سار نحو حصيد، وكان قد قدم إليها أعبد بن فدكى قبل رجوع خالد من دومة الجندل. ولما رأى روزية أن القعقاع قاصد إليه استغاث بزرمهر، فأمدته بنفسه، واستخلف مهبوذان على عسكره. والتقوا في حصيد فاقتتلوا وانتصر المسلمون وقتلوا من المجوس عدداً كبيراً (لم تحدد المصادر). وقتل القعقاع زرمهر، وقتل عصمة بن عبدالله الضبي (أحد بني الحارث بن طريف) روزية. وكان عصمة من البررة^(٢). وغنم المسلمون يوم حصيد غنائم كثيرة. ولجأت فلول حصيد إلى الخنافس فاجتمعوا مع من بها. وقال القعقاع^(٣):

ألا أبلغا أسماء أن حليلها قضى وطراً من روزمهر الأعاجم
غداة صبحنا في حصيد جموعهم بهندية تفرى فراخ الجماجم

الخنافس^(١)

١١ شعبان ١٢هـ - ١٠ أكتوبر (تشرين الأول) ٦٣٣م

كان عروة بن الجعد البارقي قد سيره القعقاع إلى الخنافس قبل رجوع خالد إلى الحيرة، فلما رجع خالد أرسل إليها أبا ليلى بن فدكى، وسار أبو ليلى بمن معه ومن قدم عليه نحو الخنافس وقد لجأت إليها فلول حصيد. وكان لوصولهم إلى الخنافس أثر سيء على نفسيات من بها. فملكهم الرعب حتى أن مهبوذان ومن معه خرجوا فراراً إلى المصيخ وبه الهذيل بن عمران. ودخل أبو ليلى الخنافس دون قتال. وبعث المسلمون إلى خالد في عين التمر بخبر حصيد وخبر الخنافس. وفي الخنافس^(٢) قال أبو ليلى بن فدكى السعدي:

وقالوا ما تريد؟ فقلت أرمى جموعاً بالخنافس بالخيول
فدونكمو الخيول فأجموها إلى قوم بأسفل ذى أنول
فلما أن أحسوا ما تولوا ولم يغررهموا ضبح الغيول
وفينا بالخنافس باقيات لمهبوذان في جنح الأصيل

(١) الطبري ٤ / ٢٤ ش ش س، عن محمد وطلحة والمهلب.

والتاريخ اجتهدى تقديرى. والحصيد واد بين الكوفة والشام (معجم البلدان).

(٢) كل فخذ هاجرت بأسرها تدعى: البررة، وكل قوم هاجروا من بطن يدعون: الخيرة. فكان المسلمون خيرة وبررة.

(٣) شعر الفتوح الإسلامية ١٢٩، عن معجم البلدان.

(١) المصدر نفسه. وفي معجم البلدان الخنافس قرب الأنبار من ناحية البردان.

(٢) معجم البلدان ٣ / ٨٦٤.

المسيح^(١)

١٩ شعبان ١٢هـ - ٢٩ أكتوبر (تشرين الأول) ٦٣٣م

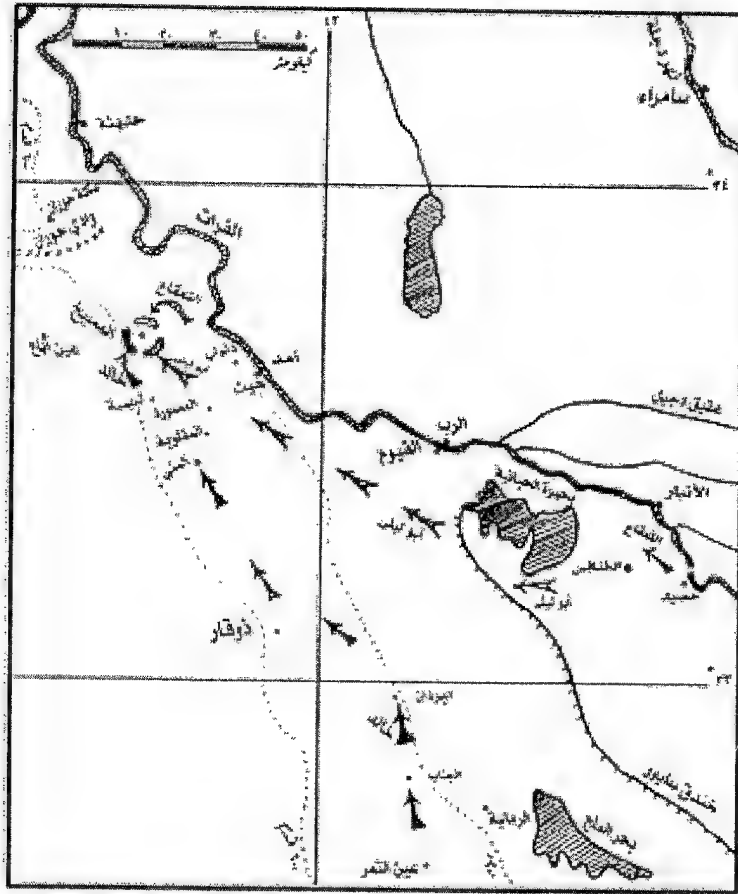
ما أن بلغ خالدٌ خبر ما كان بحصيد والخنابس حتى رسم خطته، وكتب بها إليهم. فحدد موعداً لهم جميعاً، القعقاع بن عمرو وأبى ليلى بن فدي وأعبد بن فدي وعروة بن الجعد، ساعة معينة من ليلة محددة يجتمعون فيها إلى المسيح، وهو مكان بين حوران والقلت كان لبنى البرشاء، ويعرف بمسيح بنى البرشاء، وتذكره بعض المصادر باسم المٌسيح.

وبالرغم من حدوث بعض العمليات الليلية الناجحة، فإن معظم مشاهير القادة العظام حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى كانوا ينفرون من القتال الليلي ويذهبون إلى عدم جدواه. ويقرر فردريك الأكبر أنه يستبعد دائماً التفكير في القيام بأى عملية ليلية نظراً لما ينشأ عنها من اضطراب وانحلال في الضبط بين صفوف الجنود، نتيجة لتعذر الرؤية بين الضباط ورجالهم بمجرد حلول الظلام، ويقرر بلوفر أنه يخشى العمليات الليلية أكثر من طلقات العدو^(٢). ولعل القتال الليلي لم يأخذ مكانه المرموق في علم التكتيك إلا بعد استخدام الاسلحة. ولكن خالداً قرر أن يهجم بليل تحقيقاً للمفاجأة واطمئناناً إلى المستوى القتالي لقواته ورجاله وثقة بهم.

خرج خالد من عين التمر قاصداً المسيح على الإبل ويسحب الخيل، فقطع المسافة على ثلاثة منازل ثم أغار فى الرابع. خرج من عين التمر فنزل الجنب، ثم خرج من الجنب فنزل البردان، ثم خرج من البردان فنزل الحنى. ثم جنب الإبل وركب الخيل من الحنى.

فى هذا التاريخ تغرب الشمس بعد الخامسة عشر دقائق بتوقيت عصرنا، ويخيم الظلام بحلول العشاء فى السادسة والنصف، بينما لا يشرق القمر إلا قبيل العاشرة مساءً، ويستمر طوال الليل حتى ظهيرة اليوم التالى، ويكون فى حجم لا بأس به. فحالة القمر وموعد شروقه بالنسبة لموعد غروب الشمس مناسبة جداً للعملية، إذ يتيح للمسلمين أن يتحركوا فى الجزء الأول من الليل لاتخاذ مواقعهم فى نقاط الانطلاق التى يبدوون منها هجومهم، فيقتربون إلى

أكثر المواقع تقدماً من عدوهم فى ستر من الظلام، حتى إذا حان وقت الهجوم استطاعوا أن يستعينوا بضوء القمر على تبيين أهدافهم بأكثر وضوح ممكن. وربما كان خالد قد أقت موعد هجومه على هذا الأساس. وكان القوم فى المسيح يتوقعون زحف المسلمين إليهم، وحذرهم رجل منهم اسمه حرقوص ابن النعمان من بنى نمر فلم يستمعوا لنصحه. والعجيب فى هؤلاء أن يجتمعوا لحرب ثم لا يهاجمون، بل يتجمعون ثم ينتظرون أن يهجم عليهم، وكان اجتماعهم كان حصاد ثرثرة عقيمة.



خريطة رقم (٢٢) - معركة المسيح

(١) الطبرى ٢٤/٤ س ش س، عن محمد وطلحة والمهلب.

(٢) مجلة القوات المسلحة عدد ١٩ - صلاح مشرف.

وفى الساعة المحددة من الليلة المقررة اجتمع المسلمون حول المصيح - ولم يشعر بهم أهلها - واتفقوا جميعاً ثم أغاروا على الهديل ومن معه وهم نائمون من ثلاثة أوجه فأمعنوا فيهم القتل. وأفلت الهديل فى قلة منهم، فلبجأ إلى الزميل حيث كان عتاب بن فلان بالبشر فى عسكر ضخم فأنحاز إليه.

وامتلأت أرض المصيح بجثثهم حتى شبهوا بغنم مُصرَّعة. وكان عدى بن حاتم من رواة هذه العملية مما يفيدنا اشتراكه وبنى طيء فيها. ومضى فارسنا القعقاع بن عمرو كعادته يدندن بشعره:

سائل بنا يوم المصيح تغلباً وهل عالم شيئاً وآخرُ جاهلُ
طرفناهم فيها طروقاً فأصبحوا أحاديثُ أفناءٍ تلك القبائلُ

حدث فى هذه الغارة

تزوج حرقوص بن النعمان، وكان يعرس بعروسه أم تغلب من بنى هلال، وقد جلس معها وحوله بنوه قد أحاطوا بجفنة خمر وهم عاكفون عليها يشربون وهم يقولون له: «ومن يشرب فى هذه الساعة من آخر الليل؟» قال: «اشربوا شرب وداع فما أرى أن تشربوا خمرأً بعدها، هذا خالد بعين التمر وجنوده بحصيد، وقد بلغه جمعنا وليس بتاركنا»، ولم يكن بعد يشعر بوصولهم. ثم أنشد يقول:

ألا فاشربوا من قبل قاصمة الظهر بُعيدَ انتفاخ القوم بالعكر^(١) الدثر
وقبل مناينا المصيبة بالقدر حين لعمرى لا يزيد ولا يحرى^(٢)
ألا فاسقيانى قبل جيش أبى بكر لعل مناينا قريب ولا ندرى
ألا فاسقيانى بالزجاج وكررا علينا كُميت اللون صافية تجرى
أظن خيول المسلمين وخالداً ستطرقكم عند الصباح على البشر
فهل لكم بالسير قبل قتالهم وقبل خروج المعصرات من الخدر
أرينى سلاحى يا أميمة إننى أخاف بيات القوم أو مطلع الفجر

وبينما هو كذلك يشرب ويرفع عقيرته وقد أخذت الخمر برأسه دهشته الخيل، فأطاح

(١) العكر: الإبل الكثيرة، والدثر: المال الكثير.

(٢) يحرى: ينقص.

سيف برأسه فسقط فى جفنته، وقُتلت عروسه وقتل أبنائه^(١) سبياً. كذلك قتل عبادة بن البشر وامرؤ القيس بن بشر وقيس بن بشر وهم بنو الثورية من بنى هلال.

وأصاب جرير بن عبدالله يوم المصيح من بنى النمر، عبدالعزى بن أبى رهم بن قرواش أخا أوس مناة، كما أصيب لبيد بن جرير، وكانا قد أسلما ومعهما من أبى بكر كتاب بإسلامهما. قال عبدالعزى - وقد سماه أبو بكر عبدالله - ليلة الغارة:

أقول إذا طرَّق الصباحُ بغارةٍ سبحانك اللهم ربَّ محمد
سبحان ربى لا إلهَ غيرُهُ رب البلاد ورب من يتَّوردُ

وبلغ أبا بكر قول عبد العزى وعلم بمصابه ومصاب لبيد، فحزن عليهما ودفع ديتهما وقال: «أما إن ذلك ليس على إذ نازلا أهل الحرب، كذلك يلقي من ساكن أهل الحرب فى ديارهم». وأوصى بأولادهما. وقد أخذ عمر هذه على خالد كما أخذ عليه قتل مالك بن نويرة.

(١) الطبرى ٤ / ٢٥ س ش س، عن عطية، عن عدى بن حاتم.

وعلم خالد أن هلال بن عقة في جمع آخر بالرضاب^(١)، غير أنه ما بلغها حتى كانت الأخبار قد سبقته فانفض عن هلال أصحابه ونزح هلال عنها، فلما وافاها خالد لم يجد بها شيئاً. إلى هنا وكان خالد قد ابتعد عن الحيرة بحوالى ثمانمائة كيلو متر فبدأ يعود، وفي ذلك قال:

طلبنا بالرضاب بنى زهير
فلم نزل الرضاب لهم مقاماً
فإن تشقف أستتنا زهيراً
ولم يؤنسهم عند الرمال
وبالأكفاف أكناف الجبال
لكف شريدهم أخرى الليالي^(٢)

الفراخ^(١)

١٥ ذى القعدة ١٢هـ - ٢١ يناير (كانون الثاني) ٦٣٤م

والفراخ إلى الجنوب الشرقي في طريق العودة على تخوم الشام والعراق والجزيرة. والشام والجزيرة كانتا في قبضتي الروم، وقد كان إيغال خالد حتى الرضاب توغلاً في أرض يحكمها الروم. وفي الفراخ اجتمع خالد بباقي قواته التي خلفها في اندفاعته نحو الزميل والرضاب. وأدركه شهر رمضان^(٢) وهو بالفراخ فأفطر المسلمون. فلما تمت جموع المسلمين بالفراخ ونما علمهم إلى الفرس والروم وعرب تغلب وإياد والنهر بدأ تجمعهم. والظاهر أن الروم هم الذين تبنا هذه الموقعة، فقد اغتاطوا حين مخر خالد تلك التخوم مخترباً حدودهم، واستعانوا بمن بجهتهم من الحاميات الفارسية كما كتبوا إلى من والاهم من العرب شرقي الفرات، فقدمت أمدادهم عليهم وتحركوا تجاه خالد حتى إذا كان الفرات بينهم، هم تجاه الجزيرة وخالد تجاه صحراء السماوة، قالوا له: «إما أن تعبر إلينا أو نعبر إليكم». قال خالد: «بل اعبروا إلينا». ولا شك أن عبورهم كان أفضل لخالد حيث ينقطع عليهم خط الرجعة. فطلبوا من خالد أن يتنحى حتى يعبروا. قال: «لا نفعل ولكن اعبروا أسفل منا».

وكان من الروم والعجم من له إدراك وتمييز للأمر. فقال بعضهم لبعض: «احتسبوا ملككم! هذا رجل يقاتل عن دين وعقل وعلم. والله لينصرون ولنُخذلن».

ومع ذلك فقد عبروا أسفل من خالد بهذه الروح المشبعة بالهزيمة. ثم طلبت الروم أن يتميز كل جند حتى تظهر مواقفهم؛ فتميز الروم عن الفرس عن العرب. ثم التحموا واقتتلوا قتالاً شديداً طويلاً واجه فيه خالد لأول مرة وآخر مرة قوات مشتركة من العجم والروم والعرب، وبدأت الكفة تميل في غير صالح الحلفاء وبدأوا يتضعضعون. وأصدر خالد أمره:

(١) الطبرى ٤ / ٢٥ س ش س، عن عطية، عن عدى بن حاتم. ويذكر الطبرى: أن الشعراء أكثروا النظم في الفراخ وما كان قبلها.

(٢) تنص الروايات على أن شهر رمضان أدرك خالد والمسلمين بالفراخ، ومن هنا أقتنا مواقيت ما كان قبلها بين الأنبار (التي كان في سبتمبر (أيلول) - رجب) إلى الفراخ، وهي فترة قصيرة كثرت فيها الوقائع المتباعدة المسافات، الأمر الذي ييسر علينا تقدير مواقيت لها قريبة من الدقة. ثم تنص رواية ظفر بن دهي والمهلب بن عقة، أن خالد أقام بالفراخ بعد الموقعة عشر أيام ثم أذن في الرحيل لخمس بقين من ذى القعدة، فكأنما حددا تاريخ الموقعة بالخامس عشر من ذى القعدة ١٢هـ.

(١) الرضاب: موضع الرصافة التي بناها هشام بن عبد الملك فيما بعد غربي الرقة، وهي إلى الغرب من البشر والننى، ويتحدد موقع الرضاب تبعاً لذلك بتحديد موقع الرصافة. قال ابن خردادبه: من الرقة إلى الرصافة أربعة وعشرون ميلاً (٤٤ كيلو متراً)، ثم إلى الزراعة أربعون ميلاً... وذكر بعد الرصافة مائة وثلاثين ميلاً (٢٤٠ كيلو متراً) إلى حمص (المسالك والممالك ٩٨) كما ذكر الرصافة من كورنسرين (٧٥). وقال قدامة بن جعفر: من الرصافة إلى الرقة ثمانية فراسخ (٤٤ كيلو متراً) (الخروج وصناعة الكتابة ٢١٧ و٢١٨).

(٢) معجم البلدان.

«الْحُوا عَلَيْهِمْ وَلَا تُرَفُّهُوا عَنْهُمْ».

فكان فرسان المسلمين يحشرون الزمرة (الجماعة) منهم بالرماح فإذا جمعوهم قتلوهم. فقتل المسلمون يوم الفراض في المعركة وفي المطاردة بعدها مائة ألف^(١) في رواية جميع المؤرخين.

وفي الفراض قال القعقاع بن عمرو:

لَقِينَا بِالْفَرَاضِ جَمُوعَ رُومٍ وَفُرسٍ غَمَّهَا طُولُ السَّلَامِ
أَبَدْنَا جَمْعَهُمْ لَمَّا التَقِينَا وَبَيَّتْنَا بِجَمْعِ بَنِي رِزَامِ
فَمَا فَتَتِ جُنُودَ السَّلْمِ حَتَّى رَأَيْنَا الْقَوْمَ كَالْغَنَمِ السَّرَامِ

ثم أقام خالد بعد المعركة عشرة أيام بدأ بعدها رحلة العودة. بدأها في ٢٥ ذى القعدة ١٢هـ - ٣١ يناير (كانون الثاني) ٦٣٤م إلى الخيرة. فأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالناس وجعل شجرة بن الأعز على المؤخرة. وأظهر خالد للناس أنه في المؤخرة. ولكنه أضمر أمراً.

الباب الحادى عشر

ختام مرحلة

(١) الطبرى ٤/ ٢٦ س ش س، عن محمد وطلحة.

وشاركهم (في الرواية) عمرو بن محمد، عن رجل من بني سعد، عن ظفر بن دهي والمهلب بن عقبة. وقد كان ظفر بن دهي دليلاً من أدلاء تلك الصحارى، ونذهب من روايته لأخبار هذه المعارك أنه كان ممن شهدها.

خالد يحج

(٢٥ ذى القعدة ١٢هـ - ٢٣ ذى الحجة ١٢هـ)

٣١ يناير (كانون الثاني) ٦٣٤م - ٢٨ فبراير (شباط) ٦٣٤م

سار الجيش من الفراض نحو الحيرة وعليه عاصم بن عمرو التميمي، ومن وراء الجيش سارت مؤخرته وعليها شجرة بن الأعز، وجميع من بالجيش يعلم أن خالدًا يسير مع المؤخرة. ولكن خالدًا لم يكن في المؤخرة ولا كان في الجيش كله، وإنما خرج من العراق سالكاً طريقاً هو أكثر الطرق استقامة من الفراض إلى مكة ليذكر الحج!

لقد أسلم خالد في العام الثامن للهجرة، وفي نفس العام كان فتح مكة، ولكن رسول الله ﷺ لم يحج من عامه ذاك وإنما عاد إلى المدينة، وحج بالناس عتاب بن أسيد. وفي العام التاسع أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر على الحج ولم يحج هو بنفسه، ولكنه حج في السنة العاشرة حجة الوداع. ولم نقف على ما يدلنا إن كان خالد قد حج إحدى هاتيك الحجج، ولكننا ندرك ونحس أنه حين يحج رسول الله ﷺ، فإن أكثر صحابته يحجون معه، وإذا لم يحج كان المتخلفون أكثر. فمن الجائز ألا يكون خالد قد حج في العام الثامن أو التاسع، ولكننا نرجح أن يكون قد أدى الحج في العام العاشر. أما العام الحادي عشر فمن المؤكد أنه لم يحج فيه، إذ كان مشغولاً حينذاك بأمر مسيلمة وردة بنى حنيقة. وأياً ما كان فالظاهر أن خالدًا كان يتجه في عبادته لله نحو الجهاد أكثر مما كان يتجه نحو المناسك والشعائر، وبالرغم من أن ذلك هو ما كان يتفق مع ميوله واتجاهاته، يبدو أنه لم يكن راضياً عن ذلك تمام الرضى، فقد صلى إماماً بالمسلمين في الحيرة، فقرأ القرآن من سور شتى ثم سلم، والتفت إلى الناس يبرر لهم ذلك ويعتذر^(١) عنه، فقال: «شغلني الجهاد عن كثير من قراءة القرآن». أما في هذا العام الثاني عشر، فإنه أول موسم حج بعد خروجه إلى العراق وبعد ما فتح الله عليه، أفلا يحمد الله ويشكره ويتقرب إليه بأداء فريضة الحج؟ كان خروج خالد من الفراض في الخامس والعشرين من ذى القعدة، والوقوف بعرفات بعد أسبوعين لا أكثر، هما كل فرصته لبلوغ مكة وإدراك الموسم، وإن مكة لعلی مسافة تزيد عن ١٦٠٠ كيلو متراً من الفراض،

(١) عبقرية خالد.

ولكنه خالد وقد عزم، فجذ السير، ولا بد أن ذلك كان بالخيـل. قال الرواة^(١): «يعتسف»^(٢) البلاد حتى أتى مكة بالسمت^(٣)، فتأتى له من ذلك ما لم يتأت للدليل ولا ريباً^(٤). فسار طريقاً من طرق أهل الجزيرة، لم ير طريق أعجب منه ولا أشد على صعوبته منه، فقطع طريق الفراض، ماء العنبري، ثم مَثْقَباً^(٥)، ثم انتهى إلى ذى عِرْقٍ فشرَّق منها، فأسلمه إلى عرفات من الفراض، وسمى ذلك طريق الصد.

ومن حيث أن وادي الصد (وهو وادي حوران)، يبدأ من شمالي هيت عند خط عرض ٣٤ شمالاً من غرب الفرات، ويوغل في صحراء السماوة جنوباً بغرب نحو الشام، فإننا نعتقد أن خالدًا قد اتجه في رحلته تلك من صحراء العراق إلى صحراء الشام عبر ذلك الوادي، ثم انحدر منها جنوباً إلى الحجاز. يؤيد هذا، أنه في نهاية الرحلة طلع على عرفات من غربها فشرَّق إليها، ولو اتجه من العراق جنوباً إلى نجد لكان طلع على عرفات من شرقها، فكان هذا أول عبور لخالد من العراق إلى تخوم الشام قبل عبوره الشهير بجيشه الذي عبر فيه بادية السماوة في مغامرته المعروفة.

ولم يكن خالد وحده، وإنما كان في عدد من أصحابه، وقد تكتسبوا الخبر عن كل الناس إلا من أخبره خالد بذلك من مؤخرة الجيش. حتى أبو بكر رضى الله عنه لم يعلم به، ولم يخبره خالد ولم يستأذنه!

وقطع خالد ما بين الفراض إلى عرفات في أسبوعين على أكثر تقدير، ولا بد أن يكون قد عاد من مكة إلى الحيرة في أقل من ذلك، حيث الحيرة أقرب إلى مكة من الفراض. وبذلك تكون غيبته عن العراق لا تتجاوز الشهر. فما وصل آخر الجند إلى الحيرة (حوالي ٥٠٠ كيلو متراً من الفراض) حتى كان خالد قد وافاها ودخلها مع شجرة بن الأعز، وخالد وصحبته محلقون رؤوسهم.

(١) الطبري ٢٦/٤ نفس السند.

(٢) العسف: الأخذ على غير الطريق - مختار الصحاح.

(٣) السمت: الطريق - مختار الصحاح.

(٤) الريبال: الأسد الشجاع.

(٥) قيل: طريق العراق من الكوفة إلى مكة، يقال لها: مثقب. وقيل: طريق ما بين اليمامة والكوفة - معجم البلدان.

هل أخطأ خالد؟

تصرف غريب من خالد. اعتبره بعض الناس غروراً ومغامرة ليس لها ما يبررها. وليس بوسعنا أن نقر خالدًا على ما فعل، ولكن التصرف على كل حال قد دل على ثقة خالد^(١) برجاله، كما دل على ثقته بنفسه، فقد كان يعلم أن في جيشه رجالاً من أمثال القعقاع والمثنى وجريـر والأقرع وعاصم ومذعور وعدى... فيه رجال صقلتهم التجارب وصهرتهم المعارك وعاشوا على ظهور الخيل وتحت ظلال السيوف والرماح، فاطمأنت نفسه أن يخرج ليحج ثم يعود. كان هذا - بحق - هو رأى خالد في جنده، وهو الذي وصفهم للفرس فقال: «جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»، وحين أدرك أن الفرس يدمنون الخمر ويحبونه قال: «جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر».

هذا من جانب. ومن جانب آخر، نظن أن قائداً مثل خالد بما قام من أعمال وفتوح، كانت تحتاج في كثير من مواقفها بل في كل خطوة من خطواتها إلى قدر كبير جداً من القدرة على التصرف والمسئولية، علمته هذه المواقع أن يتصرف، ثم علمته أن يتصرف، فنمت فيه حرية التصرف والقدرة عليها وترعرعت، حتى يكون لنا أن لا نفاجأ من مثله أن يمنح نفسه حرية التصرف في مثل هذا الحج مع ما صاحبه من اطمئنان إلى رجال كانوا أهلاً لكل ثقة. كان أستاذهم في الميدان وهو أدري بهم، وكان وهو بالعراق يعتمد عليهم بعيداً عنهم. وقد تركهم مرة قبل هذه حين خرج إلى دومة الجندل، وغاب عنهم نحواً من شهر أيضاً.

بطبيعة الحال، لقد عرف أبو بكر فيما بعد بما فعل خالد دون أن يستأذنه ودون أن يلقاه في الحج، وقد كان أبو بكر على الموسم. لكن خالدًا أندس وأصحابه بين الناس حتى قضوا مناسكهم، ثم انفلتوا راجعين. وكلم عمر بن الخطاب أبا بكر ليعزل خالدًا. وما كان لأبي بكر أن يعزل خالدًا، وقد حقق الله على يديه من النصر ما قد تحقق. كان أبو بكر رضى الله عنه - وقد جمع إلى مواهبه جميعاً مواهب حربية - كان شديد الإعجاب بخالد.

قال: «لا أشيم»^(٢) سيفاً سله الله على الكفار.

(١) عبقرية خالد.

(٢) شم سيفك: اغمده. وشممت السيف: سللته، فهو من الأضداد - الكامل للمبرد ١/١٤٦.

مفاجأة الخالد

ماذا في الميدان الغربي

لعلنا لم ننس أن أبا بكر حين استعمل خالد بن الوليد قائداً لجيشه الأول من جيوش قمع الردة، استعمل خالد بن سعيد قائداً للجيش السادس ووجهه إلى الحمقتين من مشارف الشام. ولقد عرضنا فيما سبق لخطوات خالد بن الوليد منذ فرغ من أمر الردة ودخل العراق. وفي نفس الوقت الذي كان خالد بن الوليد يلج أبواب العراق كان خالد بن سعيد يتقدم بجيشه على أرض الشام، غير أنه تورط فيما يجهل من أرضها فانقض الروم على جيشه على غرة منه وهزموه وارتدت فلوله نحو بلاد العرب. فأرسل أبو بكر بدلاً منه أربعة جيوش أخرى.

كان عمرو بن العاص بقضاعة على طريق الشام فأرسله إلى أيلة وهي مكان إيلات اليوم (العقبة).

وأرسل يزيد بن أبي سفيان إلى الشام في الاتجاه الذي كان موكولاً إلى خالد بن سعيد.

وأرسل شرحبيل بن حسنة إلى الأردن.

وأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح إلى حمص وجعله أميراً على الجيوش كلها إذا اجتمعت.

هذا الترتيب في اتجاه كل جيش من الجيوش الأربعة هو المعروف اليوم باسم حركة مروحة (بينما كانت خطة أبي بكر لغزو العراق على أساس حركة كمانشة). كل جيش من هؤلاء بلغ سبعة آلاف.

وجمع الروم مائتين وأربعين ألفاً لملاقاتهم.

ووجهوا تسعين ألفاً منهم بقيادة تيودريك إلى عمرو بن العاص.

ووجهوا ستين ألفاً بقيادة فيقار إلى أبي عبيدة.

ووجهوا أربعين ألفاً بقيادة دراكس إلى شرحبيل.

ووجهوا خمسين ألفاً بقيادة جورج تدرا (تيودور) إلى يزيد بن أبي سفيان.

وجعل هرقل مركز قيادته في حمص.

وشق الأمر على المسلمين، فأشار عمرو بن العاص باجتماعهم - وهو بهذا الرأي يلغي استراتيجية المروحة - وجاءهم كتاب من أبي بكر بنفس رأى عمرو. وتجمعت قوات المسلمين على

الضفة اليسرى لليرموك، بينما تجمعت قوات الروم قبالتهم على الشاطئ الأيمن يقودهم تيودريك على حوالى ستين كيلو متراً من التقاء اليرموك بنهر الأردن. واتخذت قوات الروم مكانها في أرض منبسطة تحيط بها الجبال الشاهقة من ثلاث جهات عند واقوصة. ثم عبر المسلمون إلى الضفة اليمنى لليرموك، فنزلوا أرضاً منبسطة تقفل الطريق المفتوح لجيش الروم فحاصروهم بين الجبال. وأقام الفريقان على ذلك شهرين كاملين حتى طلب المسلمون المدد من أبي بكر.

وعلى أثر انصراف خالد من الحج إلى الحيرة، كتب إليه أبو بكر^(١) رسالة جاء فيها:

«... أن سر بنصف الناس حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا (تعبوا وأتعبوا).

وإياك أن تعود لمثل ما فعلت، فإنه لم يُشجِ الجموع من الناس بعون الله شجيك، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك.

فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة. فأتم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل وإياك أن تدل (تغتر) بعمل، فإن الله له المن وهو ولي الجزاء.

دع العراق واخلف أهله فيه الذين قدمت عليهم وهم فيه، ثم امض مخففاً في أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة، وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين.

وإذا التقيتم فانت أمير الجماعة. واستخلف على العراق المثنى بن حارثة في النصف الباقي. ولا تأخذن نجداً إلا خلفت له نجداً. فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم ثم أنت على عملك.

والسلام عليكم ورحمة الله».

كتبه في صفر ١٣هـ - أبريل (نيسان) ٦٣٤م.

اجتاج الشام إلى خالد

سحب أبو بكر خالداً من العراق إذن ووجهه إلى الشام في الوقت الذي أوشك فيه أن يزحف إلى المدائن، وقد فض جميع حصون الفرس وفرق جموعهم وبدد جيوشهم في كل

(١) - الطبري ٤/ ٢٠٤ ش س، عن محمد وطلحة والمهلب.

- عرجون ٢٣١.

مكان غربى دجلة، ولم يبق إلا عبور دجلة. فهل نقل أبو بكر خالداً من العراق عقاباً له على فعلته ليحرمه شرف فتح المدائن؟

هذا ما تقوله بعض الروايات:

«... وكانت عقوبته إياه أن صرفه إلى الشام».

«... يقاربه ويباعده...».

ولكن هل يضر الخليفة بمصالح المسلمين وقد صار وشيكاً أن تقع المدائن في قبضتهم من أجل عقاب شخص مهمنا كان وضعه ومهما كانت منزلته؟ بعبارة أكثر صراحة، من أجل عقاب خالد؟ لا يسعنا أبداً أن نصدق هذا. ولكننا نرى أن الحالة في الميدان الغربى بالشام كانت في حاجة إلى خالد بن الوليد. على الأقل كان الشام أحوج إليه من العراق. ففي العراق اتصلت العمليات من نصر إلى نصر... لم يخسر المسلمون معركة واحدة. واستتب لهم ما بين مدينة الرسول إلى ما يقرب من مدائن كسرى. أما في الشام فالموقف جد مرتبك وليس لجيوش المسلمين فيه حيلة. وإذن فإن الشام في حاجة إلى مدد جديد وإلى عقل جديد...

في حاجة إلى ذهن حربى جديد...

في حاجة إلى قائد ذى فكر وعلم بالحرب...

في حاجة إلى من؟.. إلى خالد بن الوليد.

إذ ذاك قال أبو بكر: «والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد».

وكتب إلى أبى عبيدة بن الجراح فى الشام:

«سلام الله عليك. أما بعد. فقد وليت خالداً قتال العدو فى الشام فلا تخالفه واسمع له وأطع، فإنى لم أبعثه عليك ألا تكون عندى خيراً منه، ولكننى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك. أراد الله بنا وبك خيراً والسلام».

نستبعد إذن رأى الذى ذهب إلى أن الأمر كان عقاباً لخالد. ولو كان عقاباً لخالد فهل كان عقاباً أيضاً لنصف جيش المسلمين بالعراق؟ إنما اكتفى أبو بكر من العقاب بتوجيه اللوم فى الرسالة التى ذكرنا. ولو كان الأمر عقاباً لما أمر أبو بكر خالداً أن يرجع إلى العراق بعد أن يفرغ من فتح الشام، ولما كتب له تلك الرسالة التى يفيض كل حرف فيها بالتقدير لخالد والاعجاب به.

رحيل ورحلة^(١)

صفر ١٣هـ - أبريل (نيسان) ٦٣٤م

إعداد للرحيل

بدأ خالد يستعد للرحيل عن العراق، فبعث غنائم المعارك الأخيرة إلى أبى بكر مع عمير بن سعد الأنصارى^(٢)، وأيضاً بأخبار مسيره إلى الشام. ودعا خالد أدلة الطريق وشرع يقسم الجيش إلى شطرين كأمر أبى بكر، شطر يخرج معه وشطر يبقى مع المثنى. وبدأ بأصحاب رسول الله ﷺ فاستأثر بهم، وترك للمثنى أعدادهم من أهل القنعة ممن لم يكن له صحبة. ثم نظر فيمن بقى فاستأثر بمن كان قدم على النبى ﷺ وافداً أو غير وافد، وترك للمثنى أعدادهم من أهل القنعة. ثم قسم الجند بعد ذلك نصفين.

ونظر المثنى إلى قسمة خالد ثم رفضها وقال لخالد:

«والله لا أقسم إلا على إنفاذ أمر أبى بكر كله فى استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف، وبالله ما أرجو النصر إلا بهم، فكيف تعزى منهم؟» كان خالد يعلم أن هذا أمر أبى بكر، ولكنه تلكأ عسى أن يتهاون المثنى فى ذلك. وما دام قد قبل بعض النصف من الصحابة وقد كان من حقه النصف كاملاً، فلعله أن يقبل مزيداً من التنازل. غير أن المثنى أصر على ذلك فترك له خالد نخبة منهم حتى أرضاه. وكان فيمن عوضه بهم فترات^(٣) بن حيان العجلي، وبشير بن الخصاصية والحارث بن حسان الذهليان، ومعيد بن أم معبد الأسلمى، وهو الذى ثبت أبى سفيان يوم أحد أن يعود إلى المسلمين، وعبدالله بن أبى أوفى^(٤) الأسلمى، والحارث بن بلال المزنى وعاصم بن عمرو التميمى. وكان ممن خرج مع خالد إلى الشام: القعقاع بن عمرو التميمى، وعدى بن حاتم الطائى^(٥)، وضرار بن الخطاب، وضرار بن الأزور

(١) الطبرى ٤/ ٤٢ س ش س، عن محمد وطلحة والمهلب.

(٢) ترجمة عمير بن سعد الأنصارى فى آخر الكتاب.

(٣) ترجمة فترات بن حيان العجلي فى آخر الكتاب.

(٤) ترجمة عبدالله بن أبى أوفى الأسلمى فى آخر الكتاب.

(٥) سير أعلام النبلاء - الذهبى. قال: قدم الشام من العراق مع خالد بن الوليد، ثم وجهه خالد بالاحماس إلى أبى بكر. وأسد الغابة ٣٦٥.

الأسدي، وعياض بن غنم، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وجريز بن عبدالله الحميري (من قضاعة)، وجريز بن عبدالله البجلي، وحنظلة بن الربيع التميمي الكاتب. كما كان معه من أبطال التابعين أمثال مرثد بن نجبة وأخوه المسيب بن نجبة الفزاريان (من ذبيان) ومعاوية بن قرملة الخاربي (من عبد القيس)، والربيع بن مطر بن بلخ التميمي.

وكان في هذا الجيش:

٢٠٠ من بجيلة أكثرهم من أحمس.

١٥٠ من طيء.

٢٠٠ من دينار (من بجيلة).

٣٠٠ من المهاجرين والأنصار.

الخروج

بعد أن تمت هذه القسمة خرج خالد مع جيشه فمضى لوجهه. وقد اختلفت الروايات اختلافاً طفيفاً في موعد ذلك، فمنها ما جعله في شهر^(١) ربيع الأول ١٣هـ، ويتطابق ذلك ما ذكره الطبري من أن مكث خالد بالعراق كان سنة وشهرين. ولكننا نرجح الرواية الثانية التي تذهب إلى أن خروجه من العراق كان في صفر سنة ثلاث وعشر للهجرة، وتحديد أدق أنه كان في أوائل صفر، وقد أخذنا بذلك لما يؤيده من رواية أخرى^(٢) تقول إن خالداً حين بلغ الشام أتى مرج راهط، فأغار على غسان في يوم فصحهم، وبالبحت عن ذلك الفصح وجدناه كان يوم الأحد ٢٤ أبريل (نيسان) ٦٣٤م الموافق ١٩ صفر ١٣هـ، وإذا فقد خرج خالد في صفر ١٣هـ.

لم يستصحبوا معهم نساءهم وذرايهم وإنما أعادوهم إلى مواطنهم^(٣) على غير عادتهم. ولا شك أن العمل العظيم الذي جمع بينهما عاماً وبعض عام قد ألف بين قلوبهما وأقام بينهما من الأواصر ما لا بد كان، فخرج الثنئي مع خالد يشيعه من الحيرة حتى قراقر، فمن يدرى لعله لا يلقاه بعدها أبداً، وهذا ما حدث بالفعل إذ كان ذلك آخر لقاء بين القائد العظيمين من صحابة رسول الله ﷺ. سار معه حتى قال له خالد: «ارجع رحمك الله إلى سلطانك غير

(١) فتوح البلدان ٣٠٦، عن أبي مسعود الكوفي، عن محمد بن مروان.

(٢) الطبري ٣٩/٤.

(٣) الطبري ٤/٤٤، عن ابن حميد، عن سلمة، عن محمد بن اسحق، عن صالح بن كيسان.

مقصر ولا وان». فتركه وعاد إلى الحيرة ليعيد تنظيم قواته التي صارت نصف ما كانت. ويعتقد أنها كانت نحواً من عشرة آلاف، فقد كان أصل الجيش ثمانية عشر ألفاً انضم إليه جيش عياض بن غنم الذي لا نعرف عدده، ولكنه على أي افتراض لم يكن ليقل عن ألفين، ولم تكن خسائر المسلمين في المعارك كبيرة، إذا فقد صار جيش خالد في العراق نحواً من عشرين ألفاً قسمه نصفين، نصف سار معه إلى الشام، ونصف بقي مع الثنئي بالعراق.. ولا بد أن يكون الثنئي قد أحس بفراغ كبير كان عليه أن يملأه ومن بقي معه... ويا لها من مسئولية.

الطريق

أراد خالد أن يتحرك بسرعة، وأن يكسب الوقت فعبّر مفازة السماوة وهي الصحراء الفاصلة بين العراق والشام، ذلك العبور المشهور الذي اتسم بالجرأة والجرأة. هذا الطريق الذي سلكه خالد بجيش المسلمين كان محل اختلاف الكتاب والباحثين. فبعضهم يرى أن خالداً خرج من الحيرة شمالاً إلى عين التمر ثم إلى قراقر، ومنها عبر صحراء السماوة إلى سوى على طريق الشام فيكون نزلها من شمالها. وبعضهم يقول إنه اتجه إلى عين التمر^(١) ثم إلى دومة الجندل ومنها إلى الشام، فيكون دخلها من جنوبها، هؤلاء يضعون قراقر على طريق الشام من دومة الجندل ويضعون سوى في صحراء الشام.

ونرى أن هذا الطريق الأخير هو الطريق الطبيعي بين جنوب العراق وبين الشام، ولو اتبعه خالد لما أثار من التعليق ما أثار، ولما وصف بالجرأة والجرأة. وهو طريق طويل، وما دفع خالداً إلى سلوك طريق خلاف المؤلف سوى عجلته، ومن المؤكد أن خالداً سلك طريقاً غير المؤلف وغير الطرق الطبيعية، فهو إذن ليس طريق دومة الجندل. ونرى أن القائلين بسلوك خالد طريق دومة الجندل قد استندوا إلى رواية أوردها الطبري^(٢) تقول: «... ودعا خالد الأدلة فارتحل من الحيرة سائراً إلى دومة، ثم طعن في البر إلى قراقر، ثم قال: كيف لي بطريق أخرج

(١) كان هناك طريق من عين التمر بالعراق إلى بصرى بالشام، ذكره ابن خردادبه فقال: من عين التمر إلى الاخدمية إلى الخفية إلى الخلط إلى سوى إلى الاجيفر إلى الغربية إلى بصرى (المسالك والممالك ٩٧). هذا الطريق لم يكن ينطبق على الطريق الذي سلكه خالد بجيشه من العراق إلى الشام حيث أن فيه من المواقع ما لم يرد ذكر مرور خالد عليه، كما جاء بالطريق الذي سلكه خالد ما لم يرد له ذكر في هذا الطريق الذي سجله ابن خردادبه.

(٢) الطبري ٤/٤٠، عن عمرو بن محمد، عن اسحق بن إبراهيم، عن ظفر بن دهمي (وكان دليلاً).

ومحمد بن عبدالله، عن أبي عثمان. وطلحة، عن المغيرة.

والمهلب بن عقبة، عن عبدالرحمن بن سياه الأحمرى.

فيه من وراء جموع الروم فإنني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين... ثم ركبوا من قراقرم مفوزين إلى سَوَى وهي على جانبها الآخر من جهة الشام... ساروا أربعة أيام وبعض الخامس، في اليوم مسيرة يومين (٤ × ٥ × ٣ = ٣٦٠ كيلو متراً من قراقرم إلى سَوَى). هذه الرواية هي المعتمدة التي أدت إلى القول بسلوك خالد عن طريق دومة الجندل، لا نراها حجة في هذا الشأن، بل نراها على العكس من ذلك - فهي تقول: «ارتحل من الحيرة سائراً إلى دومة»، ولم تقل إلى دومة الجندل... والفارق بين دومة الجندل وبين دومة فرق بين مكانين. فدومة الجندل هي القرية ذات الحصون على خط عرض ٣٠ شمالاً، وحوالي خط طول ٤٠ شرقاً، التي تشرف على ملتقى طرق الحجاز إلى الشام بطرق العراق إلى الشام، وهي التي بعث رسول الله ﷺ خالداً إليها من تبوك، والتي أعاد خالد فتحها أثناء حروبه في العراق. هي دومة الجندل ذات الشهرة في التاريخ الإسلامي، وهي التي انصرفت إليها الأذهان خطأ في طريق خالد من العراق إلى الشام فحولته من الشمال إلى الجنوب. أما دومة فهي مكان آخر بصحراء العراق، ورد ذكره مرتبطاً بالأكيدر الكندي الذي كان صاحب دومة الجندل. وننقل هنا عبارة «بلغ الأرب في معرفة أحوال العرب» صفحة ٢١١ في وصفه لبقاع بلاد العرب. قال:

«... ومنها دومة الجندل، كان رجل اسمه الأكيدر في بلدة قرب عين التمر في العراق تسمى دومة، وكان يزور أحوالاً له من بني كلب في أطراف الشام، فبينما هو يسير في بعض الطريق، إذ ظهرت له مدينة منهدة لم يبق منها إلا بعض حيطانها، وكانت مبنية بأرض تسمى الجندل، فأعاد الأكيدر بناءها وغرس فيها الشجر، وسمّاها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة العراق، وكان بنو كلب ينزلونها... وفي دومة الجندل من المباني العظيمة مارد وهو حصن للسموئل كان مبنياً من حجارة سود... إلخ».

وفي رواية الواقدي^(١) قال: «سمعت بعض أهل الحيرة يذكر أن أكيدر واخوته كانوا ينزلون دومة الحيرة، وكانوا يزورون أخوالهم من كلب فيتغربون عندهم، فإنهم لمعهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة منهدة لم يبق إلا بعض حيطانها وكانت مبنية بالجندل. فأعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها دومة الجندل».

وحين فتح خالد دومة الجندل في غضون فتوحه في العراق عام ١٢ هـ وقع أكيدر بن عبد الملك في أسره فضرب عنقه. وفي رواية أخرى أن خالداً أرسله إلى المدينة فظل بها أسيراً

(١) فتح البلدان ١٩٦.

حتى أطلق عمر سراحه في خلافته، فذهب إلى العراق وأقام على مقربة من عين التمر بمكان اسمه دومة^(١). نخلص من هذا إلى أنه كان هناك مكان اسمه دومة بنواحي عين التمر خلاف دومة الجندل المشهورة في التاريخ الإسلامي. دومة هذه هي التي عنها الرواة القدماء بلا ريب في سير خالد من العراق إلى الشام وليست دومة الجندل. وهناك رواية أخرى أوردها البلاذري^(٢) عن الواقدي، قال:

«لما شخص خالد من العراق يريد الشام مر بدومة الجندل ففتحها وأصاب سبائاً...»

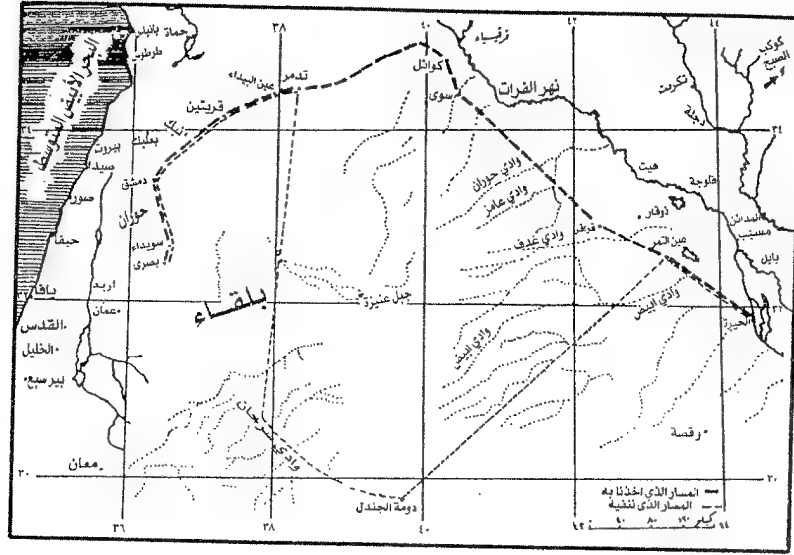
فهو بهذا يجعل فتح دومة الجندل في طريق خالد من العراق إلى الشام، ولم يضعها في موضعها من عمليات استنقاذ عياض بن غنم وإنجاز مهمته، وهي فيما نذهب إليه رواية مرجوحة منقوضة. ويزيدنا الواقدي إيضاحاً عن وجهة نظره في خط سير خالد فيقول: «إنه خرج من سَوَى إلى الكوثل، ثم قرقيسياء (على الفرات عند التقاء الخابور به) فخرج إليه صاحبها في خلق فتركه وانحاز إلى البر ومضى لوجهه، وأتى أركة وهي أرك فحاصرها ثم فتحها صلحاً، ثم أتى دومة الجندل ففتحها، ثم أتى قضم فصالحه بنو مشجعة من قضاة، ثم أتى إلى تدمر فتحصن أهلها ثم طلبوا الأمان، فأمنهم على أن يكونوا ذمة، ثم أتى القريتين فقاتله أهلها، فظفر وغنم، ثم أتى حواريين من سنير فأغار على مواشي أهلها فقاتلوه، وجاءهم مدد أهل بعلبك وأهل بصرى وهي مدينة حوران فظفر بهم، ثم أتى مرج راهط فأغار على غسان يوم فصحهم وهم نصارى، فسبى وقتل ووجه بسر بن أرطاة العامري من قريش وحبيب بن مسلمة الفهري إلى غوطة دمشق فأغاراً على قرى من قراها، وسار خالد إلى الثنية التي تعرف بثنية العقاب بدمشق فوقف عليها ساعة ناشراً رأيته... ثم سار حتى انتهى إلى المسلمين وهم بقناة بصرى، ويقال إنه أتى الجابية وبها أبو عبيدة فالتقيا ومضيا جميعاً إلى بصرى^(٣)».

خط السير هذا نراه غير معقول بالمرّة، وهو أبعد عن العقل من الخط الذي نفيناه سابقاً. وفي الخريطة رقم (٢٤) أثبتنا الخط الأول الذي لم نأخذ به - وقد أخذ به الدكتور محمد حسين هيكل، ثم نقله عنه اللواء الركن محمود شيت خطاب وتناقله المؤلفون - كذلك أثبتنا بها خط السير الذي نراه. ويؤيد وجهة نظرنا:

(١) الفتح العربي للعراق وفارس ٩٩.

(٢) فتوح البلدان ١٩٥.

(٣) فتح البلدان ٣١٠.



خريطة رقم (٢٤) - عبور السماوة

دلائل من السماء

هذا ما ارتأى لنا من أدلة من حيث مطابقة الروايات على المواقع الجغرافية وعلى الأيام والتواريخ. ولقد ترك لنا الرواة من الروايات ما نستطيع به أيضاً أن نتطلع إلى السماء بحثاً عن مزيد من الأدلة التي تدعم وجهة نظرنا. فبين أيدينا روايتان، إحداهما نقلاً عن الطبري والثانية عن ابن الأثير.

الرواية الأولى تقول إن مُحَرِّز بن حريش الحاربي (أحد أدلة خالد) قال له: «اجعل كوكب الصبح على جانبك الأيمن ثم أمه^(١) تفض إلى سوى» فكان أدلهم^(٢). والرواية الثانية تقول إن مُحَرِّز بن حريش قال لخالد لما أراد أن يسلك المفازة من العراق إلى الشام: «اجعل كوكب الصبح على جانبك الأيمن ثم أمه حتى تصبح». فجرب ذلك فوجده حقاً^(٣).

(١) اتخذه إماماً لك في سيرك ودليلاً.
(٢) الطبري ٤ / ١ س ش س، عن عبيد الله بن محفز بن ثعلبة، عمن حدثه من بكر بن وائل، أن مُحَرِّز بن حريش قال...
(٣) الإصابة ٨٣٦٩، قال: ذكر أبو إسماعيل الأزدي في فتوح الشام...

- أن الرواية التي يعتد بها بين أيدينا تقول دومة ولم تقل دومة الجندل.

- أن دومة الجندل تقع على الطريق الطبيعي المألوف إلى الشام. ومن المقطوع به أن خالداً قد تجنب ذلك الطريق.

- أن من يريد أن يتخذ طريقه من الحيرة إلى دومة الجندل لا يتجه شمالاً إلى عين التمر (انظر الخريطة) ثم إلى قراقر وهو واد بالسماوة من ناحية العراق. قال السكوني^(١): «قراقر، وحنو قراقر، وحنو ذى قار، وذات العجرم، والبطحاء كلها حول ذى قار». ومن المؤكد أن ذى قار بناوحي العراق وليست بناوحي دومة الجندل. ونقدر الموقع التقريبي لقراقر على خط طول ٤٢ وخط عرض ٣٣.

- أن خط السير من الحيرة إلى عين التمر إلى دومة الجندل إلى تدمر، هذا الطريق حتى تدمر يزيد عن ألف ومائتي كيلو متراً طوياً، ولا خلاف في أن خالداً بلغ نواحي تدمر في خمسة أيام، بمعنى أنه سار في اليوم الواحد مائتين وأربعين كيلو متراً على هذه الرواية، وهو رقم لا يقبله عقل إذ أن مسيرة الإبل في اليوم أربعاً وأربعين كيلو متراً، وقد ورد أن خالداً سار في اليوم قدر يومين يعني حوالى ثمانية وثمانين كيلو متراً، وهذا أقصى ما يمكن للعقل أن يقبله.

- كان طريق جيوش المسلمين بالشام إلى جزيرة العرب وإلى دومة الجندل طريقاً مفتوحاً متصلاً، ولو أخذ به خالد لما قال: «.. كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم فإنني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين..» وإنما يدلنا هذا القول على أن خالداً سلك طريق الشمال إذ كانت الجزيرة تابعة للروم وبها حصون لهم وقواعد، ولقد مر بنا سابقاً اشتراكهم في معركة الفراض، وكان الطريق المألوف من الشمال بين العراق والشام يحاذي نهر الفرات ويصعد معه إلى قرقيسياء ثم يتجه منها إلى تدمر، فأراد خالد أن يتلافى أى التحام بهؤلاء قد يخرج عن هدفه ويعطله عن بلوغ المسلمين بالشام قبل المعركة المرتقبة، ولذلك قرر الابتعاد عن طريق الفرات واجتياز المفازة.

(١) معجم البلدان. وقال قراقر: المستوى من الأرض الأملس الذي لا شيء فيه وهو واد لكلب بالسماوة.

ما كوكب الصبح هذا؟

وهل نستطيع اليوم أن نعرف أى كوكب كان؟

وإذا عرفناه فهل نستطيع أن نتعرف على وقت شروقه، واتجاهه فى سماء العراق بالنسبة لمن يراه من قراقرى بنواحى عين التمر فى التاريخ الذى انطلق منها خالد بجيشه؟ إذا عرفنا ذلك فسوف نستطيع الإفادة منه، وأن نبني عليه الكثير.

كتبنا بذلك إلى دائرة المعارف البريطانية نسألها، فأجابتنا مشكورة بالآتى:

«إن كوكب الصبح هو كوكب الزهرة. وأنه فى عام ٦٣٤م كان يُرى فى اتجاه الشرق فى برج الثور لمدة ساعتين قبل شروق الشمس. وأنهم حصلوا على هذه المعلومات من المختصين بمرصداً أدلر بشيكاغو بعد أن لم يجدوا شيئاً فى مراجعهم عن الموضوع».

وأردنا المزيد من التفصيل فاتصلنا بالمسؤولين بمرصداً حلوان، ففضل السادة اختصاصهم به^(١) بمقابلتنا وشغلنا من وقتهم أكثر من ساعة فى تفاهم وتدارس كانت حصيلة أنهم ابتداء يؤيدون ما جاء بخطاب دائرة المعارف البريطانية، ثم أضافوا التفاصيل الآتية:

إذا افترضنا أن خالد بدأ رحلته من قراقرى فى الثالث عشر^(٢) من أبريل (نيسان) ٦٣٤م الموافق ٨ صفر ١٣هـ، فإن كوكب الصبح الذى هو الزهرة يشرق من نقطة تقع شمالى الشرق الشمس بحوالى سبع درجات، وأن الشمس تشرق فى ذلك اليوم فى اتجاه يقع شمالى الشرق الجغرافى بحوالى ست درجات^(٣). ثم لفت الأساتذة علماء مرصد حلوان نظرنا إلى عامل له أثره على تلك الاتجاهات فى الزمن الطويل وينبغى أخذه فى الاعتبار، وهو تغير موضع القطب السماوى الأمر الذى تتغير معه زاوية شروق الشمس وكافة الكواكب. ولما قمنا بحساب ذلك^(٤) وجدنا أنه يضيف إلى الزوايا السابقة حوالى ٢٤ درجة فى اتجاه شمال الشرق، بمعنى أن يكون شروق كوكب الصبح فى ذلك التاريخ على حوالى زاوية ٥٣ فى اتجاه الشمال

(١) الدكتور محمود خيرى مدير المرصد، والدكتور حسن عبدالرحيم، والدكتور بليغ.

(٢) استناداً إلى أنه وصل إلى ماء غسان بالشام فى عيد الفصح ٢٤ أبريل (نيسان) ٦٤٣، وهو بين القريتين ودمشق (انظر الخريطة رقم ٢٤).

(٣) إذا علمنا أن اتجاه الشمال الجغرافى هو زاوية صفر وتنطبق على ٣٦٠، وأن اتجاه الشرق هو ٩٠، والجنوب ١٨٠، والغرب ٢٧٠، فإن شروق الشمس بناء على ما ذكرنا أعلاه يكون فى اتجاه زاوية ٨٤، وشروق الزهرة يكون فى اتجاه زاوية ٧٧، وذلك قبل أن نأخذ فى اعتبارنا حساب تغير موضع القطب السماوى.

(٤) رجوعاً إلى ما جاء عن حركة الأرض بمجلة المعرفة - العدد الثامن.

الشرقى (الشمال الشرقى الجغرافى ٤٥°).

بناء على ذلك، إذا أخذنا برواية ابن الأثير التى تجعل الزهرة على الجانب الأيمن، يكون خالد قد سار متجهاً إلى غرب الشمال بحوالى سبع وثلاثين درجة، يعنى فى الاتجاه الذى تقيسه البوصلة المغناطيسية اليوم برقم ٣٢٣ إلى الشمال الغربى. وهو اتجاه معقول يطابق المسار الذى حددناه سابقاً ورسمناه على الخريطة. هذا الدليل الفلكى جعلنا نخيل إلى تحديد موقع قراقرى داخله فى الصحراء شرقى خط طول ٤٢ بجهة ذى قار (كما ذكر السكونى)، ويؤيدنا فى هذا قول الرواة^(١): «... ثم طعن فى البر إلى قراقرى»، وهو تعبير فيه معنى الإيغال داخل الصحراء من عين التمر إلى قراقرى. ويتفق هذا مع بعض أجزاء رواية الواقدي التى ذكرناها سابقاً، إذ يقرر أن خالداً خرج من سوى إلى الكواثل، ثم أتى قرقيسيا، فخرج إليه صاحبها فى خلق فتركه وانحاز إلى البر، ومضى لوجهه وأتى أرك... إلخ، فإن الاستدلال السابق بكوكب الصبح يقودنا بالفعل إلى ناحية قرقيسيا.

أما إذا أخذنا برواية الطبرى التى تجعل كوكب الصبح على الحاجب الأيمن، فإن هذا يقودنا إلى أن يكون خالد قد سار متجهاً إلى شرقى الشمال بزاوية قدرها ٤٠°، وهذا يقوده إلى داخل العراق، وليس إلى الشام. ولذلك نرى لزماً أن نستبعد هذه الرواية، وأن نعتبر رواية «الجانب الأيمن» هى الصحيحة، وأن رواية «الحاجب الأيمن» تصحيف لها أخرجها عن صوابها.

وهناك شاهد آخر قد لا يرقى إلى درجة الدليل، ولكنه قرينة لها دلالتها فى هذه الرواية، وهى أن محرز بن حريش يقال له الخارى، فهو ينسب إلى بنى محارب، وهم من بنى ربيعة، وقد كانت منازل بنى ربيعة بشرقى شبه الجزيرة من سواحل الخليج جنوباً إلى نحو هيت بشاطئ الفرات شمالاً، فإذا وجدنا الدليل محرز بن حريش من أهل تلك المنطقة، فهو أمر طبيعى ومنطقي ويساير ما ذهبنا إليه. ولكنه من غير الطبيعى ولا المنطقى أن يستخدم خالد دليلاً من ربيعة فى رحلة تمر بدومة الجندل التى تبعد كثيراً عن ديارهم.

إلى هنا، ونترك خالداً فى طريقه نحو ميدانه الجديد بالشام، ونتناول نحن بشيء من النقد والتحليل هذه الحملة الموفقة التى قادها خالد لفتح العراق.

(١) الطبرى ٤ / ٤٠ س ش س، عن عمرو بن محمد، عن اسحق بن إبراهيم، عن ظفر بن دهم، ومحمد بن عبد الله بن أبى عثمان، وطلحة عن المغيرة والمهلب بن عقبة عن عبدالرحمن بن سياه الأحمرى.

الباب الثاني عشر

هذه الجملة

تحليل ونقد

مفاجأة استراتيجية

كانت الحروب التي اتصفت بين الفرس والروم تتخذ مساراتها بين الدولتين من خلال شمالي العراق، وقد وقعت به بعض معاركها. ومن قبل عهد بنى ساسان بقرون، كانت جميع الحملات عبر المنطقة تتخذ نفس المسار الاستراتيجي، فهو الذي عبره قمبيز من فارس إلى الشام، ثم إلى مصر بعد ذلك في القرن السادس قبل الميلاد ٥٢٥ ق.م، وهو الذي سلكه الإسكندر الأكبر في طريقه من مصر إلى الشام، إلى شمالي العراق، إلى فارس، نحو الهند في القرن الرابع قبل الميلاد ٣٣٤ - ٣٢٧ ق.م^(١). وفي الحقيقة أنه لم يكن لهم سبيل سواه. وإذا، فقد سجلت حملة خالد بن الوليد أنها أول حملة في التاريخ لغزو العراق من جنوبه.

ويرجع ذلك إلى الطبيعة الجغرافية للمنطقة، فلا يقع جنوبى العراق إلا شبه جزيرة العرب والخليج الفارسي. أما بلاد العرب فلم تكن في يوم من الأيام قبل الإسلام دولة حتى يكون لها تهديد لجيرانها، وأقصى ما كان يطمع فيه بعض أهلها أن ينزل أرض العراق تابعاً للحكم القائم فيه، وما وقع بين العرب والفرس قبل الإسلام في ذي قار لم يكن غزواً وإنما كانت معركة من أجل الدفاع عن العصبية والشرف، فقد انتصر العرب بالفعل دون أن يكون لذلك أى أثر استراتيجي في المنطقة، إذ اكتفوا باعتبار أنهم غسلوا العار عن شرفهم وانتصروا لعصبيتهم، ثم عادوا بعدها إلى منازلهم. وأما الخليج فكانت سواحله فارسية أو عربية خاضعة للفرس، فهو خليج مؤمن، السلطان فيه لفرس وحدها دون منازع.

لذلك نعتقد أن حملة خالد بن الوليد كانت مفاجأة استراتيجية كبرى، إذ تركزت كل القلاع والحصون القوية إلى الشمال والشمال الغربي من العراق في حين لم يكن في الجنوب من الدفاعات الثابتة إلا ما قد أنشئ لصد غارات العرب الرحل مثل حصن المرأة وحصن الرجل وخندق سابور وحصون الحيرة، وهو نقص كبير بالنظر إلى أساليب الدفاع التي سادت في القرون الوسطى والقديمة والتي كانت تعتمد أساساً على الأسوار والقلاع والحصون القوية المستعدة لحصار طويل تفقد فيه القوات المهاجمة حماسها واندفاعها وتستنزف مواردها المادية

(١) Oxford University - The Middle East.

والمعنوية. هذا النقص إنما أدى إليه اعتبار الجنوب منطقة أمان لعدم قيام دولة به، ولعدم حدوث أى تهديد سابق من هذه التخوم.

مفاجآت تكتيكية

كذلك أمسك خالد بزمام المفاجأة التكتيكية. والمفاجأة فى تعريفها الحربى هى فعل ما لايتوقعه العدو بما يوقع الارتباك فى صفوفه ودفاعاته وفى تفكيره، فيشمل ذلك التفكير أو يدفع صاحبه إلى أن يقدم على تصرفات غير مدروسة، مثال ذلك أن يستخدم تكتيكاً غير متوقع، أو بتطوير أسلوب القتال، أو استخدام سلاح جديد، أو تطوير استخدامه. وقد تتحقق المفاجأة بالزمان أو المكان، أو العدد، أو كشف أسرار العدو، أو بالخداع أو بالمبادرة، أو بالسرعة والمرونة، أو باختيار الهدف. والمفاجأة تكون استراتيجية أو تكتيكية. ولقد كانت حملة خالد فى حد ذاتها مفاجأة للفرس، فبالرغم من أن المثنى قد بدأ مناوشتهم والاشتباك معهم قبلها، ولكن يبدو أن حشد خالد لقواته قد تم دون انتباه الفرس، إذ إنه حين زحف نحو الأبله وبعث إلى هرمز بخطابه، خرج هذا الأخير للقائه على عجل فى «سرعان خيله» بشكل يوحى بأثر المفاجأة عليه، ولعله من أثر ذلك لم تتح له فرصة استكمال قواته. ثم نجد مفاجآت تكتيكية من خالد لعدوه فى كمين الوحلة، وفى اقتحام خندق الأنبار بردمه بالابل العجاف، وفى مفاجأته عقة فى عين التمر باحتضانه وحمله إلى صفوف المسلمين أسيراً، فهذا أسلوب فى القتال لم يكن مألوفاً، وفى الهجوم الليلي على عدوه وكبسه فى المصيخ، وفى الثنى، وفى الزميل فى سرعة وخفة حركة لم تدع لهم فرصة أو مجالاً للتصرف أو القتال.

هذا ومن أعنف المفاجآت أن ترتد المفاجأة التى أعدها العدو بنفسه إلى نحره. ولقد استطاع خالد أن يفعل ذلك فى كاظمة، حين طلب هرمز مبارزته مبيتاً الغدر، فأحبط خالد تدبيره بتدريبه العالى ولياقته البدنية التى لم يحسب هرمز حسابها. وكذلك فى المقر، حين فاجأ المجوس المسلمين بحجز الماء عن الفرات حتى جنحت سفنهم، فتحرك خالد من فوره وفاجأ القوة التى كانت تحرس حجز الماء، وأعاد جريانه ثم واصل سيره، فكان من أثر ظهوره المفاجئ على أبواب الحيرة أن انسحب آزاذه دون قتال نحو المدائن.

يقول العقاد: «لم يخف على خالد قط مقتل العدو من قوته الأدبية حينما عمل إلى هذا المقتل فى منازلاته للمستبدين والطغاة. فإنهم فى جيوش الأمم التى طال عهدها بالظلم يرتفعون إلى مقام الأرباب من حيث يتحدر رعاياهم إلى مقام القطيع السائم. فإذا أصيب

القائد فى الجولة الأولى، فكثرة الجند بعد ذلك معوان على الهزيمة وليست بالوقاية منها، لأنها كثرة من الخوف والذعر وليست كثرة من الثقة والشباب^(١)».

تأمين الحملة

إن استيفاء أسباب الأمن عنصر هام من أهم مبادئ الحرب التى يؤدى إهمالها إلى كوارث محققة للجيوش. فمن واجب القائد ألا يترك ثغرة تتيح لعدوه أن يناله منها. ومن الأخذ بعنصر الأمن تعمية عيون الأعداء وحرمان عملائهم من أن ينبشوا بين صفوفه أو يعرفوا شيئاً من أخباره أو أن يتبينوا أهدافه، وأن يتحرى أخبار عدوه بكل وسيلة. وإن تدمير الطيران اليابانى للأسطول الأمريكى فى بيرل هاربور فى الحرب العالمية الثانية مثال واضح لغفلة الأمريكين التى أفقدتهم عنصر الأمن فى تلك المعركة.

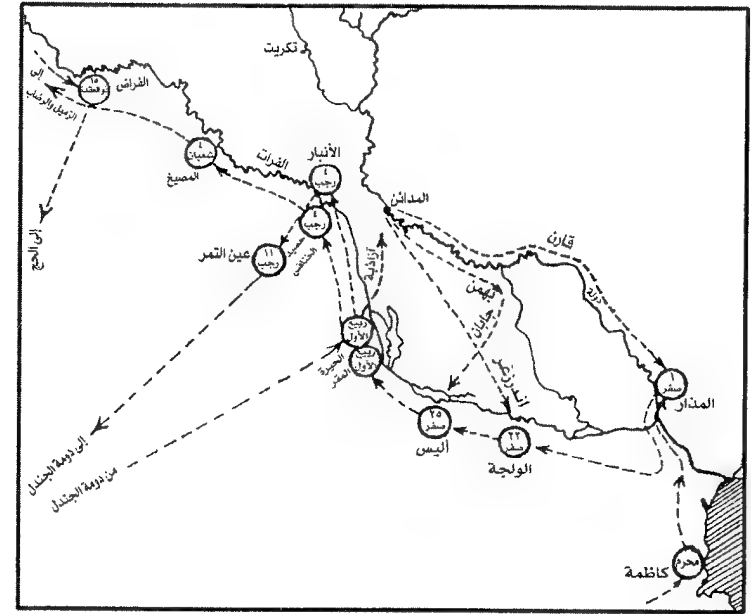
هذا وقد يكون لاختيار الهدف أثره على عنصر الأمن أو نتيجة للأخذ به، وعلى سبيل المثال يرى بعض المحللين الحربيين أن هتلر تجنب الأخذ بعنصر الأمن بمهاجمته روسيا فى الحرب العالمية الثانية، وأنه لو كان اختار الشرق الأوسط وركز عليه جهوده لكان حقق لجيوشه الأمن ولكسب الحرب فى رأى الكثيرين. وقد يكون اختيار الهدف للهدف ذاته، وقد يكون لما بعده، كتتحقيق الأمن للقوات أو للوصول إلى أهداف أخرى تالية كما حدد أبو بكر هدفه الأول بالحيرة كخطوة نحو هدفه الأكبر وهو المدائن.

ولقد كان واجب الحملة أن تغزو العراق ابتداء من الأبله إلى الحيرة فى حين يغزوه عياض من المصيخ إلى الحيرة، وحينئذ يتم تطهير غرب الفرات من كل قوات فارسية أو موالية للفرس، وتكون جيوش المسلمين قد وقفت على حدود لا تبعد عن المدائن سوى خمسين كيلو متراً، فيقوم أحدهما بعبور شبكة الأنهار إلى المدائن على أن يكون الجيش الثانى عوناً له وحامياً لظهره. وتحرك خالد من النواج فى العروض نحو الأبله، فكانت أولى معاركه فى الكواظم. ومع ذلك فقد كانت طبيعة أرض العراق المليئة بالأنهار والمستنقعات والبطائح دفاعات طبيعية قوية كموانع مائية لم يألف المسلمون من قبل العمل خلالها، وإن كبرى الجيوش حتى الحديثة منها بما جهزت به من معدات خاصة وسلاح للمهندسين لتهايب التورط فى معارك العواقر المائية. وقد كان من الممكن للفرس أن يستفيدوا منها لو أن قادتهم قد فطنوا لذلك، ولكنهم لم يفتنوا، فاستطاع خالد فى كل معاركه أن يستدرجهم إلى القتال

(١) عبقرية خالد ١٨٣.

خارج هذه الموانع، ودارت كل معاركه - فيما عدا المذار - على أرض الصحراء أو على حافتها. وإذا شرع خالد في الزحف نحو الحيرة، كان عليه وهو يشن هجومه أن يؤمن جيشه من أن يؤتى من أى اتجاه، سواء من أمامه أو من خلفه أو عن يمينه أو عن شماله. ذلك ما يعبر عنه خبراء الحروب بعنصر الأمن. استطاع خالد أن يتحكم فيه فأمن قواته في كافة عملياته، في حين عجز قواد الفرس عن تحقيقه، فأتاحوا له أن يتمكن منهم المرة تلو المرة.

فمن حيث ما هو أمامه، كان دائماً يقدم مقدمة سريعة وقوية من الفرسان تسبقه في المسير ك رأس حربة، هذه المقدمة كانت من بنى شيبان عليها المثنى بن حارثة وذلك حتى الحيرة، ثم كانت من بنى قميم عليهم الأقرع بن حابس بعد الحيرة. وفي نفس الوقت حمى ظهره باستخلاف سويد بن قطبة الذهلي وقطبة ابن قتادة وشريح بن عامر وسويد بن مقرن على أسفل دجلة وشط العرب، وليكون يقطاً لما قد يحدث في تلك الجهات إن حدث شيء.



خريطة رقم (٢٥) - عمليات خالد بالعراق، مقياس ١/٩٠٠٠٠٠ تقريباً

ولقد بعث خالد بالمثنى بعد الكواظم لا لمطاردة الفلول فقط، بل ولتطهير الجناح الأيمن للتقدم، وما كان لقائد أن يواصل السير من جنوب العراق إلى وسطه وشماله وجناحه الأيمن مكشوف، فكانت موقعة المذار. كانت المذار شرقى دجلة، وصل إليها المسلمون بعبور دجلة من موضع فوق شط العرب، فهي لم تكن على محور الأبله - الحيرة المرسوم للتقدم، غير أنها لم تكن خروجا على استراتيجية الفتح التي وضعها أبو بكر والتزمها خالد، وإنما كانت من صميمها حيث كان عليه أن يوفر عنصر الأمن لجيشه المتقدم من أن يضرب من جانبه الأيمن، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فلما أتم عمله بالمذار شعر بخطر استمرار وجوده بها وجيوش الفرس تحاول أن تحصره وتأخذ عليه السبل، حيث لا مخرج، وتطبق عليه بفكي كماشة قوية من أمامه ومن خلفه، وهو محصور عن يمينه بالمستنقعات الناتجة عن مياه دجلة وبعض أنهار الأهواز، وعن شماله بأنهار العراق وبطائحه. كان أمامه جيش بهمن جاذويه في حين كان أندرزغر يدور بجيشه خارجاً من السواد، فلو اختار خالد الالتحام بهمن، أو لو بقي في المذار على سبيل الغفلة عما يجري أو التردد عما يتخذ حياله لكانت كارثة. إن خطأ واحداً في وضع حساس أو موقف حاسم يتوقف عليه مصير جيوش ومصائر أمم، ولذلك تعنى الدول أكثر ما تعنى باختيار قادتها الذين تضع بين أيديهم أمانة الحفاظ على جيوشها وزهرة رجالها وصنع تاريخها. وكان خالد يدركها بسليقته الحربية، فبادر بالخروج من ذلك الموضع قبل أن يتحول إلى ورطة. وهذا ما لم يدركه خالد بن سعيد وهو يتقدم بالمسلمين في الشام فتبدد جيشه. فإذا تساءلنا عن السبب في أن الفرس لم يستطيعوا أن ينالوا من جيش خالد كما كان ينال منهم، وجدنا الجواب في أن خالد كان يؤمن قواته في كل خطوة حتى يحول دون وقوع ما لا يريد هو، في حين فات ذلك قادة الجيوش.

مخابرات يقطه

إن الحصول على المعلومات يحقق هدفين، هدفاً مباشراً وهو وضع خطة ضد العدو، وهدفاً غير مباشر هو توفير الأمن لجيوشنا ضد تحركاته وخططه، وبالتالي تجنب الوقوع في المفاجآت، فالمعلومات ركن هام من أركان الأمن.

وقد كان خالد يتحرك ويضع خطته دائماً على أساس معلومات مسبقة تدل على نشاط مخابراته واستكشافاته في الميدان. والذي يظهر لنا في أكثر من موضع، أن هذه المخابرات قد قام بتنظيمها القائد الفذ المثنى بن حارثة، ولعله كان أقدر قادة الفتح على ذلك، ليس فقط

لألمعيته وقدرته الفائقة على التنظيم، وإنما أيضاً لانتمائه إلى بني شيبان من بكر بن وائل الذين كانت منازلهم بتخوم العراق وحوض الفرات وتمتد شمالاً إلى هيت، فكانوا بحكم مساكنهم واتصالاتهم مادة صالحة لأن يكونوا عيوناً. فما وجدنا تحركاً لجيش من جيوش الفرس إلا وكان علمه عند المشنى في الوقت المناسب، بل ومن بدء خروجه من المدائن، وما من شاردة ولا واردة في بلاط فارس إلا وكان يعلمها في وقتها.

كذلك كان خالد يعتمد على استخباراته في الميدان. وكمثال لذلك حين اقترب من حصن الأنبار فقال: «إنى أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم ولا توخوا غيرها...» من أين لخالد أن القوم لا علم لهم بالحرب وهم مازالوا في حصنهم لم يلقهم؟ لم يذكر الرواة لنا شيئاً عن ذلك، والذي نحسبه أنهم وقفوا فوق أسوارهم معرضين أنفسهم لأن تنالهم سهام المسلمين بدلاً من أن يستتروا خلف المزاغل. ولا يكاد النظر يسعفنا باستنتاج بديل. هذه الظاهرة لفتت نظر خالد فاستنتج منها معرفة وبني عليها خطة، ثم أمر جنده... فارموا رشقاً واحداً ثم تابعوا...» رشقاً واحداً حتى ينالهم بأكثر إصابات قبل أن يتداركوا أمرهم. ولم يكن غريباً بعد ذلك أن يفقأ لأهل الأنبار ألف عين.

مبادأة ومبادأة

وكان خالد يحرص حين يجد الفرس يقذفونه بالجمع تلو الجمع، أن يبادر بالالتحام مع كل جمع على انفراد قبل أن يتم لقاءهم، ومن هنا كانت كثرة المعارك، فكانت كاظمة، ثم المذار، ثم الوجلة، ثم أليس، ثم المقر، ثم الحيرة. وكانت الأنبار، ثم عين التمر. وكانت حصيد، ثم الخنافس، ثم المصيخ، ثم الشنى، ثم الزميل، ثم الفراض. ومع كثرة المعارك، ومع الكثرة العددية الساحقة للفرس وعملائهم من العرب الذين التحم بهم خالد، لم يفلحوا قط أن يحصروه أو أن يوقعوه في مأزق، ولم يمكنهم هو أبداً من ذلك بفضل مبادرته ومبادأته والتزامه الهجوم دائماً. كان أسداً إذا احتاج الأمر إلى تأسد، ثعلباً إذا احتاج إلى ثعلبية. وهكذا الحرب مكر وقوة، خطة وتنفيذ. وإلى هذا يلفت رسول الله ﷺ نظر المسلمين إذ يقول: «الحرب خدعة».

فالعامل الهجومي الناجح يؤدي إلى الحصول على المبادأة وحرية العمل وفرض الإرادة على العدو. والهجوم في حد ذاته، يساعد على رفع الروح المعنوية للمهاجم. قال نابليون: «لا تتخير الدفاع إلا في حالة عدم توفر ميزة المبادأة لديك، وإذا أجبرت على الدفاع فيجب أن

يكون دفاعك لكسب الوقت أو تركيز احتياطيك وإخراج العدو من قاعدة عملياته، على أن يكون هدفك دائماً هو الهجوم». وكذلك كان خالد. كان أسلوبه أن يمسك بالفعل، وأن يترك لعدوه رد الفعل. ووفقاً لرأى أكثر رجال الحرب أن الضربة الأولى تحقق ٥٠٪ من النصر، فإذا تمكن بها من شل قوى العدو ومنعه من الضربة الثانية، فقد اقترب من ١٠٠٪.

توفير الحشد والمرونة والسرعة

ولقد أظهرت هذه الحملة المقدرة الفائقة لخالد على الحشد، والحشد هو إعداد كل الوسائل المعنوية والمادية من رجال وعتاد، في الزمان والمكان المناسبين لتوجيهها إلى المعركة. لقد كان خالد في ألفين حين نزل النجاج، وكان مع المشنى وأمراء الجند الذين انضموا إليه ثمانية آلاف، فصاروا عشرة آلاف، واستطاع خالد أن يحشد ثمانية آلاف آخر من ربيعة ومضر قبل أن يسير إلى كاظمة. هذه المقدرة على الحشد من أهم عوامل النجاح في الحروب، ويظهر ذلك من المقابلة بين ما فعل خالد وما كان من أمر عياض بن غنم، فإن عياضاً لم ينجح في أن يزيد قواته، فاستعصت عليه حصون دومة الجندل حوالى سبعة أشهر حتى استعان عليها بخالد.

ولم يكن الأمر قاصراً على الرجال، وإنما شمل وسائل الحملة أيضاً. وقد اتبع خالد الاستخدام التبادلي للخيال والإبل (يرجع إلى فصل الخيل من الجزء الأول)، وقد ساعده على ذلك خفة المؤونة الإدارية (يرجع إلى بحث المطعم والمسكن من الجزء الأول). وقد منحه هذا ميزة كبيرة على عدوه في خفة الحركة وسرعة تحريك القوات. وهذا العنصر - خفة الحركة - يكمل في الحرب الخاطفة عنصر المفاجأة، فإن تأثير المفاجأة يكون وقتياً، أما لكى يتم ويستمر فلا بد من تحريك قوات أكثر فاعلية إلى الميدان الجديد للالتحام التالى قبل أن يفيق العدو من المفاجأة ويتخذ الموقف المناسب. وتتوقف خفة الحركة على سرعة القوات وحسن قيادتها وإدارتها وقدرتها على المناورة. ويؤثر على هذا نوع الوسائل ومناسبتها للسير في كل أنواع الأراضي.

ولولا مرونة خالد لما تحقق له كثير مما نجح في تحقيقه من حشد. ومن المرونة سرعة اتخاذ القرار المناسب وفقاً لتطور الموقف، وهنا نجد أنه لا يكون ثمة فائدة من سرعة حركة الجيش إذا لم تقترن بمرونة القائد. ولولا سرعة حركة جيشه لما استطاع خالد أن يحشد أقصى ما لديه من قوى في الزمان والمكان المطلوبين. وأخيراً لولا ذلك كله مجتمعاً لما أمكنه أن يمسك بزمام

استغلال النجاح

يقرر العسكريون المطاردة كأصل من أصول الحرب، ويفسرونها بأنها متابعة استغلال النجاح. ذلك أن النصر في معركة يضع العدو في مركز أضعف مما كان عليه قبلها مادياً ومعنوياً، مما يتيح فرصاً أكبر لتوجيه مزيد من الضربات الفعالة. ولما كان الغرض من المعركة غالباً هو سحق قوات العدو، فإن أول واجب للقوات المنتصرة بعد انكسار العدو هو القيام بعملية تشطيط (تمشيط) Finishing لقواته المنهزمة والإيغال في أرضه وتخريب منشآته أو الاستيلاء عليها ما أمكن، وذلك قبل أن يتمكن من إعادة تنظيم قواته وتعويض خسائرها والتقاط أنفاسه، فإن النجاح يمهّد للنجاح كما وأن الفشل يفتح باب الفشل.

وفي هذه الحملة نجد قائدها يأخذ بهذا الأصل من أصول الحرب في ذات السلاسل وفي أليس وتخريب أمغيشيا، وفيما بعد فتح الحيرة وفي حصيد وفي الثني من بعد المصيخ. وبالجملية فهذا واضح من السرعة التي كان خالد يكتسح بها أرض العراق، فقد قطع ما بين كاظمة والحيرة في أربعين يوماً، وكانت جميع عملياته في العراق في نطاق أربعة عشر شهراً ليس إلا، متضمنة فترة انتظار عياض وفتح دومة الجندل والخروج إلى عرفات لأداء فريضة الحج.

القيادة والإدارة

كان خالد محباً لجنوده مقدراً لصفاتهم وميزاتهم عارفاً لها، مقراً لهم بأفضالهم منصفاً لهم، وفي هذا ما فيه من رفع معنوياتهم والاستحواذ على محبتهم وإحقاق العدالة فيما بينهم. وما أشد اعتزاز هذا القائد العظيم بجنده العظام إذ يصفهم لهمز بقوله: «... فقد جئتكم يقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»، وقد أعادها في رسالة إلى ملوك الفرس، كما وصفهم في رسالة ثالثة إلى مرزبتهم بأنهم: «... يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر». ويظهر هذا الاعتزاز أيضاً حين بلغ كاظمة، فقال لهم والماء في أيدي الجوس. «ألا انزلوا وحطوا أنقالكم ثم جالدوهم على الماء فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين». مثل هذا الكلام الطيب من قائد عن جنده في الميدان لا بد وأن يكون له أثر السحر. ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. نقول الحق، لقد كان خالد عميقاً في علم النفس العسكري قبل أن يخط أي أستاذ متخصص حرفاً في هذا العلم بقرون.

وليس هذا فحسب. لقد كان أيضاً أخذاً بعلم الإدارة بمفهومه الحديث. ما هو علم الإدارة؟

المفاجأة. ولهذا نرى بحق أن خالداً هو أول من ابتكر عمليات الصاعقة وأول من نظم واستخدم جيش الصاعقة، وربما كان أيضاً أول من حقق الحرب الخاطفة بفضل ما اجتمع له من مرونة قيادته وخفة حركة جيشه، بالإضافة إلى مبادرته المستمرة، وهذا كله أتاح له أن يحشد أقصى ما لديه من قوى ضد أهدافه.

اختيار التكتيك

يعد اختيار الهدف والحفاظ على الغرض من أهم مبادئ الحرب. ويتعلق باختيار الهدف تحديد الزمان والمكان والتكتيك المتبع للوصول إليه.

وقد نجح خالد نجاحاً باهراً في استخدام تكتيك التطويق في كمين الوجبة، وفي عين التمر، وفي فتح دومة الجندل، وفي المصيخ، وفي الثني، وفي الزميل، بحيث يحول بين عدوه وبين الإنسحاب من الميدان حين يكون ذلك الإنسحاب في صالحه.

هل كان كمين الوجبة وحي الخاطر وتفكيراً مفاجئاً هبط على ذهن خالد دون مقدمات تؤدي إليه؟ هذا جائز ولا سيما من قائد مثل خالد ذي ذهن خصب لا تنفذ له أساليب وحيل. ولكن مادام أن العجم كانوا يعدون له كميناً ليطوقوه فيه، وقد بادر بالخروج منه، فالذي يغلب على ظننا ويهدينا إليه الفكر والتخمين، أن فكرة التطويق بكمين في ذلك الحين بالذات إنما استوحاها من تدبير أعدائه، التقط الفكرة منهم بليل فصبحهم بها وهم أبعد ما يكونون ظناً أن يفعلها بهم وهم يريدون أن يفعلوها به. يدعم ذلك أن خالد لم يستخدم تكتيك الكمان قبل الوجبة قط.

لقد كان خالد يعرف دائماً ما هو أنسب تكتيك لما هو بسبيله في كل معركة خاضها. فحين تقدم نحو الأبله لا شك أنه كان يدرك أن دوران المعركة على أسوارها وفي طرقاتها ليس في صالحه لأنه يتيح لعدوه أن يقاتل من وراء جدر، فكانت رسالته إلى هرمنز مخرجة له من مدينته، وما كان لهرمنز أن تصله رسالة كتلك، ثم ينتظر الغزو داخل مدينته. ولم تكن عنجهيته الفارسية لتسمح له بذلك، فكان من شأن تلك الرسالة من خالد إليه أن جعلته يسعى إلى حتفه بظلفه في عجلة من أمره... جعلت هرمنز يفعل ما هو صالح لخالد. هذا الذي يقال له: فرض أرض المعركة.

هو علم استخدام الموارد والوسائل المتاحة بأعلى كفاءة للحصول على أكبر نتيجة. ولقد رأينا كيف استخدم خالد كل ما استطاعت يده أن تصل إليه، تارة بالإنبل وتارة بالخيال وتارة بالسفن، وتارة بالنبال وتارة بالحرب النفسية وأخرى بالخابرات، والأهم من ذلك بمعاونيه. كل وسيلة فيما تصلح له وحين يحتاجها الموقف. رأينا من ذلك ما يغنيا عن إعادة ذكره. الإدارة هي فن تشغيل الغير لا مقدار ما يقوم به المسئول بنفسه. فالمسئول الفاشل هو الذى يحاول أن يقوم بعمل كل شيء بنفسه، أو أن يتصور أنه يستطيع ذلك. ولا يتحقق الرقى فى الإدارة إلا بمنح السلطة للمرؤسين، وهو ما يسميه علم الإدارة الحديث «التفويض» وذلك بعد أن يتأكد من أن معاونيه يسيرون فى الطريق السليم، وبذلك يتاح له الوقت الكافى للتفكير والتدبير والتوجيه والإشراف والمراجعة. ومن الصفات الهامة الواجب توافرها فى شخص المسئول - قائداً كان أو مديراً أو وزيراً أو سوى ذلك - أن يكون قادراً على تفويض السلطة دون أن يفقد السيطرة. ولا يكفى فى هذا مجرد الاقتناع به بل يلزم المقدرة على القيام به وقليل من يستطيعه.

ومن أسباب الفشل فى ذلك :

١- عدم ثقة المسئول فى مرؤسيه.

٢- عدم استعداد المسئول لتحمل المخاطر.

٣- الخوف من أن يظهر معاونون كفاءة تفوق كفاءة القائد.

ولم يكن خالد واحداً من هؤلاء. فحيث لا يوجد رجل ثان لا يوجد رجل أول، والعمل الناجح هو الذى لا يشعر بغياب مديره وقائده. هذا ما يقرره علم الإدارة فى أحدث ما وصل إليه، وهذا ما فعله خالد بن الوليد.

كان خالد مدرسة فى فن الحرب، حرص على أن ينقل فنه وعلمه وتجربته إلى تلاميذه، وكان يسره أن يراهم يتخرجون من كليته الحربية، فنجد فى معارك العراق كثيراً من الأسماء التى أبرزها خالد وأضفى عليها نورا تضىء به. لقد لقنهم دروسه فوجد منهم من استوعبها وهضمها، فرشحهم لقيادات ومنحهم من ثقته وأتاح لهم الفرصة ليثبتوا حسن رأيه فيهم، بل لقد ترك لهم الميدان كاملاً شهراً فى خروجه إلى دومة الجندل، وشهراً آخر فى خروجه إلى مكة لأداء فريضة الحج. دعنا من القيادات التى ظهرت وبرزت مستقلة عن تكوينه وتربيته، مثل المثنى والقعقاع وعاصم بن عمرو، ولا بد أن يكونوا أيضاً قد تأثروا به، فعملهم معه جزء

هام من تجربتهم، ولكننا نغنى أمثال أبى ليلى وأعبد ابنى فدى السعديين والأقرع بن حابس وبسر بن أبى رهم الجهنى وسعيد بن مرة العجلى وضرار بن الأزور الأسدى وضرار بن الخطاب الفهرى وعدى بن حاتم الطائى وعروة بن الجعد البارقى وعصمة بن عبدالله الضبى. لقد كان بعض هؤلاء بارزين مشهورين كزعماء فى أقوامهم ولكنهم لم يشتهروا كقادة حرب حتى أبرزهم خالد، فساهم مساهمة فعالة مجدية فى تخريج فوج من القادة العظام يعتمد عليه أعظم اعتماد فى استطراد الفتوح. يضع المؤرخون الحريون فى صفات القائد الناجح شرطاً، أن يكون ذا ماض ناصع مشرف، وقد جعل خالد لهؤلاء من أعمالهم معه هذه السوابق التى يعتد بها وأعطاهم شهادات التخرج كقادة عظام.

خالد والقسوة فى الحرب

وبعد فيطيب للبعض أن يعيب على خالد شدته وقسوته و«إيغاله فى سفك الدماء» ويسوقون الشواهد من أليس وعين التمر ودومة الجندل. وينسى هؤلاء أنها الحرب، وللحرب فى بعض الأحيان ضرورتها. لقد كانت أعداد كبيرة من الأسرى التى لم يكن خالد مستعداً بجيشه قليل العدد والموارد لإيوائهم إذا ما اختار الإبقاء عليهم والاحتفاظ بهم كأسرى، ثم لم يكن ليطلق سراحهم ليعودوا إلى قتاله وهم أعداء وخصوم، والحرب بينه وبينهم مازالت قائمة. لقد كان فى عجلة من أمره، والزمن عنصر له خطره فى الحروب، فكان حريصاً على أن ينتقل من معركة إلى أخرى على وجه السرعة، ولم يكن من الحكمة أن يوقف زحفه أو يعطله من أجل الحفاظ على أرواح أعداء، من مبدئهم ألا يبقوا على أحد من المسلمين ظفروا به. فليس عيباً أن كان خالد حازماً، ولم نسمع على مدى التاريخ عن قائد أثر أرواح أعدائه فى الميدان على أرواح قومه. ولقد رأينا معاملته لأهل الحيرة وكل من صالحه، لم يمس منهم شعرة لأنهم سالموه، فلم يكن خالد يقتل فى الحرب إلا وفقاً لضرورات الحرب.

وأين ما فعله خالد من قبله القرن العشرين الذرية التى ألفتها الولايات المتحدة الأمريكية على هيروشيما وناجازاكي فى السادس والتاسع من أغسطس (آب) ١٩٤٥ دون مبرر جدى، حيث كانت اليابان مستعدة فعلاً للاستسلام وتعرضه، هذا الحدث الهمجى فى تاريخ البشرية يستحق أن ينصب له مآتم إلى أبد الدهر، والعجيب أن يسبغ على ذلك ثوب البطولة والفضيلة. أدى قس الفرقة الجوية ٥٠٩ للطيارين الأمريكيين، هذه الصلاة قبل أن تقلع بهم الطائرة الحاملة لأول وحش ذرى محا هيروشيما ومن عليها من الوجود :

«أيها الأب القوي يا أب الرحمة، فلتزع هؤلاء الرجال.

سيطيرون الليلة، احمهم واحفظهم وجنبهم لعنات السماء واشملهم بعنايتك، ولتحفظ أجسادهم وأرواحهم، وردهم إلينا سالمين، هبنا الشجاعة والقوة في هذه الساعات التي نحن فيها، وكافتهم على جهودهم.

أيها الأب، هب عالمك السلام، ودعنا نسلك طريقاً في ثقتك وهديك. «إنك موجود الآن وإلى أبد الأبدن. آمين»^(١)

إن تعذيب الأسرى للحصول على معلومات أو للانتقام والتشفى تقليد مؤسف معمول به من فجر التاريخ وحتى يومنا هذا، وذلك بالرغم من اتفاقية جنيف الدولية التي تقضي بتحريمه. وفي آثار مصر القديمة نقوش لتحتمس الثالث يقبض بيسراه على أسراه ويضربهم بيمينه، ولغير تحتمس من فراعين مصر الأقدمين، وللملوك في كافة بقاع الأرض في كل العصور. ومع ذلك فإن هذا التقليد الهمجي لم يعرفه تاريخ الفتح الإسلامي ولم يمارسه قط القادة المسلمون المنتصرون، ولم يفعله خالد بن الوليد أو غيره منهم لا في مجال الحرب واخبارات، ولا في مجال نشر الدعوة الإسلامية. وقد حرم الإسلام ذلك كما حرم التمثيل بالقتلى. فإذ سائرنا بؤس الإنسانية عبر التاريخ حتى قرننا العشرين وجدنا التعذيب قد صار علماً وفناً!! وجدنا السفاح بافلوف قد ابتدع ما عرف بغسيل المخ، فوضع لتعذيب البشر بدنياً ونفسياً قواعد وإرشادات يشيب لها الوليد، وذلك بعد تجارب أجريت على الحيوانات ثم على الناس. غسيل المخ هذا، تمارسه الآن دول تغطي رقعتها أكثر من نصف السطح المعمور من الأرض. والحقيقة التي لا ينكرها إلا مكابر، أن التاريخ لم يعرف غزاة أرحم من الفاتحين المسلمين الأوائل.

رأي مؤلف

ذكر إدوارد^(٢) عطية رأيه في أسباب نجاح حملات الفتح الإسلامي فقال: «كان لدى العرب ثلاثة أصول رئيسية:

١- المعنوية العالية لأمة جديدة بعثتها عقيدة جديدة، ولاسيما بعد انتصاراتها الأولى، فقد عرفت في نفسها داود يواجه جالوت القابل للإنكسار.

(١) جريدة الأهرام ٦/٨/١٩٧٠.

(٢) Eduard Atiyah - The Arabs. p.34

٢- عبقرية أهم قائدين - خالد وعمر - اللذين كانت حملاتهما المذهلة في سوريا والعراق ومصر، جذيرة بالوقوف إلى جوار أعظم الإنجازات الحربية لنابليون والإسكندر.

٣- استخدامهم لتكتيكات واستراتيجية جديدة مناسبة بصورة مثيرة للإعجاب للوسط الذي تحركوا خلاله للانقضاض على أعدائهم - ونعني بها الصحراوات غير المطروقة. وقد اشتملت تكتيكاتهم على استخدام فعال للفرسان التي لم يعرفها قط الرومان والبيزنطيون، بينما لعب الجمل في استراتيجيتهم دوراً في منتهى الأهمية في حمل الوحدات عبر مسافات طويلة في زمن قصير نسبياً، حتى كانوا يتمكنون من الظهور في نقاط حاسمة، على غير توقع، ظهوراً يغير الموقف تماماً - كما حدث حين استجاب خالد لطلب العرب الذين كانوا يهاجمون دمشق، فعبّر إليها من العراق ووصلها في أيام قليلة بالتعزيزات المطلوبة. ويضاهي الأستاذ برنارد لويس استخدام العرب للصحراء باستخدام البريطانيين للبحر. فالصحراء كانت هي الوسط الطبيعي للعرب وكانوا يعرفون طريقهم فيها حيث كان عدوهم يجهل ذلك. كانوا قادرين على أن يبرزوا فجأة من خلال قفارها للقيام بهجمة، وأن يتلاشوا خلالها كما ظهروا للإفلات من التعقب. وكانت الوحدات التي أنشئوا منها قوتهم في المناطق التي غزوها بمشابة تجهيزات استراتيجية على أهذاب الصحراء معادلة لمواقع جبل طارق ومالطة وسنغافورة في التاريخ البريطاني. أ. هـ.

الإستراتيجية والتكتيك الفارسي

عجز المخابرات

إذا ألقينا النظر على الجانب الفارسي، فأول ما يلفت النظر هو عجز المخابرات الفارسية عن إمداد حكومتها بما يلزمها. فبالإضافة إلى سلطان الفرس على الحيرة كان لهم نوع من النفوذ في البحرين وفي اليمامة، وكان لهم في كل منهما «مندوب سام» ولقد بعث خالد برسالته إلى هرمز مع أحدهما الذي وصف بأنه «أبو الزباذبة الذين باليمامة». ولكن من المؤكد أن القضاء على الردة في البحرين وفي اليمامة ودخولهما في سلطان المسلمين قد قضى على النفوذ الفارسي فيهما، وبالتالي لم تعودا من مراكز الاستطلاع وجمع المعلومات، ولم يبق للفرس من هذه المراكز سوى الحيرة، يمكنهم أن يجدوا من أهلها العرب عيوناً لهم، وهؤلاء كان شأنهم شأن الفرس أنفسهم إذ فوجئوا جميعاً بالاندفاع السريع والاكتماس الحاطف Blitz Kreig الذي وصل به خالد بن الوليد إلى الحيرة ثم تجاوزها. وفي الواقع أنه يمكن التماس العذر لهذا العجز، فلم يكن لأي مراقب أن يتوقع ما حدث! كيف وقد كانت جزيرة العرب إلى أيام قليلة قد لا تتجاوز عدد أيام الشهر تشتعل ناراً بحرب أهلية داخلية كانت أخبارها تصل إلى الفرس بلا ريب، ثم تتحول هذه النار من حرب أهلية إلى غزو خارجي لعملاقين من أكبر جيران شبه الجزيرة... إنه عمل مبهر، يعجز الفرس عن فهمه، وهم ليسوا مسلمين، لم يكونوا فهموا ما الإسلام ولا عرفوا المسلمين ولا واجهوا خالداً ولا فهموا أبا بكر.

ولقد وصلت رسالة خالد إلى هرمز قبل أيام قليلة من وصول خالد نفسه، فكانت مفاجأة تامة، يقول الرواة: إن هرمزاً بعث بالخبر إلى المدائن وخرج في «سرعان خيله» لملاقاة خالد وكأنما لم يستكمل حشد قواته. فإذا كان للفرس عيون بعد ذلك فلقد كان خالد يسبقها دائماً، كان جباراً في سرعة حركته حتى «يسبق الأخبار» فيكون هو نفسه الخبر قبل أن يصل الخبر، فأى أثر نفسى يحدثه ظهور الغزاة فجأة قبل أن يصل خبر عنهم! ولقد كان خالد حريصاً على ذلك، فنجده يشترط على من يدخل في ذمة المسلمين «أن لا يدلوا العجم على عورات المسلمين، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه... وإن خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان...» هذا ومن الجائز أن عيون الفرس في ذلك الوقت كانت أكثر نشاطاً في مجال السياسة الداخلية

حيث المؤامرات تحاك والدسائس تدار والانقلابات تدبر في تنازع على السلطة، فمن وصل إليها انشغل بمراقبة معارضيه وزجهم في السجون وصب العذاب عليهم.

المواجهة المباشرة

اللفتة الثانية أنه من الواضح أن خالداً أفقد الفرس عنصر المبادرة فلم تعد لهم استراتيجية معينة يواجهون بها الفتح، وصار قصارى ما يمكنهم صنعه أن يوجهوا قواتهم إلى حيث يتجه خالد في مواجهة مباشرة، والمواجهة المباشرة هي أكثر أساليب الحروب خسائر وأبغظها تكلفة وضحايا. لقد كان تقدم خالد يتخذ محور الأبله الحيرة، وكان التصدي له في مواجهته هو أكثر الخطط إغراقاً في العجز، وكان من الأوفق ولا شك أن يحاول الفرس ضرب ذلك التقدم من مؤخرته أو من أجنابه بتسيير جيوشهم نحو الأبله، ولو حدث هذا قبل سقوط الحيرة لاضطر خالد إلى التراجع. غير أن الفرس لم يفعلوا ذلك إلا بالنسبة لجيش قارن الذي اشتبك به خالد في المذار، وحتى هذه كانت لقاء بالمواجهة، إذ كان خالد حينذاك في كاظمة. ولا ريب أن خالداً هو الذي شل تفكير الفرس بتقدمه السريع، ومن المؤكد أنه كان يفتن إلى هذا الاحتمال، يدلنا على ذلك تركه حاميات بأسفل دجلة أثناء تقدمه. إلا أن الذي يهمننا إثباته هنا من زاوية الاستراتيجية الفارسية أنها حينذاك كانت استراتيجية مسيرة موجهة لا خيار لها.

من هنا يظهر الترابط الوثيق عند خالد في الأخذ بمبادئ الحرب، فإمساكه بالمبادرة كان يتيح له اختيار أهدافه من نقاطها الضعيفة... من الخلف أو من الأجناب. وضياح المبادرة من الفرس كان يقوت عليهم فرصة اختيار أهدافهم من نقاطها الضعيفة واضطراهم تبعاً لذلك إلى المواجهة من الأمام... من أقوى النقاط عند عدوهم.

سوء التوقيت

وتوقيت الهجوم على هدف يتفرع من مبدأ اختيار هذا الهدف. فإذا كان الهدف هارياً كان التكتيك مطاردة، وإذا كان الهدف سائراً فكمن له، كان التكتيك كميناً، وإذا أحيط بالهدف من جوانبه كان التكتيك تطويقاً، وإذا فرضت على الهدف أرض معينة كان التكتيك استدراجاً، وإذا كان ضرب الهدف من جوانبه أو من خلفه كان التكتيك مواجهة غير مباشرة، وهكذا تتعدد الأساليب والتكتيكات طبقاً لاختيار القائد وكل هذا تأسيساً على اختيار

الهدف. وفي كل هذا لابد من أخذ التوقيت في الاعتبار. وقد يكون التوقيت سليماً في الخطة، ولكن يكون الجيش غير مؤهل بوسائله لتنفيذ هذا التوقيت، إما لسوء تدريبه وكفايته وإما لضعف وسائله وإما لغير ذلك.

وإذا نظرنا إلى التكتيك باعتباره فن تحريك القوات في المكان والزمان المناسبين، نجد أن سوء التوقيت كان من السمات الواضحة للتكتيك الفارسي، فقد عنصر إحكام الزمان كما فقد حسن اختيار المكان. فلقد كانت خطة بهمن جاذويه لتطويق جيش خالد فكرة جيدة لا بأس بها، وقد أعد لها فكى كماشة، إلا أنه لم يؤقت لكل فرع من هذين الفرعين الوقت الذي يتواجد فيه في مكان مختار محدد ومدروس يأخذ في اعتباره تحرك خالد وسرعته المحتملة، وقد أتاح هذا النقص لخالد أن يخرج إلى المكان المناسب له وأن ينفرد بكل فك من فكى الكماشة فيكسره على حدة. ولقد كان إلحام أندرزغر بخالد في الوجة جموداً وإصراراً على خطة بدأ فشلها قبل المعركة بتغير الأوضاع التي وضعت على أساسها. وكان على أندرزغر حينذاك أن يغير من خطته، ولو أنه اعتصم بشبكة المسالك والمسطحات المائية بوسط السواد لكان خيراً له بدلاً من الاستمرار في إلحام تكتيكي ليس له استراتيجية معينة. كذلك رأينا الفرس «ينتهزون» فرصة خروج خالد إلى دومة الجندل ليشنوا هجوماً مضاداً على المسلمين بالعراق، فماذا فعلوا في هذا الانتهاز؟ تباطؤوا في اتخاذ القرار وتلكأوا في السير ولم يعنوا بتاتا بوضع توقيت لخططهم تكفل لهم الفراغ منها قبل رجوع خالد. تلكأوا حتى تم لخالد فتح دومة الجندل والرجوع إليهم ففضى على القوات التي حشدوها واحتشدت لهم لهذا الغرض في أربعة مواقع كل على حدة.

معنوية منهارة

ورابع ما يلفت النظر، أن الروح المعنوية في المعسكر الجوسي كانت في الحضيض، ولو كان تحت الحضيض درك لكان لها، الجند والقادة في ذلك سواء. ولقد رأينا كيف انسحب آذاذه من الخيرة فسقطت في يد خالد دون معركة، لأن المرزبان لم يكن يتوقع معاونة عاجلة من المدائن، في حين كان يمكنه الاعتماد على نفسه وعلى موارده وإمكانياته المحلية، أو على الأقل يحاول ذلك، غير أنه لم يحاول. كما رأينا صلح شيرزاد لخالد على أن يترك له الأنبار وينسحب في خيله إلى المدائن، ومهما كانت مبررات ذلك الانسحاب من وجهة نظر صاحبه فإنه لم يعن كثيراً أو قليلاً بأمن ووضع القوات الفارسية المرابطة في حصن عين التمر والتي

كان سقوط الأنبار يؤثر عليها تأثيراً خطيراً يعزلها عن قاعدتها. كذلك وجدنا مهرا ن ينسحب بالحامية الفارسية من عين التمر دون قتال مجرد انهزام العرب المواليين له وكأنما صار شعار كل منهم أن ينجو بنفسه. يقول المعلق الحربى الشهير ليدل هارت:

«إن التحرك في الاتجاه المتوقع يحفظ للعدو توازنه فيزداد قدرة على المقاومة والدفاع. وفي الحرب كما في المصارعة، حتى إذا تسنى لك إلحاق الهزيمة بعدوك دون زحزحة أقدامه والإخلال بتوازنه، فإنما يكون ذلك باستهلاك قواك أنت استهلاكاً لا يتناسب مع الضغط الواقع عليه. وحينئذ لا يتأتى النصر إلا إذا كانت قوتك تفوق قوة عدوك تفوقاً كبيراً بوجه من الوجوه، وقد تكون النتيجة مع ذلك ضعيفة. أما التاريخ العسكرى في كافة عصوره فيقول عكس هذا. يقول إنه في جميع المعارك الحاسمة تقريباً يكون الإخلال بالتوازن النفسى والمادى للعدو هو المقدمة الحتمية للإجهاد عليه».

ولا شك أن التوازن النفسى كان مختلاً لدى العجم ومن حالفهم من العرب.

فقدان التجانس

أما خامس اللفات فهي أن الجيوش الفارسية كانت تتكون من عناصر ضعيفة من حيث معدنها. فكما رأينا نماذج من ضعف الفكر الحربى عند القيادات، كذلك لمسنا ضعف القائد في قيادته وقدرته على إنفاذ ما يرى في جنده. ولقد كان جابان في أليس مثلاً لذلك. كما ظهر في جنود الفرس ضعف التدريب وفقدان الروح المعنوية وتنوع الفئات والمواطن. فكان منهم أهل الأهواز (شرقى أسفل دجلة وشط العرب) وأهل فارس (مما وراء الأهواز من بلاد إيران) وأهل الجبل (شرقى دجلة من أوسطه إلى أعلاه) وأهل جيلان (ما جاور بحر قزوين من جهة دجلة) وأهل السواد (ما بين دجلة والفرات) وأهل الحيرة وأهل الجزيرة من نصارى العرب. ولم يكن بين هؤلاء جميعاً روابط وألفة، بل لقد كانت لغاتهم تتباين وتختلف، ولسنا نقصد بذلك اختلاف الفارسية عن العربية، بل إن لكل فئة ممن ذكرنا من العجم لغته. وكان الفرس يحتقرون حلفاءهم من العرب، فكان جيشاً تنقصه وحدة العقيدة أو حتى الوحدة القومية أو أى وحدة أخرى من أى صنف. هذا في حين كان جيش المسلمين الذى يواجههم، لا نجد في وصفه خيراً من قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(١). كان المسلمون جد فرحين بوحدتهم التى بها

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

صاروا يقاتلون عدواً مشتركاً بعد أن كانوا يضرب بعضهم وجوه بعض.

خلاصة القول أنه كان هناك امتيازات في صالح الفرس. كانوا الأكثر عدداً الأفضل عدة، كان بيدهم سلاح تكتيكي لم يكن لدى المسلمين مثله ونعني به الأفيال.. كانوا يحاربون على أرضهم، وهي أرض ذات ميزات دفاعية ممتازة. ولكنهم مع هذا كانوا جنوداً جبناً ضعفاء غير مدربين.. وكانت قياداتهم قيادات هزيلة لا فكر لها ولا عقيدة ولا شجاعة، وكانوا يجهلون المزايا الدفاعية لأرضهم الشديدة التعقيد بشبكات المسالك والمسطحات المائية. ثم كانوا يواجهون عدواً قليلاً عدده غير أنه كان شديداً صعب المراس.

خالد بعد الحراق

اليرموك

اجتمع للروم باليرموك مائتان وأربعون ألفاً، وكان المسلمون أربعين ألفاً في جيوشهم جميعاً. كان لكل من هذه الجيوش استقلاله وانفصاله عن سواه حتى كان لكل جيش أذانه وصلاته، فكان أول أعمال خالد أن اعترض على ذلك في اجتماع لأمرائها واتفقوا على توحيدها. ثم أجرى عملية تنظيم سريع لجيشه، فقسمه إلى ثمانية وثلاثين كردوساً، جعل ثمانية عشر منها في القلب يقودها أبو عبيدة بن الجراح، وعشرة في اليمين يقودها عمرو بن العاص، وعشرة في اليسرة يقودها يزيد بن أبي سفيان، كما جعل للجيش مقدمة عليها قُبات بن أشيم.

وأمر باهان قائد الروم جيشه بإنشأ القتال فهجموا هجوماً عنيفاً على المسلمين حتى أراحوهم عن مواقفهم وبلغوا فسطاط خالد بفرسانهم، بينما كانت مشاتهم مازالت في الخلف تحاول أن تلحق بالفرسان المتقدمة. ووجد خالد فرصته لتحويل نصر الروم إلى هزيمة، فأدخل قواته بين فرسان الروم ومشاتهم، وأفسح لتلك الفرسان طريقاً خلال صفوف المسلمين، فأخرجهم من خلفهم بينما شد على المشاة الروم الذين صاروا بدون فرسان فردهم، واستمر يزيحهم حتى ألقى بهم من شاهق في خور اليرموك العميق. وفر باهان، وقتل من الروم مائة ألف على الأقل، واستشهد من المسلمين ثلاثة آلاف. وانتهت أخبار الهزيمة إلى هرقل وهو في حمص، فخرج منها وهو يقول:

«سلام عليك يا سوريا سلاماً لا لقاء بعده».

في أثناء ذلك توفي أبو بكر وولي الخلافة عمر، وجاء البريد إلى جيش المسلمين بذلك ويعزل خالد وتولية أبي عبيدة. وفي أقرب الروايات إلى التصديق، أن رسالة عمر بذلك جاءت إلى أبي عبيدة والمركة دائرة، فأخفاها ولم يعلنها حتى تم النصر للمسلمين. وفي يوم اليرموك فقد خالد قلنسوته، فقال أطلبوها فلم يجدوها فلم يزل حتى وجدوها فإذا هي خلقة (بالية)، فسئل عن ذلك^(١) فقال: «اعتمر النبي ﷺ فحلق رأسه فابتدر الناس شعره

(١) الإصابة ٢٢٠١.

فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالاً وهي معي إلا تبين لي النصر، وما وجهت في وجهه إلا فتح لي».

عزل خالد لأسباب إدارية

اختلفت آراء الكتاب والمؤرخين حول السبب في عزل خالد. ولن نعرض هنا لهذه الآراء اكتفاء برأينا الذي نذهب إليه.

ذكرنا في موضعه قتل خالد لأناس من بني جذيمة بعد فتح مكة، وهو الذي برئ منه رسول الله ﷺ. وحدث في حروب الردة أن قتل خالد مالك بن نويرة من بني تميم بعد أن دخل فيما دخل فيه الناس من إسلام، ثم حدث أن تزوج خالد امرأة مالك، مما أثار ثائرة عمر، فطلب من أبي بكر أن يعزله، غير أن أبا بكر أبى ذلك بعد أن استجوب خالدًا، فأمره أن يطلقها ولم يعزله وقال: «هيه يا عمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد». ومرة أخرى حين أغار خالد على المصيخ حدث أن قتل رجلين من المسلمين هما: عبدالعزيز بن أبي رهم ولبيد بن جريز، وكان معهما كتاب من أبي بكر بإسلامهما، وقد حزن أبو بكر لمقتلهما، وعاد عمر يطلب من أبي بكر أن يعزل خالدًا، ولكن أبا بكر التمس العذر لخالد إذ إن القتيلين قد ساكنا أهل الشرك ونزلا معهم في دار الحرب. ثم حدث بعد موقعة الفراض بشمال العراق أن انفلت خالد سرًا دون إذن من الخليفة إلى مكة حيث أدى فريضة الحج، ثم عاد سرًا كما جاء، ولما بلغت هذه الأخبار المدينة عاد عمر يطلب من أبي بكر أن يعزل خالدًا، فقال أبو بكر: «ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين». من هذه الحوادث، كان عمر يرى أن خالدًا لم يكن لديه الاحتراز الكافي والواجب في الدماء، وأنه تورط في دماء لم تكن لتحل، وفي ذلك قال لأبي بكر:

«إن في سيف خالد رهقاً وحق عليه أن يقيده».

كان هذا هو رأى عمر في خالد، فما أن ولي الخلافة حتى عزله عن قيادة جيش الشام.

سبب آخر. ذلك أن خالدًا كقائد في الميدان كان يحب أن تكون له أوسع الزوايا في حرية التصرف، ولقد رأيناه في خلافة أبي بكر يسير على هذا النهج فيمنح نفسه أوسع السلطات، فيخرج من العراق إلى دومة الجندل لنجدة عياض، ثم يخرج من العراق إلى الحج دون إذن من الخليفة، ونجده في اليرموك يوحد الجيوش التي أرسلها الخليفة مستقلة عن بعضها. ولقد أعرب خالد عن منهجه ذاك في العمل في صراحة، حين فرغ من ردة بني أسد واتجه إلى بني

تميم إذ قال: «... ولو أنه لم يأتني له - من الخليفة - كتاب ولا أمر، ثم رأيت فرصة فكنت إن أعلمته فاتتنى لم أعلمه حتى انتهزها...» لم يكن هذا نهج عمر في السياسة والحرب والحكم والإدارة. إنما كان يحب أن يرجع إليه في كل تصرف، وسنرى من ذلك الشيء الكثير حين بعث سعد ابن أبي وقاص لفتح العراق، وفي سيرته مع أبي عبيدة في فتح الشام بعد ذلك.

وإذن فقد كانت طبيعة عمر وطبيعة خالد طبيعتين لا تتفقان. وكثيراً ما نلاحظ في مجال الأعمال، أن شخصاً على أعلى مستويات الكفاية، وأن شخصاً آخر مثله في ذلك، ولكنهما لا يصلحان معاً في عمل مشترك أبداً. مثل ذلك كان بين عمر وخالد، ولم يكن بين أبي بكر وخالد. كان خالد يوزع مكافآت سخية على أبطال المعارك، فقال عمر لأبي بكر: «اكتب إلى خالد لا يعطى شيئاً إلا بأمرك». فكتب إليه أبو بكر بذلك، فظهرت طبيعة خالد في إجابته: «إما أن تدعني وعملي وإلا فشأنك بعملك».

فأشار عمر على أبي بكر بعزل خالد، فقال أبو بكر: «فمن يجزى عني جزاء خالد؟» قال: «أنا» قال أبو بكر: «فأنت». وتجهز عمر للخروج حتى مشى الصحابة إلى أبي بكر وقالوا له: «ما شأن عمر يخرج وأنت محتاج إليه، وما لك عزلت خالدًا وقد كفاك؟» قال: «فما أصنع؟» قالوا: «تعزم على عمر فيقيم، وتكتب إلى خالد فيقيم على عمله». ففعل.

هذان العاملان نراهما سبب ما كان بين عمر وخالد. ما كان من أمر الدماء، وعدم اتفاق طبيعتي الرجلين.

وفي المدينة يبدو أن عزل خالد لم يحدث أثراً يذكر، ولكن حين زار عمر جيش الشام بالجابية خطب يعتذر عن عزل خالد^(١) فقال:

«إني أعتذر إليكم من خالد بن الوليد. إني أمرته أن يحبس هذا المال على المهاجرين، فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان، فنزعته وأثبت أبا عبيدة بن الجراح».

فقام أبو عمرو أحمد بن حفص بن المغيرة فقال:

«والله ما عدلت يا عمر، لقد عزلت عاملاً استعمله رسول الله ﷺ، وغمدت سيفاً سله رسول الله ﷺ، ووضعت لواء نصبه رسول الله ﷺ، ولقد قطعت الرحم وحسدت ابن العم».

فقال عمر: «إنك قريب القرابة حديث السن مغضب لابن عمك».

(١) أسد الغابة ٤٢.

والظاهر أن عزل خالد لم يثر من الاحتجاج إلا الشيء اليسير مثل هذه الواقعة، وذلك لعلم رجال الصحابة أن عمر وخالداً لن يتفقا، وأن هذا هو الاتجاه القديم لعمر..

أما في الميدان فقد خاطب خالد جند المسلمين فقال:

«بعث عليكم أمين هذه الأمة، سمعت رسول الله ﷺ يقول».

فقال أبو عبيدة:

«سمعت رسول الله ﷺ يقول: خالد سيف من سيوف الله نعم فتى العشرة».

بعث اليرموك

تجمع فرار اليرموك في فحل. وقاد أبو عبيدة المسلمين وخالداً معهم، فخرج يريد هذه الجموع، فبلغه أن هرقل أمد دمشق بقوات من حمص فأرسل إلى عمر يستشير في أمره.. أيتقدم إلى دمشق أو إلى فحل؟ هذا التصرف من أبي عبيدة يتفق وما يرضى عنه عمر ومع منهجه في سياسة عماله، ولو كان خالد مكانه لكان من المؤكد أن نظر هو في الأمر وأعمل فكره واختار وتحرك، ثم كتب بما كان إلى أمير المؤمنين. وجاء جواب عمر «ابدأوا بدمشق فانهضوا لها فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم. واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي نحب، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزله بدمشق من يسلك بها، ودعوها، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص، وضع شرحبيل وعمرا بالأردن وفلسطين».

فتح دمشق

وبعث أبو عبيدة قوة تجاه فحل، فأطلق الروم مياه بحيرة طبرية ونهر الأردن، فأوحلت الأرض من حولهم وحالت بين الفريقين، فظل المسلمون يحاصرونهم دون أن يقتحموا عليهم حتى يقنع أبو عبيدة من دمشق. وتحرك أبو عبيدة والمسلمون وخالد معهم إلى دمشق، وكانت مدينة حصينة تحيط بها أسوار يزيد سمكها عن ثلاثة أمتار وترتفع إلى ستة أمتار بها مؤاغل تحتمى وراءها الرماة، وأحيط السور بخندق يزيد عرضه عن ثلاثة أمتار اتصل بنهر يردى^(١) فامتأ بالماء. ولم يكن مناص من حصار المدينة المتحصنة، ولم يفت المسلمين أن

(١) سيف الله خالد ١٥٩.

يبعثوا بقوة شمالاً لتقف على طريق حمص للحيلولة دون قدوم أي قوة رومية من خمص حيث مقر هرقل. كما أرسلوا بقوة أخرى جنوباً على طريق فلسطين لمنع أي جيش رومي أن يأتي من تجاهها. ووجد أبو عبيدة للمدينة خمسة أبواب، فوكل بكل باب قوة من جيشه، وكان الباب الشرقي من نصيب خالد. واستمر الحصار زمناً اختلف الرواة فيه بين سبعين يوماً وأربعة أشهر وستة أشهر.

وفي ذات ليلة نمي إلى علم خالد أن بطريق دمشق أو لم حاميتها وليمة ضخمة بمناسبة مولود ولد له، وأن الجند مشغولون بالأكل والشراب. وكان خالد قد أعد سلاهم من الحبال في آخرها أوهاق (الوهق جبل يجعل في طرفه أنشودة فتؤخذ فيه الدابة والإنسان ونزواته الجدران) فعبير الخندق ومعه زميله بطل حروب الردة والعراق القعقاع بن عمرو التميمي، وفي رواية أنه كان معه أيضاً مذعور بن عدى العجلي، بخلاف رواية أخرى أن مذعوراً بقي مع المثني بالعراق. وقذفوا بأوهاق الحبال فأتبثوها بأعلا الأسوار ثم تسلقوها حتى ارتقوا جدران الحصن وسحبوا وراءهم الحبال فثبتوها من الداخل، وجند الروم مشغولون بوليئمتهم منصرفون إليها. وأقام خالد رجالاً بأعلا السور ثم تدلى ومن معه إلى الداخل وأسرعوا إلى الباب ففاجئوا حراسه من الداخل وقتلوه وفتحوا الباب وكبر الرجال من فوق الحصن، وكان ذلك إشارة متفقاً عليها فعبير المسلمون الخندق ودخلوا دمشق، بعضهم من الباب وبعضهم متسلقاً الأسوار، وأعملوا السيوف فيمن وجدوا، واستسلمت دمشق فأوقف القتال.

فحل

وترك أبو عبيدة في دمشق حامية بقيادة يزيد بن أبي سفيان وسار إلى فحل، وحينئذ انفصل عن جيش الشام جيش خالد الذي جاء معه من العراق، عاد إليه بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وبه جنود خالد ولكن بدون خالد. فقد بقي مع أبي عبيدة... أمة محنة عاطفية لقائد في الميدان. وفي فحل دخل جيش المسلمين منطقة قيادة شرحبيل، فأرسل قوة لحصار طبرية وجعل خالد على مقدمة جيشه وأبا عبيدة على الميمنة وعمرو بن العاص على الميسرة وضرار بن الأزور على الفرسان. وكان شرحبيل على حذر من بيات الروم، فبات ليلة على تعبئة. وظن الروم أنهم يفاجئون المسلمين فهاجموا ليلاً، واقتتلوا قتالاً مريراً. ثم ارتدت قواتهم في الظلام والمسلمون يتبعونهم حتى حصروهم في الطين وقتلوا منهم ثمانين ألفاً.

وعاد أبو عبيدة وخالد إلى دمشق فجاءهم أمر عمر بفتح حمص.

سقوط حمص

وفى الطريق إلى حمص التقى أبو عبيدة بقوتين للروم: إحداهما يقودها تيودور والثانية يقودها شنس. فاتجه أبو عبيدة إلى شنس بينما اتجه خالد إلى تيودور وباتت الجيوش فى انتظار الصباح، فلما انبلج لم يجد خالد الجيش الذى أمامه، فأدرك أنه اتجه إلى دمشق لاستردادها فى فرصة ابتعاد جيوش المسلمين، فأسرع من فوره إلى دمشق. وعلم يزيد بن أبى سفيان وهو فى دمشق بقدوم الروم فأغلق أبواب المدينة وتحصن بأسوارها. وجاء خالد فحصر الروم بين أسوار دمشق، وكبر فسمع المسلمون بدمشق التكبير وأخذوا الروم من الجهتين. وفرغ خالد من هذه الموقعة وعاد إلى أبى عبيدة فى مرج الروم فوجده شتت فرسان شنس وانطلق خلفهم فى مطاردة إلى حمص، ولحق بهم خالد فكان على المقدمة. وطال حصار حمص حتى وقع بها زلزال أفزع أهلها، فطلبوا الصلح.

اللاذقية ثم قنسرين

وبعد حمص سار أبو عبيدة وخالد معه إلى حماه فصالحه أهلها، ثم إلى اللاذقية فتحصنت خلف أسوارها، وكانت ثغراً على البحر الأبيض يأتيها منه المدد، ووجد أبو عبيدة أن الحصار لا يفيد، فأمر جنده فحفروا حفراً تستر الفارس على جواده، ثم انصرف عنها أمام أعين حاميتها، غير أنه استتر بالظلام وعاد ليلاً فخبأ جيشه فى تلك الحفر. وطلعت شمس الصباح، وقد اطمأن أهل اللاذقية ففتحوا أبوابها، فخرج عليهم المسلمون فى هجوم خاطف فاقترحموها فطلب الصلح. وبعد اللاذقية فتحت المعرة، ومنها وجه أبو عبيدة خالداً إلى قنسرين فى أقصى شمال الشام ففتحها بعد حصار قال فيه للروم:

«لو كنتم فى السحاب حملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا».

عجباً لهذه الروح الفتية.. إنه رغم عزله كان كيوم قال فيه للفرس:

«لقد جئتمكم يقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

وطلبت قنسرين الأمان، فأبى خالد إلا أن يخرب المدينة عقاباً لها على مقاومتها.

يموت على فراشه

تم فتح الشام، فأقام خالد فى مدينة حمص مع أهله وأولاده، ولكن الموت لاحقهم الواحد تلو الآخر، حتى لقد روى أنه مات منهم أربعون فى عام الطاعون. والعجب أن تختلف الروايات حول تاريخ وفاة خالد، ولكن أكثرها على أنه توفى فى العام الحادى والعشرين

للهجرة، ولم يجاوز الخامسة والخمسين من عمره. فلما توفى ذلك القائد العظيم الذى نشأ فى سعة من العيش، وقاد الجيوش، وفتح البلاد وهز التيجان والعروش وأدال الدول، لم يترك من الدنيا إلا فرساً وغلاماً وسلاحه التى شهد به المشاهد. وعلم عمر بذلك فقال^(١):

«رحم الله أبا سليمان. كان على غير ما ظننا به.. كان والله سداداً لنحور العدو ميمون النقية». وحزن عليه حزناً شديداً. وبكته بنات عمه، فقيل لعمر أن ينههن، فقال: «دعهن يبكين على أبى سليمان ما لم يكن نفع أو لقلقة.. على مثل أبى سليمان تبكى البواكى». كان خالد مزواجاً^(٢). وكان طويلاً ضخماً بعيد ما بين المنكبين، واسع الهيكل عريض اللحية فى وجهه أثر جدري. وكان أشبه الناس خلقاً بعمر.

مات خالد على فراشه، وحين حضرته الوفاة وأدرك ذلك، بكى وقال: «ما من عمل أرجى عندى بعد لا إله إلا الله، من ليلة شديدة الجليد، فى سرية المهاجرين، بثها وأنا متترس والسماء تنهل على، وأنا أنتظر الصبح حتى أغير على الكفار، فعليكم بالجهاد. لقد شهدت كذا وكذا زحفاً، وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وها أنذا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير! فلا نامت أعين الجبناء. لقد طلبت القتل فى مظانه فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى».

وأوصى خالد أن يقوم عمر على وصيته، ولعله أراد بذلك أن يتأكد عمر أنه مات نظيفاً لم يترك وراءه من الدنيا تركة تذكر.

يروى أن لبابة أم خالد خرجت فى جنازته تقول:

أنت خير من ألف ألف من القوم إذا ما كنت فى وجوه الرجال

فقال عمر: «صدقت والله إن كان لكذلك». فاستمرت تقول:

أشجاع؟ فأنت أشجع من ليث ضمير^(٣) بن جهم أبى أشبال

أجواد؟ فأنت أجود من سيل أتى بتسفل من الجبال

فقال عمر: «من هذه؟» فقيل: أمه.

قال: «أمه والإله، أمه والإله، أمه والإله، وهل قامت النساء عن مثل خالد؟» هذه الواقعة مما يؤيد به القائلون بأن خالداً مات بالمدينة وجهة نظرهم. ولكنه على الأرجح مات بـحمص، وقد

(١) سيف الله خالد ١٨٥.

(٢) قادة الفتح العربى للعراق ١٤٥، عن فتوح الشام ١٥/١ وعن الأغاني والطبرى وابن الأثير.

(٣) الضمير: الضامر، كناية عن خفة حركته ونشاطه. جهم: عبوس (المنجد) كناية عن شدته فى الحرب.

تكون هذه الواقعة وقعت بالمدينة في غير جنازته.

قال لها عمر: «يا أم خالد، أخالد وأجره ترزئين؟ عزمت عليك ألا تبسوتي حتى تسودي يديك من الخضاب».

صفاء مع عمر

بالرغم من أن عمر لم يستعمل خالداً بعد أن عزله، إلا أنه من الواضح أن نفس كل منهما قد صفت تجاه الآخر. وكما رأينا شعور عمر نحو خالد كذلك كان شعور خالد نحو عمر. عاد أبو الدرداء خالداً في مرضه الذي توفي فيه، فقال له خالد: «يا أبا الدرداء لئن مات عمر لترين أموراً تنكرها».

فقال أبو الدرداء: «وأنا والله أرى ذلك».

قال خالد: «كنت قد وجدت عليه في نفسي في أمور لما تدبرتها في مرضي هذا وحضرتني من الله حاضر، عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل. كنت وجدت عليه في نفسي حين بعث إلي من يقاسمني مالي حتى أخذ فرد نعل وأخذت فرد نعل، فرأيت فعل ذلك بغيري من أهل السابقة ومن شهد بدراً. وكان يغلط علي، وكانت غلطته على غيري نحواً من غلطته علي. وكنت أدل عليه بقرابة، فرأيت لا يبالي قريباً ولا لوم لائم في غير الله، فذلك الذي أذهب ما كنت أجد عليه. وكان يكثر علي عنده وما كان ذلك إلا على النظر، كنت في حرب ومكابدة وكنت شاهداً وكان غائباً، فكنت أعطى علي ذلك، فخالفه ذلك من أمرى».

ولما بلغ عمر موت خالد قال^(١):

«قد ثلم في الإسلام ثلثة لا ترتق. كان والله سداداً لنحور العدو ميمون النقية».

وسمع عمر راجزاً يذكر خالداً فقال: «رحم الله خالداً». فقال له طلحة بن عبيد الله معاتباً:

لا أعرفنك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي

قال عمر: «إني ما عتبت علي خالد إلا في تقدمه وما كان يصنع في المال».

رحم الله خالداً ورحم الله عمراً. وصدق رسول الله ﷺ: «أصحابي كالنجوم».

ولقد تزوج عمر بن الخطاب^(٢) فاطمة أخت خالد بعد أن توفي عنها زوجها وابن عمها الحارث ابن هشام بن المغيرة.

(١) قادة الفتح العربي للعراق ١٤٦ عن ابن عساکر ٧١٤.

(٢) أسد الغابة ٩٧٩ في ترجمة الحارث بن هشام.

الجزء الثالث

الباب الثالث عشر: حملة أبي عبيد

الباب الرابع عشر: قيادة المثني

الباب الخامس عشر: عمليات الأسواق

الباب الثالث عشر

حملة أبي عبيد

معود إلى العراق

بعد وداعه لخالد عاد المثني إلى الحيرة يعيد تنظيم قواده وقواته ويملا الأماكن التي شغرت من قادة رحلوا.

دخل خالد فكان المثني مكانه.

وخلا مكان المثني في الحامية التي كانت بالسبب فوضع مكانه أخاه المعنى بن حارثة. وخلا مكان ضرار بن الخطاب فوضع مكانه عتيبة بن النحاس العجلي. وخلا مكان ضرار بن الأزور فوضع مكانه أخاه الثاني مسعود بن حارثة. وفي رواية أنه وضع مدعور بن عدي العجلي في بعض تلك الأماكن.

وهكذا سد أياكن كل من خرج من الأمراء برجال أمثالهم ممن يغني عنهم ممن بقي معه.

وبعد خروج خالد بقليل - على رأس سنة^(١) من دخوله الحيرة - آل ملك فارس إلى شهربراز^(٢) بن أردشير بن شهريار الذي كان يتصل نسبه إلى كسرى ثم إلى سابور. واستتب له الملك فوجه إلى المثني جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل بقيادة هرمز جاذويه، ومعهم فيل من أفيال القتال. فكتبت مسالح المسلمين بذلك إلى المثني.

شهربراز

شهربراز

(١) كان دخوله الحيرة ربيع الأول ١٢هـ، وكان خروجه إلى الشام في صفر ١٣هـ - أبريل (نيسان) ٦٣٤.

(٢) شهر براز بالفارسية، معناها خنزير الدولة.

معركة بابل^(١)

أواخر ربيع الأول ١٣هـ - أواخر مايو (أيار) ٦٣٤م.

خرج المثنى من الحيرة للقاء هذا الجيش، واختار ميدان المعركة في سواد ما وراء الفرات، ولعله أراد بذلك الدفاع عن باروسما وبانقيا والفلايج التي صاحبت المسلمين على الجزية والمنعة، فأصبح الدفاع عنها مما يلزم المسلمين. لقد مضى حول من يوم قبض خالد الجزية منهم. ولم نجد ما يفيدنا إن كان المسلمون قد قبضوا جزية العام التالي. وحشد المثنى قواته فضم إليه مسالحه، وعبا جيشه، فجعل على يمينته أخاه المعنى، وعلى يسارته أخاه مسعوداً. وفي هذا دلالة على أن النسبة العددية لقوم المثنى من بنى شيبان ومن بكر بن وائل قد غلبت من سواهم على تعداد جيش المثنى بالعراق. وتقدم المثنى فأقام بجيشه في بابل. وزحف هرمز جاذويه تحفزه روح التحدي والغرور، وقد جعل على يمينته كوكبذ، وعلى يسارته خوكبذ. وبعث إلى المثنى برسالة جاء فيها:

«من شهربراز إلى المثنى. إني قد بعثت إليك جنداً من وخش^(٢) أهل فارس، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم»!

فأجابه المثنى:

«من المثنى إلى شهربراز. إنما أنت أحد رجلين، إما باغ فذلك شر لك وخير لنا، وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفي الناس الملوكة. وأما الذي يدلنا عليه الرأي فإنكم إنما اضطررتم إليه. فالحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير».

وكما رأينا من قبل، وسرى من بعد أن الفرس كانوا أهل تفاؤل وتشاؤم وتنجيم، فلما رأوا جواب المثنى جزعوا منه وتشاءموا، وقالوا: «إنما أتى شهربراز من شؤم مولده ولؤم منشئه (وكان يسكن ميسان - منطقة العمارة) وبعض البلاد شين على من يسكنه، وقالوا له: جرأت علينا عدونا بالذي كتبت به إليهم، فإذا كتبت أحداً فاستشر».

والتقى الجيشان ببابل فاقتتلوا بالجانب الأدنى من نهر الصراط قتالاً شديداً. وكان مع

(١) الطبري ٤/ ٢٤٢ س ش س، عن محمد وطلحة والمهلب.

(٢) وخش الناس: أسقاطهم ورذائلهم - المنجد.

الأعاجم فيل من أفيال القتال، جال يفرق بين صفوف المسلمين، فتداوله المثنى وناس من أبطال المسلمين حتى أصابوا منه مقتلاً. ومقتله انهزم الجوس وشرغوا في الفرار، واتبعهم المسلمون يقتلونهم حتى جازوا بهم مسالحهم فأقاموا فيها، وأوغلوا في مطاردتهم حتى انتهوا إلى المدائن^(١). وفي هذه المعركة قال الفرزدق:

فمنهن بيت الحوفزان الذي به تفلل به بكر حشد نبيل المناضل
وبيت المثنى عاقر الفيل عنوة ببابل إذ في فارس ملك بابل

(١) كان الشاعر الخضر بن عبد الله بن الطبيب السعدي التميمي من شهد هذه الواقعة. ذكره ابن حجر العسقلاني باسم عبدة بن الطبيب، واسم الطبيب يزيد بن عمرو بن علي بن أنس بن عبد الله بن عبد تميم بن جشم بن عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم. خرج في هذه الحملة لمهاجرة حليمة له إلى جهة بابل فلما آيسه رجع إلى البادية وقال:

هل حبل خولة بعد البين موصول أم أنت عنها بعيد الدار مشغول
ولأحبة أيام تذكروها وللنوى قبل يوم البين تأويل
حلت خويلة في حي عهدتهم دون المدائن فيها الديك والفيل
يقارعون رؤوس العجم ضاحية منهم فوارس لا عزل ولا ميل

وفيها:

والمرء ساع لشيء ليس يدركه والعيش شح وإشفاق وتأميل
ويبدو من هذا ومن رسالة شهربراز أن المنطقة كانت كثيرة الدجاج والدواجن والخنازير... إلخ. ولقد كان عمر يعجب من شعر عبدة. وهو الذي رثى قيس بن عاصم التميمي بأرض بيت قالته العرب:

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه ببيان قوم تهدما
ولما كبر عبدة وأسن جمع بنيه وأنشأ قصيدته التي يوصيهم فيها ويقول:

ولقد علمت بأن قصري حفرة غبراء يحملني إليها شرجع
فبكت بناتي شجوناً وزوجتي والأقربون إلي ثم تصدعوا
وتركت في غبراء يكره ردها تسفى على الريح حين أودع

(الشرح: هو سرير الميت)، قيل لخالد بن صفوان: إن عبدة لا يحسن أن يهجو فقال: «لا بل كان يترفع عن الهجاء». وقد عاد عبدة إلى حرب العراق مرة أخرى، يقول الجاحظ: «إنه كان في جيش النعمان بن مقرن الذي حارب الفرس بالمدائن» (البيان والتبيين) ١/ ١٢٢.

فتنة في البلاط الفارسي

ومع انهزام هرمز جاذويه مات شهربراز، قتله الحرس بعد أن ظل ملكاً أربعين^(١) يوماً. وعاد الفرس إلى اختلافهم في أزمة الملوك. وبقي ما دون دجلة وبرس من السواد في أيدي المثنى والمسلمين. ثم ملكت دُخت زنان ابنة كسرى فلم ينفذ لها أمر، فخلعت. وملك سابور بن شهربراز بن أردشير بن شهربراز. وقام بأمره فرخزاد بن بندوان فسأل سابور أن يزوجه آزر^(٢) ميدخت بنت كسرى فقبل. ولكن آزر ميدخت غضبت، وقالت: «يا ابن عم أتزوجني عبدي؟!».

وقال: «استحي من هذا الكلام ولا تعيديه عليّ فإنه زوجك».

ولم تكن آزر ميدخت تقبل ذلك الزواج، فبعثت إلى واحد من فتاك العجم يدعى سياوخش الرازي، وشكت إليه الذي تخاف. فقال لها: «إن كنت كارهة لهذا فلا تعاوديه فيه، وأرسلني إليه وقولي له فليقل له فليأتك، فأنا اكفيكه. ففعلت وفعل، واستعد سياوخش.

فلما كان ليلة العرس أقبل فرخزاد حتى دخل فطلع عليه سياوخش وقتله ومن كان معه، ثم خرج بها إلى سابور فحصره، ثم دخلوا عليه فقتلوه. وملك آزر ميدخت بنت كسرى، وتشاغل الفرس بذلك عن المسلمين.

(١) إيران في عهد الساسانيين.

(٢) آزر ميدخت، معناها الفتاة الطاهرة - إيران في عهد الساسانيين ٣١٢.

أبو بكر يحتضر^(١)

مشروع جديد للمثنى

لم يكن المثنى جاهلاً بأحوال الفرس وما يجري في بلادهم وبلاطهم، وكان يعلم أن الهدنة التي أتاحها له القدر لن تدوم، وكان يدرك أيضاً أنه لا يستطيع أن يحتفظ بما فتح له من أرض، فضلاً عن أن يفتح غيرها بتسعة آلاف فقط. لذلك استخلف المثنى على المسلمين بالعراق بشير بن الخصاصية، ووضع مكانه في المسالح سعيد بن مرة العجلي. وخرج المثنى على أكثر تقدير في ١١ جمادى الآخرة ١٣هـ ١٢ أغسطس (آب) ٦٣٤م في أشد قيظ الصيف نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين والفرس ويشرح له حقيقة الوضع وتفاصيله، وليقدم له مشروعاً جديداً للتعيش العامة، يستأذنه بمقتضاه في الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة، وقد كانوا حتى ذلك الوقت ممنوعين من المشاركة في هذه الفتوح، وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط منهم إلى قتال فارس وحررها ومعونة المجاهدين. رحم الله المثنى، فكما كان يزن عدوه ويحسب قواته، كذلك كان يدرك إمكانيات المسلمين ويقدرها. ولم يكتف بمجرد تقديم الطلب وإنما قدم أيضاً مصادر تنفيذه.

وبلغ المثنى المدينة وأبو بكر مريض مرض الموت - خمسة عشر يوماً - وصادف قدوم المثنى صحوته وكان أبو بكر قد استخلف عمر بن الخطاب. وجلس المثنى إلى أبي بكر رضى الله عنه وأقضى إليه بما جاء من أجله. قال أبو بكر لمن حوله: «عليّ بعمر».

وفاة أبي بكر

وجاء عمر فخاطبه أبو بكر رضى الله عنه، قال:

«اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به. إنني لأرجو أن أموت من يومى هذا - وكان ذلك يوم الاثنين ٢١ جمادى الآخرة ١٣هـ ٢٢ أغسطس (آب) ٦٣٤م - فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى. وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى، ولا يشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم. وقد رأيته متوفى

(١) الطبرى ٤/ ٤٣ عن السرى عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب.

رسول الله ﷺ وما صنعت، ولم يصب الخلق بمثله. وبالله لو أني أني عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطربت المدينة ناراً. وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده، وأهل الضراوة بهم والجرأة عليهم».

قال عمر: «كان أبو بكر قد علم أنه يسوؤني أن أؤمر خالداً على حرب العراق حين أمرني بصرف أصحابه وتركه».

لقد كان في نية أبي بكر حين وجه خالداً إلى الشام أن يعيده إلى العراق، ولكن ما دامت الخلافة ستؤول إلى عمر، ولعمر مأخذ على خالد فمن الحكمة إذاً أن لا يخرج أبو بكر عمر في أمر لا يرضاه، ومن حسن السياسة أن يكون أعوان الخليفة وقادة جيوشه ممن يرضى عنهم تجنباً لما عسى أن ينشأ نتيجة عدم الانسجام بين الرجلين خاصة في ظروف الحرب.

وقد كان توفي ذلك الرجل العظيم أبو بكر رحمه الله مع الليل بين المغرب والعشاء وكان يوماً من أيام الصيف، فدفنه عمر ليلاً إلى جوار رسول الله ﷺ، وذلك بعد أن صلى عليه في المسجد، وسوى على الصديق القبر.

أبو عبيد في العراق

دعوة إلى الجهاد

ما أن فرغ عمر رضي الله عنه من دفن أبي بكر حتى دعا الناس إلى التطوع لحرب الفرس مع المثني بن حارثة، وكان ذلك في آخر الليل، الذي توفي فيه أبو بكر. نادى عمر: «الصلاة جامعة»، فاجتمع الناس، فدعاهم إلى التطوع، ولكنهم تفرقوا على غير إجابة. ثم صلى عمر والمسلمون الفجر، وبايعه الناس على الخلافة، وعاد يطلب تطوعهم لحرب العراق. واستمر على ذلك ثلاثة أيام، ولا يتطوع أحد، فقد كان قتال الفرس من أكره الوجوه إلى العرب وأثقلها عليهم، لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم^(١).

فلما كان اليوم الرابع، بدأت عملية دعاية للتطوع، فقام المثني في مسجد رسول الله ﷺ وقال:

«أيها الناس. لا يعظمن عليكم هذا الوجه.. فإننا قد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد، وشاطرناهم ونلنا منهم، واجترأ من قبلنا عليهم، ولها إن شاء الله ما بعدها».

ثم قام عمر في الناس فقال:

«إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة^(٢)، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك. أين الطراء^(٣) المهاجرون عن موعود الله؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها، فإنه قال: «ليظهره على الدين كله» والله مظهر دينه ومعز ناصره، ومولى أهله مواريث الأمم. أين عباد الله الصالحون؟!»

استجابة

وأحدثت هذه الصيحة المؤمنة أثرها، فصاح رجل «أنا لها» والتفت الناس، فوجدوا أن أول

(١) الطبرى ٤ / ٦١ س ش س، عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد.

(٢) النجعة: طلب الكلاء - مختار الصحاح.

(٣) اطراءه: بالغ في مدحه - المنجد.

من تطوع، كان أبو عبيد بن مسعود^(١) الثقفي. ثم قام سعد بن عبيد الأنصاري، حليف بني فزارة فقال: «أنا لها»، وذلك لفعلة فعلها، أراد أن يتقرب إلى الله ويكفر عنها. ثم كان ثالث من تطوع سليط بن قيس. ثم تتابع الناس على ذلك، حتى اجتمع ألف رجل من المدينة ومأحولها^(٢). أكثرهم من ثقيف قوم أبي عبيد، ومن الأنصار أوسيههم وخزرجهم.

كيف تقاعد المسلمون عن التطوع ولم يبادروا إليه، إلا بعد أن خطب المشني، وأغلظ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهما في حثهم، وحتى لجأ عمر إلى التلويح لهم بالدنيا، حين أشار إلى أن الحجاز لن تكون إلا دار من يقنع بالكأ، وحتى أشار المشني إلى ريف فارس، وخير أرض سوادهم! لماذا تثاقلوا، وليس هذا عهد التاريخ بهم؟

نظن والله أعلم، أن خير المسلمين كانوا قد سبقوا في الخروج إلى جيش العراق الأول الذي قاده خالد بن الوليد، وإلى جيوش الشام التي تتأهب للمعركة الفاصلة في اليرموك. وهي جيوش تبلغ في جملتها نحواً من خمسين ألفاً من خيار المسلمين، وأبطالهم الذين ثبتوا على إسلامهم حين ارتد الناس. بل إن جيش فتح العراق كما رأينا، كان بعض جيوش قمع الردة، استطرد في عملياته بعد أن فرغ من مهامه في شبه الجزيرة.

كذلك ربما كان لوفاة أبي بكر، أثرها الحزن في نفسيات أهل المدينة، الأمر الذي لا يساعد أحدهم أن يتخذ قراراً سريعاً في أمر خطير كهذا، لا سيما وأن الخليفة من بعده عمر، وقد كان معروفاً عنه الشدة. دخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر قبل وفاته فقال: «استخلفت على الناس عمر، وقد رأيت ما يلقي الناس منه وأنت معه، فكيف إذا خلا بهم، وأنت لاق ربك فسائلك عن رعبتك؟»، وكان أبو بكر مضطجعا فقال: «أجلسوني» فأجلسوه، فقال لطلحة: «أبالله تخوفني؟ إذا لقيت الله ربي، فسألتني، قلت استخلفت^(٣) على أهلك خير أهلك».

وجاء على بن أبي طالب على عجل بعد وفاة أبي بكر، فوقف ببابه وهو يبكي ويقول: «رحمك الله يا أبا بكر، كنت والله أول القوم إسلاماً وأخلصهم إيماناً وأشدهم يقيناً

(١) هو أبو عبيد بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف (فتوح البلدان). قال ابن عبد البر: «كان من جلة الصحابة» (الاستيعاب ١٢٤ كنى) ولكن يبدو أنه كان من الصحابة بمعناها الواسع، وهو كل من لقي الرسول مؤمناً به ولو مرة. ولا يعلم له شيء من رواية الحديث.

(٢) الطبري ٤ / ٦١ بنفس السند.

(٣) الطبري ٤ / ٥٤ عن أسماء بنت عميس (زوجة أبي بكر).

وأعظمهم غنى وأحفظهم على رسول الله ﷺ وأجذبهم على الإسلام، وأحمأهم عن أهله، وأنسبهم لرسول الله ﷺ خلقاً وفصلاً وهدياً وسمتاً، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله، وعن المسلمين خيراً. صدقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، وسماك الله في كتابه صدقياً فقال: «والذي جاء بالصدق وصدق به^(١)» يريد محمداً ويريدك. كنت والله للإسلام حصناً، وللكافرين ناكباً. لم تضلل حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تحن نفسك، كالجيل لا تحركه العواصف، ولا تزيله القواصف. كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً في بدنك قوياً في دينك، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً في الأرض، كبيراً عند المؤمنين. لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى، فالضعيف عندك قوى، والقوى عندك ضعيف، حتى تأخذ الحق من القوى وتأخذه للضعيف. فلا حرماً الله أجرك ولا أضلنا بعدك».

وقال عمر: «يا خليفة رسول الله، لقد كلفت القوم بعدك تعباً، ووليتهم نصباً، فهيئات من شق غبارك، فكيف اللحاق بك».

وبكت النساء، وعلا نواحيهن فقال عمر: «قال رسول الله ﷺ: «إن الميت يعذب ببكاء الحي». ونهاهن عن النوح فأبين. فقال عمر لهشام بن الوليد أخى خالد بن الوليد: «قم فأخرج النساء». فقالت عائشة: «أخرج عليك؟!» فقال عمر: «ادخل فقد أذنت لك». فقالت عائشة: «أخرجي أنت يا بني؟»، قال: «أما لك قد أذنت» فجعل هشام يخرجهن امرأة امرأة، حتى خرجت أم فروة بنت أبي قحافة^(٢).

كان المسلمون في مصيبة عامة شاملة، لا بد أن يكون لها أثرها النفسي والعاطفي عليهم.

هفوة عظيم

اجتمع لعمر ألف من المتطوعين، وبقي أن يختار القائد. ونعجب هنا من عدم توليته للمثنى، وقد استعمله أبو بكر على من خلف خالد بالعراق، وقد كانت وصيته قبل وفاته إلى عمر أن يئيب الناس مع المثنى. قيل لعمر: «أمر عليهم رجالاً له صحبة من السابقين، من المهاجرين والأنصار». ولكن عمر كان شديد التأثر من امتناعهم أول الأمر عن التطوع. قال: «لا والله لا أفعل.. يا أصحاب النبي لا أندبكم فتتكلون، ويتندب غيركم فأؤمركم عليهم..

(١) سورة الزمر، الآية ٣٣.

(٢) الإصابة ٨٩٧٦ في ترجمة هشام بن الوليد.

إن الله إن غارفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو . فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء ، فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء . فإذا فعل فعلهم قوم واثقلوا ، كان الذين ينفرون خفافاً وثقلاً أولى بها منهم . والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً .

ثم دعا أبا عبيد وسليطاً وسعداً^(١) . فقال لسليط وسعد :

«أما أنكما لو سبقتماه لوليتكما ولأدركتما بها ما لكما من القدمة .

فأمر أبا عبيد على الجيش وقال له :

«اسمع من أصحاب النبي ﷺ وأشرحكم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين . إنه لم يمنعني أن أؤمر سليطاً إلا سرعته إلى الحرب ، وفي التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان . . والله لولا سرعته لأمرته ، ولكنها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكث الذي يعرف الفرصة والكف^(٢) .

ما من عظيم إلا وله خطأ وأخطاء . وحسب المرء فخراً أن تحصى أخطاؤه وأن تعد معاييه . ولقد قالها عمر نفسه رضي الله عنه في إحدى القضايا : «أصابت امرأة وأخطأ عمر» . وليس لمثلنا جرأة الحكم على مثل عمر ، ولكنه كان حكم الأحداث والتاريخ الذي قال كلمته . قال : إن عمر أخطأ الاختيار . إن كان أراد الصحابة ، فكان لديه الصحابة . . وإن كان أراد السبق ، فقد كان المثني أسبق . . وإن كان أراد الأعلام بالحرب ، فلم يكن أبو عبيد هو الأعلام بها . إن

(١) سعد بن عبيد الأنصاري حليف بني فزارة ، شهد بدرًا مع النبي صلى الله عليه وسلم . قيل هو أبو زيد الذي جمع القرآن على عهد رسول الله ، وقيل أبو زيد غيره . ولكنه كان أحد أربعة من الأنصار جمعوا القرآن على عهد النبي ، وكان يسمى سعد القاري ، ولم يكن أحد يسمى القاري غيره . وكان يؤم المسلمين في الصلاة بمسجد قباء في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وزمن أبي بكر وعمر .

(الاستيعاب ٢ / ٣٨ - الإصابة ٣١٧٦) .

أما سليط بن قيس من بني عدى بن النجار من الخزرج ، فقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما كتب رسول الله إلى ملوك الآفاق ، وكتب إلى كسرى والنجاشي والمقوقس ، كتب أيضاً إلى هوزة بن علي الخنفي سيد بني حنيفة ، وإلى أهل اليمامة يدعوهم إلى الإسلام ، وأنفذ كتابه ذلك مع سليط بن قيس . وربما كان لذلك بعثه أبو بكر رداً (مؤخرة) خالد بن الوليد في حرب مسيلمة باليمامة ١١هـ حتى لا يؤتى من خلفه . وقد تطوع لحرب العراق وتطوع معه أخوه المنذر وكان ممن شهد أحداً والمشاهد مع رسول الله .

(الاستيعاب ٢ / ١١٧ - الإصابة ٣٤٢٥ و ٧٢٢٢٨) .

(٢) الطبري ٤ / ٦١ عن السري بن يحيى عن شعيب عن سيف عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد . فتوح البلدان ٦٢٤ .

اختيار قواد الجيوش مسئولية جسيمة وخطيرة ، كيف لا ؟ وهم يوضع بين أيديهم تاريخ الأمة ومكانتها وسمعتها ومستقبلها ومصائر خير بنيتها ، يتصرفون فيهم بما يرون ويكونون طوع بنانهم ورهن إشارتهم . فإذا كان ذلك الاختيار سيئاً بين السوء ، فلا شك أن مسئولية ما يحدث من أخطاء ذلك القائد ، إنما تقع على عاتق الحكومة أو السلطة التي اختارته وهي التي تسأل على أي أساس اختارته . قال أبو بكر حين حضرته الوفاة في حديث طويل :

«... ووددت أني كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام ، كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فكنت قد بسطت يدي كليهما في سبيل الله^(١) . بهذا يلفت أبو بكر النظر إلى ضخامة هذه المسئولية وجسامتها ، حين يتمنى وهو يحتضر لو أنه كان استعمل على جيش المسلمين بالعراق الرجل الذي استخلفه على أمة الإسلام . وقال عمر بن الخطاب في بعض المناسبات : «رحم الله أبا بكر ، كان أعرف بالرجال مني» .

وصية عمر

وأرسل عمر المثني حتى لا يغيب عن جيشه . وقال له :

«النجا حتى يقدم عليك أصحابك» .

وانطلق المثني مسرعاً ، يطوى الطريق من المدينة إلى الحيرة ، بسرعة تجاوز المائة كيلو متر في اليوم على ظهر فرسه ، حتى بلغها في عشرة أيام ، فبلغها في حوالي الخامس من رجب ١٣هـ الموافق ٤ سبتمبر (أيلول) ٦٣٤م . ثم راح عمر يستكمل الحشد ، فندب أهل الردة ، وكأنا كانوا على أحر من الجمر ، وفي ضيق ليس كمثله ضيق من حرمانهم من الفتوح ، فأقبلوا سراعاً من كل أوب ، فرمى بهم عمر إلى الشام ، وإلى العراق . وأوصى عمر أبا عبيد فقال :

«إنك تقدم على أرض المكر والخديعة ، والخيانة والجبرية ، (الجبروت) . تقدم على قوم قد جروا على الشر فعلموه ، وتناسوا الخير فجعلوه ، فانظر كيف تكون . وأخزن لسانك ، ولا تفشين سرك ، فإن صاحب السر ما ضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه ، وإذا ضييعه كان بمضيعة^(٢) .

(١) الطبري ٤ / ٥٣ عن يونس بن عبد الأعلى عن يحيى بن عبد الله بن بكير عن الليث بن سعد ، عن علوان

عن صالح بن كيسان عن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه .

(٢) الطبري ٤ / ٦٦ س ش س عن محمد وطلحة ومجالد وزيايد والنضر بإسنادهم .

تقرير الموقف

١- ثار رستم بخراسان لمقتل أبيه، وزحف نحو المدائن فأسقط آرميدخت، ثم ولته بوران شئون الحرب، ومنحته أوسع السلطات.

٢- توفي الخليفة أبو بكر بالمدينة، وولى الخلافة عمر، فحشد حشداً جديداً لإمداد جيش العراق. وولى القيادة أبا عبيد بن مسعود الثقفي.

٣- عاد المثنى من المدينة إلى الحيرة، ولحق به أبو عبيد في الجموع الجديدة.

٤- جمهور جند المسلمين بالحيرة. وجانب من سواد العراق تحت سلطانهم ومسالحتهم بالسبب، وغاراتهم متصلة تنتهي إلى شطآن دجلة. ودجلة حاجز بينهم وبين الفرس. جيش المسلمين بالعراق حوالي ٩٠٠٠ قبل المدد الذي بلغ حوالي ١٠٠٠ أكثرهم من الأنصار (الأوس والخزرج) ومن ثقيف قبيلة أبي عبيد، فكان جيش المسلمين بالعراق نحواً من عشرة آلاف.

انتهاء الهدنة

استقرت الأحوال داخل فارس واستكمل المسلمون استعدادهم فلم يعد للهدوء مجال. وما أن مضى على عودة المثنى من المدينة خمس عشرة ليلة حتى بدأ رستم يتحرك، فكتب إلى دهاقين السواد يحرضهم ويأمرهم أن يثوروا بالمسلمين. ودس في كل رستاق رجلاً ليثور بأهله. فبعث جابان إلى البهقباذ الأسفل، وبعث نرسي - وكان ابن خالة كسرى - إلى كسكر، وكانت كسكر إقطاعية له يزرع فيها نباتاً اسمه النرسيان (لم ندر ما هو) فكان حكراً عليهم لا يغرسه ولا يطعمه بشر غيره سوى ملك فارس أو من أكرموه بشيء منه، فكان ذلك الثمر من حماهم. فقال رستم وبوران لنرسي: «اذهب إلى قطيعتك فاحمها من عدوك وعدونا وكن رجلاً!!» وحدد رستم لرجاله ساعة يبدأون بعدها، وأراد أن يشجعهم فعهد إليهم أن الأمير عليهم أول من يثور. كما بعث جيشاً لمصادمة المثنى في الحيرة.

وكتب إلى أبي عبيدة بن الجراح قائد جيوش الشام:

«إنك على الناس، فإن أظفرك الله فاصرف أهل العراق إلى العراق، ومن أحب من أمدادكم إذا هم قدموا عليكم».

في بلاط فارس^(١)

وفي هذه الأثناء كانت الفتنة مشتعلة في بلاط فارس. وكانت بوران بنت كسرى برويز، من أكثر أهل فارس عقلاً وغيره على صالح دولتها. كما كان لها من مواقفها وشخصيتها ما جعل ساسة فارس يلجئون إليها ويأتمرون بأمرها، حتى يصطلحوا وتهاد الفتنة. فلما قتل فرخزاد بن بندوان في المدائن وهو يطعم في الملك بزواج آرميدخت، كما قتل سابور بن شهربراز، كان رستم بن فرخزاد حاكم خراسان فثار رستم لمقتل أبيه، وأرسلت بوران إليه واستحثته بالسير، فزحف من خراسان إلى المدائن، لا يلقي جيشاً لآرميدخت إلا هزمه، ثم حاصر المدائن ودخلها، وقتل آرميدخت بعد أن فقأ عينيها، وقتل سياوخش، وعادت بوران عدلاً بين الناس، حتى نصبوا يزيدجرد الثالث. وشكت بوران إلى رستم تضعف فارس وإدبار أمرها، ودعته إلى القيام بالأمر في البلاد على أن تملكه وتطلق يده في السلطة عشر سنوات يكون الملك بعدها في آل كسرى، إن وجدوا من رجالهم أحداً، وإلا ففي نسايتهم.

قال رستم: «أما أنا فسامع مطيع غير طالب عوضاً ولا ثواباً. وإن شرفتموني وصنعتم إلى شيئاً، فأنتم أولياء ما صنعتم. إنما أنا سهمكم وطوع أيديكم». قالت بوران: «أغد على غداً». وفي اليوم التالي غدا عليها، وكانت قد عقدت اجتماعاً لمرازية فارس، فكتبت له: «إنك على حرب فارس، ليس عليك إلا الله عن رضى منا وتسليم لحكمك. وحكمك جائز فيهم، ما كان حكمك في منع أرضهم وجمعهم عن فرقته». وتوجته وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا. فدانت له فارس بعد قدوم أبي عبيد إلى الحيرة. وقد بلغها بعد المثنى بشهر (حوالي ٣ شعبان ١٣هـ - أكتوبر (تشرين أول) ٦٣٤م).

وكان رستم منجماً عالماً بالنجوم، فقال له قائل: «ما دعاك إلى هذا الأمر وأنت ترى ما ترى؟» قال: «الطمع وحب الشرف»^(٢).

(١) الطبري ٤/ ٦٢ ش س عن محمد وطلحة بإسنادهم، وعن عمرو عن الشعبي وأبي روق.

(٢) الطبري ٤/ ٦٤ ش س، عن الصلت بن بهرام عن أبي عمران الجعفي.

معركة النمارق^(١)

٨ شعبان ١٣هـ - ٧ أكتوبر (تشرين أول) ٦٣٤م

انسحاب

خلق الإنسان من طينة هذه الأرض، فهو دائماً يحنّ إليها، وتنشأ بينه وبين ما ينزل منها من العواطف والحب والتعلق ما لا يقل عن تعاطف الناس مع من يحبون. وفي الحروب كثيراً ما يورد هذا أصحابه موارد التهلكة حين يتشبثون بأرض الدفاع عنها عسير غير مجد، ومن شاء فليسأل التاريخ عن نابليون وعن هتلر. أما المثني فكان من أهل البادية، عاش حياته في بيوت الشعر يتنقل بها عمره كله من مكان إلى آخر، فساعدته ذلك على التخلص من هذا النوع من حب الأرض، وكان رجل حرب يعرف الصواب فيها من الخطأ، كما كان يدرك أنه لا يحارب من أجل أرض، وأن الأرض حتماً لمن غلب.

كان المثني يلحظ كل ما يحدث لدى الفرس، فبادر إلى سحب مساحه من جميع أرض العراق وضم إليه جنده. وتعجل جابان فكان أول من ثار بفرات بادقلى، ونزل في جنده موقعاً متقدماً في النمارق^(٢) بين الحيرة والقادسية، وقد اجتمع إليه جمع كبير. ثم ثار نرسی، ونزل زَنْدَوْرْد. وثارت جميع الرساتيق من أعلى الفرات إلى أسفله. وانسحب المثني دون اشتباك فنزل بالمسلمين في خفان حتى لا يؤتى من خلفه بشيء يكرهه، حتى قدم إليه أبو عبيد بن معه في حوالي ٣ شعبان، فأقام أياماً بخفان ليستجم أصحابه من وعثاء الطريق - وخفان موضع بتخوم الصحراء أسفل من القادسية - وأراد جابان ونرسی مزيداً من الاطمئنان، فطلبوا من المدائن تعزيزات لقواتهما.

المعركة

وخرج أبو عبيد وعباً قواته، فجعل المثني على المجردة، وجعل على ميمنته والقي بن جيدارة،

(١) الطبري ٤/ ٦٣ - ٦٤ ش س، عن محمد وطلحة وزياد باسنادهم. وعن الصلت بن بهرام عن أبي عمران الجعفي.

(٢) نعتذر عن عدم تحديد موقع النمارق على خرائطنا إذا لم نجد في هذا المجال سوى أنها بين الحيرة والقادسية، وهي مسافة تبلغ حوالي ٣٠ كيلو متراً.

وعلى يسرته عمرو بن الهيثم بن الصلت بن حبيب السلمي. وعباً جابان قواته، فجعل على ميمنته جشنس ماه في مقابلة عمرو ابن الهيثم، وعلى يسرته مرد انشاء في مقابلة والقي بن جيدارة. وزحف المسلمون من خفان نحو النمارق ونزلوا على جابان، فاقتتلوا قتالاً شديداً. ودارت الدائرة على الفرس لصالح المسلمين. وبصر مطر بن فضة وأبى برجل عليه حلّ فشدا عليه فأخذه أسيراً، فوجداه شيخاً كبيراً. فزهد فيه أبى ورغب مطر في فدائه فاصطلحا على أن سلبه لأبى، وأن فداء إيساره لمطر. وأخذ أبى ما عليه. فلما خلص به مطر قال له الرجل: «إنكم معاشر العرب أهل وفاء، فهل لك أن تؤمنني وأعطيك غلامين أمردين خفيفين في عملك وأعطيك كذا وكذا؟» قال: «نعم» قال: «فأدخلني على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه». فأدخله على أبى عبيد فأجاز أبو عبيد ذلك، وتم للرجل ما أراد وهم لا يعرفونه. ثم عرفه قوم من ربيعة فقالوا: «هذا الملك جابان، وهو الذي لقينا بهذا الجمع». وأشاروا بقتله. وقام أبى فقال: «أسرته أنا وهو على غير أمان»، ولكن أبا عبيد وقى لجابان بعهد، وقال: «ما تروني فاعلاً معاشر ربيعة! أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا؟ معاذ الله من ذلك. إني أخاف أن أقتله وقد آمنه رجل مسلم. المسلمون في التواد والثناصر كالجسد ما لزم بعضهم فقد لزمهم كلهم!» قالوا: «إنه الملك» قال: «وإن كان. لا أغدر». فأطلقه أبو عبيد.

وأسر أكتل بن شماخ العُكلى مردانشاه فضرِب عنقه. وقسم أبو عبيد الغنائم وكان فيها عطر كثير، يدل على حرص الفرس على ترفهم حتى في معاركهم. وبعث بالأخماس مع القاسم^(١). وقال المثني^(٢):

غلبنا على خفان بيضا مشيحة إلى النخلات السمر فوق النمارق
وإننا لنرجو أن تحول خيولنا بشاطئ الفرات بالسيوف البوارق

(١) لم يذكر رواية الطبري اسمه كاملاً - وربما كان القاسم بن أمية بن أبي الصلت الثقفي، فقد كان بنو ثقيف

مع أبى عبيد كثير وكان يعتمد عليهم. ولم نجد في الإصابة من بنى ثقيف قاسماً غيره. (الإصابة ٧٠٥٢).

(٢) المثني بن حارثة ٩٩.

۱۲ شعبان ۱۳ھ - ۱۱ اکتوبر (تشرین اول) ۱۳۴۴ھ

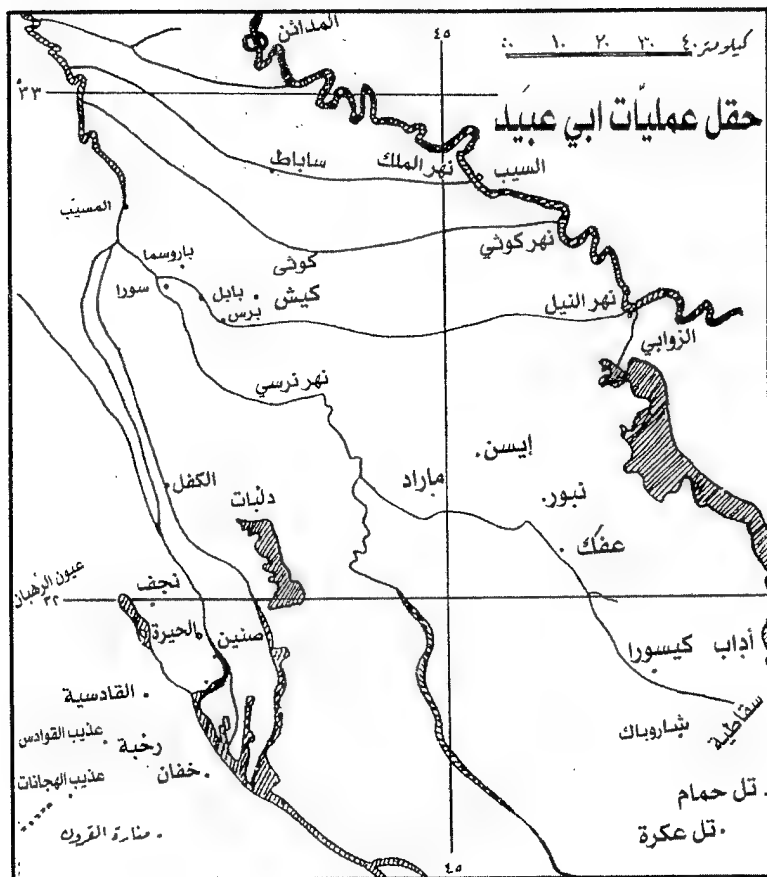
اتجهت الفلول الهاربة على غير انتظام من النمارق نحو كسكر لتلجأ إلى نرسى وجيشه الذى كان بزندورد. فأرسل أبو عبيد مجردته (فرسانه) من بنى شيبان وبنى تميم يقودها المثنى لطاردتهم فيما بين النمارق إلى بارق وإلى درتا وقال لهم:

انطلقت الفرسان ونادى أبو عبيد فى سائر الجيش بالرحيل فى أثرها نحو كسكر . وفى هذه المطاردة ، قال عاصم بن عمرو فارس بنى تميم :

لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَىٰ بَهَيْنَ
بَأْيَدِي رَجَالٌ هَاجَرُوا نَحْوَ رَبِّهِمْ
قَتَلْنَاهُمْ مَا بَيْنَ مَرْجٍ مُّسَلَّحٍ
لَقَدْ صُبِحَتْ بِالنَّحْزَى أَهْلَ النَّمَارِقِ
يَجُوسُونَهُمْ مَا بَيْنَ دُرَّتَا وَبَارِقِ
وَبَيْنَ الْهَوَافِي مِنْ طَرِيقِ الْبَذَارِقِ

وكان نرسى مرابطا جنوب كسكر والمسلمون بنفس تعبئتهم التي قاتلوا بها جابان. المثني على المجردة، والحق على الميمنة، عمرو على الميسرة. وقد عبأ نرسى قواته، فجعل على أجنابه ابني خاله وهما ابنا خال كسرى، فكان يندويه بن بسطام على ميمنته في مقابلة عمرو، وكان أخوه تيرويه بن بسطام على ميسرته في مقابلة والحق. وضم نرسى إلى جيشه حشودا من أهل باروسما ونهر جوبر والزوابي (أو الزاب بأسفل إقليم بابل).

(١) الطبري ٤ / ٦٤ - ٦٦ عن السري بن يحيى عن شعيب بن إبراهيم عن سيف بن عمر عن محمد وطلحة وزيد. وقال أبو عبيد.



خريطة رقم (٢٦) - السقاطية، باروسما

مباركة من أبي عبيد

ووصلت أخبار هزيمة جابان إلى بوران وإلى رستم بالمدائن، فكلفوا جالينوس أن يخرج على جيش آخر ليدرك المعركة، وأرسلوا بذلك إلى نرسي فمضى لو يلحق به قبل المعركة، غير أن أبا عبيد لم يمهله إذ زحف إليه وكان أسرع من عدوه، فالتقوا بالسقراطية جنوب كسكر قريباً من مدينة واسط^(١)، فاقتتلوا في صحارى ملس قتلاً شديداً انتصر فيه المسلمون على الفرس،

(١) الفتح العربي للعراق وفارس ١٢٨ - وفي معجم البلدان، السقراطية أسفل من كسكر في صحارى ملس.

وهرب نرسي وغلبيه أبو عبيد على عسكره وأرضه فأخرب ما كان حول معسكرهم من أرض كسكر. وجمع الغنائم فرأى من الأطعمة شيئاً عظيماً. فبعث فيمن قرب منه من المسلمين فحملوا منه ما شاءوا، وأخذ المسلمون خزائن نرسي فلم يكونوا أفرح بشيء مما خزن منهم بالنرسيان بسبب أنه كان يحتكره ويمنعه الناس ويمالته ملوك الفرس على ذلك. اخذوه فاققسموه وصاروا يطعمونه الفلاحين الذين طالما حرموه. وبعثوا بخمسة إلى عمر وكتب أبو عبيد إليه:

«إن الله أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحمونها واحبين أن تروها، ولتذكروا أنعام الله وأفضاله».

وقال عاصم بن عمرو^(١):

ضربنا حماة النرسيان بكسكر	غداة لقيناهم ببيض بواتر
وفزنا على الأيام والحرب لاقح	بجرد حسان أو ببرد غواير
وظلت بلاد النرسيان وقره	مباحالن بين الديار الأضافر
أبحنا حمى قوم وكان حماهم	حراما على من رامه بالعساكر

مطاردة

أقام أبو عبيد بكسكر بعد المعركة وبعث قوات المطاردة. فسرّح المثنى إلى باروسما. وبعث والى وكذلك عروة بن زيد^(٢) الخيل الطائي إلى الزوابى. (قال كريستنسن^(٣)) لم تكن الزوابى إلا ولاية استان من السواد الذى يحوى اثني عشر ولاية، وهى ناحية من إقليم بابل الأسفل، تخترقها القنوات المسماة بالزباب). وبعث عاصماً إلى نهر جوبير^(٤). فوجدوا فلولا

(١) شعراء الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام ١٣٠ عن معجم البلدان.

(٢) فى فتوح البلدان ٦٢٤ أن أبا عبيد أرسل عروة، وفى الطبرى أنه أرسل والقا إلى الزوابى. ولقد كان عروة محارباً قديماً شهد بعض الحروب مع أبيه فى الجاهلية وهو غلام، قال عروة:

جلبنا الخيل من أجا وسلمى تخب نزائناً خيب الذئاب

جلبنا كل طرف أعوجى وسلهبة كخافية العقاب

(٣) إيران تحت حكم الساسانيين ٢٦١ و ٥٠٠.

(٤) قال ياقوت الحموى عن نهر جوبير: «هو نهر من سواد العراق بالبصرة دخل فى نهر الأجانة» (معجم البلدان) بينما عده ابن خردادبه من سقى الفرات غربى دجلة، قال كورة أردشير بابكان خمسة طساسيج (نواحي)، طسوج بهر سير، والرومقان، وكوثى، ونهر درقيط، ونهر جوبير (الممالك والممالك ٧) وطابقه على ذلك قدامة بن جعفر (الخراج وصناعة الكتابة ٢٣٦) وهذا هو المعقول لموافقته لمسرح العمليات.

تتجمع فهزموها وأخربوا ما وجدوا وسبوا. وقد كانت هذه المناطق مما صالح أهلها خالد بن الوليد، ثم نقضوا عهدهم وثاروا ضد المسلمين حين دعاهم رستم إلى الثورة، فكانت هذه الإغارات من قبيل الإجراءات التأديبية. وكان مما أحرب المثنى وسبى أهل زندورد ويسريسي، وكان من أسر عاصم أهل بيتيق من نهر جوبير، ومن أسر والقى أبو الصلت.

وخرج اثنان من الدهاقين إلى المثنى يطلبان أداء الجزية والدخول فى ذمة المسلمين دفعاً عن أرضهم. أحدهما فروخ عن باروسما والثانى فرونداذ عن نهر جوبير، فأرسلهما المثنى إلى أبى عبيد فصالحاه عن كل رأس أربعة دراهم - كما تم مثل هذا الصلح من أهل الزوابى وكسكر، وضمننا لهم رجالهم وصاروا صلحاً وذمة.

هدايا من الأطعمة

وجاء فروخ وفرونداذ إلى أبى عبيد بآنية فيها أنواع من الأطعمة الفارسية من الألوان والأخبصة وغيرها، فقدمها إلى المثنى وقالوا: «هذه كرامة أكرمناك بها وقرى^(١) لك». قال: «أأكرمتم الجند وقرىتموهم مثله؟» قالوا: «لم يتيسر ونحن فاعلون». وإنما كانوا يتقربون من أبى عبيد ويخشون قدوم جالنوس وما يصنع بهم. فرفض أبو عبيد الطعام وقال: «فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند»، وردده ورفض أن يؤثر نفسه بشيء على سائر المسلمين.

كما جاء^(٢) اندرزغر بن خوكبذ بمثل ما جاء به فروخ وفرونداذ فقال لهم: «أأكرمتم الجند بمثله وقرىتموهم؟» قالوا: «لا». فردده وهو يقول: «لا حاجة لنا فيه، بئس المرء أبو عبيد أن صحب قوماً من بلادهم أهرأقوا دماءهم دونه، أو لم يهرقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه. لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم».

(١) القرى: ما يقدم إلى الضيف.

(٢) الطبرى ٤ / ٦٦ س ش س، عن النضر بن السرى الضبى.

محرقة باقسياناً^(١)

١٧ شعبان ١٢ هـ - ١٦ أكتوبر (تشرين أول) ٦٢٤ م

خرج أبو عبيد من السقاطية نحو باروسما، فبلغه مسير جالنوس، وقد اجتمعت إليه فلول جابان. لقد كان مكلفاً أن يدرك نرسى قبل المعركة، غير أنها كانت أسرع منه فلم يدركها، ولم يدع له أبو عبيد فرصة الوصول إلى كسكر إذ زاحفه. فنزل جالنوس في باقسياناً من أرض باروسما والتقوا، أبو عبيد في جيش المسلمين المنتصر في النمارق والسقاطية، وجالنوس، في جيش ضم أعداداً كبيرة من الفلول المنهزمة من المعركتين، وقلما يفلح مهزوم فقد معنويته. حالة كهذه كانت تستلزم من الجوس استبعاد العناصر التي منيت بالهزيمة من قبل مرات ومرات. ودارت المعركة، فانتصر المسلمون، وعمد جالنوس إلى الفرار، وأقام أبو عبيد في قرية من قرى باروسما، وقد غلب على تلك البلاد.

وعاد الدهاقين يداهنون المسلمين، ويصنعون لهم الطعام. فلما قدموا الطعام إلى أبي عبيد قال: «ألم أعلمكم أنني لست أكلأ إلا ما يسع من معي ممن أصبتم بهم؟ ما أنا بالذي أكل هذا دون المسلمين». ^(٢) فقالوا له: «كل فإنه ليس من أصحابك أحد إلا وهو يؤتى في منزله بشيعة بمثل هذا وأفضل». فأكل، فلما رجعوا إليه سألهم عن طعامهم فأخبروه بما جاءهم. وأخبره الدهاقين أنهم إنما كانوا قصروا من قبل تربصاً ومخافة عقاب الفرس لهم.

وجلس أبو عبيد ليطعم، وقد أرسل يدعو أناساً من المسلمين كانوا يأكلون معه أضيافاً عليه ليشاركوه. وكانوا قد أصابوا شيئاً من نزل فارس (أطعمتهم وتموينهم)، فظنوا أنه يدعوهم إلى مثل ما كان يدعوهم إليه من غليظ العيش، وكبرها ترك ما أتوا به من ذلك، فقالوا للرسول الذي جاء يدعوهم: «قل للأمير إنا لا نشتهى شيئاً مع شيء أئتنا به الدهاقين». فأرسل إليهم الرجل الكريم أبو عبيد وقد كرهه أن يطعم وحده: «إنه طعام كثير من أطعمة الأعاجم لتنظروا أين هو مما أتيتم به، إنه قَرَو ونجم وجَوَزَل وشواء وخردل...» وعدد لهم أسماء الأطعمة. وفي ذلك قال عاصم بن عمرو وأضيافه عنده في سمر واحتفال بالنصر:

(١) الطبري ٤/ ٦٦ س ش س، عن النضر بن السري والجالد. وعن محمد وطلحة وزيد بإسنادهم.

(٢) الطبري ٤/ ٦٥ س ش س، عن النضر بن السري ومجالد بإسنادهم. وعن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق.

إن تك ذا قَرَو ونجم وجَوَزَل
وقرورقاق كالصحائف طويت

فعند ابن قَرَو وشواء وخردل
على مُزَع فيها بقول وجَوَزَل

كما قال:

صَبَحْنَا^(١) بِالْبَقَايسِ رَهْطَ كَسْرَى صَبُّوحاً لَيْسَ مِنْ خَمَرِ السَّوَادِ
صَبَحْنَاهُمْ بِكُلِّ فَتَى كَمْسَى وَأَجْرَدَ سَابِجٍ مِنْ خَيْلِ عَادِ

بعد ذلك نجد أبا عبيد يرتحل راجعاً إلى الحيرة، وقد جعل المثني بن حارثة على مقدمته وسار على تعبئته. لا ندري هنا لماذا رجع أبو عبيد إلى الحيرة. من المحتمل أن يكون قد بلغته أنباء الاستعداد العظيم الذي يعده الفرس، فآثر الركون إلى مكان أكثر أمناً حتى ينظر مسارهم. وتقديرنا أنه وصل الحيرة في ١٩ شعبان ١٢ هـ.

النيمارق والسقاطية وباقسياناً، هذه المعارك الثلاث لم يكن للفرس فيها من تخطيط إلا الاعتماد على الكثرة العددية، والإلقاء إلى الميدان بجند كبير بعد جند كبير، وجمع كثيف بعد جمع كثيف. وهو أسلوب في الحرب ساذج ينقصه الفكر والتخطيط، كأن لم يدرك الفرس بعد أن الحرب علم وفهم وفطنة. لقد كان المسلمون يدركون ذلك، ولقد قرأنا في كتاب أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى أبي عبيدة بالشام يعلمه بتأثير خالد بن الوليد على جيوش الشام، يقول فيه: «... ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك!» وقد قابل المسلمون استراتيجية الفرس بكثرة تحريك قواتهم القليلة، ودوام نشاطها لملاقاة هذه الجيوش الجارة والمبادرة بالالتحام بكل جمع قبل أن يلتقي بالجموع الأخرى. فإذا كانت الكثرة العددية هي ميزة الفرس التي امتازوا بها في معاركهم، فقد كانت المهارة هي ميزة المسلمين التي قابلوا بها كثرة الفرس، والقلّة الماهرة المدربة تغلب الكثرة الساذجة الجاهلة. وقد كان من الأفضل لهم أن تتحول هذه التحركات العشوائية البلهاء إلى خطة تطويق لجيش المسلمين، جيش جابان من جهة وجيش نرسى من جانب آخر، وجيش جالنوس من جانب ثالث، غير أن جابان تعجل الالتحام، ونرسى «عمد إلى المراقبة في جنوب كسكر إلى جانب أراضيهم وزروعهم وممتلكاتهم، وبذلك كلفه رستم وبوران. وجالنوس أبطأ عن إدراك المعركتين. كان بوسعهم جميعاً أن ينتظروا مقدم أبي عبيد ليحيطوا به من ثلاث جهات، ولكنهم لم يفعلوا،

(١) الصبوح: شرب الخمر صباحاً، والغبوق: شربها عشياً. والمقصود في البيت أن سقيناها صباحاً لا كما كانوا يشربون من خمرهم، ولكن سقيناها الموت من أيدي الكماة الأبطال على الجياد الأصيل.

واستمروا على استراتيجية المواجهة التي فشلت أمام حملة خالد بن الوليد . من المؤكد أنه لم يكن بالمدائن من ينظر ويفكر ويتدبر ويتعلم ثم يصدر عن فكر وخطة . ولكن كان بالمدينة أبو بكر وعمر .

معركة الجسر^(١)

وتعرف أيضاً بالمروحة، والقرقس، والقسن، وقسن الناطف

٢٣ شعبان ١٣هـ - ٢٢ أكتوبر (تشرين أول) ٦٣٤م^(٢)

تجهيز كبير

فى الواقع أن اسم «المروحة» هو أكثر الأسماء مناسبة لشكل هذه المعركة وطبوغرافيتها، ولكن اشتهارها باسم الجسر أكثر، وهى من أشهر معارك فتح العراق . عاد جالوس ومن أفلت معه من باقسيانا إلى المدائن، فوقف موقف المسألة . وليس أشق على نفس قائد منهزم من أن يقف موقف الحساب أمام رؤسائه . وقد غضب منه رستم غضباً شديداً وحمله مسؤولية

(١) الطبرى ٤ / ٦٧ س ش س، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم .

وعن الجاهل وسعيد بن المرزبان وعطية والنضر .

وعن النضر بن أفسرى عن الأغفر العجلي .

وعن رجل عن أبى عثمان النهدي .

وعن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن محمد بن عبد الرحمن بن الحصين .

(٢) توفى أبو بكر رضى الله عنه فى ٢١ جمادى الآخرة ١٣هـ = ٢٢ / ٨ / ٦٣٤م . وبعد وفاته كانت اليرموك على روايتين ذكرهما الطبرى . فعن محمد وطلحة وعمر والمهلب (الطبرى ٤ / ٣٢) أنها كانت بعد وفاة أبى بكر بعشر ليال . وعن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم (الطبرى ٤ / ٦٣) أنها كانت بعد وفاته بعشرين ليلة . فى حين كانت معركة الجسر - فيما يروى محمد وطلحة وزياد بإسنادهم - بعد اليرموك بأربعين ليلة، ولا نعلم أحداً خالفهم فى ذلك . وإذن فمعركة الجسر كانت بعد وفاة أبى بكر بخمسين ليلة أو بستين ليلة .

فإذا أخذنا بأن وفاة أبى بكر سبقت اليرموك بعشر ليال، تقع معركة الجسر فى ١٣ شعبان ١٣هـ . أما إذا أخذنا بأنها سبقتها بعشرين ليلة فإن الجسر تقع فى ٢٣ شعبان ١٣هـ .

ومن حيث أن المشى برح المدينة فى اليوم الرابع أو الخامس لوفاة أبى بكر أى فى ٢٦ جمادى الآخرة ١٣هـ . بمجرد أن بدأ التطوع، وأنه بلغ الخيرة فى عشرة أيام أى فى ٦ رجب ١٣هـ . وإن أبا عبيد لحقه بعد شهر أى فى ٥ أو ٦ أو حتى ٣ شعبان، ثم أقام أياماً يستجم فى خفان، من هنا نرى أن الفترة بين بلوغ أبى عبيد إلى الخيرة وبين ١٣ شعبان أحد التاريخين المحتملين لمعركة الجسر تقصر أن تتسع لأربعة معارك كبرى هى النمارق والسقراطية وباقسيانا والجسر، وتفصل بينها مسافات انتقال تجاوز ٥٠٠ كيلو متر .

ولذلك اتجهنا إلى الأخذ بالرواية الثانية القائلة بأن اليرموك كانت بعد وفاة أبى بكر بعشرين ليلة، وأن الجسر بعد اليرموك بأربعين، فيكون يوم الجسر هو ٢٣ شعبان ١٣هـ . وفيما بين تقديرنا لوصول أبى عبيد إلى خفان فى ٣ شعبان وبين تقديرنا ليوم الجسر فى ٢٣ منه قدرنا المواقع التى توسطت ذلك =

أبو عبيد يخالف مستشاريه

وأرسل بهمن جاذويه أحد رجاله مردانشاه الخصى رسولاً إلى أبي عبيد فقال له: «إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور، وإما أن تدعونا نعبّر إليكم». فقال المسلمون: «لا تعبر يا أبا عبيد»، «ننهاك عن العبور»، «قل لهم فليعبروا». وكان من أشد الناس عليه في ذلك سليط بن قيس. ولكن أبا عبيد ترك الرأي وأصر على العبور ولجّ في ذلك وقال: «لا يكونوا أجراً على الموت منا، بل نعبّر إليهم»! فناشده سليط ووجوه المسلمين، وقالوا: «إن العرب لم تلق مثل جنود فارس اليوم مذ كانوا. وإنهم قد^(١) حفلوا لنا (اجتمعوا واحتشدوا) واستقبلونا من الزهاء^(٢)». والعدة بما لم يلقنا به أحد منهم، وقد نزلت منزلاً لنا فيه مجال وملجأ ومرجع من فرة إلى كربة. قال أبو عبيد: «لا أفعل! جئنا والله يا سليط» قال سليط: «أنا والله أجراً منك نفساً، وقد أشرنا عليك بالرأى فستعلم».

ونسى أبو عبيد وصية عمر إذ بعثه. نسى تحذيره له من أرض المكر والخديعة، ونسى قوله «وأخزن لسانك ولا تفشين سرك، فإن صاحب السر ما ضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه، وإن ضيعه كان بمضيعة». نسى ذلك كله، فدارت هذه المناقشات حول العبور وعدمه أمام الخصى الفارسي مردانشاه رسول بهمن جاذويه، فأدرك أهمية الموقع وخصائصه، وكان مكبراً، فأراد أن يستدرج أبا عبيد فقال: «إن أهل فارس قد عيروكم بالجن! وأنتى له علم ذلك وهو لم يبرح مكانه؟ فازداد أبو عبيد محكاً^(٣) ورد على أصحابه رأيهم فلم يقبله، وحلف ليقطعن الفرات إليهم ولیمحصن ما صنع.

تروى الروايات أن دومة، امرأة أبي عبيد، رأت رؤيا أنها بالمروحة وأن رجلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب من الجنة، فشرب منه أبو عبيد، ثم شرب منه ابنه جبر وسبعة من أهله، كلهم من ثقيف فأخبرت بها أبا عبيد. فقال: «هذه الشهادة». ويبدو أن أبا عبيد كان يطمئن إلى صلاح زوجته وصدق رؤياها إذ أوصى إن هو أصيب، فالأمير فلان فإن أصيب فلان، وعدد الأسماء التي رأتها دومة في رؤياها حتى قال: «فإن قتل أبو القاسم فعليكم المثنى».

(١) الاستيعاب ١٢٤ كنى.

(٢) المنظر الحسن - مختار الصحاح.

(٣) محك الرجل: ثار ونازع في الكلام وتنادى في اللجاجة عند المساومة - المنجد.

الهزيمة. ثم سأل رستم: «أى العجم أشد على العرب فيما ترون؟» قالوا: «ذو الحجاب بهمن جاذويه». وقد سمي ذا الحجاب لأنه كان يعضب^(١) حاجبيه ليرفعهما عن عينيه كبراً. فأمره رستم على قتال المسلمين ومنحه في هذه الحملة من الإمكانات ما لم يجهز به جيش سبق لقتال المسلمين. فقد أراد رستم أن يكسب من المسلمين معركة تعيد إلى دولته موازنة في الموقف وتعيد إلى حكومته هيبتها وتعيد لجيوشها روحها المعنوية وثقتها في نفسها وفي قيادتها. فمئذ بدأت عمليات المسلمين الحربية في العراق وهم يفوزون في كل موقعة ولم ينتصر الفرس قط. ولذلك فحاجتهم ماسة أن يكسبوا من المسلمين معركة... أى معركة.

بعث رستم بهمن جاذويه لقتال أبي عبيد، ورد معه جالانوس وجعله على المقدمة. وقال رستم لبهمن: «فإن عاد لثلثها فاضرب عنقه». وأخرج معه راية فارس الشهيرة درفش كابيان، وكانوا لا يخرجونها إلى مع ملوكهم وفي معاركهم الحاسمة، وأمه بأفيال القتال المدرية فيها الفيل الأبيض وهو أكبرها، وتقلده سائر الأفيال عليه سعف النخل، وأفيال سود. وكان في العجم الجوس يومئذ أربعة آلاف دارع يقودهم مردانشاه بن بهمن^(٢).

وتقدم بهمن من المدائن نحو الحيرة، وعلم أبو عبيد بذلك فخرج من الحيرة في ٢٢ شعبان (وكنّا قدرنا رجوعه إليها من باقسياناً في ١٩ منه) وتقدم حتى انتهى إلى بابل، ثم انحاز وعدل عن ذلك فجعل الفرات بينه وبين الجوس. وإذا ذاك وقف بهمن بقواته على شاطئ الفرات بقس الناطف وعسكر بالمروحة (موضع برج بابل والعاقول)^(٣).

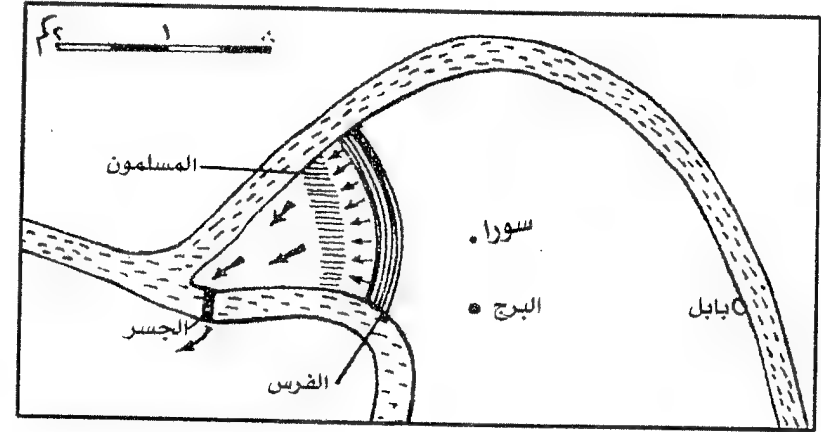
على أساس تقريبي بأن النمارق في الثامن والسقراطية في الثاني عشر وباقسياناً في السابع عشر، إذا أخطأنا فيها أو في أحداها، فلن يكون الخطأ كبيراً. وقد جاء في فتوح البلدان ٢٢٦ أن موقعة الجسر كانت يوم السبت في آخر شهر رمضان ١٣ هـ، وبه أخذ صاحب الاستيعاب في أسماء الأصحاب ولعله نقله عنه قال: «وذلك في آخر شهر رمضان أو أول شوال من سنة ثلاث عشرة»، وهذا يتعارض مع ما ذهبنا إليه بالحساب ويتعارض مع وقوع الموقعة التالية في البويب في رمضان كما ذكر رواية الطبري، وهي رواية يؤيدها أمر المثنى للمسلمين أن يفطروا من الصيام يوم البويب. ولذلك نرجح ما ذهبنا إليه على رواية البلاذري في هذا الشأن. وأياً ما كان فالفرق بينهما سبعة وثلاثون يوماً. وقد ذهب ابن الأثير (أسد الغابة ٤٧) إلى أن اليرموك كانت في الخامس من رجب ١٥ هـ، وهو تقدير بعيد جداً عما نحن بسبيله.

(١) فتوح البلدان ٦٢٥ - يعضب يعنى يشق أو يفرق. وفرق الخواجب لا يرفعهما عن العينين، وربما كان الأصل يعضب يعنى يربطهما بعصابة. ولا بد أن حاجبيه كانا كثرين إلى الدرجة التي تسمح بذلك.

(٢) الاستيعاب ١٢٤ كنى.

(٣) ذكر ابن خردادبه دير العاقول في الطريق من المدائن إلى البصرة، قال من المدائن إلى دير العاقول، ثم إلى جرجرايا، ثم إلى جبل، ثم إلى قم الصلح، ثم إلى واسط... إلخ (المسالك والممالك ٥٩).

وجاء ابن صلوبا دهقان قس الناطف، فعقد جسراً عائماً بين الفريقين. ويقال إن ذلك الجسر كان قديماً يعبر عليه أهل الحيرة إلى ضياعهم وكان معتلاً مقطوعاً فأصلحوه^(١)، ثم عبر عليه أبو عبيد والمسلمون، وقد ترك لهم بهمن جاذويه منزلاً ضيق المذهب والمخرج يفقدون فيه ميزة المناورة وحرية الحركة، وليس لهم فيه مجال للكر والفر فعبروا إلى أرض ضاقت بهم.



خريطة رقم (٢٧) - ملحمة الجسر

المعركة

والتحم الفريقان، وقد جاءت أفيال الفرس عليها النخل تجوس المسلمين، وأقبلت خيلهم عليها التجافيف (الدروع) والفرسان عليهم شعارات الحرب، فلما نظرت خيول المسلمين إلى ذلك رأَتْ شيئاً لم تكن ترى مثله واستنكرته، فأجفلت منه وانزعجت وهربت بسرعة، فكان المسلمون إذا حملوا على الفرس لم تُقدم خيلهم، وإذا حمل الفرس على المسلمين بالفيلة، وقد علقوا بها أجراس وجلاجل ذات رنين وجلبة، فرت خيول المسلمين وفرقت بين وحداتهم.

وإذ كان المسلمون في مكان ضيق فقد وجه إليهم الفرس وابلا من سهامهم. يصف الأغر

(١) فتوح البلدان ٦٢٥.

العجلى ذلك المشهد فيقول:

«وخزقهم الفرس بالنشأب وعضّ المسلمين الألم».

في حين لم يكن المسلمون يصلون إلى الفرس. إذ ذاك فقدت فرسان المسلمين فاعليتها في المعركة. فقرر أبو عبيد التخلي عن الخيل ونزل عن جواده وترجل جميع المسلمين ثم مشوا إلى الفرس في شجاعة نادرة ومع الفرس أفيالهم وفرسانهم ومشاتهم فصافحوهم بالسيوف.

معركة غير متكافئة... كانت الفيلة لا تحمل على جماعة إلا دفعتهم وألقت بهم. ولم يفقد أبو عبيد والمسلمون شجاعته وبسالته ورباطة جأشهم. كانوا جيشاً من الفدائيين مليئاً بصحابة رسول الله ﷺ. فتأدى أبو عبيد «احتوشوا الفيلة (أحيطوا بها) وقطعوا بطنها (أحزمتها التي تحت بطونها) وأقبلوا عنها أهلها». ثم كان أولهم في ذلك، فواثب الفيل الأبيض وهو أضخمها فتعلق بحزامه وقطعه وسقط اليهودج الذي فوقه ووقع الذين كانوا عليه. وكان أبو محجن بن حبيب^(١) الشقفي مع أبي عبيد في ذلك وضرب الفيل على عرقوبه. وفعل المسلمون مثل ذلك بالأفيال الأخرى فما تركوا فيلاً إلا حطوا رحله وقتلوا أصحابه. ولكن ذلك لم يغير من سوء موقف المسلمين وتفوق الفرس. وأراد أبو عبيد أن يقتل الفيل ورأى أصحابه اجتراءه دون احتراز فقالوا له: «إنا نخاف عليك» فقال: «إن ربي ينصرني، ولكن أخبروني هل لهذا الفيل من مقتل؟» فأجابوه: «إذا قطع خرطومهم فهو يموت» فقال: «يا معشر الناس إني حامل على هذا الخلق، فانظروا إن قتلته وهزمت من حوله فأنا أميركم. وإن قتلته فأخى الحكم أميركم، فإن قتل فولدى وهب، فإن قتل فولدى مالك، فإن قتل فولدى جبر، فإن قتل فأبو القاسم، فإن قتل أبو القاسم فعليكم^(٢) المثني». وفي بعض الروايات أن أبا محجن كان ممن استخلف، ولكن الثابت أنه لم يستخلف أحداً قبل قتل الذين سماهم قبله وأن آخرهم كان المثني، والمثني لم يقتل ولا أبو محجن. وكان الفرس يرون سوء موقف المسلمين - كما كانت أفيالهم على درجة جيدة من التدريب والكفاية. ولما أراد أبو عبيد أن يقطع خرطوم الفيل الأبيض شن هجومه عليه وهو يقول:

يا لك من ذى أربع ما أكبرك يا لك في يوم الوغى ما أنكرك
إني لعالٍ بالحسام مشفرك وهالك وفي الهلاك لى درك

(١) فتوح البلدان ٦٢٥.

(٢) الفتح العربي للعراق وفارس ١٣٣.

وأهوى الفيل بخرطومه لأبى عبيد فنفضه^(١) بالسيف، ولكن الفيل اتقاه بيده وأبو عبيد يحاول أن يضربه، فأصابه الفيل بيده، فأوقعه على الأرض وخبطه بخرطومه ثم قام عليه وداسه بأقدامه، «... فكان قتالهم من الظهيرة إلى^(٢) حوالى الساعة الرابعة بتوقيت زماننا».

استشهاده أبى عبيد

ورأى الناس أبا عبيد قتيلاً تحت أقدام الفيل فى مشهد يشع فهبطت أنفاس بعضهم. وبدأ لواء المسلمين ينتقل من يد إلى يد من الذين أمرهم أبو عبيد من بعده. فأخذه أخوه الحكم بن مسعود فقاتل الفيل حتى أزاحه عن أبى عبيد، فاجتر أشلاءه إلى المسلمين جثة ممزقة فأحرزوه ولم يتركوه للفرس. ثم عاد يحاول أن يسقط الفيل ولكن الفيل اتقاه بيده، تماماً كما فعل مع أبى عبيد ثم خبطه فأوقعه على الأرض ثم وطئه بأقدامه وقام عليه. وحمل اللواء وهب بن أبى عبيد، تقدم^(٣) وهو ينشد:

لا خير فى هلا ولا فى ليتُ من طلب الموت فهذا الموت
ليس لأمر الله فيك فوت قد سطع النقع ومات الصوت
ثم مالك بن أبى عبيد، ثم جبر بن أبى عبيد، تقدم وهو يقول:
قد علمت واضحة الترائب مبالسة بالشعر والحواجب
أنى غداة الروع والتشاغب أشجع من ذى لبدة موائب
قتال أقران مخوف الجانب

(١) النفخ: هو الضرب من اليسار إلى خارج اليمين.
(٢) عبارة الطبرى «... فاقتتلوا يوماً وأبو عبيد فيما بين الستة والعشرة، حتى إذا كان من آخر النهار واستبطا رجل من ثقيف الفتح... إلخ» (٤/ ٦٧). وقد دعت هذه العبارة البهيمه كافة المؤلفين إلى إغفالها إلا ما كان من اللواء الركن محمود شيت خطاب حيث فهمها على أن أبا عبيد قتل وحده من الفرس بين الستة والعشرة (قادة فتح العراق والجزيرة ٢١٨)، ولم نفهم العبارة على ذلك وإنما فهمناها على أنها ترقيت، فقد كان معروفاً تقسيم النهار إلى اثنتى عشرة ساعة بطريقة ملائمة من بزوغ الشمس إلى غروبها، (الكون ص ٢٥ - صادر عن مكتبة لايك العلمية، الترجمة العربية طبع مطابع الأهرام التجارية بالقاهرة). وكان غروب الشمس الساعة الثانية عشر والظهر الساعة السادسة. وقد قاتل أبو عبيد أربع ساعات من السادسة من النهار إلى العاشرة منه بتوقيت زمانهم. وفى ذلك التاريخ يكون شروق الشمس الساعة ٦:٠١ وغروبها الساعة ٥:١٨ بتوقيت عصرنا، وعلى هذا قدرنا المواقيت التى ذكرنا. ونعتقد أن هذا يتماشى تماماً مع باقى أحداث الرواية.

(٣) المثنى بن حارثة ١١٣.

وتتابع السبعة من ثقيف كلهم يأخذ اللواء فيقاتل حتى يُقتل، ومضى على هذا النهار حتى آخره. يقول البلاذرى: «إنه لما قتل أبو عبيد أخذ اللواء أخوه فقتل، فأخذه ابنه جبر^(١) فقتل».

المثنى يقود المعركة

وانتهى اللواء إلى البطل المغوار الصنديد المثنى بن حارثة وقد بدأ المسلمون يفرون عبر الجسر المعقود وراء ظهورهم. ورأى ذلك أحقق من بنى ثقيف يدعى عبدالله بن مرثد الثقفى فبادر إلى الجسر فقطعه، ووقف يمنع الناس من العبور ويقول: «موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا». وضغط الجوس المسلمين نحو الجسر، وهبطت معنويات الناس فتواثبوا فى النهر، وغرق من لم يصبر بينما أسرع القتل فيمن صبر.

وتلمع بطولات... فقد بدأت المعركة على خطأ، والآن فى وقت متأخر شرع المثنى حين آلت إليه قيادتها يتجه بها نحو الصواب، فجمع بعض أبطاله ووقف معهم يقوم بأصعب دور وأشقه فى معركة كهذه، وهو حماية المؤخرة لإتاحة الفرصة لكبير عدد للعبور وقد انقطع الجسر من خلفه. إنها معركة من صنفها معركة دنكرك. وأمسك المسلمون بعبد الله بن مرثد وهو قائم عند الجسر يمنعونهم من محاولة العبور فأتوا به المثنى، والمثنى فى شدة الغضب مما فعل فضربه، وقال له: «ما حملك على الذى صنعت؟». قال: «ليقاتلوا». فدعا المثنى عروة بن مسعود أخا أبى عبيد، وقال له: «انطلق إلى الجسر فقف عليه وحل بين العجم^(٢) وبينه»، ووقف من كل جماعة أشدهم وأصبرهم وأشجعهم يدافعون الفرس فى قتال مرير واستماتة صلبة. وقف فارس بنى تميم عاصم بن عمرو، وفارس بنى عجل مذعور بن عدى، وفارس بنى ضبة الكلج الضبى، وفارس بنى طيء، عروة بن زيد الخيل الذى قاتل قتالاً عدل بقتال جماعة، وسليط بن قيس الأنصارى وغيرهم من فرسان المسلمين وأنصار رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج. ووقف مع كل هؤلاء يقودهم وينظمهم ويقاومهم المثنى بن حارثة الشيبانى فكانوا حماة الانسحاب. ونادى المثنى من كان عبر من المسلمين إلى الشاطئ الآخر فجاءوا بأناس من العجم فضموا إلى السفينة التى قطعت أحبالها وأعادوا ربطها ووصل الجسر، وحماة الانسحاب يقاتلون الفرس أشد قتال فى ثبات وبسالة تفوق حد الخيال ويدودون عن المسلمين تدفق الفرس وضراوتهم.

(١) فتوح البلدان ٢٢٥ - الإصابة ٧٣٨ كنى عن أبى بكر بن أبى شيبه فى مصنفه.

(٢) الفتح العربى للعراق وفارس ١٣٥.

وكست الدماء الأرض وكل شيء. وتزاحم المسلمون على الجسر بعد أن أعيد وصله وارتفعت قامة المثنى في الناس وهو في درعه يصيح في المسلمين بصوت ثابت هادىء جهورى لا ينعكس عليه جزع الموقف في كثير أو قليل:

«أيها الناس أنا دونكم فاعبروا على هَيْتِكُمْ (مهلكم) ولا تدهشوا (تتحيروا) فإننا لن نزال (نتحرك من مكاننا) حتى نراكم من ذلك الجانب، ولا تغرقوا أنفسكم».

وكان سليط بن قيس آخر من استشهد من المسلمين عند الجسر وانسحب المثنى بعده وقد سبقه كافة الناس. انسحب بظهره إلى الجسر وهو يقاتل ووجهه إلى الفرس. وأرادهم ذو الحجاب^(١) بهمن جاذويه فلم يقدر عليهم، وأفلتوا منه وقرص الشمس يميل للمغرب. في هذه الملحمة جرح المثنى وغرس حلق من درعه في جسده، هَتَكَهُنَّ رمح من رماح الفرس، كما جرح الكلج الضبى، وعاصم بن عمرو.

قتل يومئذ من الفرس ستة آلاف في المراحل الأولى من المعركة، وقتل من المسلمين أربعة آلاف ما بين قتيل وغريق منهم ثلاثمائة من ثقيف وحدها كان منهم ثمانون رجلاً مستنون قد خضبوا الشيب^(٢). فلما عبر المثنى بمن بقي من المعركة انفض عنه أهل المدينة حتى لحقوا بها، وتركها بعضهم خجلاً وحياء فنزل البوادي، وبقي المثنى في أربعة آلاف انسحب بهم تجاه أليس. وكان ممن قتل يومئذ أبو زيد الأنصارى^(٣)، أحد من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ، وقال أبو محجن^(٤) بن حبيب الثقفى، يرثى الشهداء، وأبا عبيد:

أَنْتِ تَسُورُ نَحُونَا أَمْ يَوْسُفَ وَمَنْ دُونَ مَسْرَاهَا فَيَا فِجَاهِلَ^(٥)
إِلَى فَتِيَةٍ بِالطُّفِّ نِيلَ سَرَاتِهِمْ وَغُودِرَ أَفْرَاسٍ لَهُمْ وَرَوَاحِلَ^(٦)
وَأُضْحَى أَبُو جَبْرٍ خَلِيًّا بَيْوتِهِ وَقَدْ كَانَ يَغْشَاهَا الضَّعَافُ الْأَرَامِلَ

(١) الإصابة ٢٨٧ كنى، عن المدائنى فى ترجمة أبى الحكم بن حبيب.
(٢) تقول الروايات: أن أربعة آلاف قتلوا وغرقوا، وهرب ألفان وبقي أربعة آلاف وفى قول آخر ثلاثة آلاف مع المثنى.

(٣) فتوح البلدان ٦٢٥ عن أبى مخنف.

(٤) فتوح البلدان ٦٢٦. وشعر الفتوح الإسلامية ١٣٠ عن الأغاني.

(٥) أنى: كيف - تسرت: سارت ليلاً.

(٦) الطف: اسم المكان - نيل: نال منهم عدوهم، سراتهم: عظامهم ووجوههم، فغادروا أفراسهم ورواحلهم.

وأضحت بنو عمرو لدى الجسر منهم إلى جانب الأبيات جود ونائل^(١)
وما لمت نفسى فيهم غير أنها لها أجل لم يأتها وهو عاجل
وما رمت حتى مزقوا برماحهم إهابى وجادت بالدماء الأباجل^(٢)
وحتى رأيت مهترتى مزورة لدى الفيل يدمى نحرها والشواكل^(٣)
مررت على الأنصار وسط رحالهم فقلت لهم هل منكم اليوم قافل^(٤)
ألا لعن الله الذين يسرهم رداى وما يدرون ما الله فاعل

الخبر فى المدينة

وبعث المثنى إلى المدينة عبدالله بن زيد بن الحصين الخطمى الأنصارى^(٥) بالخبر، فكان أول من بلغها من العراق بعد الواقعة. دخل المدينة وعمر على المنبر يخطب، ورآه عمر يدخل المسجد، فنادى عليه: «الخبر يا عبدالله بن زيد.. ما عندك يا عبدالله بن زيد؟» وعبدالله يمر أمام باب أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وهى فى حجرتها تسمع. ولم يشأ عبدالله أن يتحدث فى الناس فأجابه: «أتاك الخبر اليقين». ثم صعد إليه المنبر فأسر فى أذنه بالخبر. قالت عائشة: «فما سمعت برجل حضر أمراً، فحدث عنه، كان أثبت خبراً منه». ثم بدأت فلول المروحة من المهاجرين والأنصار تفد إلى المدينة، ورأى عمر جزعهم.

ونظراً إلى أن كثيراً ممن خرج مع أبى عبيد كان من أهل المدينة ومن حولها، فقد استشهد

(١) جود: يجودون بأنفسهم - والنائل: العطاء (مختار الصحاح).

(٢) الأباجل: العظماء المبجلون، التبجيل: التعظيم (مختار الصحاح).

(٣) الشكال: العقال ولا يكون إلا فى الرجل، فكأنما أراد بالشوا كل القوائم.

(٤) قافل: راجع.

(٥) كان فى الصحابة أكثر من واحد باسم عبدالله بن زيد. واشهرهم ابن نسيبة بنت كعب التى شهدت أحداً وقتلت فيها وجرحت اثني عشر جرحاً، وليس هو ذاك، وما هو عبدالله بن زيد الذى أرى الأذان فى العام الثانى من الهجرة. ولكن عبدالله صاحب خبر الجسر هو ابن يزيد بن زيد بن حصن بن عمرو بن الحارث بن خطمة بن جشم بن مالك بن الأوس. شهد الحديبية وهو ابن سبع عشرة سنة، ومعنى هذا أنه يوم الجسر قارب الرابعة والعشرين من عمره. له ولأبيه صحة وله أحاديث يروىها عن النبى صلى الله عليه وسلم، وكان من أكثر الناس صلاة وكان لا يصوم فى غير رمضان إلا يوم عاشوراء. شهد مع على بن أبى طالب مشاهدته فى صفين والجمال والنهروان وكان أميراً على الكوفة، ثم ولى امرة مكة يسيراً لعبدالله بن الزبير. واستمر مقيماً بها ومات فى زمن ابن الزبير. (الاستيعاب ٢/ ٣٨٣ - الإصابة ٥٠٣٤).

في المروحة كثير من الصحابة، منهم جمع غفير من الأنصار، من الأوس^(١) والخزرج الذين أووا رسول الله ﷺ وأزروه ونصروه، ممن شهد معه المشاهد من بدر وأحد والخندق والحديبية وفتح مكة وغيرها.

(١) قدمت الأوس من أبنائها شهداء، منهم:

أسعد بن سلامة الأشهلي
أنس بن أوس
أنيس بن عتيك بن عامر الأشهلي
ثابت بن النعمان، شهد أحداً والمشاهد بعدها
الحارث بن مسعود
خالد بن سنان، شهد أحداً
سلمة بن أسلم، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع النبي وهو الذي أرسله النبي مع عمرو بن أمية بعد رقعة بني النضير ليقاتل أبا سفيان.
مسلمة بن أسلم، أخو سلمة
عباد بن قيس.
عبدالله بن قيس، أخو عباد، شهد أحداً.
عقبة بن قيس، أخو عباد وعبدالله، شهد أحداً - أسد الغابة ٣٧١٢ - الاستيعاب ١٠٦/٢ - الإصابة ٥٦١٠
عبدالرحمن بن عدى، شهد أحداً
عبدالرحمن بن مربع، شهد أحداً والمشاهد بعدها - أسد الغابة ٣٣٨٣ - الاستيعاب ٤٠٠/٢ - الإصابة ٥٢٠٠.
عبدالله بن مربع، أخو عبدالرحمن، شهد أحداً والمشاهد مع رسول الله - الاستيعاب ٣٢٠/٢ - الإصابة ٤٩٤٤
عمرو بن أوس، شهد أحداً والخندق وما بعدهما مع النبي - الاستيعاب ٤٩٦/٢ - الإصابة ٥٧٧٣
نسير بن عنبس الشهير بفارس الجواء (اسم فارس له) شهد أحداً والخندق ومشاهد كثيرة مع النبي واستشهد حفيده عبدالله بن سهل بن نسير بالقادسية. - الاستيعاب ١٠٥٦/١ - الإصابة ٧٠١ - ٨٧٠٠ - ٨٧٠١
وقدمت الخزرج من أبنائها شهداء، منهم:
أسعد بن حارثة
ثابت بن عتيك
الحارث بن عتيك، أخو ثابت. شهد مع أخيه سهل أحداً والمشاهد مع النبي - الاستيعاب ٣٠٤/١ - الإصابة ١٤٤٦
الحارث بن الحباب. شهد أحداً وهو أبو معاذ القارئ شهد معه المروحة. - الإصابة ١٣٩٢
ثعلبة بن عمرو، شهد بدرًا وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع النبي - أسد الغابة ٦٠٧ - ٦٠٩
الحارث بن عدى. شهد أحداً. - الاستيعاب ٣٠٤/١ - الإصابة ١٤٤٨
خزيمة بن أوس. شهد بدرًا. - الاستيعاب ٤١٨/١ - ٤٢٩ - الإصابة ٢٢٥٠
زيد بن سراقه. - الاستيعاب ٥٣٢/١ - الإصابة ٢٩٠٣
زيد بن ملحان. شهد أحداً. - الإصابة ٢٩٣٩
عباد بن ملحان، أخو زيد. شهد أحداً. - الإصابة ٤٨٨٠
ضمرة بن غزية بن عمرو. شهد أحداً مع أبيه. - الاستيعاب ٢٠٤/٢ - الإصابة ٤١٩٢
عبدالله بن صعصة. شهد أحداً وما بعدها. - الإصابة ٤٧٥٩ =

وقال حسان بن ثابت^(١):

لقد عظمت فينا الرزية إننا جلاذ على ريب الحوادث والدهر
على الجسر قتلى لهف نفسى عليهم فيا حسرتى ماذا لقينا من الجسر

وتأثر عمر تأثراً بالغاً فقال: «عباد الله لا تجزعوا. اللهم إن كل مسلم في حل منى. أنا فئة كل مسلم، من لقي العدو ففُطِعَ بشيء من أمره، فأنا له فئة. يرحم الله أبا عبيد، لو كان عبر فاعتصم بالخيف، أو تحيز إلينا ولم يستقتل لكنا له فئة». وكان معاذ القارئ بن الحارث الخزرجي ممن شهد معركة الجسر وفر منها، فكان إذا قرأ: ﴿وَمَنْ يُؤْمِدْ ذِرَّهُ إِلَّا مُحَرَفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ بكى، فيقول له عمر: «لا تبك يا معاذ، أنا فئتك وإنما انحزت إلى». وكان عمر يقيمه ليصلى التراويح في شهر رمضان فكان يقنت فيها.

وكان ممن فر في يوم الجسر، سعد بن عبيد الأنصاري ثاني من تطوع لجهاد الفرس بعد أبي

=عمير بن كعب -
قيس بن السكن (وهو أبو زيد الأنصاري) أحد من جمع القرآن حفظاً على عهد رسول الله.
شهد بدرًا: وكان مع جيش خالد بن الوليد، واستخلفه على صندوقه، بعد خروجه من الحيرة.
الاستيعاب ٢١٥/٣ - الإصابة ٦٩٣ - ٤٦٠ - الإصابة ٧١٨٣
سليط بن قيس - سبق ذكره.
الاستيعاب ١١٧/٢ - الإصابة ٣٤٢٥
المنذر بن قيس أخو سليط. شهد أحداً والمشاهد مع النبي - الإصابة ٧٢٢٨
كما استشهد من الأنصار أيضاً عائد بن معاذ بن أنس الذي شهد أحداً مع ابنه عبد الرحمن.
كما استشهد عبدالرحمن بالقادسية بعد ذلك. - الإصابة ٤٤٥٢ - ٥١٤٨
واستشهد من بني ثقيف قبيلة أبي عبيد، عدد كبير بلغ الثلاثمائة، منهم أخوه الحكم بن مسعود الذي حمل اللواء بعده (الإصابة ١٧٩٠)، وابناؤه وهب ومالك وجبر، وأخوه عبدالله بن مسعود (الإصابة ٤٩٥٦)، وحبيب بن ربيعة بن عمرو، (الإصابة ١٥٨١) وغيرهم.
واستشهد الحنات بشر بن رديح التغلبي الشاعر، وكان أبوه حياً، وهو شيخ كبير قال في فراقه لما خرج للجهاد، أبياتاً بلغت الحنات، فأجاب عليها بقوله:
ألا من مبلغ عنى رديحاً فإن الله بعدك قد دعاني
فإن تسأل فإنى مستقيد وإن الخيل قد عرفت مكاني
فلما قتل الحنات قال أبوه يرثيه:
أبغى الحنات فى الجياد ولا أرى له شهباً ما دام لله ساجد
وكان الحنات كالشهب حياته وكل شهاب لا محالة خامد
الإصابة ٧٧٠ - ١٩٥٢ - ٢٤٩٦

(١) شعر الفتوح الإسلامية ١٣٠ عن معجم البلدان.

عبيد، ومن شهد بديراً، وكان أحد أربعة من الأنصار جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ، فكانت تعرض عليه الوجوه، بعد ذلك فيأبى إلا العراق ويقول: «إن الله عز وجل اعتد على فيها بقرّة فلعله أن يرد على فيها كربة»، فكان ممن شهد القادسية بعد ذلك مع سعد بن أبي وقاص، واستشهد بها فاغتم عمر لذلك، وقال: «لقد كاد قتله ينغص على هذا الفتح!».

وفى رثاء شهداء الجسر قال عمر:

نَعَيْتُ إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَتِيَّةً عَلَى مِثْلِهِمْ تَبْكِي النِّسَاءُ الْكَوَاعِبُ
نَعَيْتُ إِلَى الْأَنْصَارِ فَتِيَانَهَا الَّتِي بِهَا كَانَتِ الْأَحْيَاءُ طُرّاً تَحَارِبُ

بهذا الإيجاز الحزين نعى عمر شهداء الأنصار ووصفهم. وفى عام ١٧ هـ تزوج عبدالله بن عمر صفية بنت أبى عبید، وقد أصدقها عمر عن ابنه أربعمئة درهم، وزادها عبدالله سرّاً من أبيه مائة أخرى إكراماً لها، وعاشت معه بالمدينة، ولها أحاديث نبوية روتها عن عمر وعن أمهات المؤمنين عائشة وحفصة وأم سلمة.

هذا فى المدينة. أما فى المدائن، فمع هذا النصر ثار الناس برستم، ونقضوا الذى بينهم وبينه، وانقسموا فريقين، فريقاً معه وفريقاً مع فيروزان، وأتى خبر ذلك إلى ذى الحجاب، وهو بالمروحة، فرجع بجنده إلى المدائن.

هذه المعركة

١- فتنة المدائن ودورها

لم يتعرض كاتب لهذه المعركة دون أن يذكر فتنة المدائن باعتبارها المنقذ للمثنى ومن بقى معه بعد المعركة من أن يقوم بهممن جاذويه بمطاردتهم واستئصالهم والإجهاز عليهم. وهذا قول ينقصه الاندماج مع هذه المعارك والعيش فيها من داخلها، وإنما نختلف تماماً مع وجهة النظر هذه، ذلك أن استراتيجية المسلمين قبل هذه الموقعة وبعدها جرت على اعتبار الصحراء موئلاً لهم إذا ساءت الأمور وجرت فى غير صالحهم على غير ما يشتهون، وحينئذ يعجز الفرس عن تعقبهم داخلها. لقد انتهت معركة الجسر مع غروب الشمس وانقطع الجسر وراء المسلمين، فلم يكن فى إمكان بهممن أن يعبر وراءهم من يومه ذاك، وإذن فقد كان مع المسلمين فرصة الليل لينسحبوا فيه إلى صحرائهم التى كانت منهم غير بعيد، وهو ما فعله المثنى بالفعل. بمعنى أنه لم تطلع شمس اليوم التالى إلا وقد بلغوا مأمنهم.

٢- قيمة القيادة

إن موقعة الجسر كانت عملية باسلة، وإن كانت صدمت الجندى المسلم والمسلمين كافة فى حينها إلا أنها أثبتت أن قيادة الميدان كانت فوق مستوى القيادات - تلك القيادة التى تمثلت فى المثنى وأركان قيادته الذين معه مما انعكس أثره ثقة ظاهرة على قبائل شبه الجزيرة فاستمر تدفق متطوعهم، فلم ينكلوا كما حدث بعد رحيل خالد بن الوليد عن العراق، مع أن الموقف بعد معركة الجسر كان من الناحية الحربية أسوأ بكثير. ولو كان هذا السوء قاصراً على اعتبار أنها أول معركة يفقدها المسلمون أمام الفرس لكفى. لقد كانت معركة الجسر تجربة حية فى حروب المسلمين لإثبات قيمة كفاءة القيادة، فرأوا قيادة تعوزها الكفاية، خسرت المعركة ومزقت الجيش وحطمت الروح المعنوية لأعلى الناس وقمتهم فى المعنوية واستشهدت هى وقتل عدد كبير.. حدث هذا بالرغم من توافر الإيمان والشجاعة.. حتى آل الأمر إلى قيادة المثنى وهى قيادة على أعلى درجات الكفاية، فأنقذت أكثر مما كان يمكن إنقاذه. انقذت ستة آلاف. وعندما تنزل الحن بالجيوش تظهر الميزات الحقيقية والفوارق بين القادة الذين

يستطيعون أن يخرجوا بجيوشهم من تلك الحن أو الذين يسيرون بها إلى مصير مظلم محتوم.

٣- الحماس المجرد

إن الحماس المجرد لا مكان له في المعركة إذا لم تسانده أسس صحيحة ونظر في الحرب. ولقد أفلت من يد أبي عبيد عنصر الأمن بانحصاره في مكان ضيق المخرج وكأنه وضع جيشه في مصيدة دون عذر مقبول. وأفلت من يده عنصر التعاون بين الأسلحة المختلفة بخروج سلاح الفرسان من المعركة، فصارت قواته مشاة دون فرسان وكان عليهم أن يواجهوا مشاة الفرسان وفرسانهم وأفيالهم، وفقد عدد كبير من جنوده روحه المعنوية، وفقدت المعركة كفاءة القيادة حتى تولاها المثنى أخيراً بعد سبعة سبقوه. وكما فقد ذلك فقد أيضاً عنصر الحشد بسبب ضيق المكان إذ لا فائدة من أعداد الجند إذا لم تسعفها طوبوغرافية الأرض. كما أنه فقد حسن اختيار الهدف وما يتفرع عنه من اختيار الأرض واختيار طريق الوصول إليه وطريقة ضربه وما إلى ذلك، فوته على نفسه، بل أتاح لعدوه أن يفرضه عليه.

٤- معنويات مذهشة

وحين نتناول المعنوية وما أصيبت به فإنما نعنئ بعض المعنوية لا كلها. فمما يثير الدهشة والعجب أنه بالرغم من كل ما حدث لم يتمكن الفرسان من الحصول على أسير واحد من المسلمين، ولم يستأسر منهم أحد قط إبقاء على حياته، رغم أن طبيعة المعركة بجريانها في مكان محصور يجعل انتهاءها على أية صورة كانت هذه النهاية دون أسرى، أمراً معجزاً بالغ الغرابة إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن الجندي المسلم كان مقاتلاً فريداً في نوعه وأنه احتفظ بميزاته المعروفة عنه حتى في أشد المواقف شدة وبأساً، وأنه إنما ظل يقاتل حتى آخر رمق، وأن ذلك كان دأبهم جميعاً لا يستثنى منهم أحد. ولا يسع المتأمل هنا إلا الإعجاب بهذه البطولة من جميع أفراد هذا الجيش وفي مقدمتهم أبو عبيد نفسه وآله الذين استشهدوا معه.

هـ - البطولة لا الفتنة

بطولة المسلمين هذه - فيما نعتقد - كانت هي العامل الفعال الذي حدا بالفرسان أن يعودوا أدراجهم. فلئن عزى رجوع بهم من جاذبيه إلى المدائن إلى ما وقع فيها من فتنة، باعتباره كان من رجال السياسة كما كان من رجال الحرب، فلقد كان يستطيع أن يعود بشخصه وبيعت

أحد مرؤوسيه على رأس جانب من قواته - وكثيراً ما كانت - للمطاردة، ولكن الذي نحسبه أنه عاد وهو يحمد الله ألف حمد على هذه النتيجة مكتفياً تماماً بما أحرز، ويخشى مغبة أن يعيد التجربة. عاد وكأنه يحسب انتصاره هذا كان نشازاً، ولم يكن في حدسه ذاك واهماً، فسرى المثنى في اليوم التالي للمعركة يخرج للاشتباك ببعض بقايا معركة الجسر من الفرسان فيأسرهم.

أما بعد

٦- مما لا شك فيه أنه كان من الممكن أن تدور هذه المعركة بطريقة أمثل لو كان أبو عبيد قد استجاب لنصائح مستشاريه كما أمره بذلك أمير المؤمنين عمر، أو لو كان أكثر فطنة فلم يستجب لاستدراج الخصي مردان شاه.

٧- إن استمرار الفتح صار مستحيلاً بعد ذلك دون دخول إمدادات جديدة إلى المعركة. فإن الآلاف الأربعة التي بقيت بعد معركة الجسر كانت أصغر جيش للمسلمين تواجد على أرض العراق منذ بدأ الفتح، فضلاً عن إيثاقه بالجراح.

٨- أضاعت هذه المعركة - إلى حين - مكاسب المعارك السابقة، وجعلت الحرب سجلاً بعد أن كانت سلسلة متصلة الحلقات من الانتصارات المتعاقبة.

الباب الرابع عشر
قيادة المثني

اليس الصخري

٢٤ شعبان ١٣هـ - ٢٣ أكتوبر (تشرين الأول) ٦٣٤

خرج جابان ومعه مردان شاه الخصى فى بعض خيلهم، وظنهم بالمسلمين أنهم منفضون وأن شوكتهم قد انكسرت. ويبدو أنهم كانوا فى نزهة أو نحوها، فلم يعلموا بالرجوع المفاجيء لبهمن جاذويه. وأتت عيون المثنى تخبره بذلك، فاستخلف على المسلمين عاصم بن عمرو وخرج فى تجريدة خيل - وبه من جراح المروحة ما به - وانطلق يطوى المسافة تجاه البقعة التى أخبر عنها من اليس. ورأى مردان شاه وجابان خيل المثنى وهى مسرعة، فظنناهم هاربين من فلول المروحة، واعترضا طريق المثنى وهو يريدهم فأخذهما أسيرين وأخذ من معهما أسرى. وقال لهما المثنى: «أنتما غررتما أميرنا وكذبتما واستفزتما» وضرب عنقيهما. وكان أهل اليس قد تواطئوا مع المثنى عليهم وعقد لهم بها ذمة. ثم أخذ الأسرى فضرب أعناقهم ورجع إلى عسكره. وكان أبو محجن الثقفى من الفرسان الذين خرجوا مع المثنى ولكنه انصرف من اليس ولم يرجع معه.

بجيلة وحشود أخرى

كانت^(١) بجيلة من قبائل العرب الكبيرة، غير أنها تشتتت أوزاعاً في العرب نتيجة اشتباكها في بعض المعارك في الجاهلية. وكان جرير بن عبدالله^(٢) من سادة بجيلة وأشرافها. وقد كلم رسول الله ﷺ في شأن بجيلة ليجمعها فوعده بذلك. ولحق النبي بربه ولما يتم في الأمر شيء. ثم خرج جرير مع من خرج إلى الشام مع خالد بن سعيد بن العاص، وإذا شعر جرير بحاجة الجيوش إلى أمداد، استأذن خالداً ليقدم على أبي بكر ليكلّمه في قومه ليجمعهم له، فأذن له. وخرج جرير حتى أتى المدينة فقدم على أبي بكر وذكر له وغد النبي ﷺ وأتاه على ذلك بشهود وسأله إنجاز ذلك. غير أن أبا بكر كان مشغولاً بالفتوح، واعتبر الوقت غير مناسب لذلك، فغضب وقال لجرير: «تري شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين ممن يإزائهم من الأسدين فارس والروم، ثم أنت تكلفني التشاغل بما لا يغني عما هو أرضى لله ورسوله؟! دعني وسر نحو خالد بن الوليد حتى أنظر ما يحكم الله في هذين الوجهين».

عمر يجمع بجيلة

ونفذ جرير ما أمره به أبو بكر، فسار نحو العراق لينضم إلى خالد بن الوليد وبقي مع خالد حتى خرج معه من العراق نحو الشام. فلما عبروا المفازة وكانوا يسوّى استأذنه جرير وحنظلة بن الربيع ونفر في الرجوع، فأذن لهم فقدموا على أبي بكر بالمدينة. فلما ولى عمر ذكر له جرير مسألة جمع بجيلة فطالبه عمر بالبيعة فأقامها. فكتب عمر إلى عماله على

(١) الطبري ٤/ ١٥ - ١٦ عن عبيد الله عن عمه عن سيف.

س ش س، عن الغصن بن القاسم الكنانى عن رجل من بنى كنانة.

تفرعت بجيلة إلى عدة بطون، منها قسر وهو مالك بن عبق بن أثمار وأحمس بن الغوث بن أثمار وعرينة. وكانت بلادهم مع إخوانهم خثعم في جبال السروات من اليمن والحجاز إلى تبالة. وكانت دارهم جامعة وأيديهم واحدة حتى وقعت حرب بين أحمس بن الغوث وزيد بن الغوث بن أثمار، فكادت زيد أن تفنى أحمس. وعلى أثر ذلك افتقرت بطون بجيلة وتقطعوا في قبائل العرب يجاورونهم في بلادهم، وما زالوا متفرقين حتى أذن عمر بن الخطاب لجرير بن عبدالله أن يجمعهم ليوجههم لحرب الفرس، وكان أكثر بجيلة بالعراق، ولم يكن منهم بالشام إلا عدد قليل.

(٢) ترجمة جرير بن عبدالله البجلي في آخر الكتاب.

القبائل^(١): «من كان فيه أحد ينسب إلى بجيلة في الجاهلية وثبت عليه في الإسلام يعرف ذلك فأخرجوه إلى جرير». وواعدهم مكاناً بين العراق والمدينة. فكان ممن أخرج لهم قيس كبة وعرينة وسحمة^(٢)، وكانوا في قبائل بنى عامر بن صعصعة. فلما أعطى جرير حاجته من ذلك وتم له جمع بجيلة، قال له عمر: «اتخذونا طريقاً» فخرج وجهاء بجيلة في وفد منهم نحوه وخلفوا الجمهور. واجتمع بهم عمر فقال لهم: «أى الوجوه أحب إليكم؟» قالوا: «الشام أسلافنا بها».

قال: «بل العراق، فإن أهل الشام قد قفوا على عدوهم وإن الشام في كفاية».

فلم يزل بهم ويأبون عليه حتى أكرههم على ما أراد، وعرضهم عن إكراههم واستصلاحاً لهم، فجعل^(٣) لهم ربع خمس ما أفاء الله عليهم في غزاتهم هذه بالإضافة إلى نصيبهم من الفىء، لجرير ومن اجتمع إليه ممن أخرج إليه من القبائل.

جرير أمير بجيلة

وجعل عمر عرفة بن^(٤) هرثمة على من كان مقيماً من جديلة من بجيلة، وجعل جريراً على من كان من بنى عامر وغيرهم. فكانت إمارة عرفة على أكثر بجيلة وقال لهم أن يسمعوا له وأمر الآخرين أن يسمعوا لجرير. فسأل جرير بجيلة: «هل تقرون بهذا وقد أدخل علينا ما أدخل؟» وكانت بجيلة قد غضبت من قبل على عرفة في امرأة منهم. فاجتمعت بجيلة ثم أتوا عمر فقالوا: «أعفنا من عرفة».

(١) الطبري ٤/ ٧٠ س ش س، عن محمد بن نويرة وطلحة وزيد وعطية.

(٢) بطون من بجيلة - أسد الغابة ٧٣٠.

(٣) نفس المصدر + فتوح البلدان ٦٢٨ عن أبي مخنف وغيره. وقال الشعبي: «الثلث بعد الخمس ٦٢٩».

(٤) كان أبو بكر قد بعث حذيفة بن محصن الغلفاني من حمير وعرفة بن هرثمة البارقي من الأزد لقتال أهل الردة، حذيفة إلى عمان وعرفة إلى مهرة. وأمرهما إذا اتفقا أن يجتمعا على من بعثنا إليه وأن يبدأ بعمان وحذيفة أمير في وجهه على عرفة، وعرفة أمير في وجهه على حذيفة. فخرجا متساندين. وكانت عمان بعيدة جداً عن المدينة، فأمرهما أبو بكر أن يجدا السير إذ كان المسلمون بها في بلاء من المرتدين قد هربوا منهم إلى الجبال والبحر، عليهم جيفر وعباد فيمن ثبت على إسلامه يستغيثون أبا بكر. ثم أمر أبو بكر عكرمة بن أبي جهل أن يلحق بهما مدداً لهما حين انهزم أمام مسيلمة. والتقت الجيوش الثلاثة مع مسلمة عمان، ثم التحموا مع المرتدين في معركة عنيفة قتل فيها عشرة آلاف من المرتدين وسبيت الذراري، وعاد عرفة إلى أبي بكر بالخمس، فكان ثمانمائة رأس غنم والسبي، وغنم المسلمون السوق بما حوت. ولعرفة بعد ذلك ذكر كثير وبتولات فذة في فتوح العراق.

قال: «لا أعفيكم من أقدمكم هجرة وإسلاماً، وأعظمكم بلاء وإحساناً»

قالوا: «استعمل علينا رجلاً منا ولا تستعمل علينا نزيحاً فيناً».

فطن عمر أنهم ينفونه من نسبه فقال: «انظروا ما تقولون».

قالوا: «نقول ماتسمع».

فأرسل عمر إلى عرفة وقال له: «إن هؤلاء استعفوني منك وزعموا أنك لست منهم، فما عندك؟».

قال: «صدقوا، وما يسرنى أنى منهم، أنا امرؤ من الأزد ثم من بارق فى كهف لا يحصى عدده وحسب غير مؤتشب».

فقال عمر: «نعم الحى الأزد يأخذون نصيبهم من الخير والشر».

قال عرفة: «إنه كان من شأنى أن الشر تفاقم فينا ودارنا واحدة، فأصبنا الدماء ووتر بعضنا بعضاً، فاعتزلتهم لما خفتهم، فكنت فى هؤلاء - يعنى بجيلة - أسودهم وأقودهم، فحفظوا على لأمر دار بينى وبين دهاقينهم فحسدوني وكفرونى».

قال عمر: «لا يضرك، فاعتزلهم إذ كرهوك».

واستعمل جريراً مكانه، وأظهر لجرير وبجيلة أنه يبعث عرفة إلى الشام فحبب ذلك العراق إلى جرير. وخرجوا نحو العراق حتى نزلوا ذاقار، ثم ارتحلوا حتى نزلوا بالجبل والمثنى بمرج السباخ.

جشوة أخرى

وقدم عصمة بن عبدالله الضبي من بنى حارث فيمن تبعه من بنى ضبة فبعثهم عمر إلى المثنى بالعراق.

وقدم^(١) سبعمائة من بنى كنانة والأزد فقال لهم عمر: «أى الوجوه أحب إليكم؟» قالوا: «الشام، أسلافنا أسلافنا» فقال: «ذلك قد كفيتموه، العراق العراق.. ذروا بلدة قد قتل الله شوكتها وعددها واستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش، لعل الله أن يورثكم بقسطكم من ذلك فتعيشوا مع من عاش من الناس».

(١) الطبرى ٧٢/٤ - ٧٣ س ش س، عن عطية وإجمال بإسنادهما.

فقام غالب بن فلان الليثى وعرفة بن هرثمة البارقي كل فى قومه فقال:

«يا عشيرتاه أجيئوا أمير المؤمنين إلى ما يرى وأمضوا له ما يسكنكم». قالوا: «إنا قد أطعنا وأجبنا أمير المؤمنين إلى ما رأى وأراد».

فدعا لهم عمر بخير وقال لهم خيراً وأمر غالب بن عبدالله^(١) على بنى كنانة وبعثه إلى المثنى بالعراق. وأمر عرفة بن هرثمة البارقي على الأزد، وكان أكثرهم من بارق ففرحوا برجوعه إليهم، وبعثهم إلى العراق. فخرجوا غالب على كنانة وعرفة على الأزد كل فى قومه حتى قدموا على المثنى.

وخرج هلال بن علفة التيمى فيمن اجتمع إليه من الرباب حتى أتى المدينة فأمره عمر عليهم وبعث بهم إلى المثنى.

وخرج ابن المثنى الجشمى، جشم سعد بن بكر من هوازن، حتى قدم المدينة فأمره عمر عليهم وبعث بهم إلى المثنى.

وجاء عبدالله بن ذى السهمين^(٢) الخثعمى فى أناس من خثعم فأمره عليهم ووجهه إلى المثنى بالعراق.

جاء^(٣) ربعى فى أناس من بنى حنظلة فأمره عمر عليهم وبعثهم، فخرجوا حتى قدم بهم على المثنى. وقد رأسهم بعده أبنة شبت بن ربعى.

وقدم أناس من بنى عمرو فأمر عمر عليهم ربعى بن عامر بن خالد العنود من أشراف العرب وألحقه بالمثنى.

وقدم قوم من بنى ضبة فجعلهم فرقتين: ابن الهوبر على فرقة، والمنذر بن حسان على الثانية، ووجههم إلى المثنى.

وقدم قُرط بن جُمّاح فى عبدالقيس فوجهه عمر إلى المثنى.

فلم يواف أحد عمر فى شعبان من هذا العام إلا أمد به المثنى، فضمهم إلى الآلاف الأربعة الذين ثبتوا معه بعد معركة الجسر.

(١) انظر ترجمة غالب بن عبدالله فى آخر الكتاب.

(٢) الطبرى ٧٣/٤ س ش س، عن إجمال عن الشعبي وعطية بإسنادهما.

(٣) الطبرى س ش س، عن نحمد وعمر بإسنادهما.

نلاحظ أن معركة المروحة كانت في ٢٣ شعبان وأن هذه التعزيزات كلها قد بلغت المثنى قبل المعركة التالية في البويب، وهي التي كانت في رمضان، ولم تحدد المصادر أى أيام رمضان ولم نستطع الاهتداء إلى ذلك. غير أن الروايات تذكر عن هذه الإمدادات أنها وفدت إلى عمر بالمدينة في شعبان. فإذا كانت المسافة بين الحيرة والمدينة يقطعها فارس مشهود له مثل المثنى على عجل - كما رأينا - في عشرة أيام، فلنا أن نفترض أن خبر الجسر لم يبلغ عمر قبل رمضان، وإنما بلغه في الأسبوع الأول من رمضان. ولذلك نتجه إلى أن وفود المتطوعين ظلت تفد تباعاً منذ تطوع أبو عبيد في اليوم الرابع لوفاة أبي بكر في أواخر جمادى الآخرة، وأنه حين اجتمع بالمدينة ألف، أخرجهم عمر مع أبي عبيد حتى بلغ العراق في نحو الثالث من رجب، وأن القبائل ظلت تفد تباعاً إلى المدينة بعد ذلك، ومنذ ذلك الحين، فبعث عمر بهم إلى العراق. وقد كان هم عمر الأول أن يحشد المسلمين من كافة بقاع شبه الجزيرة ليلقى بهم في نحور الفرس.

معركة البويب^(١)

رمضان ١٢هـ - نوفمبر (تشرين ثانی) ٦٣٤م

وتسمى أيضاً معركة النخيلة. سارت كل قبيلة من التعزيزات التي ألقى بها عمر إلى المثنى نحو العراق. وكان المثنى على علم تام بتفاصيل ذلك، فكتب إليهم وهم على الطريق يعلمهم بمكانه، فتوافوا إليه في جمع عظيم.

جيش الفرس من الفرسا

كذلك كانت عيون الفرس تنقل إليهم أخبار الحشد الجديد، وأدرك رستم وفيرزان أن نصرهم بالمروحة يوم الجسر لم يكن بالنصر الساحق الحاسم الذي يوقف غزو المسلمين لمملكة فارس. وقد رأيا أن فرسانهم كانت من عوامل انتصارهم يوم الجسر، لا سيما بعد خروج فرسان المسلمين منها، أدركا أهميتها واتفقا على أن يخرج جيشاً من الفرسان يقوده مهران بن باذان الهمداني وذلك بصفة عاجلة. وقد نشأ مهران مع أبيه باليمن، إذ كان عاملاً لكسرى هناك فنشأ يعرف اللغة العربية ويجيدها.

واستأذن رستم وفيرزان على بوران وكانا إذا أرادا شيئاً دنوا من حجابها حتى يكلمها به، فحدثاها بالذي رأيا وأخبراها بعدد الجيش وكان الفرس لا يكتثرون البعوث حتى كان من أمر المسلمين ما كان. فلما أخبراها بكثرة عدد الجيش قالت: «ما بال أهل فارس لا يخرجون إلى العرب كما كانوا يخرجون قبل اليوم؟ وما لكما لا تبعثان كما كانت الملوك تبعث قبل اليوم؟» قالا: «إن الهبة كانت مع عدونا يومئذ وإنها فينا اليوم». فوافقتهم على ذلك. هذا ما ذكرته المصادر عن هذه المقابلة والذي نذهب إليه أنها إنما كانت لأسباب مالية لتمويل ذلك الجيش الكبير من الفرسان في المعركة.

تجهيز سريح للمثنى

خرج مهران في الخيول من المدائن متجهاً إلى الحيرة. ووصل خبر هذا الخروج إلى المثنى

(١) الطبرى ٤ / ٧١ س ش س، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.

وعن عبيد الله بن محفز عن أبيه.

وعن أبي اسحق الشيباني.

وعن عطية عن بن سفيان الأحمرى عن الخالد عن الشعبي.

وعن عمر بإسناده.

فتوح البلدان ٦٣٠.

والنخيلة موضع قرب الكوفة على طريق الشام - معجم البلدان.

وهو بمرج السباخ بين القادسية وخفان، أتت عيونه بالخبر إلى بشير بن الخصاصية وكان يومئذ بالخيرة، وجاءه أيضاً عن طريق كنانة^(١) ومادام تحرك الفرس الجديد من الفرسان، فقد قدر المثنى أن زحفهم سيكون سريعاً فقرر أن يتحرك على الفور. وخرج على عجل فيمن معه من مرج السباخ ودخل فرات بادقلى. وأرسل إلى جرير:

«إنا جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا، فعجلوا اللحاق بنا وموعدكم البويب». وكان البويب مغيضاً للفرات (قناة تصريف) يخرج منه قبيل موضع الكوفة، فيصب أيام الفيضان في الجوف^(٢) - ونحسبه كان لحماية أراضي المِلطاط التي كانت من أملاك كسرى من الفيضان - وكتب إلى عصمة ومن معه من بنى ضبة وإلى كل قائد على جمع بمثل ذلك، وحدد لهم محور التقدم فقال لهم: «خذوا على الجوف». فسلخوا القادسية والجوف. وسلك المثنى وسط السواد فطلع على النهرين^(٣)، ثم على الخورنق. وطلع عصمة ومن سلك معه طريقه على النجف. وطلع جرير ومن سلك معه طريقه على الجوف. وقد خلفوا عيالات من قدم من المدينة بالقادسية، وكان عيالات أهل الأيام قبلهم مقيمين بالخيرة. وانتهت جميع القوات إلى المثنى وهو على البويب. وصدق حدس المثنى.. إذ ذاك كان مهران قد بلغ بحذائهم من وراء الفرات. ومن حيث كانت معركة البويب في نوفمبر (تشرين أول) فهو زمن تحاريق، نعتقد أن البويب كان جافاً، أو على الأقل كان غير ممتلئ، فهو بذلك كان مانعاً ولكنه غير تام.

جيش المثنى

إذا نظرنا إلى جيش المثنى الذي تجمع في البويب في موضع يعرف بدير هند نجده كالاتى:

٤٠٠٠ ممن بقى من يوم الجسر. أكثرهم من بنى شيبان وبنى عجل وبنى تميم.
حنظلة - عليهم شيب بن ربيع - من تميم
عمرو - عليهم ربيع بن عامر - من تميم
الرباب - عليهم هلال بن علفه التيمي
ضبة من الرباب - عليهم عصمة بن عبدالله، وابن الهوبر، والمندر بن حسان - ثلاث فرق.
سعد من بكر بن هوازن - عليهم ابن المثنى الجشمى.
عبد القيس - من بكر بن وائل - عليهم قرط بن جماح.
٧٠٠ كنانة - عليهم غالب بن عبدالله الليثى.

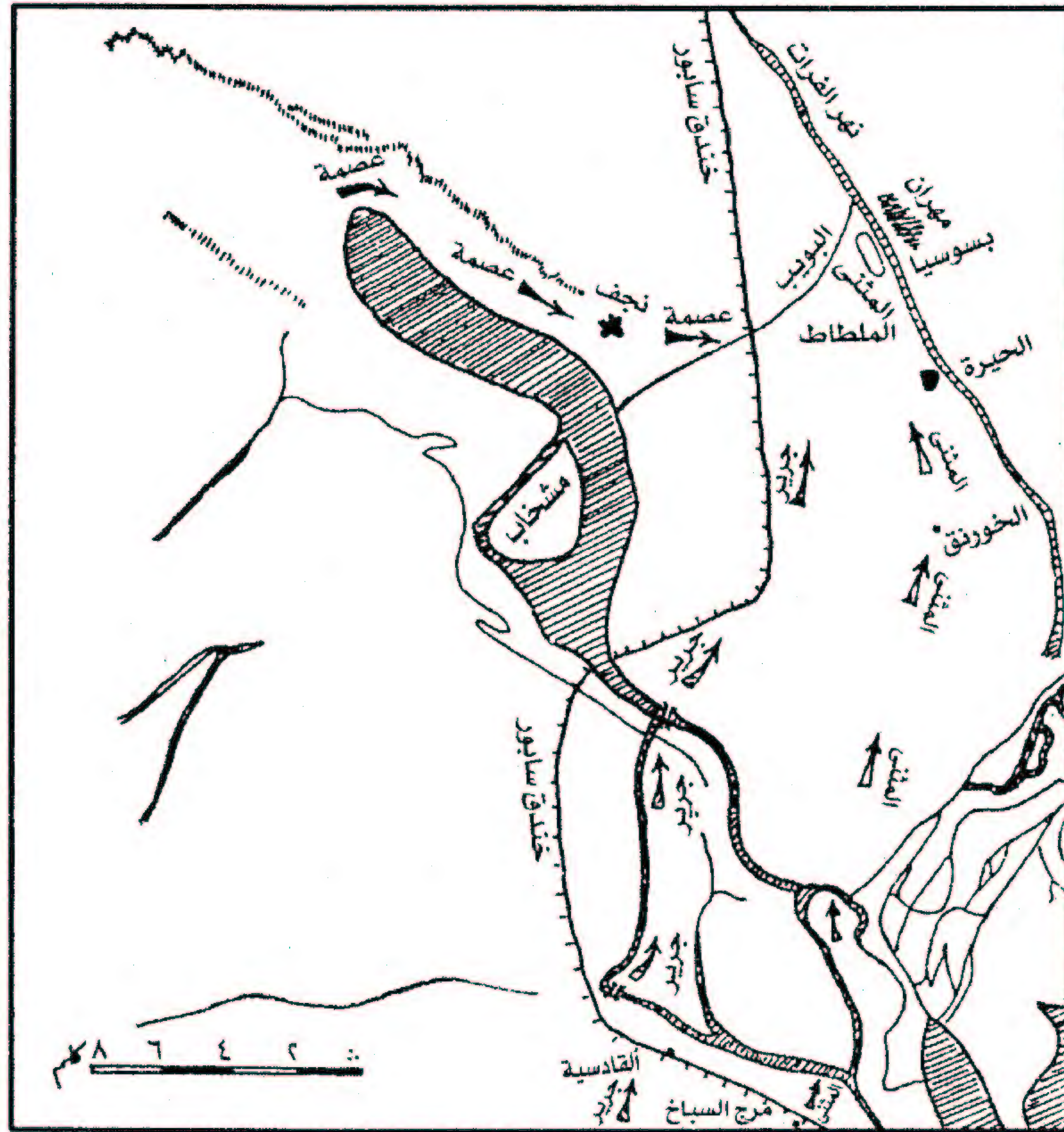
(١) لا ندري من هو.

(٢) معجم البلدان ٢ / ٣١٠ - والطبرى.

فتوح البلدان ٦٣٠.

(٣) فيما نظن أنهما العتيق والخضوض.

٧٠٠ الأزد - أكثرهم من بارق - عليهم عرفجة بن هرثمة.
٢٠٠٠ بجيلة - عليهم جرير بن عبدالله البجلي.
طىء - عليهم عدى بن حاتم الطائى.
خثعم - عليهم عبدالله بن ذى السهمين.



خريطة رقم (٢٨) البويب - ١

وجميعهم ثمانية آلاف. كلهم فيما خلا أصحاب الجسر لم يقاتلوا الفرس من قبل غير أن فيهم من سبقت له ردة ندم عليها وتاب إلى الله وحسن إسلامه، فجاء تدفعه الرغبة في التقرب إلى الله والتكفير عن رده. وما أشد أثر المعاصى إذا انقلبت إلى توبة،

ثم كانوا محاربين، فلئن قاتلوا دين الله منذ عامين فلا أقل من أن ينصروه اليوم وأن يشهدوا الله على ذلك.

درس من الجسر

ونظر المثنى إلى الضفة الأخرى من الفرات حيث مهران وعسكره، ثم سأل رجلاً من أهل السواد «ما يقال للرقعة التي فيها مهران وعسكره؟» قال: «بسوسيا»، فقال المثنى: «أكدى مهران وهلك. نزل منزلاً هو البسوس^(١)» (الشؤم). وأقام المثنى بمكانه حتى كاتبه مهران «إما أن تعبروا إلينا وإما أن نغير إليكم». وكانت أوامر عمر ألا يعبر المسلمون بحراً ولا جسراً إلا بعد ظفر، وما كان للمثنى أن يعيد خطأ أبي عبيد. فقال لهم: «اعبروا».

وعبأ المثنى جيشه بالنخيلة^(٢)، فجعل على ميمنته بشير بن الخصاصية وعلى ميسرته بسر بن أبي رهم الجهني، وعلى الجردة (الخليل) أخاه المعنى بن حارثة الشيباني، وعلى المشاة أخاه مسعود، وعلى الطلائع من قبل ذلك اليوم النسير^(٣) بن ديسم بن ثور العجلي وكان من أشراف بني عجل، وعلى الردء (الاحتياط) مذعور بن عدى^(٤). كما عبأ مهران جيشه فجعل على ميمنته ابن آزاذبه مرزبان الحيرة، وعلى ميسرته مردانشاه.

وعبر مهران من بسوسيا فنزل بجذائها على شاطئ الفرات مع المسلمين في الملطاط مما يلي دير الأعور^(٥) في رقعة تسمى شوميا^(٦) ومعه ثلاثة أفيال. واصطف الفريقان على شاطئ البويب الشرقي، المسلمون بموضع السكون والفرس في شوميا موضع دار الرزق.

وكانت البويب في رمضان، فقام المثنى في جيشه وقال:

«إنكم صُومًا، والصوم مُرِقَّةٌ ومُضعِفةٌ، وإنى أرى من رأى أن تفتطروا ثم تقوُّوا بالطعام

(١) البسوس امرأة من العرب هاجت بسببها الحرب أربعين سنة بين العرب في الجاهلية، ف ضرب بها المثل في الشؤم فقالوا أشأم من البسوس. وبها سُميت حرب البسوس - مختار الصحاح.

(٢) فتوح البلدان ٦٣٠.

(٣) ذكره ابن حجر في الإصابة باسم النسير بن ديسم بن ثور العجلي برقم ٨٦٦٠، وذكره مرة أخرى باسم بشير بن ثور العجلي برقم ٧٧٧ ونراهما شخصاً واحداً.

(٤) في رواية محمد وطلحة وزباد بالطبرى أن مذعوراً كان على الميمنة والنسير على الميسرة وعاصم على الجردة وعصمة على الطلائع.

(٥) فتوح البلدان ٦٣٠، والملطاط على شاطئ الفرات وكان يقال لظهر الكوفة اللسان وما ولى الفرات منه الملطاط (معجم البلدان).

(٦) شوميا: هي دار الرزق، وهي موضع في بقعة الكوفة (معجم البلدان).

على قتال عدوكم».

فأفطروا وكان يمر بصفوفهم وقد اصطفت كصفوف الصلاة، فأبصر برجل يستوفز ويستنتل^(١) من الصف، فقال: «ما بال هذا؟» قالوا: «هو ممن فر من الزحف يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل». فقرعه المثنى بالرمح وقال: «لا أبالك. إنزم موقفك، فإذا أتاك قرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل». قال: «إنى بذلك لجدير». ثم استقر ولزم الصف.

مسلمون فقط

وتذكر رواية أنه قدم على المثنى أنس بن هلال النميري في نصارى من النمر مدداً للمثنى، وجلاب جلبوا خيلاً، كما قدم ابن مردى الفهر التغلبي في نصارى من بنى تغلب وجلاب جلبوا خيلاً، وهو عبدالله بن كليب بن خالد. وقالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم نقاتل مع قومنا. هذه الرواية هي الوحيدة التي تذكر قتال عرب العراق النصارى إلى جوار عرب شبه الجزيرة المسلمين، لا قبلها ولا بعدها في حملات خالد وأبي عبيد والمثنى وسعد بن أبي وقاص، وهي لا تذكر أعدادهم حتى نقيّم وزنهم في المعركة ونعلم إن كانوا قوات حقيقية أو قوات رمزية.

وقد ذكر ابن حجر العسقلاني أنس بن هلال النميري وقال: «كان مما أمد به عمر بن الخطاب المثنى بن حارثة في فتوح العراق واستشهد مع أخيه مسعود^(٢) بن حارثة. فهو بهذا ينفي عن أنس النصرانية ويثبت له الإسلام ثم نسبته إلى نمير وليس إلى ثمر، فإن كانت ثمر من تغلب وكانوا من نصارى العرب. فلقد كانت نمير من عامر بن صعصعة من هوازن وكانوا مسلمين، ومساكنهم شرقى مكة والمدينة، وقد أسلمت كافة شبه الجزيرة قبل الفتوح. وهناك نمير أخرى نذهب إلى أنها هي التي ينتسب إليها أنس بن هلال إذ أنها من بجيلة، ولقد أكدت الرواية التي ذكرت أنس بن هلال أنه كان تحت قيادة جرير بن عبدالله أمير بجيلة. وهذا يلقي شبهة ثقيلة على رواية اشتراك النصارى في هذه المعركة بل تنفيها. ولنا عود لمناقشة هذا الموضوع حين نعرض لفصل «العصبية» من باب عوامل نجاح الفتح الإسلامى من الجزء الخامس إن شاء الله.

(١) استنتل من بين أصحابه: تقدمهم، استنتل للأمر استعد له - المنجد، واستوفز استعد.

(٢) الإصابة ٤٩١.

المثنى فى جندته

وامتطى المثنى فرسه الشמוש^(١)، وهو فرس مشهور، سمي بذلك من لين عريكته وطهارته. فكان إذا ركبته قاتل، وكان لا يركبه إلا لقتال ويودعه ما لم يكن قتال. وطاف المثنى فى صفوفه وهو فى درعه على فرسه تلك يعهد إلى المسلمين عهده. ووقف على الرايات راية راية، يحضضهم ويحرضهم ويأمرهم بأمره ويهز مشاعرهم بأحسن ما فيهم حثاً لهم. ولكل منهم يقول: «إني لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من قبلكم. والله ما يسرنى اليوم لنفسى شيء إلا وهو يسرنى لعامتكم». فيجيبونه بمثل ذلك. وأنصفهم فى القول والفعل وخلط الناس فى المكروه والمحجوب فلم يستطع أحد أن يعيب له قولاً ولا عملاً، رضى الله عنه وأرضاه.

ثم قال لهم: «إني مكبر ثلاثاً فتهيؤوا ثم احملوا مع الرابعة. وكبر المثنى أول تكبيرة فبدأ الفرس زحفهم وعاجلوا المسلمين وأقبلوا نحوهم فى صفوف ثلاثة مع كل صف فيل ومشاتهم أمام فيلهم. ولم يكن الصف المذكور صفاً فردياً وإنما كان صفاً كثيفاً متعدد الأفراد. وجاؤوا ولهم هدير عال، وهو أسلوب متبع فى قتال الالتحام بالسلح الأبيض «كالسونكى» إلى يومنا هذا، والمقصود به إلقاء الرهبة فى قلب الخصم. وأراد المثنى الرائع أن يبطل مفعول ذلك فقال للمسلمين:

«إن الذى تسمعون فشل، فالزموا الصمت واثمروا همساً».

واقترب الفرس من المسلمين من جهة نهر بنى سليم^(٢)، وصف المسلمين فيما بين نهر بنى سليم وما وراءها.

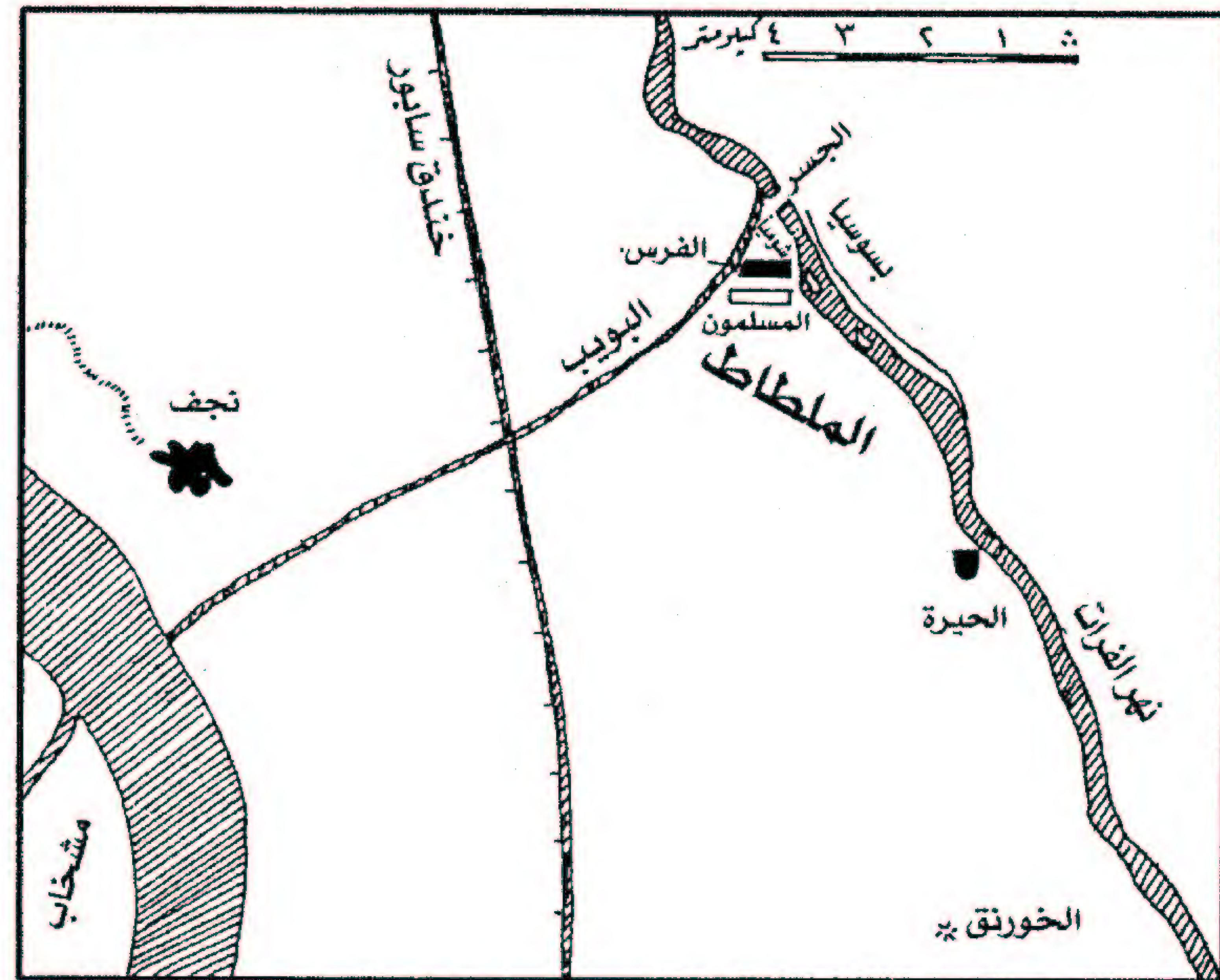
المعركة

والتقى الصفان بعد أول تكبيرة للمثنى وتجمد الموقف طويلاً وهم ملتحمون. ورأى المثنى خللاً فى بعض صفوف بنى عجل وكانوا يرونه يمد لحيته لما يرى منهم، فأرسل إليهم رجلاً، فقال لهم: «إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول: «لا تفضحوا المسلمين اليوم». فقالوا «نعم» واعتدلوا واعتنوا بأمر لم يعن به أحد من المسلمين يومئذ وهو مراقبة المثنى، فرمقوه فرأوه يضحك فرحاً بعد أن استقام صفوفهم.

(١) فى مختار الصحاح - شمس الفرس منع ظهره فهو فرس شמוש، ورجل شמוש أى صعب الخلق.

ونعتقد أنه كان يرفض غير المثنى أن يستوى على ظهره وبذلك استحق الاسم.

(٢) لم نهتد إلى مكان نهر بنى سليم على الخريطة ولعله كان موجوداً فى عصر الطبرى ولم يكن موجوداً فى زمن المعركة.

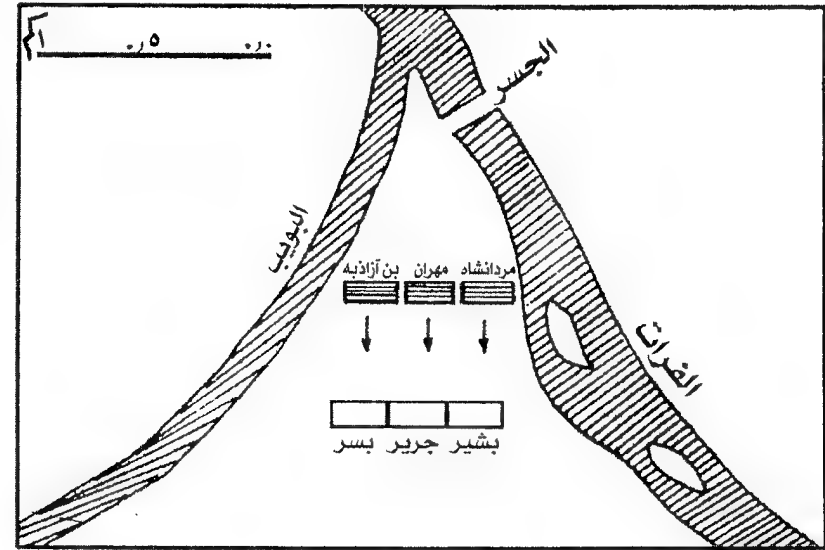


خريطة رقم (٢٩) البويع - ٢

فلما طال القتال واشتد قال لأنس بن هلال: «يا أنس إذا رأيتنى قد حملت على مهران فاحمل معى»، وقال لأبن مردى الفهر مثل ذلك فأجابه ثم حمل المثنى على مهران فأزاله حتى أدخله فى ميمنته واستمر المثنى يضغط على عدوه، فخالطهم، واجتمع القلبان وارتفع الغبار، وكانت الأجناد أيضاً تقتتل بشدة، لا يستطيع المسلمون منهم، ولا المجوس أن يفرغوا لنصر أميرهم، والمثنى مازال يضغط على مهران. وقال مسعود بن حارثة قائد مشاة المسلمين لجنده: «إن رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف. إلزموا مصافكم وأغنوا غناء من يليكم».

وأصيب مسعود وقواد من المسلمين. ورأى مسعود تضعع من معه لإصابته وهو ضعيف قد ثقل من الجراح. فقال: «يا معشر بكر بن وائل ارفعوا راياتكم رفعكم الله، لا يهولنكم مصرعى». ويدرك المثنى كل شيء فيخاطب الناس بقوله: «يا معشر المسلمين لا يرعكم مصرع أخى فإن مصارع خياركم هكذا^(١). وقاتل أنس بن هلال النيمى حتى أصيب فحملة المثنى

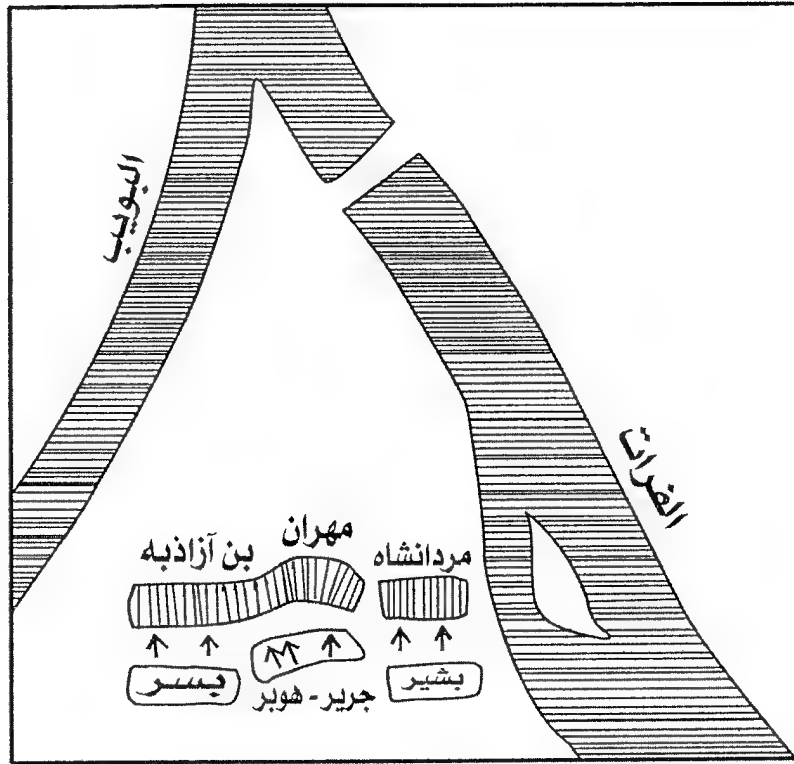
(١) الطبرى ٧٥/٤ س ش س، عن محمد وطلحة. فتوح البلدان ٦٣٠ عن عفان بن مسلم عن حماد بن سلمة عن داود بن أبى هند عن الشعبى.



خريطة رقم (٣٠) - البويب ٣

وحمل أخاه مسعوداً وضمهما إليه، والقتال محتدم على طول الجبهة، ولكن القلب بدأ ينبعج في غير صالح الفرس، وأوجع قلب المسلمين في قلب الجرس وقد دق فيه المثنى إسفينه. وكان فيمن تقدم في القلب جرير بن عبدالله ومعه بجير وابن الهوير والمنذر بن حسان فيمن معهما من ضبة. وقتل جرير بن عبدالله والمنذر بن حسان مهران، وكان على فرس ورد (أحمر) مجفف (مدرع) بتجفاف أصفر، بين عينيه هلال وعلى ذنبه أهلة من نحاس. وقاتل قُرط بن جماح العبدى حتى تكسرت في يده رماح وتكسرت أسياف وقتل شهربراز من دهاقين الفرس وقائد فرسانهم في المعركة. واستمر القتال حتى أفنى المسلمون قلب المشركين وأوغلوا فيه. وبذلك انقسم جيش الفرس إلى قسمين وانفصلت ميمنته عن ميسرته وبدأت كلتاها تهتز، وضغط قلب المسلمين على الأجناب الداخلية لجنابت الفرس. وكان الغبار قد ثار حتى حجب الرؤية، فوقف المثنى عند ارتفاع الغبار حتى أسفر وانقشع وانكشفت الرؤية ورأت الجنبات ما صنع القلب، فقويت مجنبت المسلمين على مجنبت العجم وجعلوا يردونهم على أديبارهم. ووقف المثنى ومن معه في القلب يبتهلون إلى الله وكان يرسل إليهم من يذمهم (يحرضهم) ويقول لهم: «إن المثنى يقول لكم هكذا عاداكم في أمثالها. انصروا الله ينصركم». حتى هزموا وشرعوا نحو الفرار.

حينئذ سابقهم المثنى فيمن معه إلى الجسر حتى يمنع عبورهم ويقطع رجعتهم فسبقهم



خريطة رقم (٣١) - البويب ٤

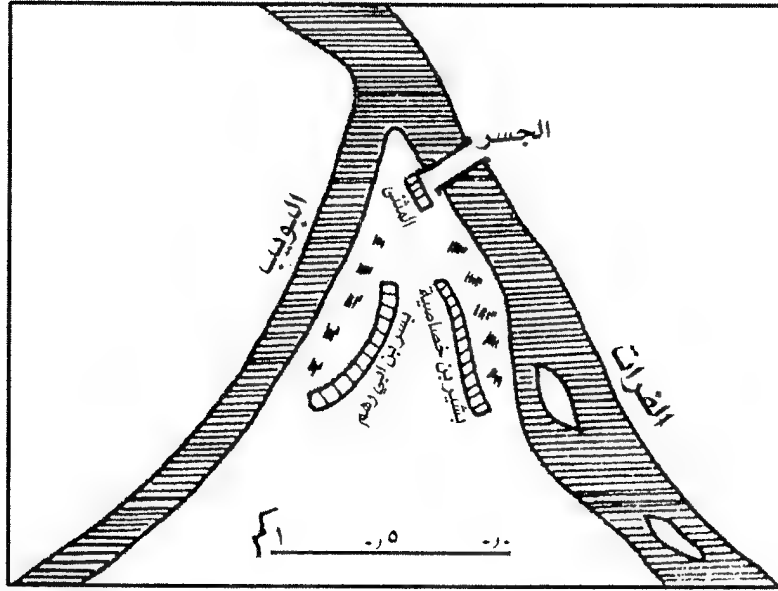
إليه. فافترقوا بشاطئ الفرات يميناً ويسرة مصعدين ومصوبين يلتمسون مهرباً للنجاة، وتداولتهم خيول المسلمين وتبعتهم إلى الليل ومن الغد إلى الليل حتى أبادوهم ثم جعلوهم جثاً^(١). فما كانت بين العرب والعجم موقعة كانت أبقى رمة منها. يروى^(٢) سيف عن أبي روق قال: «والله إن كنا لنأتى البويب فرى موضع السكون وبنى سليم عظاماً بيضاً تلواً تلوح من هامهم وأوصالهم يعتبر بها، وحدثني بعض من شهدها أنهم كانوا يحزرونها (يقدرونها) مائة^(٣) ألف، وما عفى عليها حتى دفنها أدفان البيوت^(٤)».

(١) الجث: ميت الجراد والنمل - المنجد.

(٢) الطبرى ٤ / ٧٤ ش س، عن أبي روق.

(٣) نرى في هذا الرقم مبالغة.

(٤) ربما كان المعنى أنها دفنت تحت ما أقيم من بيوت.



خريطة رقم (٣٣) - البويب ٦

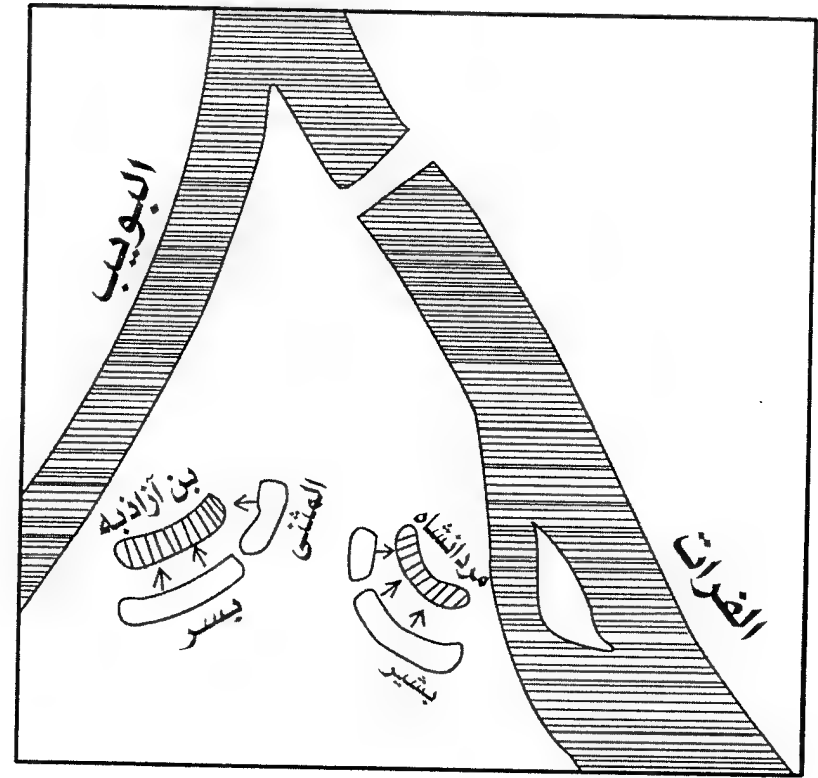
مؤتمر بعد المعركة

سكن القتال ونظر المثنى والمسلمون إلى عشرات الألوف من الجثث وقد غطت الأرض دماؤها وأشلاؤها. ثم جلس مع جيشه يحدثهم ويحدثونه ويسألهم عما فعلوا، وكلما جاء رجل قال له المثنى: أخبرني عنك فيروون له أحاديث تصور لقطات من المعركة.

قال قرط بن جراح: «قتلت رجلاً فوجدت منه رائحة المسك، فقلت: إنه مهران، ورجوت أن يكون إياه، فإذا هو صاحب الخيل (قائدها) شهربراز فوالله ما رأيته شيئاً إذ لم يكن مهران»^(١).

وقال المثنى: «قد قاتلت العرب والعجم في الجاهلية والإسلام، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد على ألف من العرب، ولمائة اليوم من العرب أشد على ألف من العجم، إن الله أذهب مصدوقتهم وهن كيدهم، فلا يروعنكم زهاء (منظر) تروته ولا سواد

(١) كانت العرب تألف الطيب وتترك ذلك في الحرب والصيد - الكامل ١ / ٢٦٥.



خريطة رقم (٣٢) - البويب ٥

وقال عطية بن الحارث^(١): «وأفعموا (ملؤوا) جنبتي البويب عظاماً حتى استوى، وما عفى عليها إلا التراب أزمان الفتنة، وما يثار هنالك شيء إلا وقعوا منها على شيء».

(١) الطبرى ٤ / ٧٧ س ش س، عن عطية بن الحارث. فتوح البلدان ٦٣٠ عن سيف.

(كثرة) ولا قسي^(١) فُجّ ولا نبال طوال، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها، كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت».

وقال ربعي وهو يحدث المثني: «لما رأيت ركود الحرب واحتدامها قلت: تترسوا بالخان فإنهم شادون عليكم، فاصبروا لشدتين وأنا زعيم لكم بالظفر في الثالثة فأجابوني والله، فوفى الله كفالتى».

وقال عبدالله بن ذى السهمين محدثاً: «قلت لأصحابي إنى سمعت الأمير يقرأ ويذكر فى قراءته الرعب، فما ذكره إلا لفضل عنده، اقتدوا برايتكم وليحم راجلكم خيلكم ثم احمّلوا، فما لقول الله من خلف، فأجّز الله وعده وكان كما رجوت».

وقال عرفجة بن هرثمة محدثاً: «حُزنا كتيبة منهم إلى الفرات، ورجوت أن يكون الله تعالى قد أذن فى غرقهم وسلّى عنا بها مصيبة الجسر، فلما دخلوا فى حد الإحراج كروا علينا، فقاتلناهم قتالاً شديداً حتى قال بعض قومى لو أخرجت رايتك، فقلت على إقدامها وحملت بها على حاميتهم فقتلته فولوا نحو الفرات فما بلغه أحد فيه الروح».

وقال ربعي بن عامر بن خالد فيما بعد: «كنت مع أبى يوم البويب، وسمى البويب يوم الأعرار، أحصى مائة رجل، قتل كل منهم عشرة فى المعركة يومئذ^(٢). وكان عروة بن زيد الخيل من أصحاب التسعة، وغالب فى بنى كنانة من أصحاب التسعة، وعرفجة فى الأزد من أصحاب التسعة. وقُتل المشركون فيما بين السكون اليوم إلى شاطئ الفرات ضفة البويب الشرقية». وأبلى شرحبيل بن السمط الكندى بلاء حسناً^(٣).

وندم المثني على قطعه خط الرجعة على الفرس، وأخذه بالجسر من خلفهم فقال: «لقد عجزت عجرة وقى الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر، وقطعه حتى أخرجتهم فإنى غير عائد، فلا تعودوا ولا تقتدوا بى أيها الناس، فإنها كانت منى زلة. لا ينبغي إحراج أحد إلا من لا يقوى على امتناع». ورأى المثني له وجاهته، فإذا حصر عدو به رمق فى مازق كهذا فليس أمامه إلا الاستماتة فى القتال، وهذا معناه ضحايًا أكثر من المهاجمين، فى حين أنه لو خلى لهم

(١) القوس الفجاء التى بعد وترها عن كبدها - انظر الفصل الخاص بالقسي بالجزء الأول.

(٢) فى هذا ما يؤيد بالدليل الحسابى أن تقدير قتلى العجم بمائة ألف مبالغ فيه كثيراً، فإذا كانوا قد أحصوا مائة، قتل كل منهم عشرة، فمعنى هذا أن سواهم (٧٩٠٠) لم يبلغ من قتله الواحد منهم عشرة، ولو بلغوا ذلك جميعاً لما تجاوز القتلى ٨٠٠٠٠ وهو بعيد عن الحدوث، فقد كان المسلمون ٨٠٠٠.

(٣) فتوح البلدان ٦٣٠.

سبيل الفرار والنفق، فإن عمليات المطاردة كفيفة بحصدهم فى ظروف أفضل. أما إذا كان العدو فى حال لا يسمح له بالمقاومة والاستماتة فلا بأس من حصره وسحقه وإبادته.

وتنازع جرير بن عبدالله البجلي والمنذر بن حسان الضبي نزاعاً شديداً حول قتل مهرا. وفى رواية للطبرى، أن غلاماً تغلبياً هو الذى قتله ثم استوى على فرس مهرا وصاح: «أنا الغلام التغلبى أنا قتلت المرزبان»، فأتاه جرير وابن الهوبر فأخذوا برجله فأنزلوه. وليس لهذا أى ذكر فى فتوح البلدان الذى أخذنا بروايته فى هذا الموضع^(١). وفى ذلك التنازع قال المنذر بن حسان الضبي يصف قتل مهرا ويعتب على جرير:

ألم ترنى خالست مهرا نفسه بأسمر فيه كاخلال طير^(٢)
فخر صريعاً والتقانى برجله وبادر فى رأس الهمام جرير
فقال قتيلى والحوادث جمّة وكاد جرير للسرور يطير
وقال أبو عمرو قتيلى قتلته ومثلى قليل، والرجال كثير
فأرسل يمينك أن رمحك ناله وأكرم أن تحلف وأنت أمير

ومات أناس من الجرحى من أعلام المسلمين منهم: خالد بن هلال ومسعود ابن حارثة أخو المثني. فصلى عليهم المثني وقدمهم على الأسنان^(٣) والقران وقال: «والله أنه ليهون على وجدى أن شهدوا البويب. أقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا، وإن كان فى الشهادة كفارة لتجوز الذنوب».

نوع من النساء

وكان المثني^(٤) وعصمة وجرير قد أصابوا فى أيام البويب على الظهر (صحراء الكوفة) تموين مهرا غنماً ودقيقاً وبقراً، فبعثوا بها إلى عيالات من قدم من المدينة بالقادسية وإلى

(١) فتوح البلدان ٦٣٠. وقال: ويقال إن الحصن بن معبد بن زارة بن عدس التميمي كان من قتله. وأورد الطبرى أيضاً رواية ٧٤ / ٤ س ش س، عن سعيد بن المرزبان أن جريراً والمنذر اشتركا فى قتل مهرا. فتقاضيا إلى المثني فجعل سلاحه بينهما ومنطقته وسواريه بينهما. وفى جمهرة أنساب العرب لابن حزم أن المثني هو الذى قتل مهرا.

(٢) الأسمر: الرمح - طير: طويل.

(٣) أمثالهم وأقرانهم.

(٤) الطبرى ٧٦ / ٤ س ش س، عن محمد وطلحة وزيد.

عيالات أهل الأيام قبلهم بالخير. واستخدم المسلمون عمرو بن عبدالمسيح بن ببيعة دليلاً للذين ذهبوا بنصيب العيالات بالقوادس، وكان النسير قائد الطلائع على هذه الخيل. فلما اقتربوا ورأى النسوة الخيل مقبلة حسبها غارة، فتصايحن وقمن دون الصبيان بالحجارة والعمد. فقال عمرو: «هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش». وبشروهن بالفتح. ثم أقام النسير في خيله حامية لهم ورجع ابن عبدالمسيح فبات بالخير.

مطاردة

وقال المثنى يومئذ: «من يتبع الناس حتى ينتهي إلى السيب؟» والسيب على دجلة. فقام جرير بن عبدالله في قومه فقال: «يا معشر بجيلة انكم وجميع من شهد هذا اليوم في السابقة والفضيلة والبلاء سواء. وليس لأحد منهم في هذا الخمس غداً من النفل مثل الذى لكم منه، ولكم ربع خمس نفل من أمير المؤمنين، فلا يكونن أحد أسرع إلى هذا العدو ولا أشد عليه منكم للذى لكم منه، ونية إلى ما ترجون، فإنما تنتظرون إحدى الحسنين: الشهادة والجنة أو الغنيمة والجنة».

ومال المثنى على الذين أرادوا أن يستقتلوا من منهزمى يوم الجسر وقال: «أين المستبسل بالأمس وأصحابه؟ انتدبوا في آثار هؤلاء القوم إلى السيب وابلغوا من عدوكم ما تغيظونهم به، فهو خير لكم وأعظم أجراً واستغفروا الله، إن الله غفور رحيم». فكان ذلك المستبسل وأصحابه أول من تطوع للمطاردة.

وأمر^(١) المثنى بالجسر الذى قطعه في المعركة فعقد لهم ثم أخرجهم في آثار القوم، واتبعتهم بجيلة وخيول المسلمين تغذ من كل فارس، فانطلقوا في طلبهم حتى بلغوا السيب. ولم يبق في العسكر جسر إلا خرج في الخيل، ومعنى هذا أن قوات المطاردة بلغت الستة آلاف على الأقل (٤٠٠٠ أهل الجسر و٢٠٠٠ بجيلة) فأصابوا من البقر والسبى وسائر الغنائم شيئاً كثيراً. فقسمة المثنى عليهم وفضل أهل البلاء من جميع القبائل. ونفل بجيلة يومئذ ربع الخمس بينهم بالسوية وبعث بثلاثة أرباعه إلى عمر مع عكرمة^(٢).

وعلى قدر الهزيمة التى حاقت بالفرس أصاب الرعب قلوبهم. وكتب القواد الذين قادوا

(١) الطبرى ٤/ ٧٦ عن السرى عن شعيب عن سيف عن حمزة بن على بن محفز عن رجل من بكر بن وائل.
(٢) لا ندرى من عكرمة.

الناس في الطلب إلى المثنى، كتب عاصم وعصمة وجرير: «إن الله عز وجل قد سلم وكفى ووجه لنا ما رأيت، وليس دون القوم شيء، أفتأذن لنا في الإقدام؟» فأذن لهم، فأغاروا حتى بلغوا ساباط، وتحصن أهلها منهم في حصنهم فاستباحوا القرى من حولها، ثم اتجهوا إلى الحصن فرماهم أهل الحصن عن حصنهم، ثم كان أول من دخله ثلاثة قواد، عصمة وعاصم وجرير وتبعهم أوزاع الناس كلهم. واستمكن المسلمون من الغارة على السواد فيما بينهم وبين دجلة، فمخروها ما شاؤوا لا يخافون شيئاً ولا يلقون مانعاً وعادت إلى أيديهم مسالحي العجم.

وقد أنشد الأعور العبدى المثنى يقول:

هاجت لأعور دار الحى أحزاناً	واستبدلت بعد عبد القيس خفاناً
وقد أرانا بها والشمل مجتمع	إذ بالنخيلة قتلى جند مهراً
أزمان سار المثنى بالخيول لهم	فقتل الزحف من قُرس وجيلاناً ^(١)
سما لمهران والجيش الذى معه	حتى أبادهم مثنى ووحداناً
ما أن رأينا أميراً بالعراق مضى	مثل المثنى الذى من آل شيباناً
إن المثنى الأمير القرم لا كذب	في الحرب أشجع من ليث بخفاناً

عادت قوات المطاردة إلى الحيرة فنظم المثنى حامياته في أرض السواد. فاستخلف بشير بن الخصاصية على الحيرة.

وأرسل جرير بن عبدالله إلى ميسان (منطقة العمارة).

وأرسل هلال بن علفة التيمي إلى دست ميسان (منطقة الأبله والبصرة).

وأرسل مسالح إلى جهات أخرى عليها قادة من مثل عصمة بن فلان الضبى والكليج الضبى وعرفجة بن هرثمة البارقي وأمثالهم.

(١) جيلان اسم لبلاد كثيرة وراء طبرستان (فهرس فتوح البلدان) جنوبى بحر قزوين (صبح الأعشى ٢/ ٢٤٥) إلى الغرب من طهران تجاه دجلة.

هذه المعركة

رد اعتبار

أول ملامح البويب أنها كانت رد اعتبار ممتاز للمسلمين بعد ما أصابهم يوم الجسر بالمروحة. ولابد أن يكون الفرس قد أصيبوا بدوار شديد بعد أن ظنوا أن في إمكانهم أن يكسبوا من المسلمين معارك، فإذا المعركة التالية مباشرة بعد حوالى شهر من يوم الجسر، معركة مفاجئة يفقدون فيها عشرات الألوف من فرسانهم. لقد استطاع المثنى يوم البويب أن يمنع يوم الجسر من أن يكون نقطة تحول في خط سير النصر. بل جعلها على جسامتها حادثاً عرضياً مر وانتهى، وبانتهائه زال أثره. جعلها معركة ذهبت ولن تتكرر، وعاد المسلمون رغم قلة عددهم يسكنون بزمام الهجوم والمبادأة.

ثلاث أدوات للنصر

نستطيع أن نتبين ثلاث أدوات حقق بها المثنى نصر البويب :

١- اختيار الأرض التى جرت عليها المعركة. فقد اختار المثنى أرضاً مناسبة لأن تصلح كميناً لجيش كبير، وهو اختيار يدل على ما لهذا القائد العظيم من النظر الطبوغرافى السديد. فكما كان يجيد حروب الصحراء والأرض المفتوحة التى لا تحصرها عوائق أو ظواهر طبيعية ويعرف خواصها وما يصلح لها، كذلك كان يدرك خواص الأرض المحصورة والفوارق بين كل نوع من أنواع الأرض وأثر هذه الفوارق على المعارك. ولقد كانت أرض المعركة محصورة بين الفرات وبين البويب، ومن حيث كان البويب قناة تصريف لفيضان الفرات يلقى بالمياه الزائدة فى الجوف، ومن حيث دارت المعركة فى شهر نوفمبر (تشرين ثانى) حيث الفرات فى حالة تحريق، فلم يكن حينئذ فيضان، نعتقد أن البويب كان جافاً أو شبه جاف أو على الأقل ضحلاً قليل المياه، وهو بهذه الصفة يكون حاجزاً، ولكن ليس حاجزاً تاماً. أما الفرات فقد كان مانعاً طبيعياً لا سيما بعد أن قطع المثنى الجسر المقام عليه.

٢- والثانية وضع الخطة المناسبة لهذه الأرض، فحيث تكون الأرض محصورة يكون لعنق الزجاجة كل الأهمية، ويتسنى للقوات القليلة نسبياً أن تكون ذات غناء وفاعلية، وتفقد

الكثرة العددية فاعليتها لاسيما إذا كان المخرج من هذه الأرض ليس فى يدها، إذ يصير المعول فى العدد على مقدار ما يتسع له خط المواجهة المحدود. وبطبيعة الحال فإن هذا الخط سوف يسمح بأعداد متكافئة من الطرفين بينما تظل الكثرة العددية خلف هذا الخط عاطلة أو شبه عاطلة، بل أنها فى هذه الحالة تصبح عبئاً وتشكل ثقلأ على جيشها ويعتبر وجودها خرقاً لمبدأ الاقتصاد فى القوى، ويعتبر تعريضها للخطر خرقاً لمبدأ الأمن. فى هذه الحالة ينحاز النصر إلى جانب التدريب الأعلى والمهارة فى الميدان، وقد كان ذلك للمسلمين على الفرس. يضاف إلى ذلك غفلة الفرس عن حماية مؤخرتهم وحراسة الجسر الذى كان يمثل خط الرجعة الوحيد من ذلك المأزق. لقد استطاع المثنى يوم المروحة أن يحمى خط رجعتة حتى يعيد وصل الجسر ويعبر جيشه، ولكن الفرس فى البويب لم يستطيعوا ذلك لأن الجسر وإن كانت المعركة قد بدأت وهو فى أيديهم ووراء ظهورهم إلا أنهم فقدوه بعد ذلك باختراق المثنى لقلب جيشهم واستيلائه عليه فحرمهم من فرصة انسحاب منظم.

٣- أما الأداة الثالثة فكانت المعنوية التى لا تعرف الكلل التى ظهرت فى قبائل المسلمين يوم البويب، حتى لقد ظهر لكل قبيلة موقفها الذى تتحدث به بعد المعركة وتفاخر به. فى هذه الموقعة حرص أربعة آلاف ممن شهد المروحة أن يغسلوا هزيمة يومها ويثأروا لها، وحكاية المستبسل ومن معه مثال لذلك، وهم الذين لم يعرفوا الهزيمة قبل معركة المروحة قط. ولئن كان هذا المعنى مائلاً فى كل نفس من نفوس المسلمين، فإن من اللفتات التى تستحق التأمل أننا لا نجد فيما تكلم به المثنى فى البويب قبل المعركة أى ذكر ليوم الجسر بالمروحة أو تذكير به. لقد كان المثنى يجيد اختيار الموضوع ويجيد توجيه كلماته حتى لكانها منتقاة. ويبدو أنه كان حريصاً وهو على أبواب معركة كبرى أن لا يذكر لهم الهزيمة، بل إنه بعد أن حقق الله على يديه نصر البويب، لم يكن يذكر يوم المروحة إلا تلميحاً مثل قوله لأصحابها حين أرسلهم للمطاردة «... وابلغوا من عدوكم ما تغيظونهم به فهو خير لكم وأعظم أجراً، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم»، يشير بالاستغفار إشارة أرق من الحرير إلى فرارهم يومها. وكان يستطيع أن يفخر صادقاً بشبانه يوم فروا ولكن إنكاره لذاته ومحبه لإخوانه كان فوق ذلك. وحرص ألفان من بجيلة أن يثبتوا وجودها كوحدة حربية، فهذه أولى معاركها، وهذه فرصتها الأولى لإثبات ذلك، وليعلم أمير المؤمنين عمر أن مساعى جرير لجمع بجيلة من أفناء العرب، لم تكن عبثاً وإنما لتساهم فى هذه الفتوح، وما هى ذى تفعل وقد بدأت فى البويب. كما كان الآخرون أشد حرصاً من هؤلاء وهؤلاء، إذ سبق أن ارتدوا فأرادوا أن يغسلوا عارها توبة إلى الله وإبراء

لذمتهم والله لا يغلق أبواب السماء في وجه تائب وهم الذين يقرؤون في كتاب الله^(١): ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

فكان لكل منهم، إلى جوار الحافر العام لإعلاء كلمة الله والحرص على الشهادة، حافزه الخاص الذي يساهم في تكوين معنويته وبنائها.

درس من الخطأ

كانت البويب استفادة من أخطاء معركة الجسر، فليس الخطأ ولا خسران معركة في الحرب عيباً، والحرب سجال ودول، ولكن العيب أن يضيع الدرس والعبرة فلا يستفاد منه. وقد أثبتت تجربة البويب حين عادت المعركة في ظروف مشابهة، أن المسلمين استفادوا من الدرس بكفاءة عالية حتى أن المثنى استطاع أن يعيد معركة الجسر بالمروحة بحذافيرها مع تبادل الغالب والمغلوب أوضاعهما، فضلاً عن أنه في المروحة استطاع أن ينسحب بمن صاروا بعد ذلك نواة جيشه بل نصفه في البويب، في حين لم ينجح الفرس في سحب شيء من قوتهم في البويب، بل تبددت وأبيدت على ضخامة حجمها، ومع فارق آخر، أن الكثرة العديدة الساحقة كانت مع الفرس حال انتصارهم وحال هزيمتهم.

المعركة مدرسة

لقد ظهر المثنى في البويب، إلى جوار كفاءته كقائد في الميدان، أستاذاً معلماً يجلس بين قواته بعد الموقعة لدراساتها ونقدها فيسمع منهم ويحيي حتى يستفيدوا دروساً ومعرفه وكأنه يعطيهم «فرقة» (اصطلاح مصري بمعنى دورة تدريبية) حتى لا يكون المقاتل الذي معه مجرد آلة وإنما يتكون له فكره الحربى ولم يكن يضيره وهو في أوج مجده الحربى وقمة انتصاراته الرائعة أن يكشفهم بأنه أخطأ في قطع الجسر ولكن الله وفى شر ذلك، وأن ينقد نفسه دون أن ينقده أحد، ويطلب منهم ألا يقتدوا به فيها. والمثنى بذلك يقدم مثلاً أخلاقياً من أخلاق الفرسان المسلمين النبلاء إلى جوار ما يقدم من أمثلة في مجالات الكفاية الحربية. هذا في الوقت الذي كان الحزن يعصر قلبه لفقد بطل من أحب الناس إلى قلبه وأقربهم منه دماً، كان شريكه في مواقعه كلها ولعلمها لم يفتقراً يوماً، أخيه البطل مسعود بن حارثة. لم ينسه هذا المصاب واجبه كاملاً في كسب المعركة، ثم في المطاردة بعدها وليس هذا فحسب بل ومناقشتها وتحليلها ونقدها.

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

علم النفس العسكرى في الموقعة

إن لصفات القائد أهمية كبرى في نجاح المعركة، إذ مهما توفرت شروط النصر من تدريب وتسليح وتنظيم لجيش من الجيوش، فقد يضيع ذلك كله هباءً منثوراً إذا لم يوضع بين يدي قائد صالح، حتى إنه ليقال إن جيشاً ضعيفاً عليه قائد قوى خير من جيش قوى يقوده قائد ضعيف.

وإلى جوار ما تبدى لنا من عبقریات المثنى فقد شملت عبقريته عمقاً آخر في فرع ثالث مما يتصل بالحرب وهو علم النفس العسكرى والتعامل مع إخوان الجهاد وزملاء السلاح. إنا لنجد روحاً من الحبة فيأضه تربط المثنى بمن معه تشير إلى جانب عاطفى نحوهم، ويبرز هذا في أحاديثه لهم وفي كلامهم عنه.

نرى هذا في طوافه بفروسه الشמוש على راياتهم راية راية، يحمسهم ويعطيهم توجيهاته ويحرك مشاعرهم بأحسن ما فيهم ويقول لهم: «والله ما يسرنى اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرنى لعامتكم» فيجيبونه بمثل ذلك. يقول الرواة: «فلم يستطع أحد أن يعيب له قولاً ولا عملاً». ولنتأمل هذا الأمر الذى أصدره إلى إحدى وحداته من بنى عجل لما اعرج صفهم، لتأمله في صيغته وفي مدلوله: «إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم». وهو إذ يرى صفوف العجم تهجم وقد علت صيحاتهم، يدرك ما لهذا من أثر في قتال الإلتحام، لا سيما وذكر معركة الجسر بالمروحة غير بعيد، فتكون كلمة هادئة بسيطة رسول الثبات إلى نفوسهم لتبطل أثر تلك الهيئات فيقول في هدوء يدعو إلى الإعجاب: «إن الذى تسمعون فشل فالزموا الصمت واثمروا همساً».

ولقد كان المثنى وهو في المعركة لا يغفل عن ملاحظة أى اعتبار حتى معنويات جيشه، ولقد رأينا ما فعل حين أصيب أخوه مسعود إصابة قاتلة لما رأى أثر ذلك على المسلمين، وإن مقالته لتستحق أن تكتب بحروف من نور: «يا معشر المسلمين لا يرعكم مصرع أخى، فإن مصارع خياركم هكذا» ولا يقل عن هذا قول مسعود نفسه وهو يجود بالنفس مستبشراً بالشهادة.... ارفعوا راياتكم رفعكم الله، لا يهولنكم مصرعى».

وكما كان المثنى محباً لجنده عطوفاً عليهم متفقداً لكافة أحوالهم، فقد كان في نفس الوقت حازماً حاسماً آخذاً بما يطلق عليه العسكريون المحدثون «الضبط والربط»، رأى ذلك المستبسل وما يفعل فزجره وقرعه بالرمح وألزمه الصف، ومن قبل ذلك وجدناه في المروحة يضرب عبدالله بن مرثد والمعركة تدور رحاها على المسلمين بسبب ما فعل.

وما أن تم نصر البويب حتى أراد أن يشفى صدور أهل المروحة بصفة خاصة وأن يرد إليهم اعتبارهم، فبعثهم في مطاردة فلول المجوس، فكان هذا الاختيار أيضاً وضعاً للشئ في مكانه ولمسة نفسية من لمسات المثني.

وكما كان المثني متعاطفاً مع جيشه فلقد كان الشعور متبادلاً تماماً. ونرى ذلك جلياً في شعر المعركة الذي يجرى على ألسنة جنودها. فهذا الأعور الشني يقول في قلب أبياته التي ذكرناها:

ما أن رأينا أميراً بالعراق مضى مثل المثني الذي من آل شيبانا
إن المثني الأمير القرم لا كذب في الحرب أشجع من ليث بخفانا

فصاحب هذه الأبيات يفضل المثني صراحة على خالد بن الوليد وعلى أبي عبيد الثقفي، ولقد كان الأعور من عبد القيس، فهو لم يكن من بني شيبان ولا من بكر بن وائل حتى يقال إنه متعصب لقومه. بل لقد وجدنا بعد المعركة الفاصلة بالقادسية عام ١٥ هـ من يفضل المثني على سعد وكان المثني قد أفضى إلى ربه، فيقول لسعد بن أبي وقاص:

وعند أمير المؤمنين نوافل وعند المثني فضة وحرير

ومن العجيب أننا لم نعثر في شعر المعارك والفتوح فيما رجعنا إليه من مراجع على ما يشيد بخالد بن الوليد كما وجدنا الإشادة بالمثني وامتداحه في أكثر من موضع. ونعيد هنا ما ذكرنا عن خالد بحذافيره فما أشد التشابه.. نقول الحق: لقد كان المثني قائداً عميقاً في علم النفس العسكري قبل أن يخط أي أستاذ متخصص حرفاً في هذا العلم بقرون.

معنوية القاعدية

وإذا كانت معنوية المسلمين في الميدان كما رأينا فلقد رأينا أيضاً أن معنويات نسائهم لم تكن بأقل من معنويات رجالهم، حتى أن خيل المسلمين التي اتجهت إليهم بالقادسية تحمل من الغنائم غنماً ودقيقاً وبقراً وحسبونها من خيل الأعاجم مقبلة في غارة، قمن بالحجارة والعمد يدفعن عن أنفسهن وعن الصبيان.

آثار البويب

أدت هزيمة البويب إلى انفتاح أبواب العراق من جنوبه إلى شماله أمام قوات المسلمين تجوبه كيف شاءت، وهذا موضوع الباب التالي.

الباب الخامس عشر

عمليات الأسواق

أسواق العراق

وصف السائح الصينى هيون تسيانج الحياة فى البلاد الغربية التى زارها فى أوائل القرن السابع الميلادى، فقال عن منتجات الصناعة فى إيران: «تنتج البلاد الذهب والفضة والنحاس والبلور الصخرى والجواهر النادرة والمواد الثمينة المختلفة. وصنّاع إيران يجيدون نسج السندس الحريرى والأقمشة الصوفية والسجاد وغيرها»^(١).

وكتب أمين مارسلن الضابط الرومانى الذى اتصل بالفرس فى حروب الروم مع سابور الثانى ٣٦٣م، فقال: «إنه كان يقام فى أول شهر سبتمبر (أيلول) من كل عام فى مدينة باتنة التى تقع غير بعيد من الشاطئ الشرقى لنهر الفرات سوق كبيرة ترد إليها البضائع من الهند والصين».

وفى ٤١٠م، كانت المدن المفتوحة للمعاملات التجارية بين الروم والإيرانيين هى: نصيبين على شاطئ دجلة وكالينيك على شاطئ الفرات وارتكزانا فى أرمينيا. وفى القرن السادس الميلادى، كان الحرير أهم أصناف تجارة الترانزيت عند الفرس. وكان يحجز بإيران مقدار كبير جداً من الحرير الخام المستورد من الصين لينسج بها، فنشأت بها صناعة الحرير. ولكن منذ القرن السادس نجح البيزنطيون فى زراعة أشجار التوت وتصنيع الحرير فى بلادهم، واستغنوا إلى حد ما عن استيراده من الخارج. وكان من البضائع الفارسية المطلوبة: الكحل الإيرانى المشهور والسجاجيد البابلية، كذلك كانوا يتاجرون فى الأحجار الثمينة السورية، طبيعية وصناعية، واللؤلؤ والمرجان، وأقمشة مصر والشام والمواد المخدرة الواردة من آسيا الوسطى.

وكان المثنى يعرف عن أسواق تقام فى شمالى العراق، ونستبعد ألا يكون له تفكير سابق بشأنها، فهو فى حاجة إلى ما فيه غناء للمسلمين يتقرون به على عدوهم. غير أن موسم الأسواق المذكورة قد سبق فى أول سبتمبر (أيلول) الذى وافق فى عام ٦٣٤م الثانى من رجب ١٣هـ. أين كان المثنى فى هذا اليوم؟ كان فى طريقه من المدينة إلى الحيرة، وكان عليه أن ينتظر أبا عبيد قبل أن يتحرك، ولم يكن حجم قواته حينذاك بالذى يسمح له بذلك، وقد

(١) إيران فى عهد الساسانيين ١١٦ - ١١٧.

وصله أبو عبيد بعد شهر، وإذن فقد فاتته الأسواق المذكورة. ولكنه كان يعرف أن هذه الأسواق الكبرى يتلوها أسواق في مدن أخرى من نفس المنطقة، مرة في كل عام. وسأل عنها المثني فأخبره رجل من أهل الحيرة أن سوق الخنافس وسوق بغداد تنعقدان في تلك الأيام. وبغداد قرية على الشاطئ الشرقي لدجلة شمالي المدائن بحوالي أربعين^(١) كيلو متراً، وتبعد عن الحيرة بأكثر من ٢٥٠ كيلو متراً. وعلم أن الأموال تجتمع في هذه الأسواق كبيت المال. فسأل: «كم بين مدائن كسرى وبينها؟» قيل: «بعض يوم أو عامة يوم». وعاد يسأل عن السبل إليها فأخبروه، فسأل عن السوقين: «أيتهما قبل صاحبتهما» فقالوا: «بينهما أيام»، ولم يقنع بهذا الجواب المبهم، فعاد يسأل: «أيهما أعجل؟» قالوا: «سوق الخنافس، يتوافى إليها الناس ويجتمع بها ربيعة وقضاة يخفرونهم».

وبات المثني يفكر في الأمر ويدبر ويستعد له.

غارة على سوق الخنافس^(١)

شوال ١٣هـ - ديسمبر (كانون أول) ٦٣٤م

رسم المثني خطته على أن يسلك طريق الصحراء حتى ينتهي إلى الخنافس، وذلك حتى لا تسبقه الأخبار إلى أي جهات أخرى، حيث إنه طريق بعيد عن الأنظار، فهو ليس كأي طريق يسلك وسط السواد. فإذا بلغ الخنافس وفرغ من أمرها نزل على أهل الأنبار، فيأخذ الدهاقين بالأدلاء ويسير سواد ليلته من الأنبار حتى يغير على بغداد صباحاً.

خرج المثني في بنى شيبان وبنى عجل وكأنه بعض قوات المطاردة في أنحاء سواد العراق. وإمعاناً في التمويه مخر السواد من الحيرة متجهاً إلى أليس^(٢) جنوباً بشرق، ثم استدار منها غرباً إلى طريق الصحراء حيث اختفى في جوفها عن الأعين وأسرع شمالاً نحو الخنافس. وفي نفس الحين كان المسلمون يمخرون السواد ويشنون الغارات فيما بين أسفل كسكر وأسفل الفرات وجسور مثقب إلى عين التمر وما والاها من أرض الفلاليج والعال. هذا والمثني يجد السير في الصحراء ومعه دليلان: أحدهما من الأنبار ليدله على الخنافس، والثاني من الحيرة ليدله على بغداد. وقد جعل على مقدمته حذيفة بن محصن الغلفاني وعلى ميمنته النعمان بن عوف بن النعمان الشيباني وعلى ميسرته مطر الشيباني، وذلك حتى عاد من رحلته تلك. حذيفة بن محصن هذا هو الذي كان قائد الجيش الثامن لقمع ردة الأزدي^(٣) بعمان.

وبلغ المثني الخنافس وقد أقت بلوغها أول ضوء النهار يوم سوقها. وكان يخفرها خيل من ربيعة عليهم السليل بن قيس، وخيل من قضاة عليهم رومانس بن وبرّة، فأغار عليهم وانتسف السوق وما فيها، ثم سار مسرعاً حتى طرق دهاقين الأنبار في أول النهار من نفس اليوم وهو يقول:

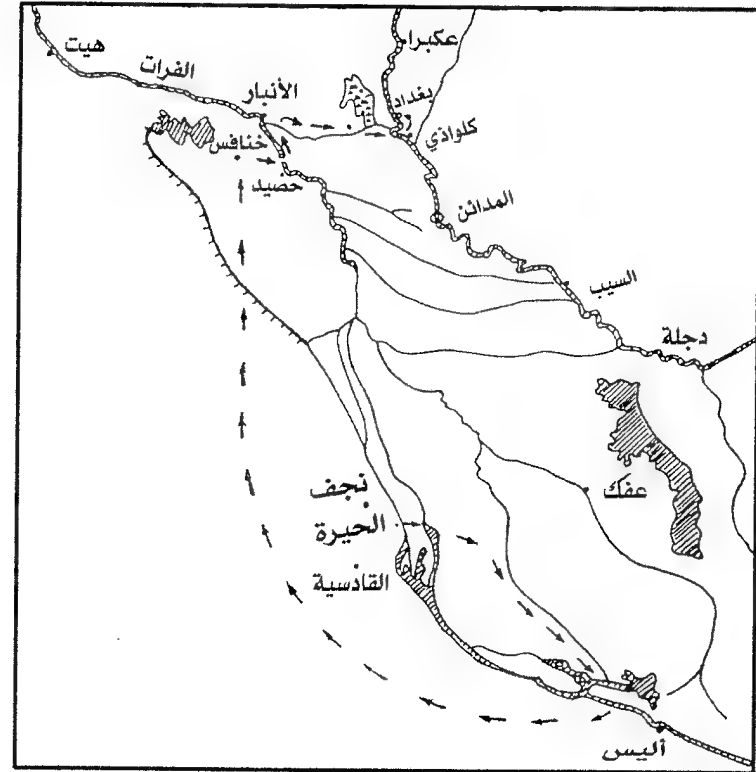
(١) الطبري ٤ / ٧٨، عن السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزباد.

(٢) تقول الرواية: «إنه بدأ فنزل أليس من قرى الأنبار». نقول: «لم تكن أليس من قرى الأنبار ولكنها على صلب الفرات إلى الجنوب الشرقي من منطقة الحيرة، وهي التي هزم خالد فيها جابان في طريقه إلى الحيرة».

(٣) دعا مرتدي عمان إلى الإسلام، فأسلموا جميعاً إلا أهل دبا. وقد ولاه أبو بكر عليهم، فتوفي أبو بكر وحذيفة عامله على عمان. - الإصابة ١٦٤٦ وقد ذكره ابن حجر باسم حذيفة بن محصن القلعاني.

(١) في الموضع الذي أقام العباسيون فيه عاصمتهم «بغداد» فيما بعد.

صبحنا بالحنافس جمع بكر
بفتيان الوغى من كل حي
أبحنا دارهم والخيل تُردى
نسفنا سوقهم والخيل روّد
وحياً من قضاة غير ميل
تبارى في الحوادث كل جيل
بكل سَمِيدَع سَامى التليل^(١)
من التطواف والشر البخيل^(٢)



خريطة رقم (٣٤) - مقياس: ١ : ٦٠٠,٠٠٠

الإغارة على سوق الحنافس وعلى سوق بغداد

وغارة على سوق بخيل

ولما أحس دهاقين الأنبار بالخیل تقترب وهم لا يدرون خيل من، دخلوا حصونهم وأغلقوها عليهم. فلما عرف دهقان الأنبار المثنى نزل إليه، فأطمعه المثنى وخوّفه واستكتمه. وقال له: «إني أريد أن أغير فابعث معى الأدلاء إلى بغداد حتى أغير منها إلى المدائن». ولم يطلع الدهقان على حقيقة مقصده. قال الدهقان: «أنا أجيء معك»، قال: «لا أريد أن تجيء معى، ولكن ابعث معى من هو أدل منك»، لقد كان مع المثنى دليل إلى بغداد منذ خرج من الخيرة وهو هنا في الأنبار يطلب أدلاء آخر، ربما هدف إلى أن يكون معه أكثر من دليل حتى لا يبقى تحت رحمة دليل واحد إذا عن له أن يضلله أو يخدعه، أو ربما كان الدليل الأول خبيراً بطريق الخيرة - بغداد ولم يكن خبيراً بطريق الأنبار - بغداد. زود الدهقان المسلمين بالأعلاف والأطعمة وبعث معهم الأدلة.

وساروا حتى إذا كانوا بمنتصف الطريق سألهم المثنى: «كم بينى وبين هذه القرية؟»، قالوا: «أربعة أو خمسة فراسخ» (حوالى ٢٠ كيلو متراً) قال لأصحابه: «من ينتدب للحرس؟» فانتدب له قوم. فقال لهم: «أذكروا حرسكم» فأخذوا مواقع الحراسة. ونزل المثنى من على فرسه وقال: «أيها الناس أقيموا وأطعموا وتوضؤوا وتهيئوا»، وبعث الطلائع فأقاموا على الطرق يمنعون الناس ويحبسونهم حتى لا تسبقه الأخبار. فلما تم له ذلك وأخذوا قسطهم من الراحة وحل الموعد الذى يجب أن يرحل فيه قام فى أصحابه آخر الليل، فعبروا دجلة وطلع على بغداد وسوقها مع أول ضوء النهار، فوضع فيهم السيف، فقتل منهم وأخذ وأصحابه ما شاؤوا. وكان أمر المثنى لهم: «لا تأخذوا إلا الذهب والفضة، ولا تأخذوا من المتاع إلا ما يقدر الرجل منكم على حمله على دابته».

وهرب أهل الأسواق، وملاً المسلمون أيديهم من الذهب والفضة والحر من كل شيء. ثم كروا راجعين حتى إذا كانوا بنهر السيلحين على حوالى خمسة وثلاثين كيلو متراً من بغداد (ونعتقد أنه نهر صرصر) نزل وقال:

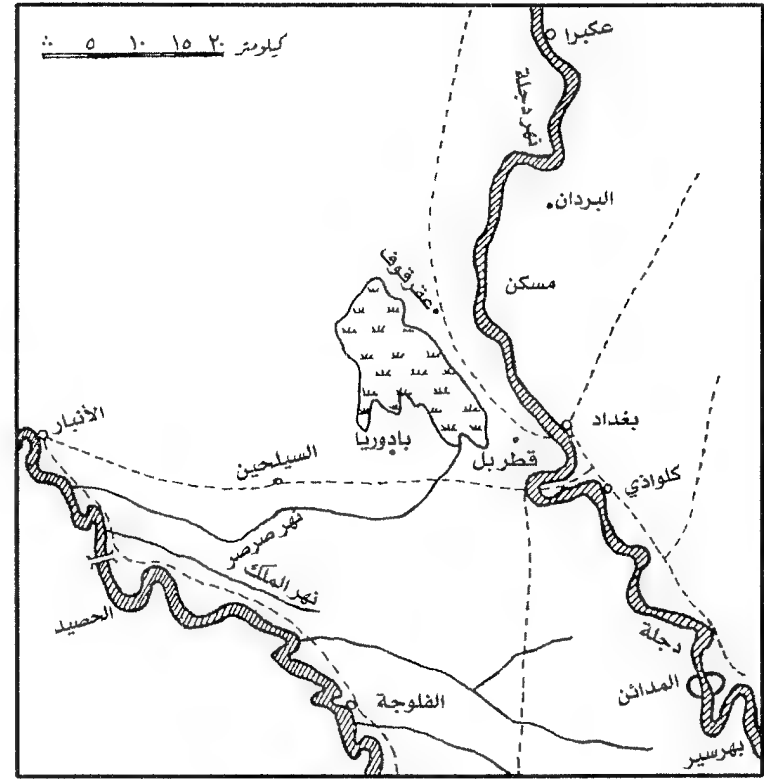
«أيها الناس انزلوا وقضوا أوطاركم وتأهبوا للسير واحمدوا الله وسلوه العافية ثم انكشفوا قبيضاً^(١).

ففعّلوا. لقد قطعوا نحواً من ستين كيلو متراً على ظهور الخيل تخللتها غارة، كل ذلك فى (١) القبيض: الاسراع - مختار الصحاح.

(١) فتوح البلدان ٦٢١ - والسميدع: السيد الموطأ الأكتاف، والتليل: العنق (مختار الصحاح).

(٢) رود: نمشى على مهل - فى مختار الصحاح، فلان يمشى على رود: على مهل، وتصغيره رويد. يقال أرود فى السير أى رفق. والمقصود فى البيت كناية عن التمكن والأطمئنان حتى أنهم شنوا الغارة على مهل.

مرحلة واحدة منذ قاموا في آخر الليل إلى بغداد حتى عادوا، ورأى المثنى أنهم في حاجة إلى استراحة وكذلك خيلهم.



خريطة رقم (٣٥) - سوق بغداد

وكان المسلمون يدركون عمق ما أوغلوا. وفيما المثنى يمر بينهم إذ سمع همساً. قال قائل منهم: «ما أسرع القوم في طلبنا!» فقال المثنى: «تاجوا بالبر والتقوى ولا تتاجوا بالإثم والعدوان.. انظروا في الأمور وقدروها (احسبوها) ثم تكلموا.. إنه لم يبلغ النذير مدينتهم بعد، ولو بلغهم لخال الرعب بينهم وبين طلبكم. إن للغارات روعات تنتشر عليها يوماً إلى الليل، ولو طلبكم المحامون من رأى العين ما أدركوكم وأنتم على الجياد العرب (الخيل الأصيل) وهم على المقاريف^(١) البطاء حتى تنتهوا إلى عسكركم وجماعتكم! ولو أدركوكم (١) المقرف: الذي دخل في الفساد والعيث، وهو في الأصل الهُجْنة، يقال: فازس مقرف إذا كان هجيناً. (الكامل للمبرد ٤٨/١).

لقاتلتهم لاثنتين، التماس الأجر ورجاء النصر، فثقوا بالله وأحسنوا به الظن، فقد نصركم الله في مواطن كثيرة وهم أعد منكم (أكثر عدداً)، وسأخبركم عني وعن انكماش^(١) والذي أريد بذلك. إن خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر أوصانا أن نُقل العرجة (الإقامة) ونسرع الكرة في الغارات، ونسرع في غير ذلك الأوبة (الإياب). هذا نموذج من مثنى المسلمين أستاذ الحروب، ذلك الرجل القمة، نشكر الرواة الذين حفظوا لنا هذه المقالة حتى تعلم الأجيال، أنه إنما كان يتحرك عن حساب محسوب وتخطيط مرسوم وإيمان عميق، ولم تكن تحركاته عن ارتجال أو مجرد شجاعة وقوة عضل. إن كل معركة سبقت كانت تضيف إلى ما يختزن في أعماقه دراية وتجربة وعلماً ومعرفة. وهي تكشف لنا أيضاً عن العبقرية الحربية النادرة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه التي استطاع المثنى أن يتلمذ عليها ويفيد منها رغم أنه لم يلقيه إلا أقل من القليل، وعلى وجه التحديد مرتين، يوم استأذنه في غزو العراق ويوم أدركه وهو يحتضر.

نهض المثنى وأمرهم بالركوب، وأقبل بهم ومعهم أدلاؤهم يقطعون بهم الصحارى والأنهار حتى انتهى بهم إلى الأنبار، فاستقبلهم الدهاقين بالإكرام واستبشروا بسلامته، وكان قد وعدهم الإحسان إليهم إذا استقام لهم من أمرهم ما يحبون.

قال أحدهم^(٢):

وللمثنى بالعال معركة	شاهدها من قبيلة بَشَر
كتيبة أفزعت بوقعتها	كسرى وكاد الإيوان ينفطر
وشُجَّع المسلمون إذ حَذَرُوا	وفي صروف التجارب العَبَر
سَهْلُ نهج السبيل فاقتفروا	آثاره والأمور تُقْتَفَر

وغارة على الكباش^(٣)

بعد أن رجع المثنى إلى الأنبار لم يشأ أن يرجع إلى الخيرة قبل أن يوسع نطاق غاراته على

(١) الانكماش: الجد في الأمر والسرعة في طلبه.

(٢) فتوح البلدان ٦٢١.

والعال هي الأنبار وقُطْرِبِل ومسكن وبادوريا، فأراد غارة سوق بغداد. (ابن خردادبه ٧-وقدامة ٢٣٥) تفتقر: تفتنى

(٣) قال ياقوت: «الكباش الجزيرة لبني تغلب كانت تقام به سوق في الجاهلية» (معجم البلدان).

شمال العراق حتى يشمله من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه. فسرح المضارب العجلي وزيداً إلى الكيـاث، وكان على الكيـاث فارس العناب التغلبي. ثم استخلف في الأنبار فرات بن حيان العجلي وخرج في آثارهم. وبلغ المضارب وزيد الكيـاث وقد انفض أهلها وأخلوها - وكانوا جميعاً من بني تغلب - فركبوا يقتصون آثارهم حتى أدركوا أخرياتهم وفارس العناب يحمي ظهرهم وظل يحميهم ساعة، ثم هرب فانكشفت أخرياتهم فأكثر المسلمون القتل فيهم.

وغارة على صفين^(١)

وعاد المثنى إلى الأنبار فبعث فرات بن حيان وعتيبة بن النهراس إلى صفين وأمرهما بالغارة على أحياء العرب من تغلب والنمر. ثم استخلف على الأنبار - التي اتخذها قاعدة متقدمة - عمرو بن أبي سلمى الهجيمي واتبعهما. فلما اقتربوا من صفين افترق المثنى عن فرات وعتيبة، وفر أهل صفين فعبروا الفرات إلى الجزيرة وتحصنوا بها، وكانوا من قبائل النمر وتغلب متساندين فاتبعهم فرات وعتيبة حتى رما بطائفة منهم في الماء فكانوا ينادونهم «الغرق الغرق»، وكان عتيبة وفرات يحضنان الناس ويحرضانهم ويقولان: «تغريق بتحريق»، يذكرانهم يوماً من أيام الجاهلية أحرقوا فيه قوماً من بكر بن وائل في غيضة من الغياض. ثم رجعوا إلى المثنى وقد أغرقوهم في الفرات. وبلغ خبر ذلك إلى عمر، فقد كانت له عيون في كل جيش تكتب له، فطلب فرات بن حيان وعتيبة إلى المدينة وأجرى معهما تحقيقاً في هذا، فأخبراه أنهما فحلفا أنهما ما أرادا بذلك إلا المثل وإعزاز الإسلام، فصدقهما عمر الجاهلية. فاستحلفهما فحلفا أنهما ما أرادا بذلك إلا المثل وإعزاز الإسلام، فصدقهما عمر ووردهما إلى العراق فرجعا إليه مع حملة سعد بن أبي وقاص. (انظر موضع صفين في الخريطة ١٨).

إن مراعاة الاعتبارات الإنسانية في القتال مبدأ لم يعرف قبل الإسلام، وحتى بعد أن عرفه العرب مؤخراً، فقد فشل فشلاً ذريعاً في تطبيقه، وشواهد الحربين العالميتين والحروب الصغيرة التي تلتها وخاصة في فلسطين والجزائر وفيتنام مما يؤكد هذا، فقد كانت مجرد معرفة نظرية تمثلت في مثل اتفاقية جنيف، وذلك بسبب فقدان الروح الانسانية والقيم الروحية عند العرب.

(١) صفين على الجانب الغربي للفرات بين الرقة وبالس (الاصطخرى ٥٤).

وغارات أخرى للمثنى

ونفذ^(١) زاد المثنى وأصحابه بعد أن افترقوا عن فرات وعتيبة حتى أقبلوا على رواحلهم، إلا ما لا بد منه، يأكلونها حتى أخفافها وعظامها وجلودها. وفي ظهيرة يوم أدركوا عيراً من أهل دبا وحوارن فقتلوا العجم الذين معها وأسروا ثلاثة من بني تغلب كانوا خفراء لها وأخذوا العير، وكانت ظهراً فاضلاً من أفضل المطايا.

وطلب منهم المثنى أن يدلوه فقال أحدهم: «آمنوني على أهلى ومالى وأدلكم على حى من تغلب غدوت من عندهم اليوم». فآمنه المثنى وسار معه يومه حتى إذا كان العشى هجم على القوم فإذا أنعامهم عائدة من الماء بعد أن شربت وروت، وإذا الناس جلوس بأفنية البيوت فأغار عليهم. فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية واستاقوا الأموال ونظروا فيهم فإذا هم^(٢) بنو ذى الرويحة. فاشتري من كان بين المسلمين من ربيعة السبايا بنصيبه من الفىء واعتقوا سبيهم إذ كانت ربيعة لا تسبى حين كان العرب يتسبون في الجاهلية.

وأتى النسير بن ديسم العجلي عكبراً فآمن أهلها، وأخرجوا لمن معه طعاماً وعلفاً (انظر خريطة ٣٥) ثم مر بالبردان فأقبل أهلها يعدون من بين أيدي المسلمين فقال لهم: «لا بأس» فكان ذلك أماناً. ثم أتى المخرم (ولم يكن ذلك اسمها يومها)، فعبث المسلمون جسراً كان معقوداً عند قصر سابور الذى عرف فيما بعد بقصر عيسى بن علي، فخرج إليه خرزاد بن ما هبنداذ وكان موكلاً به فقاتلوه وهزموه، ثم لجأوا حتى أتوا عين التمر. وفي ذلك قال أحدهم:

وآل منا الفارسي الحُذرة حين لقيناه دُوَيْنَ المنْظرة
بكل قَبَاءٍ لحوقٍ مُضمرة بمثلها يُهزم جمع الكفرة^(٣)

(١) في الأصل أرمل المثنى وأصحابه. وفي بلوغ الأرب ٣٧١، يقال أرمل الرجل إذا نفذ زاده، وأرملت المرأة فهي أرملة للثى لا زوج لها لا فتقارها إلى من ينفق عليها.

(٢) ينسب البلاذري هذه الواقعة بدون تفاصيلها إلى النسير بن ديسم، وأن خالد بن الوليد هو الذى أرسله إليها. ولكننا نميل إلى الأخذ برواية الطبرى فهي أكثر دقة وتفصيلاً. ونرجح أن النسير كان مع المثنى، فهو عجلي من بكر بن وائل التى قامت بهذه الغارات. فتوح البلدان ٦٢٠ عن الحسين بن الأسود عن يحيى بن آدم عن الحسن بن صالح عن أشعث عن الشعبي.

(٣) فتوح البلدان ٦٢١. ويعنى بالمنظرة تل عقرقوف. القباء الضامرة البطن - مضمرة ضامرة خفيفة اللحم، مختار الصحاح. والمواقع كلها موضحة =

وأغار النسيير في هذه الغارة على قرى مسكن وقطربل، فغنم منها غنيمة حسنة.

وأحدثت هذه الغارات الكثيرة السريعة الخاطفة إلى هذه الأعماق أثرها في أهل تلك البقاع، فبدأت حركة هجرة ولجوء إلى شرق دجلة. واتجهت قوافل اللاجئين شمالاً التماساً للنجاة بالبعد عن دائرة الغارات حتى يعبروا دجلة عند تكريت (انظر مكانها خريطة ٣٥) على حوالي مائة وخمسين كيلو متراً شمالاً الأنبار. وجاءت أخبارهم إلى المثنى، وعلم أن جمهور من سلك البلاد نزلوا بشاطئ دجلة، فخرج في آثارهم. ولم لا؟ ألم يقتل من العجم ما قدره بمائة ألف في البويب منذ أيام؟ فأين هم إلى أن يفيقوا من هذه المذبحة!!

خرج وقد سرح أمامه مقدمته عليها حذيفة بن محصن وهو في تعبته التي كان عليها بعد البويب، ثم اتبعه فأدركوهم قبيل تكريت يعبرون دجلة، يخوضون الماء^(١)، فأصابوا ما شاؤوا من النعم حتى أصاب الرجل خمساً من الأنعام وخمساً من السبي.

وقسم المثنى الغنيمة وخمس المال وجاء به حتى ينزل على المسلمين بالأنبار.

هذه الغارات

استغلال نجاح (المطاردة)

١- لا شك أن الغارات على أسواق شمالى العراق كانت استغلالاً رائعاً للظفر الذى أحرزه المسلمون يوم البويب. لم يكن المثنى قد قرأ عن أصول الحرب ولا عن مبدأ المطاردة، ولكنه وضع هذا المبدأ لنفسه كقائد، وبذلك يعتبر المثنى من واضعى هذا المبدأ فى علم الحرب. وقد استطاع بكفائه أن ينفذه فى قوة وعمق بلغ حوالى أربعمئة كيلو متراً أو يزيد شمالاً، خلاف ما تبجحوا به شرقاً وجنوباً وغرباً على امتداد ذلك الخط. لقد فتح المثنى على العجم أبعاداً ثلاثة للحرب القائمة بينهما.

البعد الأول هو خط المواجهة.

والبعد الثانى هو ما امتد إليه هذا الخط فجعله يتسع ويستطيل حتى بلغ ميسان ودست ميسان، وذلك ليحقق الأهداف الثلاثة:

أ- الحصول على الأقوات (التموين) للقوات.

ب- تشتيت العدو وإرباكه.

ج- الأثر النفسى على قياداته وشعبه.

ثم كان البعد الثالث وهو النفاذ العميق جداً وراء خط الجبهة وإلى ما أبعد من البعد الثانى بهذه الغارات السريعة الخاطفة المدروسة المحسوبة، وذلك بالاستخدام المزدوج للإيل والخييل.

المفاجأة

٢- أحسن المثنى إعداد الخطة مع توفير عنصر المفاجأة كاملاً، فوجه ضربة عنيفة وراء ضربة حيث لم يكن يتوقع عدوه أن يأتيه الضرب، لا سيما وقد كان اختيار الأهداف فى أماكن بعضها قريب من المدائن وبعضها تجاوز موضعها بكثير. هذه المفاجأة شلت الفرس عن أن يعملوا شيئاً على الإطلاق. ولقد كان إذكاء الحراس على طريق التقدم نحو سوق بغداد لستر أخبار التقدم عن المدائن تصرفاً يطابق إلى أبعد الحدود عمليات التشويش على الرادار

=بالخريطة - من بغداد إلى البردان أربعة فراسخ ثم إلى عكبرا خمسة فراسخ (ابن خرداذبه ٩٣ وقدامة ٢١٤) ومن بغداد إلى البردان سكتان، ثم إلى عكبرا أربع سلك، ثم إلى سر من رأى سبع سلك (قدامة ٢٢٧) وطابقه ابن خرداذبه إلا فيما بين سر من رأى وعكبرا، فقد قال تسع سلك (ص ٥٩) والسكة هى الخطة (أو المنزل).

(١) هذا يناسب التوقيت الذى ذهبنا إليه لهذه الغارات من أنها كانت فى ديسمبر (كانون أول) وهو وقت تحاريق لدجلة يمكن أن يخوضوه فيه.

وقال الاصطخرى: «من بغداد إلى سامرا ٣ مراحل ومن سامرا إلى تكريت مرحلتان» (ص ٥٦) وقال ابن بطوطة: «ان تكريت على مرحلة من سر من رأى» (ص ١٧٩).

فى تكتيكات الحرب فى العصر الحديث ، كلاهما يهدف إلى تعمية العدو وصم أذنيه عن حقيقة ما يحدث حتى تتم العملية وتعود القوات المغيرة منها .

حساب وتوقيت

٣- كانت عمليات الغارات ولا سيما غارة سوق بغداد على أعلى درجات التخطيط وحساب التوقيت . وقد أوضحت بما لا يدع مجالاً لشك ، أن المسلمين قد توافرت لهم فى الميدان القيادة الممتازة والجنديّة الممتازة . وقد أوضحت لنا غارة بغداد - كما وضح ذلك من قبل فى موقعة البويب - أن المثني كان يتحين الفرص لمجالسة جنوده ومناقشة المعركة وأن يشرح لهم تخطيطها وحساباتها وأسرارها وخباياها كأستاذ ومحاضر ممتاز . وفى هذا قال شاعرهم :

سَهْلَ نَهَجَ السَّبِيلِ فَاقْتَفَرُوا آثَارَهُ وَالْأُمُورُ تُقْتَفَرُ

كذلك اشتملت على أعلى درجات الجرأة المثالية فى غير مغامرة خاسرة . قال نابليون : « لو اشتمل فن الحرب على مجرد تجنب المخاطر لدان المجد لذوى المواهب المتوسطة جداً » .

أهداف مختارة

٤- عني المثني أن يحس المسلمون مادياً بفوائد ملموسة لهذا الظفر ، فاختار أهدافاً تعود عليهم بمغانم مجزية وبدون ضحايا رفعا لمعنوياتهم ومكافأة لهم . وهو فى نفس الوقت يستنزف من خصمه هذه الموارد ليستحوذ عليها هو . إن حرب الاستنزاف هى إحدى صور الاسراتيجية غير المباشرة Indirect Strategy ، كما وأنها تدخل فى دائرة الحرب الساخنة التقليدية المحددة بميادين قتال ، فهى تستخدم القوة المسلحة جنباً إلى جنب مع وسائل الحرب النفسية أو القوة المسلحة فى خدمة الحرب النفسية لتضع العدو تحت ضغط ظروف غير مناسبة ومستمرة من الضغط المادى والعصبى ، مع استغلال جميع وسائل المناورة والضغط سواء المادية أو المعنوية . ويكون هدف حرب الاستنزاف هو التأثير على :

- جنود العدو فى الميدان .

- ومواطنيه فى المؤخرة .

بالإضافة إلى ذلك فقد استخدمها المثني إيجابياً لتغطية واستغلال فترة الإعداد والتحضير للمعركة الكبيرة بما يمهّد لتلك المعركة الرئيسية ، ويهز كيان العدو هزاً عنيفاً ويرفع كفاءة

المسلمين القتالية والمعنوية . إن حرب الاستنزاف تهىء أنسب الظروف للحرب الحاسمة ، فهى تشكل للعدو مشكلة من مشاكل الأمن الداخلى وتستنزف معنوياته أسوة بماديته .

شعب منهزم

٥- عرفت الحروب نوعين أساسيين من الدفاع :

الدفاع المتحرك Static Deffence

والدفاع الثابت Fixed Deffence

فالدفاع المتحرك يعتمد أساساً على قوات متحركة معدة إعداداً جيداً لمقابلة الجيوش المهاجمة . والدفاع الثابت يعتمد أساساً على قلاع وحصون ومواقع محصنة معدة على مهل إعداداً جيداً تستعصى على الجيوش المهاجمة . وظلت ميادين القتال منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث تعتور هذين النوعين وتتردد بينهما ، حتى وجدنا فى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ سيطرة الدفاع الثابت بخطوط دفاعية مجهزة سلفاً فى زمن السلم بعناية وعمق . فكان خط ماجينو فى فرنسا ، وخط سيغفريد فى ألمانيا ، وخط مانرهايم فى فنلندا وخط ماريت فى تونس . ثم أقام هتلر بحداء بحر الشمال ما اشتهر باسم جدار الأطلنطى At-lantic Wall . وكانت النتيجة فشل جميع تلك الخطوط فى تحقيق ما أنشئت من أجله ، لأن المهاجم لم يكن ليهاجمها بالمواجهة العريضة وإنما كان يعتمد على الالتفاف حول أجنابها أو حشد أكبر قدر من قواته أمام نقطة محدودة من الخط لاختراقه ثم الانتشار خلفه . ومن هنا أسفرت الحرب العالمية الثانية - وهى أكبر حرب شهدتها كوكبنا - عن نتيجة ، هى أنه قد ينهار الدفاع المتحرك أو الدفاع الثابت ، ولكن تحصيل الحاصل والرجوع إلى الأصل الذى لا محيص عنه فى أى دفاع أن يكون على طريقة الصفحة .

والمقصود بدفاع الصفحة أن تكون كل نقطة وكل بقعة على صفحة الوطن مقاومة ودفاعاً ، بأن يهب كل فرد فى الأمة لدفع الغازى وعرقلة تقدمه ومهاجمة مواصلاته ومؤخرته ومخازنه ودورياته وأفراد قواته ، بل ومعسكراته ، بمعنى أن تنتشر المقاومة فى كل مكان على اتساع الرقعة المحتلة ، فيدخل فى ذلك مفهوم الدفاع الوطنى وحرب العصابات وجيوش التحرير والجمعيات السرية وانتفاضة الحجارة .. إلخ . وهو كفاح مرير يقابله الغزاة بكل قمع مستطاع ، ولكنه يقض مضاجعهم ويضيع مكاسبهم ويجعل من انتصارهم هزيمة ، ومن استمرار الاحتلال أمراً شاقاً مستحيلاً . حدث ذلك فى معركة المنصورة ضد لويس التاسع فى

الحروب الصليبية، وحدث لنابليون في روسيا، وحدث في معركة رشيد في مواجهة الغزو الإنجليزي، وحدث لقوات ألمانيا الهتلرية في فرنسا وفي يوغوسلافيا وفي اليونان وفي النرويج، وحدث لقوات الاستعمار الفرنسي بالجزائر ولقوات الاحتلال البريطاني في عدن، وكانت المقاومة السلبية التي تزعمها غاندى في الهند ضرباً من هذا النوع. وعلى هذه النظرية بنت إسرائيل كيائها ووجودها بإقامة مئات من المستعمرات الدفاعية المسلحة المنتشرة على أرض فلسطين في كل مكان فيها تجعل لزاماً على أى جيش يتقدم خلال هذه الأرض أن يقف أمام كل مستعمرة في معركة ضارية.

هذه النظرية في المقاومة والدفاع تستند أساساً على الشعب الحى المتوثب الإيجابي المتحرك، ولا يمكن أن تتواجد المقاومة إلا بتواجده، فيهب للدفاع عن نفسه إذا انهارت قواته النظامية في الجبهة. ولكن الذى لا شك فيه، أن شعب فارس الذى سكن العراق، لم يكن يحمل هذه المعنوية بين أجنابه، ولم يكن ينطوى على حيوية وارتباط وتجارب مع السلطة الحاكمة التى أمضته وأذاقته مر الاضهاد والعذاب، وساسته بالسجن والسياط، وحكمته بأشد أنواع الاستبداد ظلماً وعسفاً، وفرضت عليه ألواناً من التأييد يبيديها، ومن الهدايا يزجيهها إلى الحكام فى كل عيد.

فإذا انتصرت هذه القوات القليلة العدد من المسلمين فى الميدان وكسرت جيش الدولة الذى اعترضها، فقد انفتح لها ما وراءه، واكتسحت الأراضى والقفار والمنازل والديار، ولم تجد من الشعب المنكسر الذليل مقاومة أو دفاعاً. لم يكن من سبيل إلى مدافعة الغزاة الفاتحين بعد هزيمة الجيش الفارسي إلا بجماهير شعب فارس، ولكن الحقيقة أن تلك الجماهير كانت قد سبقت جيشها إلى الهزيمة.

الحرب الخاطفة

٦- طبق المثني استراتيجيية وتكتيكات الحرب الخاطفة Blitz Kreig فى عملياته تلك، طبقها وفق أحدث مفاهيم تعبير «الحرب الخاطفة». ولنترك للجنرال هاينز جودريل القائد الألمانى الشهير الذى يعتبر استاذ تطبيق هذا النوع من الحروب فى القرن العشرين، والذى أذهل العالم بتطبيقه فاكستسح به فرنسا عام ١٩٤٠، لنتركه يشرح لنا بأسلوبه مفهومه لهذه الحرب. قال: «الحرب الخاطفة هى أن تستعمل مقدرة الحركة العسكرية السريعة كسلاح نفسى. لا تتحرك لكى تقتل، ولكن تحرك لكى تتقدم».

لا تتقدم لاحتلال مواقع، ولكن تقدم لكى تثير الخوف والرعب، لكى تصيب عدوك بالذهول. لا تأسره، ولكن اتركه أسيراً للارتباك والتوتر والشك لكى تصبح خطوطه الخلفية فوضى شاملة تمزقها الإشاعات وتفترسها التهويلات.. إن الذعر سوف يتحول إلى وحش تجرى أمامه رعباً فلول عدوك وتنهار قيادته وتصاب بالشلل حكومته.

وقبل أن يتبين أحد ماذا جرى تكون قد انتصرت!

كأن هاينز جودريل كان يصف عمليات المثني أو خالد بعباراته تلك.

والقوات الإسرائيلية بنت خطتها فى حرب ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ على هذا الأساس. قالت الصحافة^(١) فى ذلك:

«إن أسوأ ما يمكن أن يسجله التاريخ على أمة مقاتلة أنها عاشت أيامها الخطيرة كلها مأخوذة بالمفاجآت.. كل خطوة خطتها - أو لم تخطها - أوقعتها فى كمين. ونصف الطريق إلى انتصار أى طرف فى صراع، أن لا يفاجئه تصرف يقوم به عدوه».

آثار داخلية

٧- لا شك أن هذه العمليات قد وجهت إلى السلطة الحاكمة فى المدائن أكبر إهانة أمام شعبها، وأضعفت الثقة فى قدرتها على القيام بالدفاع ضد هجمات قوم كان الفرس حتى وقتها ينظرون إليهم نظرة ملؤها الزراية والازدراء. وفى هذا ما فيه للضغط على الفرس ليرضخوا لشروط المسلمين أو أن يواصلوا حرباً ميؤوساً منها حيث لا يأمن أى مواطن فارسي على نفسه وماله فى أى مكان كان، كما وأنها قد أثارت الشعور العام الداخلى فى فارس إثارة حادة.

رد فعل

لم تكن أحداث كالتى وقعت لتمر دون أن يكون لها رد فعلها فى الدوائر الحاكمة فى فارس، فقالوا لرستم ولفيرزان:

«أين يذهب بكما؟^(٢) لم يرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم

(١) محمد حسنين هيكل عن مقال بصراحة - الأهرام ٣٠ / ١ / ١٩٧٠.

(٢) الطبرى ٤ / ٨١ س ش س، عن محمد بن عبدالله بن سواد بن نوبيرة عن عزيز بن مكنف التميمي ثم الأسيدى.

وطلمة بن الأعلم الحنفى عن المغيرة بن عتبة بن النهاس العجلي.

وزياد بن سرجس الأحمرى عن عبدالرحمن بن ساباط الأحمرى.

س ش س، عن عبيد الله بن محفز عن أبيه.

عدوهم. والله ما جر هذا الوهن علينا غيركم يا معاشر القواد. لقد فرقتم بين أهل فارس وثبطتموهم عن عدوهم، وإنه لم يبلغ من خطر كما أن تقر كما فارس على هذا الرأي وأن تعرضها للهلكة. ما تنتظرون والله إلا أن ينزل بنا ونهلك. ما بعد بغداد وساباط وتكرت إلا المدائن. والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت. والله لولا أن في قتلكم هلاكنا لعجلنا لكم القتل الساعة ولئن لم تنتهوا لنهلككم ثم نهلك، وقد اشتفتنا منكم».

لم تذكر لنا المصادر من الذي قال ونعتقد أنهم كانوا من كبار الأساورة.

تولية يزيد جرد

وذهب^(١) رستم وفيرزان إلى بوران فقالا لها:

«اكتبى لنا نساء كسرى وسراريه ونساء آل كسرى وسراريهم».

ف فعلت وأخرجت لهم ذلك في كتاب. فأرسلوا في طلبهن فأتوا بهن جميعاً فسلموهن إلى رجال يعذبونهن ويستدلونهن على ذكر من أبناء كسرى، فلم يوجد عندهن منهم أحد، ولكن إحداهن ذكرت أنه لم يبق إلا غلام يدعى يزدرجرد من ولد شهريار بن كسرى وأمه من أهل بادوريا. فأرسلوا إليها وأخذوها به يطلبونه منها، وكانت حين جمعهن عمه شيرويه في القصر الأبيض وقتل ذكور آل كسرى - وهم إخوته السبعة عشر - حتى لا ينافسه أحد على عرش فارس، قد هربته في زبيل وأخفته عند أخواله في إصطخر، وكان شيرويه قد قتل فيمن قتل أخاه شهريار بن كسرى برويز من زوجته المفضلة شيرين وهو والد يزدرجرد هذا. ضغطوا على أم يزدرجرد فدلتهم عليه، فأرسلوا إليه فجاءوا به باعتباره الذكر الوحيد الباقي من بني ساسان، فملكوه وهو ابن إحدى وعشرين سنة، واجتمعوا عليه واطمأن جميع الفرس لذلك، فتياروا في طاعته ومعونته، ورأوا في ذلك مخرجاً مما كانوا فيه.

انسحاب

بدأ يزدرجرد الثالث يزاول سلطاته بمعونة رستم وفيرزان. فجدد المسالح والشغور التي كانت لكسرى، وخصص جنداً لكل مسلحة فسمى جند الحيرة والأنبار وجند الأبله. وبلغت هذه الأخبار المثنى فكتب بها وبما يتوقع من هجوم مضاد قوى إلى عمر. وصدق تقدير المثنى، فلم يصل كتابه إلى عمر حتى كفر أهل السواد وانتقضوا وتنكروا للمسلمين، من كان له

(١) الطبرى ٤ / ٨١ س ش س، عن محمد وطلحة وزباد.

منهم عهد ومن لم يكن له، وعاجلهم الفرس فزاحفهم مع ثورة أهل الذمة. من ذلك أن خرج أنوشجان بن هرزد من سواد البصرة يريد مهاجمة أهل غصى فاعترضته^(١) أفناء من تميم والرباب عليهم أربعة أمراء.

فكان على الرباب المستورد ويسانده عبدالله بن زيد.

وكان جزء بن معاوية على بنى سعد بن زيد مناة بن تميم ويسانده ابن النابغة.

وكان الحسن بن نيار على بنى عمرو بن تميم ويسانده الأعور بن يشامة.

وكان الحصين بن معبد على بنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم يسانده الشبيه. فقتلوه دونهم.

فلما رأى المثنى ذلك كان يدرك أنه أحرز من التقدم والاكتمال أكثر مما تسمح قوته (٨٠٠) الاحتفاظ به، ومن شأن هذا ألا يدوم، فخرج في حاميته حتى نزل بذي قار وأنزل الناس بالطف في عسكر واحد. وكان عمر أكثر حذراً فجاءهم كتابه^(٢).

«أما بعد، فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم وتنح إلى البر وتفرقوا في المياه التي تلى الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم وادع من يليك. ولا تدعوا في ربيعة أحداً، ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات، ولا فارساً إلا اجتلبتموه. فإن جاء طائعاً وإلا حشركوه، احملوا العرب على الجد إذ جد العجم. فلتلقوا جدهم بجذكم وأقم منهم قريباً على حدود أرضك وأرضهم حتى يأتيك أمرى». وبهذا عين أمير المؤمنين الجهاد فجعله فرض عين، وقد كان فرض كفاية حتى حينذاك.

ونزل المثنى بذي قار ووزع المسلمين بالجبل وشراف إلى غصى - وغصى جبل تجاه البصرة - فكان جرير بن عبدالله البجلي في غصى وسبرة^(٣) بن عمرو العنبري ومن معه إلى سلمان. فتنفروا في المياه من أول صحراء العراق إلى آخرها، من غصى^(٤) إلى القطقطانة مسالح ينظر بعضهم إلى بعض ويغيث بعضهم بعضاً إن حدث شيء، في حالة ترقب وانتظار لحشد جديد،

(١) الطبرى ٤ / ٩٦ عن السرى عن شعيب عن سيف عن عمرو عن الشعبي.

(٢) الطبرى ٤ / ٨٤ عن شعيب عن سيف عن خليل بن زفر عن أبيه.

(٣) كان من وفد بنى تميم إلى النبي مع الأقرع بن حابس والقعقاع بن معبد وقيس بن عاصم ومالك بن عمرو. وقد استعمله خالد بن الوليد لما توجه إلى العراق، فكان من جيش خالد. (الاستيعاب ٢ / ٧٤، الإصابة ٣٠٨٣).

(٤) غصى جبال البصرة - معجم البلدان.

بينما عادت مسالح كسرى وثغوره واستقر أمر فارس وهم متهيّبون مشفقون والمسلمون متدفقون في ضراوة كالأسد ينازع فريسته ثم يعاود الكر، وأمرأؤهم يكفّفونهم عملاً بكتاب عمر وانتظاراً للمدد.

كان ذلك في أواخر ذى القعدة ١٣هـ، يناير (كانون ثانى) ٦٣٥م.

وقال عمر^(١): «والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب». ثم كان أول^(٢) ما عمل أن كتب إلى عماله على الكور والقبائل وذلك في ذى الحجة ١٣هـ، مع مخرج الحجاج إلى الحج. فجاءته أوائل القبائل التي طرقها على مكة والمدينة ومن كان على طريق العراق وهو إلى المدينة أقرب، توافوا إليه بالمدينة مع رجوع الحج وأخبروه عمن وراءهم أنهم يجدون في أثرهم. أما من كان إلى العراق أقرب فقد لحقوا بالمشنى. فلم يدع عمر رئيساً ولا ذا رأى ولا ذا شرف ولا ذا سطوة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وغررهم.

القادسية في التاريخ

المعارك الحاسمة

يترك الإنسان بصماته على ما يضع أصابعه عليه من أشياء، فتبقى هذه البصمات كثيراً أو قليلاً حتى يزيلها الناس أو يعفى عليها الزمن. ومن المعارك ما يضع بصماته على سطح الأرض فتبقى آثارها على التاريخ ما بقى كوكبنا، لأنها لم تكن ذات أثر محدود يذوب مع الزمن، أو لم تكن فعلاً ينقضه رد فعل في الأجل المناسب، وإنما كانت فعلاً اكتسب من استطراده المحتوم ما استحال معه إيقافه أو إزالة آثاره.

وعلى ذلك يعتبرون معركة واترلو من المعارك الحاسمة في تاريخ العالم، فلو ظل نابليون بونابرت يوالى انتصاراته لما استطاع أحد أن يتصور خريطة العالم اليوم. ويعتبرون معركة ستالينجراد معركة حاسمة استطاعت عندها روسيا البلشفية أن توقف تقدم هتلر، ولولا ذاك لتم له غزو روسيا ولبادت الشيوعية، وارتفعت على أنقاضها النازية. ويعتبرون معركة العلمين من المعارك الحاسمة، فلولا أن انتصر الإنجليز فيها لدخلت القوات الألمانية مصر، واخترقت الشرق الأوسط وانقلب ميزان الموارد والقوى في الحرب العالمية الثانية لصالح ألمانيا. ولا يعتبرون سقوط فرنسا وباريس تحت أقدام هتلر من المعارك الحاسمة لأنها لم يكن لها ذلك الأثر الممتد مع التاريخ.

وليس أغنى من التاريخ الإسلامى بالمعارك الحاسمة، ليس فقط بعدد تلك المعارك على مداه، ولكن بمقدار ما صاحبها من أثر وحسم. وليس على سبيل الحصر أن نذكر أن صلاح الدين استطاع في حطين أن يضع نهاية للنفوذ الصليبي في الشرق الأوسط فتعود الموجات الصليبية من حيث أتت وتستمر الحضارة الإسلامية تؤدى دورها لقرون أخرى. واستطاع قطز أن يقهر التتار في عين جالوت فيوقف المد المغولى الخرب بعد أن اكتسح الشرق كله حتى بلغ حدود مصر الشرقية، ثم يرتد مرة أخرى من حيث جاء في هزائم متلاحقة.

القادسية معركة حاسمة

ولا شك أن القادسية - وتقاربها اليرموك - تقع على قمة قائمة المعارك الحاسمة في تاريخ

(١) الطبرى ٤ / ٨٧ س ش س، عن طلحة عن ماهان.

(٢) الطبرى ٤ / ٨٢ س ش س، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.

كتب عمر إلى عماله بطلب الأمداد في ذى الحجة مع خروج الناس إلى الحج. ومن حيث أن وقفة عرفات في تاسع ذى الحجة، فنقدر أن كتب عمر كانت في أول ذى الحجة، وكان في عجلة ظاهرة تجعلنا نعتقد أنه كتب بمجرد بلوغ أخبار العراق إليه، وإذاً يكون ذلك في أواخر ذى القعدة ويكون المشنى كتب له بها في حوالى منتصفه، وذلك بعد إجراءات رستم وفيرزان وبوران لتنصيب يزيدجرد التي نقدر أنها لم تستغرق بأى حال أقل من أسبوعين، يعنى أنها بدأت قبل أول ذى القعدة. ومن حيث كانت البويب في رمضان، إذاً نستطيع أن نؤقت غارات الشمال بأنها وقعت في شوال ١٣هـ - ديسمبر (كانون أول) ٦٣٤، ولعلها أن تكون قد استغرقت من أوله إلى آخره من خروج المشنى من الخيرة حتى رجوعه إليها.

العالم، فهي التي انفتحت على آثاراها أبواب العراق، ومن وراء العراق فارس كلها، وهي التي من عندها استطرد نصر المسلمين، فاستطرد معه السقوط الساساني من الناحيتين الحربية والسياسية، والسقوط الجوسى من الناحية الدينية العقائدية. ومن هنا انساح دين الإسلام في العالم شرقاً وغرباً، ولولا ذلك لظل محصوراً في جزيرة العرب لا يتعدى القبائل الضاربة في صحاريها وحواضرها القليلة. كان الإسلام جديداً، فهو مازال في فتوته، فإن لم يكسب المسلمون إنجازاتهم حينذاك، ودينهم حتى في قلوبهم يصرف أعمالهم أدرك أمتهم الهرم والشيخوخة، ولظلت السيطرة على العالم لجيرانهم من الفرس والروم من دونهم، ولأمكن حينذاك - ولو من الناحية التصويرية البحتة للتاريخ - أن ينحسر ظل الإسلام فيضمحل حيث حصره أصحابه، لولا أن الإسلام يفرض على المسلمين مجاهدة أعدائهم ومناجزتهم حتى يتم النصر عليهم.

في القادسية كسر المسلمون شوكة الجوس كسراً لم يجبر بعدها أبداً. فيها ألقى الفرس بكل طاقاتهم من سلاح وعتاد وأفيال كثيرة، وأعداد ضخمة من الجند، وبقيادة تمثلت في أحكم رجالهم وأشهرهم في الحرب والسياسة. وألقى المسلمون أيضاً بكل إمكانياتهم من وجوه المسلمين وغرهم، وبقيادة تمثلت في صحابي رسول الله ﷺ، وواحد من السابقين الأوائل إلى الإسلام، وأحد الستة المرشحين للخلافة بعد عمر، سعد بن أبي وقاص، كما نزلوا إلى مواجهة أعداد الفرس وأفيالهم وعدتهم بسلاحهم الذي اختصوا به على عدوهم... الإيمان بكل ما يفرغه على أصحابه من صلابة وصبر وكفاءة.

بهذا استحققت القادسية مكانها، بل مكانتها على قمة المعارك الحاسمة في تاريخ البشر. وستكون القادسية، إن شاء الله، المعركة الأولى التي سنتناولها بالبحث في الكتاب الثاني من سلسلة كتب استراتيجية الفتوحات الإسلامية.

أحمد عادل كمال

١٠ ش إسماعيل المازني
بجوار الكلية الحربية
مصر الجديدة - القاهرة

ترجمة مشاهير قادة الفتح^(١)

الأقرع بن حابس

اسمه فراس، واشتهر بالأقرع لقرع كان برأسه. ومع هذا الداء الذي من شأنه أن ينفر الناس من صاحبه، كان الرجل شريفاً في الجاهلية عظيماً في الإسلام، فلا غرو إن دلنا داؤه على ارتفاع قدره ومزايه ارتفاعاً يثقل به وزنه عند أهل زمانه، فإن قيل شجاع فلا بد أن كانت شجاعته فوق شجاعة الشجعان، وإن قيل فارس فلا بد أن كانت فروسيته فوق مستوى أقرانه وهكذا، وإلا لخط داؤه من شأنه.

وهو ابن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك ابن حنظلة من قبيلة تميم. كان من حكام بني تميم بل ومن حكام العرب، ومرجعهم في واقعاتهم ومنافراتهم في الجاهلية، وقد وفد على النعمان بن المنذر ملك الحيرة، مما نقف منه على مستوى علاقاته العامة. وكان الأقرع مجوسياً قبل أن يسلم وهو ما يدلنا على أنه كان يحاول أن يفكر. وكان له ذكر كثير في الجاهلية وفي أيام العرب المشهورة. من ذلك يوم نجران، وقد انتصرت فيه تميم يقودهم الأقرع على أخلاط من أهل اليمن فيهم فارسهم الأشعث بن قيس وأخوه، (بلوغ الأرب ٦٩/٢). ويوم زبالة، وكان لبني بكر بن وائل وخاصة بني شيبان وبني تميم الله يقودهم بسطام، فانتصروا على بني تميم يقودهم الأقرع، ووقع الأقرع وأخوه في الأسر، ولكن بسطاماً استنقذهما بعد أن حكم عمران بن مرة بغدية مقدارها مائة ناقة (بلوغ الأرب ٧١/٢).

وقد كانت سوق عكاظ موسماً معروفاً للعرب، وهو نخل في وادي بين نخلة والطائف، وهو إلى الطائف أقرب بينهما عشرة أميال، وكانوا يجتمعون فيها فيتبايعون ويتفاخرون وينشدون الشعر ويخطبون، وفيها علقت المعلقات السبع، فكان يتوافى شريف كل قوم، فمن كان له أسير سعى في فدائه ومن كانت له حكومة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة، فكان الأقرع بن حابس يقوم بأمر هذه الحكومة في أناس من تميم (بلوغ الأرب ٢٦٧/١)،

(١) نورد هنا تراجم مشاهير القادة الذين وردت أسماؤهم خلال الكتاب، ووجدنا أنه من الأفضل ذكر تراجمهم مجمعة في آخر الكتاب لسهولة الرجوع إليها، وتحاشياً لتشويش القارئ بين النص والخواشي.

وكان الأقرع هو الحكم في المنافرة المشهورة التي جرت بين جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن أرتاة.

أسلم الأقرع قبل أن يفد وفد تميم على النبي ﷺ، ثم قدم مع هذا الوفد، فلما دخلوا المسجد نادوا النبي من وراء حبرته أن اخرج إلينا يا محمد، فأذى ذلك من صياحهم النبي، فخرج إليهم فقالوا: «يا محمد جئنا نفاخرك»، وقال قائلهم للنبي: «إن مدحى زين وذمى شين». فقال رسول الله ﷺ: «ذلكم الله». قيل إن ذلك القائل كان الأقرع، وقيل كان شاعراً لهم غير الأقرع. ونستبعد أن يكون الأقرع قائلها، فقد كان مسلماً من قبل ولا يتأتى ذلك مع إسلامه. ونزل في هذا الوفد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكُمْ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (سورة الحجرات ٤). هذه الواقعة والواقعة التالية تدلنا على أنه كان في طباعه جفاء وغلظة.

فقد قسم النبي ﷺ سبى هوازن على الناس، ثم جاء وفد هوازن يعلن إسلامهم ويطلبون المن على السبى، فرد عليهم ما كان له ولبنى عبد المطلب ثم سأل الناس أن تطيب نفوسهم برد سبى هوازن، فقبلوا جميعاً إلا الأقرع وبنو تميم وعيينة بن حصن وبنو فزارة، ففدى النبي منهم السبى بست نيق، ثلاثاً استكملت الثالثة من عمرها وثلاثاً استكملت الرابعة.

ولما أصاب عيينة بن حصن من بنى العنبر من تميم قدم وفدهم على النبي وكان الأقرع بالمدينة قبل قدوم السبى، فكلم النبي فيه ونازعه عيينة بن حصن وفي ذلك يقول الفرزدق يفخر بعمه الأقرع:

وعند رسول الله قام ابن حابس بخطة أسوار إلى المجد حازم
له أطلق الأسرى التي في قيودها مغللة أعناقها في الشكائم

وشهد الأقرع فتح مكة وغزوة الطائف عام ٨هـ، وكان من المؤلفة قلوبهم، فأعطاه النبي مائة بعير. وقدم وفد نصارى نجران على النبي ﷺ وهم أربعة عشر رجلاً، ونزلت آية الميالة فأبوا أن يباهلوه ثم صاحوه على الجزية، وكتب لهم بذلك كتاباً كتبه عبد الله بن أبي بكر، وشهد فيه أشرف العرب، أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو الثقفي ومالك بن عوف النصرى والأقرع بن حابس والمغيرة بن شعبة (بلوغ الأرب ١/ ٢٦٧). وشهد الأقرع مع شرحبيل بن حسنة دومة الجندل. وشهد مع خالد حرب اليمامة، فكان من فرسان المسلمين الثابتين حين ارتد الناس.

روى البخارى في تاريخه الصغير أن عيينة بن حصن والأقرع بن حابس استقطعا أبا بكر أرضاً فكتب لهما بها، فقال لهما عمر: «إنما كان النبي ﷺ يتألفكما على الإسلام، فأما الآن فاجهدا جهدكما» وقطع الكتاب.

وفى الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدرى، قال: «بعث على إلى النبي ﷺ بذهبية من اليمن فقسمها بين أربعة، أحدهم الأقرع بن حابس». وفيهما من حديث أبي هريرة قال: «أبصر الأقرع بن حابس رسول الله ﷺ يقبل الحسن».

استعمله عبد الله بن عامر على جيش سيره إلى خراسان فأصيب بالجوزجان هو والجيش، وذلك في عهد عثمان بن عفان. ونستبعد ما قيل من أنه قتل باليرموك في عشرة من بنيته.

بشير بن سعد الأنصارى

كان بشير بن سعد الأنصارى من كبار الصحابة، ومن أبطال المسلمين، شهد بدرًا. وبعثه النبي ﷺ في سرية إلى بنى مرة بفدك في شعبان ٧هـ، في ثلاثين رجلاً، فأصيب أصحابه وجرح هو وعاد إلى المدينة (فتوح البلدان ٦٢٠ الطبرى ٣/ ٩٩)، ثم بعثه في شوال من نفس السنة إلى يمن وجناب نحو وادى القرى. وكان حسيل بن نويرة الأشجعي دليل رسول الله إلى خيبر وقدم عليه فقال له النبي: «ما وراءك؟» قال: «تركت جمعاً من غطفان بالجناب قد بعث إليهم عيينة بن حصن ليسيروا إليكم». فدعا رسول الله بشير بن سعد وخرج معه حسيل كدليل، فأصابوا نعماً وشاء ولقيهم عبد لعيينة بن حصن فقتلوه ثم لقوا جمع عيينة فانهزم. وفي عام ٧هـ، أيضاً خرج رسول الله إلى عمرة القضاء وساق ستين بدنة وحمل السلاح والبيض والرماح وقاد مائة فرس واستعمل على السلاح بشير بن سعد وعلى الخيل محمد بن مسلمة (الطبرى ٣/ ١٠١) وكان بشير بن سعد أول من بايع أبا بكر من الأنصار (الإصابة ٦٩٤). وقد استشهد بشير بن سعد بعين التمر واستشهد معه عمير بن رثاب ابن مَهْشَم بن سعيد بن سهم بن عمرو من السابقين الأولين إلى الإسلام ومن الذين هاجروا إلى الحبشة ثم المدينة وهو القائل من أبيات:

نحن بنو زيد الأغبر ومثلنا يحامى على الأحساب عند الحقائق

وزيد هو جده الأعلى، سابق أخاه فسمته أمه سهماً لسرعته، فاشتهر بها (الاستيعاب ٤٧٩/ ٢ - الإصابة ٦٠٣٤).

هو جرير بن عبد الله بن جابر (وهو الشليل) بن مالك بن نضرة بن ثعلبة بن جشم بن عوف بن خزيمية بن حرب بن علي بن مالك بن سعد بن نذير بن قسر (وهو مالك) بن عبقري بن أنمار بن أراسن بن عمرو بن الغوث. واختلف في أنمار فقليل إنه بن نزار وهو على هذا يكون من العدنانية وقيل: «إنه بن أراسن، وهو ما أخذنا به فيكون من القحطانية حيث كانت مساكنهم في اليمن. ولم يختلف النسابة في أن بجيلة أمهم نسبوا إليها، وهي بجيلة بنت صعب بن علي بن سعد العشيرة، كانت زوجاً لأنمار. وكان خثعم أيضاً من أبناء أنمار ولكنه لم يكن من أبناء بجيلة.

ولجرير ذكر ذائع قبل الإسلام، وكان بينه وبين خالد بن أرطاة الكلبي منافرة في الجاهلية. والمنافرة احتكام إلى حكم يرضاه الطرفان إذا ادعى كل منهما أنه أعز من صاحبه. فقد أصابت كلب رجلاً من بجيلة يقال له مالك بن عتبة من بني عادية بن عامر بن قداد، فوافوا به عكاظاً، فمر مالك بابن عم له اسمه القاسم بن عقيل يأكل تمرأ فتناول من ذلك التمر شيئاً، فجذبه الكلبي فقال له القاسم: «إنه رجل من عشيرتي»، فقال: «لو كانت له عشيرة منعتة». فانطلق القاسم إلى بني عمه بنى زيد بن الغوث فاستتبّعهم، فقالوا: «كلما طارت وبرة من بنى زيد في أيدي العرب أردنا أن نتبعها!» فانطلق إلى جرير فكلّمه. يقول القاسم: «إن أول يوم أريت فيه الثياب المصبغة والقباب الحمر اليوم الذي جئت فيه جريراً في قسر (قومه) وكان سيد بنى مالك بن سعد بن زيد ابن قسر وهم بنو أبيه، فدعاهم في انتزاع العادي من كلب فتبعوه. فخرج يمشي بهم حتى هجم على منازل كلب بعكاظ، فانتزع منهم مالك بن عتبة العادي وقامت كلب دونه. قال جرير: «زعمتم أن قومه لا يمنعونه»، فقالت كلب: «إن رجالنا خلوف» (يعني متخلفون غائبون). قال جرير: «لو كانوا لم يدفعوا عنكم» فقالوا «كانك تستطيل على قضاة؟» إن شئت قايسناكم المجد». وزعيم قضاة يومئذ خالد بن أرطاة، قال: «ميعادنا من قابل سوق عكاظ».

فجمعت كلب وجمعت قسر وتوافوا بعكاظ في العام التالي، فحكموا الأقرع بن حابس، ووضعوا الرهون على يدي عتبة بن ربيعة بن عبد شمس من أشراف قريش. وكان في الرهن من قسر الأصرم بن عوف بن عوف، ومن أحمر حازم بن أبي حازم وصخر بن العلية، ومن بنى زيد بن الغوث بن أنمار رجل. ثم قام خالد بن أرطاة فقال لجرير: «ما تجعل؟» قال: «الخطر

في يدك». قال «ألف ناقة حمراء في ألف ناقة حمراء» فقال جرير: «ألف قينة عذراء في ألف قينة عذراء. وإن شئت فألف أوقية صفراء لألف أوقية صفراء». قال: «من لي بالوفاء؟» قال: «كفيلك اللات والعزى وإساف ونائلة ويعوق وذو الخلفة ونسر (أسماء أصنامهم) فمن عليك بالوفاء؟» قال خالد: «ود ومناة وقلس ورضا». قال جرير: «لك بالوفاء سبعون غلاماً مِعْمًا مَخُولًا يوضعون على أيدي الأكفاء من أهل الله». فوضعوا الرهن من بجيلة ومن كلب على أيدي من سميننا من قريش.

قال الأقرع «ما عندك يا جرير؟»

قال: «نحن أهل الذهب الأصفر والأحمر المعتصر. نخيف ولا نخاف ونطعم ولا نستطعم. ونحن حي لِقاح نطعم ما هبت الرياح، نطعم الشهر ونضمن الدهر ونحن الملوك لقسر».

فقال الأقرع: «واللات والعزى، لو فاخرت قيصر ملك الروم وكسرى عظيم فارس والنعمان ملك العرب لنفرتك عليهم».

هذه القصة بطولها ذكرناها (مختصرة عن الأصل) لما فيها من دلالة على ما ذكرنا في الجزء الأول من أن القبيلة كانت ضرورة اجتماعية بين العرب، وللدلالة على مركز بجيلة وحالتها قبل أن يجمعها جرير، وللدلالة على ما كان من منزلة جرير عند بجيلة.

أسلم جرير في السنة التي قبض فيها النبي ﷺ - ١٠هـ - وقد وفد عليه فقال: «ما جاء بك؟» قال: «جئت لأسلم». فألقى إليه النبي كساءه (أو وسادة) فجلس جرير على الأرض فقال النبي: «أشهد أنك لا تبغى علواً في الأرض ولا فساداً وقال: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموا». عن قيس بن أبي حازم قال: قال جرير: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسم في وجهي (بلوغ الأرب ١/ ٣٠٢ - أسد الغابة ٧٣٠ - سير أعلام النبلاء ٣٨١/ ٢) وقال إلا ضحك، وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

وكان ذو الخلفة بيتاً باليمن خثعم وبجيلة فيه نصب يعبدونها ولهم فيه من السنة موسم وعيد. فقال النبي ﷺ لجرير: «ألا تريحنى من ذى الخلفة؟» فقلت: يا رسول الله إني رجل لا أثبت على الخيل، فصك في صدري وقال: اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً. قال جرير: فنفرت في مائة وخمسين راكباً فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فدعا لنا ولأحمس. وفي رواية أنه قال له: «والذي بعثك بالحق ما جئتها حتى تركتها كأنها جمل أجرب». قال: فبارك في خيل أحمس ورجالها خمس مرات (بلوغ الأرب ١/ ٣٤٦ -

أسد الغابة). وقد شهد جرير حجة الوداع، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال له: في حجة الوداع «استنصت لى الناس».

وكان ذو الكلاع من ملوك اليمن مطاعاً في قومه، فكتب إليه النبي مع جرير، فأسلم ذو الكلاع وأعتق أربعة آلاف عبد احتفالاً بإسلامه، وخرج مع جرير إلى النبي ﷺ، ومعه ذو عمر. قال جرير: «فأقبلت أحدهما إلى رسول الله ﷺ، فقال ذو عمر: يا جرير إن كان الذى تذكر فقد أتى عليه أجله، فقلت نسال، فرفع لنا ركب فسألتهم، فقالوا قبض رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر. فقالا لى أقرئ صاحبك السلام ولعلنا سنعود». وكان صادقاً فلقد هاجر بقومه إلى المدينة فى أيام أبى بكر ثم نزحوا إلى حمص فسكنوها.

وكان جرير جميلاً وسيماً مليح الصورة إلى الغاية عملاقاً. قال عمر: «جرير يوسف هذه الأمة وهو سيد قومه»، وقال جرير رآنى عمر متجرداً فقال: ما أرى أحداً من الناس صور صورة هذا إلا ما ذكر من يوسف. وكان طول جرير ستة أذرع (حوالى ثلاثة أمتار) يصل إلى سنام البعير وكان يخضب بالصفرة، وصفه رسول الله فقال: «على وجهه مسحة ملك» (سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٨١).

وخرج جرير فى جيش أسامة بن زيد فوجهه أسامة هو والأقرع بن عبد الله الحميرى رسلاً، فرجعوا إليه بخبر أهل الردة (الطبرى - الإصابة ٢٧٣) وفى حروب الردة طلب خالد بن الوليد المدد من أبى بكر وهو مقدم على مسيلمة فأمدّه بجرير، ولكن خالداً التحم بمسيلمة قبل أن يصل إليه فلقيه منصوراً من اليمامة. واستعمله أبو بكر على نجران. قال الشاعر:

لولا جرير هلكت بجيلة نعم الفتى وبقيت القبيلة

فقال عمر ما مدح من هجا قومه. وكان جرير فى مجلس فوجد عمر رائحة من بعض جلسائه فقال: عزمت على صاحب هذه الرائحة إلا قام فتوضأ. فقال جرير علينا كلنا يا أمير المؤمنين فاعزم. فقال عمر عليكم كلكم عزمت يا جرير، مازلت سيداً فى الجاهلية والإسلام (أو: نعم السيد كنت فى الجاهلية ونعم السيد أنت فى الإسلام) (سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٨٣). وما أثر عن جرير قوله: الخرس خير من الخلالة والبيكم خير من البذاء. وقد أقطعه عمر كما أقطع طلحة والربيل بن عمرو (العواصم من القواصم ١٠١) كذلك أقطعه عثمان بن عفان أرضه على شاطئ الفرات، فيما أقطع من صوافى كسرى وما كان من أرض الجالية. وقد روى عن جرير من الصحابة أنس بن مالك، وقال: كان جرير يخدمنى وهو أكبر

منى (أخرجه الشيخان). كما روى عنه قيس بن أبى حازم وهمام بن الحارث والشعبى، وزباد بن علاقة وحفيده أبو زرعة بن عمرو بن جرير وبنوه عبيد الله والمنذر وإبراهيم. وما رواه عنه قيس بن حازم قوله: خرج علينا رسول الله ﷺ ليلة البدر فقال إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا لا تضامون فى رؤيته. (أسد الغابة ٧٣٠) وكان جرير رسول على إلى معاوية بدمشق بعد موقعة الجمل، يدعو إلى طاعته، فحبسه مدة طويلة ثم رده برق مطبوع غير مكتوب وبعث معه من يخبر بمنايذته فى خبر طويل مشهور. ونزل جرير الكوفة وابتنى بها داراً فى بجيلة ثم سكن قرقيساء حتى مات سنة إحدى أو أربع وأربعين، وقيل مات بالسرعة. (أسد الغابة ٧٣٠). وذكر الذهبى أن وفاته كانت عام ٥١ هـ بالسرعة فى ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة، وكانت هذه الولاية سنتين ونصف بعد زياد بن أبى سفيان (سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٨٤) وابن سعد).

الحارث بن حسان

الحارث بن حسان من بنى ذهل من بكر بن وائل. كان يسكن البادية، ووفد على النبي ﷺ أيام بعث عمرو بن العاص فى غزوة السلاسل. وروى له أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة أحاديث. روى الطبرانى عن سماك بن حرب قال: تزوج الحارث بن حسان وكانت له صحبة، وكان الرجل إذا عرس تخدر أياماً (لزم الخدر) فقيل له فى ذلك، فقال والله إن امرأة تمنعنى صلاة الغداة فى جمع لامرأة سوء. ولما فتح الأحنف خراسان بعث الحارث بن حسان إلى سرخس. (الإصابة ١٣٩٥).

عبد الله بن أبى أوفى الأسلمى

اسم أبى أوفى علقمة بن خالد، له ولأبيه صحبة، شهد الحديبية وكان من أصحاب الشجرة وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكانت أسلم - قوم عبدالله - ثمن المهاجرين يومئذ - وشهد خيبر وما بعدها من المشاهد مع النبي ﷺ. عن يزيد بن إسماعيل قال: رأيت على ساعد عبدالله بن أبى أوفى ضربة، فقال: ضربتها يوم حنين، فقلت: أشهدت حيناً؟ قال نعم وقبل ذلك. وفى الصحيح عنه قال: غزوت مع النبي ﷺ ست غزوات (أو سبع غزوات) ناكل الجراد. ولم يزل بالمدينة حتى قبض رسول الله فخرج فى الفتوح ثم تحول بعد ذلك إلى الكوفة فأقام بها وابتنى بها داراً فى أسلم حتى توفي بين سنة سبع وثمانين أو ثمانين هجرية وقد ذهب بصره. (الاستيعاب ٢/ ٢٥٥، الإصابة ٤٥٥٥، أسد الغابة ٢٨٢٨، الطبقات الكبرى ٤/ ٣٦).

عدي بن حاتم الطائي من أبطال حروب الردة والفتوح. هو عدي بن حاتم بن عبدالله بن سعد بن حشر بن امرئ القيس بن عدي بن أخزم بن أبي أخزم بن ربيعة بن جروّل بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء بن أد بن زيد بن كهلان. ويكنى أبو طريف، وقيل أبو وهب، وأبوه حاتم هو الجواد الموصوف بالجود والكرم الذي يضرب به المثل. أسلم سنة ٩هـ، وتوفي سنة ٦٨، كان سيداً شريفاً في قومه، خطيباً حاضر الجواب فاضلاً كريماً معظماً عند قومه وعند غيرهم. وجه رسول الله عليه السلام لهدم الفلس صنم طيء، ففر عدي إلى الشام وأسرت أخته سقانة بنت حاتم، فأتى بها على إلى النبي ﷺ. فقالت له: «يا محمد، هلك الوالد وغاب الرافد، فإن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب، فإن أبي سيد قومه، كان يفك العاني ويحمي الذمار ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويفشي السلام، ولم يطلب إليه طالب قط حاجة فردّه، أنا ابنة حاتم الطائي». فقال النبي: «يا جارية هذه صفة المؤمن. لو كان أبوك إسلامياً لترحمتنا عليه. خلوا عنها فإن أباه كان يحب مكارم الأخلاق» (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ١/ ٧٣). وأكرمها النبي ووصلها، فغادرت المدينة وأتت عدياً فحسنت له أن يسلم فأتى المدينة في شعبان سنة سبع أو تسع أو عشر وكان نصرانياً.

قال عدي: «أتيت النبي ﷺ في المسجد فقال الناس: هذا عدي بن حاتم، وجئت بغير أمان ولا كتاب. وكان قبل ذلك قال: إني لأرجو الله أن يجعل يده في يدي، فقام فأخذ بيدي، فلقيته امرأة وصبي معها فقالا إن لنا إليك حاجة، فقام معها حتى قضى حاجتهما ثم أخذ بيدي حتى أتى داره فألقت إليه الوليدة وسادة فجلس عليها وجلست بين يديه. فقال: «هل تعلم من إله سوى الله؟» قلت: لا. ثم قال: «هل تعلم شيئاً أكبر من الله؟» قلت: لا. قال: «فإن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون». (رواه أحمد والترمذي عن عباد بن حبيش الكوفي عن عدي).

وفي حديث آخر قال: «لما بعث النبي ﷺ كراهته كراهية شديدة فانطلقت حتى كنت في أقصى الأرض مما يلي الروم، فكرهت مكاني أشد من كراهته فقلت: لو أتيتُه فإن كان كاذباً لم يخف علي وإن كان صادقاً أتبعه. فأقبلت فلما قدمت المدينة استشرفتني الناس فقالوا: عدي بن حاتم. فأتيتُه فقال لي: «يا عدي أسلم تسلم» قلت إن لي ديناً. قال: «أنا أعلم بدينك منك» قلت: «أنت أعلم بديني مني؟» قال نعم مرتين أو ثلاثة، قال: «ألم ترأس قومك؟» قلت

بلى. قال: «ألمست تأكل المربع؟» (المربع ربع غنيمة الحرب كان يأخذها رئيس القوم لنفسه) قلت بلى. قال: «فإن ذلك لا يحل لك في دينك» قال: فنضضت (حركت لساني في فمي). ثم قال: «أسلم تسلم. قد أظن أنه إنما يمنعك غضاضة تراها من حولي وأنت ترى الناس علينا إلباً واحداً». ثم قال: «هل أتيت الحيرة؟» قلت لم أتتها وقد علمت مكانها. قال: «يوشك أن تخرج الطعينة منها بغير جوار حتى تطوف بالبيت، ولتفتحن علينا كنوز كسرى بن هرمز». فقلت كسرى بن هرمز؟! قال: «نعم، وليفيضن المال حتى يهم الرجل من يقبل صدقته». قال عدي: فرأيت اثنتين، الطعينة، وكنت في أول خيل أغارت على كنوز كسرى وأحلف بالله لتجيئن الثالثة. (أحمد والبغوي في معجمه وغيرهما).

وأخرج الحديث من وجه آخر قال عدي: «بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل. فقال: يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قلت لم أرها وقد أنبت عنها. قال فإن طالت بك حياة لترين الطعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله. فقلت - فيما بيني وبين نفسي - فأين دُعَا طيء الذين قد سعروا البلاد». (البخاري - شرح الكرماني ٢/ ١٧٨).

أقطعه عثمان بن عفان الروحاء مما كان من صوافي كسرى أو من أرض الجالية (فتوح البلدان ٣٣٦) وقد نزل الكوفة وابتنى بها داراً في طيء. ولم يزل مع علي بن أبي طالب، وشهد معه الجمل وصفين، ففقت عينه يوم الجمل، ثم شهد معه النهروان. ومات بالكوفة زمن المختار بين عام ٦٧ و٦٩ وهو ابن مائة وعشرين عاماً. وإذ فقد كان فيما بين الثانية والستين والرابعة والستين، حين خرج مع خالد لفتح العراق.

لما كان زمن عمر بن الخطاب قدم عليه عدي، فلما دخل عليه كأنه رأى منه شيئاً أو جفاء فقال: «يا أمير المؤمنين ما أظنك تعرفني» قال: «كيف لا أعرفك، أكرمك الله بأحسن المعرفة. وأول صدقة بيضت وجه أصحاب رسول الله صدقة طيء؟ أعرفك والله. آمنت إذ كفروا وأقبلت إذ أدبروا ووفيت إذ غدروا» فقال: حسبي يا أمير المؤمنين حسبي. وعن ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ: أربعة سادة في الإسلام، بشر بن هلال العبدي وعدي بن حاتم وسراق بن مالك المدلجي وعروة بن مسعود الثقفي. وقال عدي: ما دخلت وقت صلاة حتى اشتاق إليها. وقال: ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء. ولما أسن استأذن قومه في طاء يجلس عليه في ناديهم وقال: أكره أن يظن أحدكم أنني أرى لي عليه فضلاً، ولكني قد كبرت ورق عظمي (الذهبي). ولما سكن الكوفة أرسل الأشعث بن قيس إلى عدي يستعير

منه قدور حاتم، فملأها وحملها الرجال إليه، فأرسل إليه الأشعث: إنما أردناها فارغة! فأرسل إليه عدى: إنا لا نغيرها فارغة. وكان عدى يفت الخبز للنمل ويقول إنهن جارات ولهن حق. (أسد الغابة ٤٤٤ و ٣٦٠٥ - الاستيعاب ١٤٠ / ٣ و ٤٥٨ - الإصابة ٥٤٧٧ - ٢٤٣٣ - سير أعلام النبلاء)، (وللمؤلف كتاب عن عدى بن حاتم).

عمير بن سعد الأنصاري

هو عمير بن سعد بن عبيد الأوسى الأنصاري اشترك في الفتوح، وله ذكر في غزوة تبوك، وكان مع المسلمين في الغزوة طائفة من المنافقين، منهم: الجلاس بن سويد الصامت زوج أم عمير بن سعد، فقال الجلاس في بعض حديثه: «والله لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير» فقال له عمير وكان يتيماً في حجره: «فأنت شر من الحمير ورسول الله ﷺ الصادق وأنت الكاذب» فقال له الجلاس: «اكتمها علي يا بني» فقال: «لا والله» ونمى بها إلى رسول الله ولم يكتمها، وكان لعمير كالأب ينفق عليه. ودعا رسول الله الجلاس فعرفه بما قال عمير، فحلف الجلاس أنه ما قال، فنزلت فيه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ.. إِلَى قَوْلِهِ.. فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾. فأخذ النبي بأذن عمير وقال: «وفت أذنك يا غلام وصدقك ربك». فقال الجلاس: «أتوب إلى الله». استتب لى ربي فيأني أتوب إلى الله وأشهد لقد صدق» وراجع البفقة عليه توبة منه، فما زال عمير منها في علياء بعد وما سمع من الجلاس شيئاً يكرهه. وكان يقال لعمير نسيج وحده، غلب ذلك عليه وعرف به. وكان من الزهاد الصالحين. كان عمر يقول: «وددت لو أن لى رجلاً مثل عمير بن سعد أستعين بهم على أعمال المسلمين». شهد فتوح الشام واستعمله عمر على حمص إلى أن مات، وتوفي في خلافة عمر أو عثمان أو معاوية. قال ابن عمر لعبدالرحمن بن عمير بن سعد: «ما كان بالشام أفضل من أبيك». وروى الحديث عن النبي ﷺ. (الاستيعاب ٤٧٩ / ٢ - الإصابة ٦٠٣٨).

عياض بن غنم

عياض بن غنم بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن وهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر وهو قريش. أسلم قبل الحديبية وشهداها، وهاجر إلى المدينة فكان من الصحابة المهاجرين. وهو ابن عم أمين الأمة أبي عبيدة عامر ابن الجراح، ويقال: إنه كان ابن امرأته. وكان عياض شريفاً في قومه، ذكره ابن الرقيات فيمن ذكر من أشرف قريش وقال:

عياض وما عياض بن غنم كان من خير من أجن النساء وكان صالحاً سمحاً، يقال له زاد الراكب لأنه كان يطعم رفيقته ما كان عنده، وإذا كان مسافراً أثرهم بزاده فإن نفذ نحر لهم جملة.

في العام السادس من الهجرة نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ (سورة الممتحنة، الآية: ١٠) وكانت زوجته كافرة فطلقها.

وقد انتقل عياض من العراق إلى الشام مع خالد بن الوليد وشهد اليرموك قائداً لكردوس من كراديس الميسرة. ثم استمر في فتوح الشام، فتح أبو عبيدة بن الجراح حلب، وكان عياض قائد مقدمته، وطلب أهل حلب الصلح، فكان عياض الذي صالحهم بالأمان على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها، باستثناء موضع المسجد، فأنفذ أبو عبيدة صلحه. (فتوح البلدان ٣٩٤). وسار أبو عبيدة يريد قورس وعلى مقدمته عياض، فتلقيه راهب من رهبانها يطلب الصلح عن أهلها فبعث به إلى أبي عبيدة وهو بين جبرين وتل إعزاز فصالحه. وأتى أبو عبيدة حلب الساجور وقدم عياضاً إلى منبج ثم لحقه، وقد صالح أهلها على مثل صلح انطاكية، فأنفذ أبو عبيدة ذلك، ثم بعث عياضاً إلى ناحية دُوك ورعبان فصالحه أهلها على مثل صلح منبج، واشتراط عليهم أن يبحثوا عن أخبار الروم ويكتبوا بها المسلمين، (فتوح البلدان ٤٠٣).

وروى البخاري، أنه لما توفي أبو عبيدة بن الجراح استخلف ابن خاله أو ابن عمه عياض بن غنم أحد بنى الحارث بن فهر فأقره عمر وقال: «ما أنا بمبدل أميراً أمره أبو عبيدة».

ثم أمر عمر يزيد بن أبي سفيان على الشام ثم معاوية من بعده حين أمر عياضاً بغزو الجزيرة، فالجزيرة كلها فتوح عياض. وبعض الرواة يذهب إلى أن عياضاً خرج إليها من الشام وبعضهم يذهب إلى أن ذلك كان من العراق. فتح عياض الرها فصالحوه على أن لهم هيكلمهم وما حوله وعلى ألا يحدثوا كنيسة إلا ما كان لهم، وعلى معاونة المسلمين على عدوهم، فإن تركوا شيئاً مما شرط عليهم فلا ذمة لهم. ثم دخل أهل الجزيرة فيما دخل فيه أهل الرها. وفي رواية الواقدي، أنه سار إلى الجزيرة يوم الخميس للنصف من شعبان ١٨ هـ في خمسة آلاف، وعلى مقدمته ميسرة بن مسروق العيسى، وعلى ميمنته سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي وعلى ميسرته صفوان بن المعطل السلمي. وبلغت طليعة عياض إلى الرقة فأغاروا على حاضر كان حولها للعرب وعلى قوم من الفلاحين، فأصابوا مغنماً وهرب من نجا منهم فدخلوا مدينة

الرقعة. واقبل عياض حتى نزل باب الرها وهو أحد أبوابها في تعبئة، فرمى أهلها المسلمين ساعة حتى جرح بعضهم فتأخر عنها لئلا تبلغه حجارتهم وسهامهم، وركب فطاف حول المدينة ووضع على أبوابها روابط ثم رجع إلى عسكره، وبث السرايا فجعلوا يأتون بالأسرى من القرى وبالأطعمة الكثيرة وكانت الزروع مستحصدة، ومضت خمسة أيام أو ستة وهم على ذلك ثم ارسل بطريق المدينة إلى عياض يطلب الأمان، فصالحه عليه لجميع أهلها وأموالهم ومدينتهم وعلى أن الأرض للمسلمين، فأقرها عياض في أيدي أهلها على الخراج، ودفع منها ما لم يرد أهل الذمة ورفضوه إلى المسلمين على العشر ووضع عليهم الجزية ديناراً على كل رجل في كل سنة، وأخرج النساء والصبيان وجعل مع الدينار اقفضة من قمح وشيئاً من زيت وخل وعسل. ثم فتحوا أبواب المدينة وأقاموا للمسلمين سوقاً على باب الرها وكتب لهم كتاباً وختمه بختمه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عياض بن غنم أهل الرقة يوم دخلها. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم، لا تخرب ولا تسكن إذا أعطوا الجزية التي عليهم ولم يحدثوا مغيلة. وعلى أن لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يظهرها ناقوساً ولا باعوثاً ولا صلياً. شهد الله وكفى بالله شهيداً».

واستمر عياض سائراً في فتوحه حتى أتم فتح الجزيرة. وقال بعضهم: إنه مات بالشام سنة عشرين وهو ابن ستين سنة، يعني أنه قد كان جاوز الخمسين بعامين في عام ١٢ هـ. وقال الطبري: كانت عنده أم الحكم بنت أبي سفيان.

غالب بن عبد الله

هو غالب بن عبد الله بن مسعر الليثي من بني كنانة إخوة قريش. كانت منازلهم إلى الغرب من يشرب، بينها وبين البحر. وكان من كبار الصحابة الذين اعتمد عليهم رسول الله ﷺ في عملياته الحربية. بعثه في بعث في العام الثاني للهجرة. وفي السنة السابعة، قال يسار مولى رسول الله: «يا رسول الله إني أعلم غرة من بني عبد بن ثعلبة، فأرسل معه غالب بن عبد الله في مائة وثلاثين رجلاً حتى أغاروا على بني عبد، فاستاقوا النعم والشاء وحذروها إلى المدينة» (الطبري ٣/ ٩٩).

وفي صفر من العام الثامن أرسله في سرية إلى الكديد في بضعة عشر رجلاً حتى إذا كانوا بقدديد لقوا الحارث بن مالك وهو ابن البرصاء الليثي - من قوم غالب - فأخذوه. قال: «إنما

جئت لأسلم. قال غالب: إن كنت إنما جئت مسلماً فلن يضرك رباط يوم وليلة، وإن كنت على غير ذلك استوثقتنا منك، فأوثقه رباطاً وخلف عليه رويجلاً أسود وقال له: امكث معه حتى نمر عليك، فإن نازعك فاحتز رأسه. ثم مضوا حتى اتوا بطن الكديد فنزلوا بعد العصر، فلما ذهبت عتمة من الليل شنوا عليهم الغارة فقتلوا واستاقوا النعم وخرج صريخهم يطلب الغوث، وعاد غالب وسريته إلى الحارث وصاحبه فأخذوهما معهما. ثم ادركهم ما لا قبل لهم به من غياث الناس، حتى إذا لم يكن بينهم إلا بطن الوادي من قديد جاء سيل شديد فحال بينهم، والقوم ينظرون إلى غالب يذهب بما غنم. وكان شعارهم في تلك الليلة أمت أمت (الطبري ٣/ ١٠١). وفي نفس الشهر أرسله النبي في سرية على مائتي رجل إلى بني مرة، فبعث الطلائع فأعلموه خبرهم، فأغار عليهم وقتل مقاتلتهم وساق النعم والشاء والسبي، فكانت سهامهم عشرة أبعرة لكل رجل أو عدل ذلك من الغنم كل جزور بعشرة وقدموا المدينة. وكان معه أسامة بن زيد فأصاب مرداس بن نهيك حليفاً لهم من الحرة من جهينة. قال أسامة: لما غشيناه قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فلم ننزع عنه حتى قتلناه، فلما قدمنا على رسول الله أخبرناه فقال: يا أسامة من لك بلا إله إلا الله (الطبري ٣/ ٩٩). كذلك خرج غالب على سرية من عشرين إلى العرنيين. (الاستيعاب ٢/ ٣٦١ - الإصابة ٣٦٠ - ٦٩٠٦ - ٧٨٩٤).

فرات بن جياح العجلي

هو فرات بن حيان بن ثعلبة بن عبد العزى بن حبيب بن حبة بن ربيعة ابن صعيب بن عجل من بكر بن وائل. كانت منازلهم من البحرين إلى صحراء الأبله إلى صحراء الحيرة إلى الأنبار إلى هيت من صحراء العراق، فكانوا رحلاً بين ذلك. وكان حليفاً لبني سهم من قريش، وكان عينا لأبي سفيان في حروبه كما كان دليلاً لتجارات قريش. قال ابن حبان: «كان فرات من أهدي الناس بالطريق». وهذا يعني دقة ملاحظته وشدة ذاكرته واستيعابه ولياقته البدنية لذلك الترحال الطويل. ولما وقعت وقعة بدر خافت قريش بعدها أن تسلك طريقها التي كانت تسلك إلى الشام والتي كانت تمر قريباً من المدينة. قالت قريش: «قد عور علينا محمد متجربنا وهو على طريقنا». وقال أبو سفيان وصفوان بن أمية: «إن أقمنا بمكة أكلنا رءوس أموالنا». فقال زمعة بن الأسود: «أنا أدلكم على رجل يسلك بكم (الطريق) النجدية، لو سلكها مغمض العينين لاهتدي». قال صفوان: «من هو؟ حاجتنا إلى الماء قليل إنما نحن شاتون» قال:

«فرات بن حيان». فدعوا فاستأجراه، فخرج بهم في الشتاء فسلك بهم على ذات عرق، ثم خرج بهم على غمرة. وانتهى خبر العير إلى النبي ﷺ، وفيها مال كثير وآنية من فضة حملها صفوان. فبعث النبي زيد بن حارثة في سرية فاعترض القافلة وظفر بالعير وأفلت أعيان القوم، فكان مقدار الخمس عشرين ألفاً، فأخذه رسول الله وقسم الأربعة أخماس على السرية وأتى بفرات بن حيان أسيراً. ف قيل له إن أسلمت لم يقتلك رسول الله ﷺ. فلما دعى به إلى رسول الله أسلم فأرسله (الطبرى ٥/٣).

ويبدو أن فراتاً رحل عن المدينة، إذ نجد له ذكراً آخر أنه أتى به إلى النبي ﷺ يوم الخندق وكان عيناً للمشركين فأمر بقتله فقال: «إني مسلم» فقال: «إن منكم من نتألفه على الإسلام، وإن منكم رجالاً نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حيان» (أبو داود والبخارى في التاريخ). وكان فرات ممن هجا النبي ثم مدحه فقبل مدحه.

ثم نجد فراتاً في جمادى الأولى من العام الثامن للهجرة دليلاً لسرية زيد بن حارثة لاعتراض تجارة قريش إلى العراق بمكان يسمى العيص على أربع ليلال من المدينة. وقد هاجر فرات إلى النبي ﷺ وحسن إسلامه. ويروى عدى ابن حاتم الطائي، أن رسول الله ﷺ أقطع فرات بن حيان أرضاً باليمامة تغل أربعة آلاف ومائتين (فتوح البلدان ٢٧٥) وأنه حسن إسلامه وفقه في الدين.

وذكر سيف في الفتوح عن أحمد بن فرات بن حيان قال: خرج أبو هريرة وفرات بن حيان والرجال بن عنفوة من عند النبي ﷺ فقال: «لنرس أحدهم في النار أعظم من أحد وإن معه لقفا غادر». قال فبلغنا ذلك فما آمنا حتى صنع الرجال ما صنع ثم قتل، فخر أبو هريرة وفرات بن حيان ساجدين شكراً لله عز وجل - وكان الرجال ارتدوا ففتن بمسيلمة وقتل معه كافراً. (الاستيعاب ٣/١٩٧ - الإصابة ٦٩٦٦). وقد بعث النبي فراتاً إلى ثمامة بن اثال في قتل مسيلمة وقتاله عام ١١هـ. ويمر بنا ذكر كثير لفرات في فتوح العراق. وقد نزل الكوفة وابتنى بها داراً في بني عجل وكان له بها عقب، وأقطع أرضاً بالبحرين.

القحقاء بن عمرو التميمي

للقحقاء بن عمرو التميمي في فتوح العراق والشام تاريخ زاهر وصفحات مشرفة، (أسلم سنة ٩هـ). وقد اعتمد عليه أبو بكر في حروب الردة، فأرسله على سرية للقضاء على ردة بني كعب، وكانت مع هوازن وسليم وعامر، فقال له: «يا قحقاء، سر حتى تغير على علقمة

بن علاثة لعلك أن تأخذه لى أو تقتله، واعلم أن شفاء النفس الخوض فاصنع ما عندك». فخرج في تلك السرية حتى أغار على الماء الذي عليه علقمة، وكان لا يبرح أن يكون على رجل فسابقهم على فرسه فسابقهم مراكضة وأسلم أهله وولده، فانتسف القعقاع امرأته وبناته ونساءه ومن أقام من الرجال، فاتقوه بالإسلام. فقدم بهم على أبي بكر، فوجد ولده وزوجته أن يكونوا مالأوا علقمة، وكانوا مقيمين في الدار فلم يبلغه إلا ذلك، وقالوا ما ذنبنا فيما صنع علقمة من ذلك، فأرسلهم. ثم أسلم علقمة فقبل منه أبو بكر.

وكان القعقاع أحد فرسان العرب وشعرائهم. قال: «قال لى رسول الله ﷺ: «ما أعددت للجهاد؟» قلت: طاعة الله ورسوله والخيال. قال: «تلك الغاية». وفي رواية عن سيف يضعفها أهل الحديث، أنه شهد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. وأنشد سيف من شعر القعقاع قوله:

ولقد شهدت البرق برق تهامة يهدى المناقب راكباً لعيار
فى جند سيف الله سيف محمد والسابقين لسنة الأحرار

وكان ممن خرج من العراق مع خالد إلى الشام وشهد اليرموك وفيها يقول:

يدعون قعقاعاً لكل كربة فيجيب قعقاع دعاء الهاتف

وكان القعقاع قد أسلم حين أسلمت قبيلته تميم، وقدم وفدها على النبي عام ٩هـ بعد غزوة تبوك.

وفى فتح دمشق كان من الأبطال المعدادين الذين تسلقوا أسوار دمشق مع خالد بن الوليد على أجنال أعدوها لذلك، ونزل معه إلى داخل الحصن فقاتلوا حراس أبوابه حتى فتحوها للمسلمين. وعاد القعقاع من الشام إلى العراق فأدرك القادسية وله فيها من الأثر ما سوف نعرض له فى بحثنا تلك الموقعة، ثم كان له دوره فى فتح المدائن والفتوح بعدها. وكما كان للقعقاع تاريخه الناصع فى ميادين الحرب كذلك كان له ماضيه فى ميادين السياسة. فكان له جهده إبان الفتنة الكبرى لتهديتها. فبعد وصول على بن أبى طالب إلى ذى قار عام ٣٦هـ فى جمادى الآخرة، قام القعقاع بمساع للتفاهم بينه وبين معسكر عائشة واستجاب أصحاب الجمل للقعقاع وأذعن على لذلك، وكان القعقاع قد انتبه إلى وجود قتلة عثمان فى معسكر على وأنهم لما صاروا فى العراق صاروا فى معقل قوتهم وعنفوية قبائلهم، وأن قتلهم يفتح باباً لا يستطيع على سده بعد ذلك. وتحدث القعقاع بذلك إلى أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير، فعذروا على ما وافقوا على التفاهم معه على ما يخرجهم من هذه الفتنة، فكان

القعقاع يرى أن موقف على موقف ضرورة. وفي عهد معاوية أخرج من الكوفة المستغربين في أمر على، فأخرج القعقاع بن عمرو إلى إيلياء بفلسطين، وتوفي عام ٤٠هـ - ٦٦٠م (الطبري ٢٣٢ و ٢٤٠ - الإصابة ٧١٢٩ - الاستيعاب ٣/ ٢٥٢).

محمد بن مسلمة

ولد قبل البعثة باثنتين وعشرين سنة، وقد أسلم مبكراً قبل سعد بن معاذ على يدي مصعب بن عمير، وأخى النبي بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح. وصحب النبي أولاده جعفر وعبدالله وسعد وعبد الرحمن وعمرو، وله غيرهم محمود. شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وكان محمد بن مسلمة اسمر شديد السمرة، طويلاً معتدلاً، أصلع ذا جثة. وكان من فضلاء الصحابة وهو من الذين اغتالوا كعب بن الأشرف اليهودي في حصنه في عملية فدائية جريئة مشهورة عام ٣هـ. وقد استخلفه النبي ﷺ على المدينة في بعض غزواته، قيل في غزوة قرقرة الكدر وقيل في عام تبوك.

وفي فتح خيبر رمى مرحب اليهودي محموداً أخا محمد بن مسلمة برحى من فوق حصن ناعم فندرت عيناه وأصابته رأسه فهشمت البيضة رأسه وسقطت جلدة جبينه على وجهه، فردها رسول الله وعصبتها، فمكث ثلاثة أيام ثم مات. فقال النبي لابن مسلمة: «غداً يقتل قاتل أخيك»، فكان كذلك، قتله على بن أبي طالب. وفي عام ٧هـ خرج رسول الله ﷺ إلى عمرة القضاء وساق ستين بدنة وحمل السلاح والبيض والرماح واستعمل عليه بشير بن سعد، وقاد مائة فرس وجعل على الخيل محمد بن مسلمة.

ولما رجع جيش أسامة وخرج أبو بكر إلى ذي قصة ومعه المهاجرون والأنصار وقد عقد اللواء لخالد بن الوليد، ترك محمد بن مسلمة بالمدينة ليستحث الناس حتى يتلاحقوا من خلفه.

وقصة شهادته في قضية الشيماء بنت نفيلة الأسدية التي مرت بنا في الصفحة ٢٠٩ تكشف لنا عن وجوده في جيش خالد في العراق.

ولاه عمر بن الخطاب على صدقات جهينة. وكان يستعمله دائماً للأمور المعضلة في البلاد، فكان إذا أحب أن يؤتى بالأمر كما يريد بعث محمد بن مسلمة، فكان رسوله في الكشف عن سعد بن أبي وقاص حين بنى القصر بالكوفة، فلما وصل إلى الباب أخرج زنده فاستورى ناراً ثم أحرق الباب. وهو الذي أرسله عمر إلى عمرو بن العاص بمصر فقاسمه ماله.

وكان من الذين تسلقوا حصن بابل يون مع الزبير بن العوام في فتح مصر.

اعتزل الفتنة واتخذ سيفاً من خشب وجعله في جفن، وقال: «أعطاني رسول الله ﷺ سيفاً، فقال: قاتل به المشركين ما قاتلوا، فإذا رأيت أمتي يضرب بعضهم بعضاً فائت به أحداً (الجبيل) فاضرب به حتى ينكسر ثم أجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية». ففعل، ولم يشهد الجمل ولا صفين وأقام بالربذة بعد مقتل عثمان، وكان الذين اعتزلوا مثله في الفتنة سعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمرو، وأسامة بن زيد. لم يستوطن غير المدينة ومات بها عام ثلاث وأربعين عن سبع وسبعين عاماً، وكان له من الولد عشرة ذكور وست إناث. وقيل قتله أهل الشام، دخل عليه رجل من أهل الأردن وهو في داره فقتله.

مراجع البحث

- الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام،
إمتاع الأسماع (طبعة ١٩٤١)
الأخبار الطوال،
الاستيعاب في أسماء الأصحاب (١٩٣٩)
الإصابة في تمييز الصحابة (١٩٣٩)
أسد الغابة في معرفة الصحابة
أنساب الأشراف
أنباء الغمر بأبناء العمر
الآثار الباقية عن القرون الخالية
آثار البلاد وأخبار العباد
أحسن التقاسيم
إيران في عهد الساسانيين (مترجم)
أيام العرب في الجاهلية
الأغاني
الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه
البلدان
البلدان
البلدان
بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب
البداية والنهاية في التاريخ
البيان والتبيين
تاريخ الأمم والملوك
تاريخ اليعقوبي
تاريخ مختصر الدول
تاريخ حمزة الأصفهاني
تجارب الأمم والملوك
التاريخ الكبير
- البياسي.
المقريزي - لجنة التأليف والترجمة.
الدينوري - مكتبة المثنى - بغداد.
يوسف بن عبد الله القرطبي - التجارية
ابن حجر العسقلاني - التجارية
ابن الأثير. دار الشعب بالقاهرة.
البلاذري - دار المعارف بمصر.
الحافظ ابن حجر.
البيروني - أبو ریحان محمد بن أحمد.
القزويني - دار صادر - بيروت.
المقدسي - مطبعة بريل - ليدن.
آرثر كريستنسن
محمد أبو الفضل إبراهيم - الحلبي.
أبو الفرج الأصفهاني - دار الشعب
عبد القادر عودة - دار الكتاب العربي.
اليعقوبي - بريل، ليدن ١٨٩١.
عمرو بن بحر الجاحظ
ابن الفقيه الهمداني
محمود شكري الألوسي - دار الكتب العلمية.
أبو الفداء ابن كثير
الجاحظ - الخانجي بمصر والمثنى
الطبري - المطبعة الحسينية
اليعقوبي - دار صادر
ابن العبري
حمزة الأصفهاني
ابن مسكويه
ابن واضح

التاج	الجاحظ - الشركة اللبنانية للكتاب
تذكرة الحفاظ	الذهبي
تحفة النظار وعجائب الأسفار	ابن بطوطة - بولاق ١٩٣٨
تاريخ الأقباط (موسوعة)	زكي شنودة
تاريخ الجيوش (ترجمة - كمال دسوقي)	جورج كاستلان - الألف كتاب
تاريخ العرب القدامى	محمد فخر الدين
تاريخ الدول العربية من ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية	يوليوس فنهوزن - إدارة الثقافة العامة .
تاريخ الأسطول العربى	ياسين الحموى
تاريخ نصارى العراق	روفائيل أبو اسحق
تاريخ مدن العراق	يوسف رزق الله غنيم
تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي - دار الكتاب العربي ، بيروت
تاريخ مدينة دمشق	ابن عساكر .
تاريخ الكوفة	السيد حسين بن أحمد العراقي
تاريخ العرب	فيليب حتى
التاريخ السياسى للدولة العربية	د . عبد المنعم ماجد .
تاريخ العرب العسكرى	محمود الدرة .
تفسير القرآن العظيم	ابن كثير - الحلبي بمصر ١٩٤٨
الجغرافية التاريخية الإسلامية	محمد أحمد حسونة - منشأة المعارف - الإسكندرية
جغرافيا العراق الطبيعية	جاسم محمد الحلف
جغرافية العراق الحديث	هاشم السعدى
الجغرافيا العسكرية	الفريق طه الأشمى
جزيرة العرب	أنور الرفاعى ويسام كردى على
جزيرة العرب	حافظ وهبة
جغرافية شبه جزيرة العرب	عمر رضا كحالة .
الجامع لأحكام القرآن	القرطبي - دار الكتب المصرية
الجزيرة والخراج فى الإسلام	دانيث كنيث - دار الكتب المصرية
حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول	د . شكرى فيصل
خالد بن الوليد	الفريق طه باشا الهاشمى

خالد بن الوليد	صادق عرجون
الخراج	أبو يوسف
الخراج فى الدولة الإسلامية	محمد ضياء الدين الرئيس - مكتبة التراث .
الخراج وصناعة الكتابة	قدامة بن جعفر - Brill 1889
خريطة العراق الأثرية	مديرية الآثار العراقية ببغداد
خريطة قضاء النجف	» » » خريطة خاصة
خريطة العالم العربى	مصلحة المساحة المصرية ١٩٤٥
خلاصة تذهيب تهذيب الكمال	الصفى الخرزجى - مكتبة المطبوعات الإسلامية . بيروت
الخلفاء الراشدون	عبد الوهاب النجار
الخنساء	د . محمد جابر عبدالعال الحينى
الدرر فى اختصار المغازى والسير	ابن عبد البر - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
ديوان الشماخ بن ضرار	- دار المعارف .
الرحلة	ابن جبير - دار التحرير للطبع والنشر ، دار الكتاب اللبنانى - بيروت
رسالة الجهاد	حسن البنا - دار الكتاب العربى
الرسول القائد	حسن البنا - دار الفكر الإسلامى .
السلام فى الإسلام	عبد الوهاب خلاف - المطبعة السلفية
السياسة الشرعية	عبد الرحمن تاج - دار التأليف
السياسة الشرعية والفقه الإسلامى	لواء محمود شيت خطاب - دار مكتبة الحياة ببغداد .
سير أعلام النبلاء	الذهبي . سلسلة ذخائر العرب - ١٩ - دار المعارف .
سيف الله خالد	محمد فرج - دار الفكر العربى
شرح السير الكبير (١٩٥٧)	السرخسى - جامعة الدول العربية
الشاهنامة	الفردوسى
الشماخ بن ضرار	دار المعارف
شعر الفتح الإسلامية فى صدر الإسلام	النعمان عبدالمتعال القاضى - القومية
صبح الأعشى فى صناعة الإنشا	القلقشندي - تراثنا .
صحيح البخارى	شرح الكرماتى - المطبعة المصرية
الصدىق أبو بكر	محمد حسين هيكل - مطبعة مصر
الطبقات الكبرى	ابن سعد - مطبعة بريل . ليدن .

الطبري	محمد أحمد الخوفى - أعلام العرب ١٣
طليحة بن خويلد	أحمد عادل كمال
العبر وديوان المبتدأ والخبر	ابن خلدون - دار الكتاب اللبناني
عيون الأخبار	ابن قتيبة الدينورى - دار الكتب المصرية
عيون الأنباء	ابن أبى أصيبعة - دار الثقافة - بيروت .
عبقريه خالد	عباس محمود العقاد - دار الهلال .
عدى بن حاتم الطائى	أحمد عادل كمال
العقد الفريد	ابن عبدربه - لجنة التأليف والترجمة والنشر .
عشائر العراق القديمة - البدوية والحاضرة	عباس الفراوى
غرر أخبار ملوك الفرس	الثعالبي
الفاروق عمر	محمد حسين هيكمل
الفاروق القائد (عمر بن الخطاب)	لواء محمود شيت خطاب - دار الشعب
الفتح العربى للعراق وفارس	محمد فرج - دار الفكر العربى
فتوح البلدان	البلاذرى - نشر د . صلاح الدين المنجد
الفتوح الإسلامية بعد عهد الفتوحات النبوية	أحمد بن زينى دحلان
الفروسية العربية فى العصر الجاهلى	سيد حنفى - سلسلة اقرأ رقم ٢١١
الفهرست	ابن النديم - دار المعرفة - بيروت .
فوات الوفيات	الكتبى
الفن الحربى فى صدر الإسلام	عبدالرؤوف عون - دار المعارف
قادة الفتح العربى للعراق وفارس	لواء محمود شيت خطاب - دار القلم
القاموس المحيط	
القبائل	أبو عمر يوسف بن عبدالله
قلب العراق	أمين الريحانى
قلب جزيرة العرب	فؤاد حمزة
القرآن الكريم	
الكامل فى التاريخ	ابن الأثير
الكامل فى الأدب	المبرّد - مطبعة التقدم العلمية
لسان الميزان	الحافظ ابن حجر - مؤسسة الأعلمى - بيروت .
مروج الذهب	المسعودى - المكتبة التجارية

المقريزى - دار الكتاب اللبنانى - بيروت .	المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
موسى بن عقبة الأسدى	الغازى
الذهبي	ميزان الاعتدال
ابن خرداذبة - عبدالله 1889 Brill	المسالك والممالك
الاصطخرى - سلسلة تراثنا	المسالك والممالك
أبو عبدالبكرى الأندلسى	المسالك والممالك
ياقوت الحموى - دار صادر	معجم البلدان
ابن سعيد المغربى	المغرب
ياقوت الحموى	معجم الأدياء
محمد رضا كحالة - دار العلم للملايين .	معجم قبائل العرب القديمة والحديثة
محمود صبحى وأحمد شوقى عبدالرحمن - مطبعة مصر .	معارك الشرق الأوسط
جورج كيرك George Kirk	موجز تاريخ الشرق الأوسط
محمد الخضرى - المكتبة التجارية	محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية
د . شكرى فيصل	المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول
محمد فرج - أعلام العرب ٣١	المثنى بن حارثة الشيبانى
ابن حزم الأندلسى - مطبعة الإمام	الخلجى
طه الهاشمى .	مفصل جغرافية العراق
مؤلف مجهول من القرن ١١	نهاية الأرب فى أخبار الفرس والعرب
ابن هشام الكلبي .	نسب الخيل
د . عبد الرحمن فهمى محمد ، سلسلة م . الثقافية ١٠٣	النقود العربية .
د . محمد حميد الله الحيدرى ابادى	الوثائق التاريخية فى عصر النبوة والخلافة الراشدة
ابن خلكان	وفيات الأعيان
الصفدى	الوافى بالوفيات
B. Lewis	The Arabs in History.
Edward Atiaoh	The Arabs.
Liddell Hart	Strategy of the Indirect Approach.
Grill	The Arab Conquest in Central Asia.
	Oxford Atlas.
	The University Atlas.

فهرس الخرائط والأشكال

الموضوع	رقم	صفحة
أولاً: الخرائط		
حرب ٤٨ في فلسطين	١	١٣
تعبئة القبائل	٢	٢٢
شبه جزيرة العرب	٣	٣٢
قبائل جزيرة العرب	٤	٣٣
مساكن القبائل من جزيرة العرب	٥	٣٩
منطقة الحيرة	٦	١٠٥
ساحل الخليج في عصر الفتح الإسلامي	٧	١٠٩
العراق	٨	١١٢
جيوش حروب الردة	٩	١٢٩
منطقة نجد	١٠	١٣٦
خطة أبي بكر لفتح العراق	١١	١٦٨
كاظمة	١٢	١٧٤
المذار	١٣	١٨٠
معركة الولجة	١٤	١٨٥
أليس وامغيشيا	١٥	١٨٨
فتح الحيرة	١٦	٢٠٠
سلطان المسلمين بالعراق ١٢ هـ	١٧	٢١٧
دومة الجندل	١٨	٢٢٣
فتح الأنبار	١٩	٢٢٨
سقوط عين التمر	٢٠	٢٣١
الحصيد والخنافس	٢١	٢٣٩

فهرس الأعلام^(١)

أ - المسلمون

أبر بكر الصديق ٢٠، ٢٢، ٥٣، ١٢٧، ١٢٨،	الأعور العبدى الشنى ٣٦١
١٣٠، ١٣١، ١٣٣-١٣٨، ١٤١، ١٤٦،	الأغر العجلي ٣٢٧
١٥٨، ١٦١، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٧،	الأقرع بن حابس التميمى ١٩، ٢٢٤-٢٢٦،
١٨٢، ١٩١، ١٩٢، ٢٠٤، ٢٢٤، ٢٢٥،	٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٧٤، ٢٨١،
٢٤٥، ٢٥٤-٢٥٩، ٢٧٥، ٢٨٩-٢٩١،	أكتل بن الشماخ العكلى ٣١٥
٣٠٥-٣٠٨، ٣١١، ٣١٣، ٣٢١، ٣٢٢،	أم فروة بنت أبي قحافة ٣٠٩
٣٠٧، ٢٩٩، ٢٩٧، ٣٠٧،	أبر عبيد بن مسعود الثقفى ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٧،
٣٠٨، ٣١٠، ٣١٣-٣١٦، ٣١٨، ٣٢٠،	أنس بن أوس الأنصارى الأوسى ٤٠٩
٣٢١، ٣٢٣-٣٢٨، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٤٦،	أنس بن عباس السلمى ٢١
٣٥٠،	أنس بن هلال النميرى ٣٥٣، ٣٥١
أبر الدرداء ٢٩٦،	أنيس بن عتيك الأنصارى ٣٣١
أبو عبيدة بن الجراح ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٨٩، ٢٩٢،	إياس بن قبيصة ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٤،
٣١٢، ٣٢١،	بسر بن أرطاة العامرى ٢٦٣
أحمد بن حفص بن المغيرة ٢٩١،	بسر بن أبى رهم الجهنى (أو الخشمى) ١٨٥،
أزداذ ٢١٦،	٢١٥، ٢٨١،
أسامة بن زيد بن حارثة ١٢٧، ١٢٨،	بشر بن رديح النعلبى ٣٣٣
أسعد بن حارثة الأنصارى الساعدى ٣٣٢،	بشير بن الخصاصية السدوسى ١٩٠، ٢١٢-٢١٤،
أسعد بن سلامة الأنصارى الأوسى ٣٣٢،	٢١٦، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٥٩، ٣٠٥،
أسماء ٢٤٠،	بشير بن سعد الأنصارى ٢١٨، ٢٣٢،
أسماء بنت عميس ٣٠٨،	ابن بطوطة ٢٤
أسود بن عبد الله ٢١٢،	البلاذرى ٢٢، ١١٨،
الأسود بن قطبة (أبو مفرز) التميمى ١٩٦،	ثابت بن شماس ٢١
الاصطخرى ٢٤،	ثابت بن عتيك الأنصارى ٣٣٢
أط بن أبى أطم التميمى (أو السعدى) ٣١٤، ٢٢٢،	ثابت بن قيس ١٣٣، ١٣٨،
أعبد بن فدكى السعدى ١٩، ٢٣٧، ٢٤١، ٢٤٢،	ثابت بن النعمان الأوسى ٣٣٢
٢٨١،	ثعلبة بن عمرو الأنصارى ٣٣٢

(١) عندما ترد هذه الإشارة (-) بين رقمين تعنى أن العلم مكرر فى الصفحات ما بين الرقمين.

٢٤٣	٢٢	معركة المصيخ
٢٤٧	٢٣	الثنى والزميل والرضاب
٢٦٥	٢٤	عبور السماوة
٢٧٤	٢٥	عمليات خالد بالعراق
٣١٧	٢٦	السقاطية - باروسما
٣٢٦	٢٧	ملحمة الجسر
٣٤٩	٢٨	البويب ١
٣٥٣	٢٩	البويب ٢
٣٥٤	٣٠	البويب ٣
٣٥٥	٣١	البويب ٤
٣٥٦	٣٢	البويب ٥
٣٥٧	٣٣	البويب ٦
٣٧٢	٣٤	الإغارة على سوق الخنافس وبغداد
٣٧٤	٣٥	سوق بغداد

ثانياً: الأشكال

٦٩	١	القوس
٧٠	٢	السهم
٧٢	٣	نموذج حلق متضافر
٩٠	٤	إشارات ضباط الفرق الفارسية
٩١	الحاشية	صورة طبرزين

ثمامة بن أثال ١٤١
 جابر بن بجير ١٨٧، ١٨٥
 جابر بن طارق الأحمسي ٢١٦
 الجارود بن المعل ١٤٠، ١٤١
 جبر بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي ٣٢٧
 ابن جبير ٢٤
 جرير بن عبد الله البجلي ٢٠، ١٤٦، ٢٠٨، ٢١٦، ٢١٣، ٢١٨، ٢٦٠
 جرير بن عبد الله الحميري ١٧٠، ٢١١، ٢١٢، ٢٤٥، ٢٥٥، ٢٦٠
 جعفر بن أبي طالب ١٥٧
 جندل العجلي ١٩١
 الحارث بن بلال المزني ٢٥٩
 الحارث بن الحباب الأنصاري ٣٣٢
 الحارث بن حسان ٢٥٩
 الحارث بن عتيك الأنصاري ٣٣٢
 الحارث بن عدي الأنصاري ٣٣٢
 الحارث بن عوف العبدي ١٤٢
 الحارث بن مرة الجهني ١٧٠
 الحارث بن مسعود الأنصاري ٣٣٢
 الحارث بن هشام بن المغيرة ٢٩٦
 حبيب بن ربيعة الثقفي ٣٣٣
 حبيب بن مسلمة الفهري ٢٦٣
 أبو حبيش بن ذي اللحية العامري ١٧١
 الحجاج بن ذي العنق الأحمسي ٢١٦، ٢٢٢
 أبو حذيفة بن عتبة ١٣٣، ١٣٨
 حذيفة بن محصن الغلفاني (البارقي) ١٢٩، ١٣٨
 حرملة بن مريطة التميمي الحنظلي ١٧٠، ١٧١
 خزيم بن أوس ٢٠٩
 حسكة الحبطي (أو الحنظلي) ٢٢٢

الربيع بن مطر التميمي ٢٦٠
 ربيعة بن عتيك ٢١٥
 ربيعة بن عسل ٢٢٢
 الزبرقان بن بدر التميمي السعدي ٢٣٠، ٢٣٦
 زحم بن الخصاصية ٢١٢
 زر بن عبد الله بن كليب التميمي ١٧٧
 زهرة بن حوية التميمي السعدي ١٤٦
 أبو زيد الأنصاري ٣٣٠
 زيد بن حارثة ١٥٧
 زيد بن الخطاب ١٣٣، ١٣٨
 زيد بن سراقه الأنصاري ٣٣٢
 زيد بن خالد الجهني ٥٩
 زيد بن ملحان الأنصاري ٣٣٢
 سالم بن مولى أبي حذيفة ٢١، ١٣٣، ١٣٨
 سالم بن نصر ١٧٤
 سبرة بن عمر التميمي العبدي ٣٨٥
 سعد بن عبيد الأنصاري ٣٠٨، ٣١٠
 سعد بن أبي وقاص ٦٧، ١٤٦، ١٦٣، ٢٩١
 سعيد بن سعيد بن العاص ٦٤
 سعيد بن مرة العجلي ١٨٥، ٢٨١، ٣٠٥
 سعيد بن النعمان القرشي ١٨١
 سلمان الفارسي ١٥٥
 سلمة بن أسلم الأنصاري ٣٣٢
 سلمى بنت خصفة التيمية ١٦٣
 سلمى بن القين التميمي ١٧٠، ١٧١
 سليط بن قيس الأنصاري ١٣٨، ١٣٩، ٣٠٨
 سويق بن حاطب الأنصاري ٢٠١
 سويد بن قطبة الدهلي ١٧١، ١٧٧، ١٨٢، ٢٧٤

سويد بن مقرن المزني ١٢٨، ١٢٩، ١٨٢، ٢١٤
 سيف بن عمر ١٨
 شيب بن ربيع التميمي ٣٤٥، ٣٤٨
 شجرة بن الأعز ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٤
 شرحبيل بن حسنة الكندي ١٢٩، ١٣٨، ٢٥٦
 شرحبيل بن السمط الكندي ٢٩٢، ٢٩٣
 شريح بن عامر بن قيس (من هوازن) ١٧٨، ١٨٢
 الصباح بن فلان ٢٤٧
 الشماخ بن ضرار القيسي ٦٨، ١٤٢
 صلاح الدين الأيوبي ١٣
 الصهباء بنت ربيعة العلبية ٢٤٧
 أبو ضبيعة ١٤٢
 ضرار بن الأزور الأسدي ١٣٤، ١٣٧، ١٣٩
 ضرار بن الخطاب الفهري ١٥٤، ٢٠١، ٢١٥
 ضرار بن مقرن المزني ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٥
 ضمرة بن غزية الأنصاري ٣٣٢
 الطبري ١٨، ١٩، ٢٣
 طريقة بن حاجز ١٢٩، ١٣٤، ١٣٥
 طلحة بن عبيد الله ٢٩٦، ٣٠٨
 طليحة بن خويلد الأسدي الفقعي ١٢٨، ١٣٣-

الحسن بن نيار ٣٨٥
 الحصين بن معبد التميمي ٣٨٥
 الحصين بن أبي الحر العبدي ٢٢٢
 الحكم بن مسعود الثقفي ٣٢٧
 حمزة بن عبد المطلب ١٣٨
 حنظلة بن الربيع التميمي الكاتب ١١٢، ٢١٢
 ابن حوقل ٢٤
 خالد بن سعيد ٦٤، ١٢٩، ٢٥٦، ٢٧٥
 خالد بن سنان الأوسي ٣٣٢
 خالد بن فلان الخزومي ١٣٨
 خالد بن هلال ٣٥٩
 خالد بن الوليد ١٤، ١٥، ٢١، ٢٢، ٥٢، ٦٧
 ١٢٣، ١٢٨، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٧-١٣٩
 ١٤٦، ١٤٩-١٦١، ١٦٧-١٧٠، ١٧٣-
 ١٧٨، ١٨٠-١٨٢، ١٨٥، ١٨٨، ١٨٩
 ١٩١، ١٩٢، ١٩٥، ١٩٦، ٢٠١، ٢٠٣-
 ٢١١، ٢١٣-٢١٩، ٢٢١، ٢٢٤-٢٣٨
 ٢٤٠-٢٤٩، ٢٥٣-٢٦١، ٢٦٧، ٢٧١-
 ٢٨٥، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٢، ٣٠٢، ٣٠٦
 ٣٠٨، ٣١١، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٢
 خالد بن الواشمة ٢٢٢
 ابن خرداذبة ٢٤
 خزيم بن أوس الطائي ٢٦١
 خزيم بن أوس الأنصاري ٣٣٢
 خصفة التيمي (حموالمثني بن حارثة) ١٤٢
 ابن خلدون ٢١، ٢٢، ٥٢
 دومة (امراة أبي عبيد) ٣٢٥
 رافع بن عميرة الطائي ١٧٤
 ربيع بن عامر ٣٤٥، ٣٤٨، ٣٥٨

١٧٤، ١٨١، ٢١٥، ٢٢٣، ٢٣٥، ٢٥٠،

٢٥٣، ٢٥٩، ٢٨٠، ٣١٦، ٣١٨، ٣١٩،

عامر بن عبد الأسود ١٤٢

عائذ بن معاذ الأنصاري ٣٣٣

عباد بن قتيبي الأنصاري ٣٣٢

عباد بن ملحان الأنصاري ٣٣٢

عبد بن عوف الحميري ١٦٩

عبد الرحمن بن أبي بكر ١٣٨

عبد الرحمن بن الأزور ١٣٤

عبد الرحمن بن عدى الأوسي ٢٣٢

عبد العزى بن أبي رهم بن قراءش ٢٤٤

عبد الرحمن بن مريع الأوسي ٢٣٢

عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي ٤٨٣، ٢٥٩

عبد الله بن حذاف ١٤١، ١٤٢

عبد الله بن زيد الأنصاري ٣٣١، ٣٨٥

عبد الله بن ذى السهمين الخنعمي ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥٨

عبد الله بن راحة ١٥٧

عبد الله بن صعصعة الخزرجي ٣٣٢

عبد الله بن مسعود الثقفي ٣٣٣

عبد الله بن قتيبي الأنصاري ٣٣٢

عبد الله بن مرثد الثقفي ٣٢٩، ٣٦٥

عبد الله بن مقرن المزني ١٢٨

عبد الله بن وثيمة النصرى ٢١٤، ٢٢٤

عبد الملك بن مروان ١١٧، ١١٨

عبدة بن الطيب ٤٥، ٣٠٣

أبو عبيد بن مسعود الثقفي ٢٩٧، ٢٩٩

٣٠٨، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٦، ٣٢١، ٣٢٥،

٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٤٦، ٣٥٠،

٣٥١

أبو عبيدة عامر بن الجراح ٢٥٦-٢٥٨، ٢٦٣،

٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٤

عتيبة بن النهراس العجلي ٢١، ١٤٢، ١٤٦،

١٧١، ٢١٥

عثمان بن طلحة ١٥٦

عدى بن حاتم الطائي ٢١، ٢٣، ١٣٣-١٣٥، ١٤٦،

١٧٠، ١٧٤، ١٨١، ٢٤٤، ٢٥٩، ٢٨١

عرفجة بن هرثمة البارقى ١٢٩، ١٣٨، ٣٤٣،

٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥٨، ٣٦١

عروة بن الجعد البارقى ٢٣٧، ٢٤١، ٢٤٢،

٢٨١

عروة بن زيد الخيل الطائي ٣١٨، ٣٢٩،

٣٥٨

عروة بن مسعود الثقفي ٣٢٩

عصمة بن عبد الله الضبي ٢٤٠، ٢٨١، ٣٤٤،

٣٤٨

العقاد ٢٧٢

عقبة بن قتيبي الأنصاري ٣٣٢

عكرمة بن أبي جهل ١٢٨، ١٣٨، ١٤٦، ١٥٤،

١٥٦، ٢٠١

العلاء بن الحضرمي ١٢٩، ١٤٠-١٤٣، ١٧٩

علي بن أبي طالب ٣٠٨

عمير بن الخطاب ٢٠، ٢٢، ٦٢، ١١٦، ١١٨،

١٣٦، ١٣٧، ١٤٥، ١٦٩، ٢٠١، ٢٤٥،

٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢٢، ٣٢٥

عمرو بن تغلب ٢١٢

عمرو بن سعيد ٦٤

عمرو بن العاص ١٢٩، ١٤٦، ١٥١، ١٥٤،

٢٠١، ٢٥٦، ٢٨٣، ٢٨٩، ٢٩٣

عمرو بن معاذ النعماني ٢٠١

عمرو بن معد يكرب الزبيدي ٦٤

عمرو بن الهيثم السلمي ٣١٥، ٣١٦

عمير بن رباب القرشي ٢٣٢

عمير بن سعد الأوسي ٢٥٩، ٣٩٨

عوم بن الكاهل الأسلمي ٢٣٤

عياض بن غنم ١٢٣، ١٦٨، ١٦٩، ٢١٩، ٢٢١،

٢٢٣، ٢٢٥، ٢٣٣، ٢٣٨، ٢٦٠، ٢٧٣،

٢٧٧

غالب بن عبدالله الليثي ٣٤٥، ٣٤٨، ٤٠٠

فاطمة بنت الوليد ٢٩٦

فوات بن حيان العجلي ٢١، ١٦٧، ٢١٧، ٢٥٩

أبر القاسم ٣٢٧

القاسم ٣١٥

قيث بن أشيم ٢٨٩

قرط بن جماح القيسي ٣٤٥، ٣٤٨، ٣٥٤

قطبة بن قتادة السدوسي ١٨٧، ٢٧٤

القعقاع بن عمرو التميمي ١٩، ٢١، ١٤٦،

١٦٩، ١٧٦، ١٨٦، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٥،

٢١٦، ٢٢٣، ٢٣٦-٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٦،

٢٥٥، ٢٨٠

قيس بن أبي حازم البجلي الأحمسي ٢٠٨

قيس بن عاصم ١٤١، ١٤٢، ١٦٣

قيس بن هيرة ٢١

الكلج الضبي ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٦١

أبو لبابة ١٣٣

لبيد بن جبر ٢٤٥

أبو ليلى بن لدكي السعدي ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤١،

٢٤٢، ٢٤٦، ٢٨١

مالك بن أبي عبيد بن مسعود ٣٢٧

مالك بن أرس بن الحدان ٤٤

مالك بن زيد الضبي ٢١٦

مالك بن عباد ١٧٤

ابن المثنى الجشمي (جشم سعد) ٤٢٧

المثنى بن حارثة الشيباني ٢١، ١٤٢، ١٤٦، ١٦٢-

١٦٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٨،

١٨٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢١٥، ٢١٨،

٢٢٤، ٢٢٥، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٧٤،

٢٧٥، ٢٨٠، ٣٠٧-٣٠٩، ٣١١،

٣١٦-٣١٨، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٢٧

المثنى بن لاحق ١٩٠

أبر محجن بن حبيب ٣٢٧

محرز بن حريش الحاربي ٢٦٥، ٢٦٧

محمد ضياء الدين الرئيس ١١٥

محمد علي الكبير ١١

محمد بن بشير الأنصاري ٢٠٩

محمد بن سعيد ٦٤

محمد فرج ١٦

محمد بن مسلمة الأنصاري ٢٠٩، ٢٠٤

محمود شيت خطاب ١٦

مذعور بن عدى العجلي ١٦٩، ١٧١، ٢٥٥،

٢٩٣، ٣٠٩، ٣٢٩، ٣٥٠

مرثد بن نجبة الفزاري ٢٦٠

ابن مردى الفهر ٣٥١، ٣٥٢

أبر مسعود عمرو بن عمير الثقفي ١٥٧

مسعود بن حارثة الشيباني ١٦٣، ١٦٧، ٣٠٢،

٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢

مسلمة بن أسلم الأوسي ٣٣٢

المسيب بن نجبة الفزاري ٢٦٠

المضارب بن يزيد العجلي ٢١

مطر الشيباني ٢١، ٣٧١

مطر بن فضة التميمي ٣١٥

ب- الأعاجم

أردشير بن شيرويه ١٧٥، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٧، جابان ١٨٧-١٨٩، ٢١٨، ٣١٣-٣١٨، ٣٢٠، ٣٢١	١٩٣، ١٩٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨
آزاذبه ١٩٤-١٩٦، ٢٠١، ٢١٦، ٢٧٢، ٢٨٦	آزاذبه بن آزاذبه ٢٤٢، ٢٤٩
آزمدخت بنت كسرى ٨٤، ٣٠٤، ٣١٢، ٣١٣	آزمدخت بنت كسرى ٨٤، ٣٠٤، ٣١٢، ٣١٣
اكتون (اللورد) ٢٧	اكتون (اللورد) ٢٧
الأسود العلى ١٢٧، ١٢٩	الأسود العلى ١٢٧، ١٢٩
الإسكندر الأكبر ١٦، ٣٥، ٢٧١، ٢٨٣	الإسكندر الأكبر ١٦، ٣٥، ٢٧١، ٢٨٣
أندرزغر ١٨٣-١٨٥، ١٩٣، ٢٧٥، ٢٨٦، ٣١٩	أندرزغر ١٨٣-١٨٥، ١٩٣، ٢٧٥، ٢٨٦، ٣١٩
اكيدر بن عبد الملك ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٦٢	اكيدر بن عبد الملك ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٦٢
امرؤ القيس بن بشر ٢٤٥	امرؤ القيس بن بشر ٢٤٥
باهان ٢٨٩	باهان ٢٨٩
بجير ٢١	بجير ٢١
بلوفر ٢٤٢	بلوفر ٢٤٢
إياس بن قبيصة الطائي ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٤	إياس بن قبيصة الطائي ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٤
ابن الأيهم ٢٣٥	ابن الأيهم ٢٣٥
باقولف ٢٨٢	باقولف ٢٨٢
بندويه بن بسطام ٣١٦	بندويه بن بسطام ٣١٦
بهرام جوبين ٩٨	بهرام جوبين ٩٨
بهمن جاذويه ١٨٣، ١٨٤، ١٨٧، ١٩٠، ١٩٣، ٢١٦، ٢١٨، ٢٢٧، ٢٧٥، ٣٢٤-٣٢٦	بهمن جاذويه ١٨٣، ١٨٤، ١٨٧، ١٩٠، ١٩٣، ٢١٦، ٢١٨، ٢٢٧، ٢٧٥، ٣٢٤-٣٢٦
بوران بنت كسرى برونز ٨٤، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٧	بوران بنت كسرى برونز ٨٤، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٧
بهرسير ٢١٨	بهرسير ٢١٨
بهرام جور ٢١٨	بهرام جور ٢١٨
تختمس الثالث ١٧، ٢٨٢	تختمس الثالث ١٧، ٢٨٢
تيرويه بن بسطام ٣١٦	تيرويه بن بسطام ٣١٦
تيودريك ٢٥٦، ٢٥٧	تيودريك ٢٥٦، ٢٥٧
جابر بن بجير ١٨٥، ١٨٧	جابر بن بجير ١٨٥، ١٨٧
جالينوس ٣١٩-٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٤	جالينوس ٣١٩-٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٤
جشنسماه ٣١٥	جشنسماه ٣١٥
الجودي بن ربيعة ٢٣٤-٢٣٦	الجودي بن ربيعة ٢٣٤-٢٣٦
الحطم ١٤١، ١٤٢	الحطم ١٤١، ١٤٢
خوكبذ ٣٠٢	خوكبذ ٣٠٢
حبیب (أبي الحسن البصري) ١٨١	حبیب (أبي الحسن البصري) ١٨١
حسان بن عبد الملك ٢٣٥	حسان بن عبد الملك ٢٣٥
حيري بن أكال ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٤	حيري بن أكال ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٤
ابن الخدرجان ٢٣٥	ابن الخدرجان ٢٣٥
حرقوص بن النعمان ٢٤٣، ٢٤٤	حرقوص بن النعمان ٢٤٣، ٢٤٤
دُخت زنان ٣٠٤	دُخت زنان ٣٠٤
ربيعة بن بجير التغلبي ٢٣٧، ٢٤٦	ربيعة بن بجير التغلبي ٢٣٧، ٢٤٦
رستم بن فرخزاد بن بندوان ٣١٢، ٣١٣، ٣١٧	رستم بن فرخزاد بن بندوان ٣١٢، ٣١٣، ٣١٧
٣٢٤، ٣٢٣، ٣٢١، ٣١٩	٣٢٤، ٣٢٣، ٣٢١، ٣١٩
رمسيس الثاني ١٧	رمسيس الثاني ١٧
روزية ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤٦	روزية ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤٦
ابن رومانس الكلبي ٢٣٥	ابن رومانس الكلبي ٢٣٥
روميل ١٥	روميل ١٥
زاذ بن بهيش ٢١٠، ٢١١	زاذ بن بهيش ٢١٠، ٢١١
زومهر ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤٦	زومهر ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤٦
زيد بن عدى ٢٠٢	زيد بن عدى ٢٠٢
سابورين شهربراز ٣٠١، ٣٠٤، ٣١٢، ٣٨٥	سابورين شهربراز ٣٠١، ٣٠٤، ٣١٢، ٣٨٥
٤٤٩	٤٤٩
السمؤل بن عاديا ٢٣٤	السمؤل بن عاديا ٢٣٤
سنمار ١٩٥	سنمار ١٩٥
سياوخش ٣٠٤	سياوخش ٣٠٤

معاوية بن قمرل الخاربي ٢٦٠	معاوية بن قمرل الخاربي ٢٦٠
معبد بن أبي معبد الأسلمي ٢٥٩	معبد بن أبي معبد الأسلمي ٢٥٩
معقل بن الأعشى بن النباش (أبيض الركبان) ١٨١	معقل بن الأعشى بن النباش (أبيض الركبان) ١٨١
معقل بن مقرن المزني ١٧٨	معقل بن مقرن المزني ١٧٨
معن بن حاجز ١٣٤، ١٣٨	معن بن حاجز ١٣٤، ١٣٨
المعنى بن حارثة الشيباني ١٦٣، ١٧٨، ١٨٠	المعنى بن حارثة الشيباني ١٦٣، ١٧٨، ١٨٠
٣٠٢	٣٠٢
المغيرة بن شعبة الثقفي ١٦١، ٢٢٥	المغيرة بن شعبة الثقفي ١٦١، ٢٢٥
المغيرة بن عتيبة بن النحاس العجلي ١٧٢، ١٨٧	المغيرة بن عتيبة بن النحاس العجلي ١٧٢، ١٨٧
٢١٦، ٢١١	٢١٦، ٢١١
المنذر بن حسان الضبي ٣٤٥، ٣٤٨، ٣٥٤، ٣٥٩	المنذر بن حسان الضبي ٣٤٥، ٣٤٨، ٣٥٤، ٣٥٩
المنذر بن ساوى العبدى ١٤٠	المنذر بن ساوى العبدى ١٤٠
المنذر بن قيس الأنصاري ٣٣٣	المنذر بن قيس الأنصاري ٣٣٣
المهاجر بن أمية ١٢٩	المهاجر بن أمية ١٢٩
مهلهل بن زيد الخيل الطائي ١٣٤	مهلهل بن زيد الخيل الطائي ١٣٤
نافع بن غيلان الثقفي ٢٣٦	نافع بن غيلان الثقفي ٢٣٦
النسير بن ديسم العجلي ٢١، ٣٥٠، ٣٧٧	النسير بن ديسم العجلي ٢١، ٣٥٠، ٣٧٧
النعمان بن بشير الأنصاري ٢١٨	النعمان بن بشير الأنصاري ٢١٨
النعمان بن عوف الشيباني ٢١، ٢٤٦	النعمان بن عوف الشيباني ٢١، ٢٤٦
النعمان بن عمرو بن مقرن المزني ٢٢، ١٢٨	النعمان بن عمرو بن مقرن المزني ٢٢، ١٢٨
١٤٦	١٤٦
نهار الرجال ١٣٨	نهار الرجال ١٣٨
هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ٢١، ٢٦٠، ٢٩٣	هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ٢١، ٢٦٠، ٢٩٣
الهذيل الكاهلي الأسدي ٢٠٣	الهذيل الكاهلي الأسدي ٢٠٣
ابن الهذيل الكاهلي ٢١٨	ابن الهذيل الكاهلي ٢١٨
الهزهاز بن عمرو العجلي ٢١	الهزهاز بن عمرو العجلي ٢١
هشام بن الوليد القرشي ٢١١، ٢١٢، ٢١٦	هشام بن الوليد القرشي ٢١١، ٢١٢، ٢١٦
٣٠٩	٣٠٩
هلال بن علفة التيمي (تيم الرباب) ٣٤٥، ٣٤٨، ٣٦١	هلال بن علفة التيمي (تيم الرباب) ٣٤٥، ٣٤٨، ٣٦١
ابن هوير الضبي ٣٤٥، ٣٤٨، ٣٥٤	ابن هوير الضبي ٣٤٥، ٣٤٨، ٣٥٤

ودیعة الکلیی ۲۳۵
ویفل ۱۲
یادین ۱۲
یزدجرد الثالث بن شهریار بن کسری برویز ۶، ۱۰۲،
۳۸۴، ۳۱۲

شهربراز بن أردشیر ۱۰۱، ۲۱۷، ۳۰۲، ۳۰۴
شهریار بن کسری ۱۰۲
شیرزاد ۲۲۶، ۲۲۷، ۲۸۴، ۳۵۵
شیرویه بن کسری برویز (وهو قباد الثاني) ۸۴، ۱۰۲،
۱۰۳، ۱۷۵، ۱۷۹، ۲۱۸، ۳۸۴
شیرین ۹۸، ۱۰۱
الشیماء بنت نفیلة ۲۰۹
صلوبا بن نسطونا بن بصهری ۲۱۰، ۲۱۱، ۲۱۶
عبد الأسود ۱۸۵، ۱۸۷، ۱۸۹
عدی بن عدی بن المقتول ۲۰۱، ۲۰۲
عمرو بن المسیح ۲۰۱-۲۰۵
عقة بن أبی عقة ۲۳۰-۲۳۲، ۲۳۶، ۲۴۶
عمر بن الصعق ۲۳۲
عتاب بن فلان ۲۴۴، ۲۴۷
عبد الله بن جدعان ۴۴
فرخبنداذ ۲۱۸، ۲۳۲
فرخزاد بن بندوان ۲۱۸، ۳۰۴، ۳۱۲
فروخ ۳۱۹
فرونداذ ۳۱۹
فریدریک الأكبر ۲۴۲
فیرزان ۳۳۴، ۳۴۷، ۳۸۳، ۳۸۴
فیقار ۲۵۶
قارن بن قریانس ۱۷۹-۱۸۱
قباد ۲۳، ۱۷۵، ۱۸۱
کریستنسن ۱۹۵، ۳۱۸
کامورزاد ۱۸۷
کسری أنوشروان ۴۳، ۹۱، ۹۳، ۹۴، ۹۷، ۹۸،
۱۱۶، ۲۱۸
کسری برویز ۹۸، ۱۰۰
کوکبذ ۳۰۲
الکلبی ۱۴
مُجاعة ۱۳۸
الحکم ۱۳۸
مردانشاه بن بهمن ۳۲۴، ۳۲۷، ۳۵۰
مردانشاه الخصى ۳۱۵، ۳۲۵
مرة ۲۱۶
مسيلمه الکذاب ۲۰، ۱۲۷، ۱۳۸، ۱۳۹، ۱۶۷، ۲۵۳
مالک بن قیس ۱۸۷
مالک بن نويرة ۱۲۸، ۱۳۷، ۱۳۸
قبيصة بن إياس بن حية الطائي ۲۰۲
الصهباء بنت ربيعة بن بجير ۲۴۷
عبادة بن البشر ۲۴۵
قیس بن بشر ۲۴۵
قمییز ۲۷۱
مهبوذان ۲۴۰، ۲۴۱
مهران بن باذان الهمدانی ۳۴۷
مهران بن بهرام جوبین الرازی ۲۳۰-۲۳۲،
۲۸۷، ۳۴۷-۳۵۰، ۳۵۴
نابلیون بونابرت ۱۲، ۲۷۶، ۲۸۳
نرسی ۳۱۳، ۳۱۴، ۳۱۶، ۳۱۸، ۳۲۱
النعمان بن المنذر ۴۳، ۱۹۵، ۲۰۲
هبرت ایسن-الدكتور ۱۴
هتلر ۲۷
الهذیل بن عمران ۲۳۱، ۲۴۱، ۲۴۴
هرقل ۱۰۰، ۱۰۲، ۱۵۶، ۲۵۶، ۲۸۹
هزقیل ۲۱۶
هلال بن عقة ۲۴۸
هرمز ۱۷۳، ۱۷۵-۱۷۷، ۱۸۰، ۱۸۹، ۲۷۲،
۲۷۸، ۲۷۹، ۲۹۹، ۳۰۴
هوذة بن علی الحنفی ۴۳

فهرس البلدان والأماكن

أذربيجان ١٠٠	بحر العجم ٣٢
الأبلة ١٦٨، ١٧٧ - ١٧٩، ٢٢٢، ٢٣٢، ٢٧٢، البحرين ٣٤، ٣٧، ١٢٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٣،	بذارق ٣١٦
٢٧٣، ٢٧٥، ٢٨٥	البردان ٢٤٢
الأحساء ٣٤	برس ٣٠٤
الأردن ٦، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٩٢	بزاخة ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦
أرك ٢٦٣	بسرسي ٣١٩
أرمينيا ٩٩، ١٠٤	بسم ٢١٢، ٢١٤
اصطخر ٨٣، ٣٨٤	البسوس (بسوسيا) ٣٥٠
أليس ١٨٧، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٦، ٢٠٩، ٢٧٦،	البشر ٢٣٧، ٢٤٤، ٢٤٦
٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٧، ٣٣٠، ٣٣٩، ٣٧١	البصرة ٣٢، ٣٨، ١٦٢، ١٧٠، ١٧٣-١٧٥،
أمغيشيا (وهى منيشيا) ١٩٢-١٩٤، ٢٠٤،	الأنبار ٢١، ٢٥، ١٩٩، ٢٢١، ٢٢٦-٢٣١،
٢٧٩	١٧٩-١٧٧
بصرى ٢٦٣	٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٧، ٢٨٦، ٢٨٧، ٣٤٢،
٣٥٥، ٣٧١-٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨٤	البطاح ١٢٨، ١٣٧، ١٣٨
انطاكية ٩٩	بقايس ٣٢١
الأهواز ١٧٥، ١٧٩، ١٨٢، ٢٧٥، ٢٨٧،	بعلبك ٢٦٣
أيلة ٢٥٦	بغداد ٢٣١، ٢٣٦-٢٣٨، ٣٧٣-٣٧٥،
باب المنذب ٣١	٢٨٠
بابل ٣٠٢، ٣٠٣، ٣١٨، ٣٢٤	بهر سير ٢١٦، ٢١٨
بادوريا ٢٢٦	البهقباذ ٢١٢، ٣١٣، ٣٨٦
بارق ٣١٦، ٣٤٤، ٣٤٥	بهمن أردشير ١٧٣
باروسما ٢١٢، ٣٠٢، ٣١٦، ٣١٨، ٣١٩	البوازيج ٢٢٩
باقسياثا ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٤	البويب ٣٤٧ - ٣٥٠، ٣٥٤-٣٥٩، ٣٦٣،
بانقيا ٢١٢، ٢١٤، ٢١٨، ٣٠٢	٣٦٤، ٣٦٦
بانورا ٢١٤	بيان ١٧٢
البحر الأحمر ٣١	تدمر ٢٦٣، ٢٦٤

بيتيق ٣١٩	حصن مارد ٢٣٤
بير سيع ١٣	الحفير ١٧٤، ١٧٥، ١٨٢، ٢٠٨
تبوك ٢٠٩، ٢٣٤، ٢٦٢	حلب ٩٩
تدمر ٢٦٤	حماء ٢٩٤
تستر ٢١٨، ٢١٤	الحماة ٢٤٦
تكريت ٣٨٤	حمص ٢٥٦، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤
تل أبيب ١٣	الحنانات ١٤١
تهامة ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٧، ١٢٩، ٢٤٧، ٢٤٨،	الحنى ٢٤٢
تيماء ٣٨	حوارين ٢٦٣
الثنى ٢٣٢، ٢٣٧، ٢٤٦، ٢٧٦، ٢٧٨	حوران ٣٨، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٥٤، ٢٦٣
ثنية العقاب ٢٦٣	الحيرة ٢١، ٢٤، ٣٧، ٤٣، ١٢٣، ١٤١، ١٦٧،
الجابية ٢٦٣، ٢٩١	١٦٨، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٤-١٩٧، ١٩٩-
الجيل ١٧٩، ١٧٥	٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٠-٢١٣، ٢١٨، ٢٢١-
جبل طارق ٢٨٣	٢٢٤، ٢٢٨، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤١، ٢٥٠،
جزيرة العرب ٣١، ٣٤، ٣٥	٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٧٢-
الجسر ٣٢٣	٢٧٦، ٢٨٤، ٢٨٥، ٣١١، ٣١٢، ٣١٤،
الجسر الأعظم ١٧٧	٣٢١، ٣٢٤، ٣٢٦
الجناب ٢٤٢	الخابور (نهر) ٢٦٣
جوانا ١٤١	خراسان ٣١٣
الجوارف ٢٠٩	الخريبة ١٧٨، ١٨٢
الجوف ٣٤٨	خفان ١٧٠، ١٧٤، ٣١٤، ٣١٥، ٣٤٨
حائل ٣٤	الخليج العربى ٣٢
الحجاز ٣٣، ٣٤، ١٦٨، ٢٥٧، ٢٦٢، ٣٠٧، ٣٠٨،	الحنافس ٢٣٦ - ٢٤٠
حديقة الموت ١٣٩	خندق سابور ٢٧١
الحزن ١٣٧	الخورنق ١٩٣، ١٩٥، ١٩٩ - ٢٠١
حصن الرجل ١٧٨	خيبر ٣٨
حصن المرأة ١٧٨	الخيف ٣٣٣
حصيد ٢٣٦-٢٤٤	دار الرزق (شوميا) ٣٥٠
حران ٩٩	دارين ١٤١، ١٤٢
حضر موت ٣٤، ١٢٩	دجلة ٣٧، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٢، ١٩٣، ١٩٤،

٣٢٤	٢١٠، ١٩٩، ١٩٦، ١٦٨، ١٦٧، ١٢٠
فرات بادقلى ١٩٢، ١٩٤، ١٩٥، ٣١٤	٢١٤، ٢٢١، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٥٣، ٢٥٩
فرات سوريا ٢١٠	٢٦٠، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٥، ٢٨٣، ٢٩٠
الفراض ٢٢١، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٤	٣٠٢، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣١٣، ٣١٤
الفلايح ٢١٠، ٢١٤، ٣٠٢	العروض ٣٤، ٣٥
فلسطين ١٣، ١٤، ٢٩٢	العريش ١٢، ١٣
الفلوجة ٢١٤، ٢٢٣، ٢٣٠	العزافات ١٤١
فيد ١٣٤	عسلوج ١٣
القادسية ٦، ٢٤، ٥٤، ٦٥، ١٠٦، ٣١٤، ٣٣٤	العقبة ٣١
٣٤٨، ٣٦٦، ٣٨٧، ٣٨٨	العقر - عقر سويد ٢١٤
القدس ١٤	عقرباء ١٣٨، ١٣٩
القاهرة ٣٢	العلمين ١٦
قراقر ٣٤، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧	عمان ٣٤، ١٢٩، ١٣٨
القريتين ٢٦٣	عقروقوف ٣٧٤
قرقيسياء ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٧	العنبري (ماء العنبري) ٢٥٤
قس الناطف ٢١٠، ٢١١، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٦	العوجة ١٣
قسيانا ١٨٧، ١٨٨	عين التمر ١٩٩، ٢٢١، ٢٣٠، ٢٣٨، ٢٤٢
القصر الأبيض ١٩٥، ٢٠١، ٢٠٢	٢٤٧، ٢٦١، ٢٦٦، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٨٦
قصر بن بقليلة ٢٠١، ٢٠٢	٢٨٦، ٣٧٧
قصر العدسين ٢٠١، ٢٠٢	الغريين ١٩٥، ٢٠١
قصر بنى مازن ٢٠١، ٢٠٢	غزة ١٣
قصر ٢٦٣	غضى ٣٨٥
قطر بل ٢٢٦، ٣٧٨	غوطه دمشق ٢٦٣
القطقطانة ١٩٩	فارس ١٢٠، ١٧٥، ١٧٩، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٢
القطيف ١٤١	فحل ٢٩٢، ٢٩٣
القلت ٢٤٢	الفرات ٣٧، ١٠٥، ١٦٧، ١٦٩، ١٨٢، ١٨٧
قنشرين ٢٩٤	١٩٤، ١٩٥، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٥
كاظمة (الكواظم) ٣٧، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٠	٢٣٢، ٢٥٤، ٢٦٣، ٢٦٧، ٢٧٣، ٣٠٢

السماوة ٣١، ٣٣، ٣٧، ١١١، ٢٠٦، ٢٥٤	٢١٤، ٢١٥، ٢٢٩، ٢٥٨، ٢٧٤-٢٧٦
٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٥	٣١٣، ٣٠٤
سنگافورة ٢٨٣	درتا ٣١٦
سنير ٢٦٣	درنى ١٨٠
سواد العراق (السواد) ١٨٢، ١٨٣، ١٩٢	دست ميسان ١٧٣، ٣٦١، ٣٧٩
١٩٩، ٢٠٥، ٢١٦، ٢٢٢، ٣٠٧، ٣١٣	دمشق ٦، ٢٠٦، ٢٣٤، ٢٨٣، ٢٩٢
٣١٨، ٣٤٨	دنكر ١٦
سوريا ٦، ٢٨٣، ٢٨٩	الدهناء ٣٤، ١٤١، ١٤٣
سوى ٢٦١-٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٧	دومة العراق ٢٦٢، ٢٦٤
السيب ٢١٥، ٣١٣	دومة الجندل ٣١، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣٢
الشام ٣١، ٣٧، ١١١، ١١٩، ١٢٠، ٢٠٠	٢٣٧، ٢٤٠، ٢٥٥، ٢٦١-٢٦٥، ٢٧٧
٢٠٥، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٧	٢٧٩-٢٨١، ٢٨٦
٢٩٤، ٣٠٦	دير الأعور ٣٥٠
الشحر ٣٤	دير هند ٣٤٨
شوميا (دار الرزق) ٣٥٠	ذو عرق ٢٥٤
شط العرب ٣٧، ١٨٢، ٢٧٤	ذو قار ٢٦٤، ٢٧١، ٣٤٤، ٣٨٥
صحراء النفود ٣٥	ذو قصة ١٣٣، ١٣٨، ١٨٢
الصد ٢٥٤	الرصافة ١١٢
صفين ٣٧٦	الرضاب ٢٤٨، ٢٤٩
صندوداء ٣٣٣	الرنق ٢٤٦
صنعاء ١٢٩	الرها ٤٠٠
الطائف ٣٣، ٣٨، ٢١٣	روزمستان ٢١٤
طبرية ٢٩٣	الزميل ٢٣٢، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٧٦
طريق الصد ٢٥٤	زندورد ١٨٠، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٩
الظهر ٢٣٧	الزوايى ٣١٦، ٣١٨، ٣١٩
العاقول ٣٢٤	ساباط ٢٢٦، ٣٨٤
العال ٣٧٥	سد مأرب ٣٤، ٣٦
العتيق (نهر العتيق) ١٩٤، ١٩٥	السدير ٢٠٨
العراض ١٦٨	السقاطية ٣١٦، ٣١٧، ٣٢٠، ٣٢١
العراق ١٦، ٢٠، ٢١، ٣٧، ٨٣، ١٠٤، ١١١	السكون ٣٥٠

٢٨٣، ١٢٠، ٦ مصر ، ٢٧٩، ٢٧٧، ٢٧٦، ٢٧٤، ٢٧٢، ١٩٣
المصيخ ٢١١، ٢٣٢، ٢٣٧، ٢٤١-٢٤٧، ٢٧٢، ٢٨٥
٢٩٠
المعرة ٢٩٤
المقر ١٩٤-١٩٦، ٢٧٢، ٢٧٦
مكة ٣٣، ٣٥، ٣٧، ١٣٦، ١٥٩، ٢٥٣، ٢٥٤
الملطاط ٢١٠، ٢٢٦، ٣٤٨، ٣٥٠
ممر عرونا ١٤
مؤنة ٥٣، ١٥٧، ١٥٨
ناجازاكي ٢٨١
ميسان ١٧٩
النباج ٢١، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٩
١٩٣، ٢٧٣، ٢٧٧
النجف ٢٤، ١٩٥، ١٩٩
النجيلة ٣٤٧
النمارق ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣٢١
نهر أظ ٢١٤
نهر جوير ٣١٦، ٣١٨، ٣١٩
نهر الدم ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠
نهر بنى سليم ٣٥٢
نهر المرأة ١٧٨
النهرين ٢٣٦، ٢١٤، ٢٣٠، ٣٤٨
هجر ١٤١
هرمز جرد ١٨١، ٢١٠
هوافي ٣٩٠
هيت ٣٧، ١٩٩، ٢٥٤، ٢٦٧، ٢٧٦
هيروشيما ٢٨١
وادي الرمة ٣٤، ٣٨
٢٧٩، ٢٧٧، ٢٧٦، ٢٧٤، ٢٧٢، ١٩٣
٢٨٥
الكباث ٣٧٥، ٣٧٦
كربلاء ٢١٥، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٢
الكرخ ٢٣١
كسكر ١٦٧، ١٨٠، ٢١٠، ٣١٣، ٣١٦-٣١٩
٣٧١
كلواذي ٢٢٩
الكواثل ٢٦٣، ٢٦٧
الكوفية ٢٤، ٣٨، ٤٢، ١٩٩، ٢١٤، ٢٣٤
٢٣٧، ٢٥٤، ٣٤٨
الكويقة ٢١٤
لبنان ٦
ماء العنبري ٢٥٤
مالطة ٢٨٣
مثقب ٢٥٤
المسدائن ٤٣، ١٨٢، ١٨٧، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٩
٢١٥-٢١٨، ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٦
٢٥٧، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٨٦، ٣٠٣، ٣١٢
٣١٧، ٣١٨، ٣٢٢-٣٢٤، ٣٣٥، ٣٣٦
٣٤٧، ٣٧٣، ٣٧٩، ٣٨٣
المدينة ٣٣، ٣٦، ٤٢، ١١٩، ١٣٦، ١٣٨
١٤٠، ٢٣٤، ٢٦٢، ٣٠٥
المدار ٢٣، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٣
٢٧٤-٢٧٦
مرج راهط ٢٦٠، ٢٦٣
مرج السباخ ٣٤٤، ٣٤٨
المروحة ٣٢٥، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٤١، ٣٤٦

وادي زبيد ٣٤
وادي مور ٣٤
وادي المقرى ٣٨
وادي الوبر ١٣٩
واسط ١٧٩، ٣١٧
واقصة ٢٥٧
الولجة ١٨٤، ١٨٥، ١٩٣، ٢٧٨، ٢٨٦
اليرموك ٦، ١٥، ٥٢، ٢٥٧، ٢٨٩، ٢٩٢، ٣٠٨
اليمامة ٢٠، ٣٤، ٣٧، ٤٣، ١٢٨، ١٣٨، ١٦٧
١٧٠، ١٧٣
اليمن ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٤٣، ١١٩

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الطبعة المصرية	٤٨	الاتصالات الخارجية
٧	الجزء الأول	٤٨	حروب العرب
٩	الباب الأول	٥٠	التعبئة
	المقدمة ومنهج البحث	٥١	الكر والفر
١١	الحروب في التاريخ	٥٢	الخنادق
١٥	التاريخ والفتوح	٥٣	معارك الإسلام الأولى
١٨	منهجنا	٥٥	الباب الثالث
١٨	تاريخ الطبرى	٥٥	عدة الحرب
١٩	مصادر أخرى	٥٧	الخيال والفروسية
٢٠	القبائل وحدات مقاتلة	٦٢	التدريب على الخيل
٢٣	التعبئة عند الرواة	٦٣	أدوات الحرب عند العرب
٢٤	خرائط الفتح	٦٣	السيف
٢٤	خلفية لا بد منها	٦٥	الرمح
	الباب الثانى	٦٧	القوس والسهام
٢٩	شبه الجزيرة	٧١	الدرع
٣١	آثارها على الفتح	٧٣	أدوات أخرى
٣١	جغرافيتها	٧٣	(المنجنيق، الدبابات)
٣٦	العرب	٧٤	الرايات والإعلام
٣٦	قبائل العرب	٧٧	ركوب البحر عند العرب
٣٦	قحطان	٧٨	مصادر السلاح للعرب
٣٧	عدنان	٨١	الباب الرابع
٤٢	البيئة العربية	٨١	الدولة الساسانية
٤٢	القبيلة	٨٣	بنو ساسان
٤٣	القوافل	٨٥	طبقات المجتمع الفارسي
٤٤	النار والطعام	٨٥	الملوك
٤٦	ملابس العرب	٨٥	الأشراف
٤٧	الإبل والبيوت	٨٦	رجال الدين

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٨٧	رجال الحرب	١٢٧	تمهيد
٨٨	الكتاب - الدهاقين	١٢٨	جيوش حروب الردة
٨٨	الشعب	١٣٠	منشور الخليفة إلى القبائل
٨٩	النظام الحربى للفرس	١٣١	تعليمات إلى قادة الجيوش
٩٤	المجوسية	١٣٣	عمليات الجيش الأول.. الرابع
٩٧	فارس قبيل الفتح	١٣٣	خالد يجتاح بنى أسد
٩٧	بين الفرس والروم	١٣٥	قبائل القت السلاح
٩٧	كسرى أنو شروان	١٣٧	حدث فى تميم
٩٨	بعد أنو شروان	١٣٨	ردة بنى حنيفة
٩٩	سورة الروم	١٤٠	عمليات الجيش السابع
١٠٠	كسرى برويز	١٤٠	الردة فى البحرين
١٠٢	بعد برويز	١٤١	العلاء يتحرك
١٠٤	العراق	١٤٣	العلاء يفتح دارين
١١٣	الباب الخامس	١٤٤	أثار حروب الردة
١١٣	المقاييس	١٤٤	١- لزوم فتح جبهة جديدة
١١٥	وحدات القياس	١٤٤	٢- طاقات جاهزة للتعبئة
١١٥	المسافات والأطوال	١٤٥	٣- تدريب لا بد منه
١١٦	المساحات	١٤٥	٤- ظهور قيادات حربية
١١٦	المكاييل	١٤٧	٥- ثقة فى النظام وقدراته
١١٧	الموازن	١٤٩	الباب السابع
١١٧	النقود - الدينار	١٤٩	حملة خالد بن الوليد
١١٨	الدرهم	١٥١	القائد العام خالد بن الوليد
١١٩	تطور النقد العربى	١٥٢	أثر قريش فى خالد
١٢٢	التقويم	١٥٣	أثر أحد فى خالد
١٢٣	الجزء الثانى	١٥٥	خالد مع الأحزاب
١٢٣	الباب السادس	١٥٥	إسلام خالد
١٢٣	مدخل إلى الفتوح	١٥٧	فى مؤته
١٢٥	مع الردة	١٥٩	فتح مكة

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٥٩	بعد مكة	١٩٢	فتح بلا فتال
١٦٢	المتن بن حارثة	١٩٣	أيام
١٦٥	الباب الثامن	١٩٤	معركة المقر
١٦٥	اكتساح العراق الجنوبي	١٩٤	الطريق النهري إلى الحيرة
١٦٧	غارات للمثنى	١٩٥	المياه في مجاريها
١٦٧	خطة أبي بكر لغزو العراق	١٩٥	مرزبان الحيرة ومعركتها
١٦٩	جيش الفتح يحتشد	١٩٧	الباب التاسع
١٧٢	ذات السلاسل	١٩٧	فتح الحيرة
١٧٢	يبدأ بالابلة	١٩٩	إمارة الحيرة
١٧٣	إعلان الحرب	٢٠١	خالد في الحيرة
١٧٦	الماء لا كرم الجندين	٢٠٢	استسلام الحيرة
١٧٦	خطة غادرة لهرمز	٢٠٤	صلح الحيرة
١٧٧	اخضاع المنطقة	٢٠٥	رواية من فتح الحيرة
١٧٩	معركة المذار	٢١٠	أثار فتح الحيرة
١٧٩	موقع المذار	٢١٠	الحيرة مادياً ومعنوياً
١٧٩	تحرك ساساني مضاد	٢١٠	معاهدات صلح
١٨١	ثلاثون ألف قتيل	٢١٤	الحماية والحماية
١٨١	واجبات المؤخرة	٢١٦	رسائل إلى العجم
١٨٣	كمين في الولجة	٢١٩	الباب العاشر
١٨٣	تحرك ساساني جديد	٢١٩	خالد يقوم بمهمة عياض
١٨٤	خالد يفلت من الكماشة	٢٢١	سنة نساء
١٨٤	كمين رهيب	٢٢١	إعادة تنظيم
١٨٧	أليس ونهر الدم	٢٢٣	خالد يتحرك
١٨٧	عرب مع الخوس	٢٢٦	معركة بالانبار
١٨٩	هجوم سريع من خالد	٢٢٧	المعركة
١٨٩	نهر من الدم	٢٢٧	استسلام
١٩٢	امغيشيا	٢٣٠	عين التمر
١٩٢	مصر كبير	٢٣٠	عجم خبثاء وعرب عملاء

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٣١	المعركة	٢٣١	(تحليل ونقد)
٢٣٤	فتح دومة الجندل	٢٣١	مفاجأة استراتيجية
٢٣٤	السير إلى دومة الجندل	٢٣٢	مفاجآت تكتيكية
٢٣٥	تقيم تجير كلباً	٢٣٣	تأمين الحملة
٢٣٥	سقوط الحصن	٢٣٥	مخابرات يقظة
٢٣٦	حشود معادية بالعراق	٢٣٦	مبادرة ومبادرة
٢٣٧	القعقاع يتحرك	٢٣٧	توفير الحشد والمرونة
٢٣٧	خالد يعود	٢٣٧	اختيار التكتيك
٢٤٠	حصيد	٢٣٧	استغلال النجاح
٢٤١	الخنافس	٢٣٧	القيادة والإدارة
٢٤٢	المصبيح	٢٣٧	خالد والقسوة في الحرب
٢٤٤	حدث في هذه الغارة	٢٣٧	رأى لمؤلف
٢٤٦	الثنى والزميل	٢٣٧	الاستراتيجية والتكتيك الفارسي
٢٤٩	الفراض	٢٣٧	عجز المخابرات
٢٥١	الباب الحادي عشر	٢٣٧	المواجهة المباشرة
٢٥١	ختام مرحلة	٢٣٧	سوء التوقيت
٢٥٣	خالد يحج	٢٣٧	معنوية منهارة
٢٥٥	هل أخطأ خالد؟	٢٣٧	فقدان التجانس
٢٥٦	مفاجأة لخالد	٢٣٧	خالد بعد العراق
٢٥٦	ماذا في الميدان الغربي	٢٣٧	اليرموك
٢٥٧	احتاج الشام إلى خالد	٢٣٧	عزل خالد لأسباب إدارية
٢٥٩	رحيل ورحلة	٢٣٧	بعد اليرموك
٢٥٩	إعداد للرحيل	٢٣٧	فتح دمشق
٢٦٠	الخروج	٢٣٧	فحل
٢٦١	الطريق	٢٣٧	سقوط حمص
٢٦٥	دليل من السماء	٢٣٧	اللاذقية ثم قنسرين
٢٦٩	الباب الثاني عشر	٢٣٧	يموت على فراشه
٢٦٩	هذه الحملة	٢٣٧	صفاء مع عمر

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٩٧	الجزء الثالث	٣٢٥	أبو عبيد يخالف مستشاريه
٢٩٩	الباب الثالث عشر	٣٢٦	المعركة
٢٩٩	حملة أبي عبيد	٣٢٨	استشهاد أبي عبيد
٣٠١	عود إلى العراق	٣٢٩	المثنى يقود المعركة
٣٠٢	معركة بابل	٣٣١	الخبر في المدينة
٣٠٤	فتنة في البلاط الفارسي	٣٣٥	هذه المعركة
٣٠٥	أبو بكر يحتضر	٣٣٥	١- فتنة المدائن ودورها
٣٠٥	مشروع جديد للمثنى	٣٣٥	٢- قيمة القيادة
٣٠٥	وفاة أبي بكر	٣٣٦	٣- الحماس المجرى
٣٠٧	أبو عبيد في العراق	٣٣٦	٤- معنويات مدهشة
٣٠٧	دعوة إلى الجهاد	٣٣٦	٥- البطولة لا الفتنة
٣٠٧	استجابة	٣٣٩	الباب الرابع عشر
٣٠٩	هفوة عظيم	٣٣٩	قيادة المثنى
٣١١	وصية عمر	٣٤١	اليس الصغرى
٣١٢	في بلاط فارس	٣٤٢	بجيلة وحشود أخرى
٣١٣	تقدير الموقف	٣٤٢	عمر يجمع بجيلة
٣١٣	انتهاء الهدنة	٣٤٣	جرير أمير بجيلة
٣١٤	معركة التمارق	٣٤٤	حشود أخرى
٣١٤	انسحاب	٣٤٧	معركة البويب
٣١٤	المعركة	٣٤٧	جيش الفرس من الفرسان
٣١٦	معركة السقاطية	٣٤٧	تحرك سريع للمثنى
٣١٦	مطاردة	٣٤٨	جيش المثنى
٣١٧	مبادرة من أبي عبيد	٣٥٠	درس من الجسر
٣١٨	مطاردة	٣٥١	مسلمون فقط
٣١٩	هدايا من الأطعمة	٣٥٢	المثنى في جنده
٣٢٠	معركة باقسيانا	٣٥٢	المعركة
٣٢٣	معركة الجسر	٣٥٧	مؤتمر بعد المعركة
٣٢٣	تجهيز كبير	٣٥٩	نوع من النساء

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٦٠	مطاردة	٣٨٧	القادسية في التاريخ
٣٦٢	هذه المعركة	٣٨٧	المعارك الحاسمة
٣٦٢	رد اعتبار	٣٨٧	القادسية معركة حاسمة
٣٦٢	ثلاث أدوات للنصر	٣٨٩	ترجمة مشاهير قادة الفتح
٣٦٤	درس من الخطأ	٣٨٩	الأقرع بن حابس
٣٦٤	المعركة مدرسة	٣٩١	بشير بن سعد الأنصاري
٣٦٥	علم النفس العسكري في الموقعة	٣٩٢	جرير بن عبدالله البجلي
٣٦٦	معنوية القاعدة	٣٩٥	الحارث بن حسان
٣٦٦	آثار البويب	٣٩٥	عبدالله بن أبي أوفى الأسلمي
٣٦٧	الباب الخامس عشر	٣٩٦	عدى بن حاتم
٣٦٧	عمليات الأسواق	٣٩٨	عمير بن سعد الأنصاري
٣٦٩	أسواق العراق	٣٩٨	عياض بن غنم
٣٧١	غارة على سوق الخفافس	٤٠٠	غالب بن عبدالله
٣٧٣	وغارة على سوق بغداد	٤٠١	قرات بن حيان العجلي
٣٧٥	وغارة على الكياف	٤٠٢	الققعاق بن عمرو التميمي
٣٧٦	وغارة على صفين	٤٠٤	محمد بن مسلمة
٣٧٧	وغارات أخرى للمثنى	٤٠٧	مراجع البحث
٣٧٩	هذه الغارات	٤١٣	فهرس الخرائط والأشكال
٣٧٩	استغلال نجاح (المطاردة)	٤١٥	فهرس الأعلام
٣٧٩	المفاجأة	٤١٥	أ- المسلمون
٣٨٠	حساب وتوقيت	٤٢١	ب- العجم
٣٨٠	أهداف مختارة	٤٢٤	فهرس البلدان والأماكن
٣٨١	شعب منهزم	٤٣٠	محتويات الكتاب
٣٨٢	الحرب الحاطفة		
٣٨٣	آثار داخلية		
٣٨٣	رد فعل		
٣٨٤	تولية يزدجرد		
٣٨٤	انسحاب		

المؤلف في سطور

- مصرى من مواليد القاهرة ١٩٢٦ .
- بكالوريوس تجارة جامعة فؤاد الأول ١٩٤٦ .
- البنك الأهلى المصرى ١٩٤٦-١٩٧٩ ، مدير عام .
- بنك فيصل الإسلامى المصرى حتى أغسطس ١٩٨٧ ، نائب المحافظ .
- المصرف الإسلامى الدولى حتى فبراير ١٩٨٩ ، عضو مجلس الإدارة والعضو المنتدب .
- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ١٩٧٩ .
- عضو نادى الأهرام للكتاب .

كتب أخرى للمؤلف

- علوم القرآن .
- حجر رشيد والهيروغليفية .
- النعمان ابن مقرن المزنى - من أعلام الفتوح الإسلامية .
- طليحة بن خويلد الأسدى - من أعلام الفتوح الإسلامية .
- محمد ابن مسلمة الأنصارى - من أعلام الفتوح الإسلامية .
- عدى ابن حاتم الطائى - من أعلام الفتوح الإسلامية .
- أطلس تاريخ القاهرة .
- أطلس الفتوح الإسلامية .
- النقط فوق الحروف .
- التقويم الهجرى والميلادى لسنى الفتح .
- الكويت من جزيرة العرب .